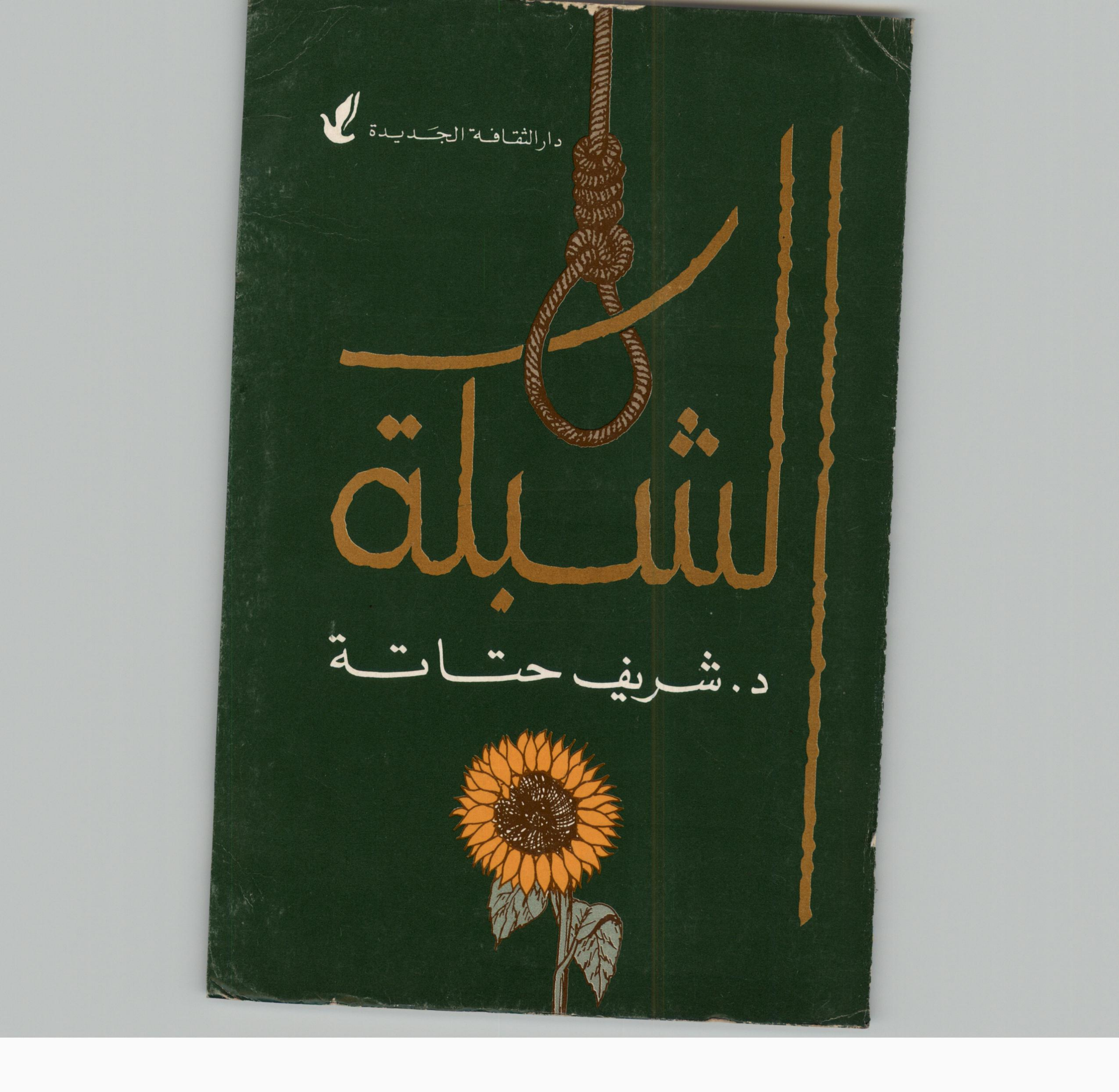

دار الثقافة الجديدة
الشبكة
د. شريف حتاتة





الشبكة

الشبَكة

رواية

الناشر
دار الثقافة الجديدة
٣٢ ش صبرى أبو علم القاهرة
ت : ٣٩٢٢٨٨٠

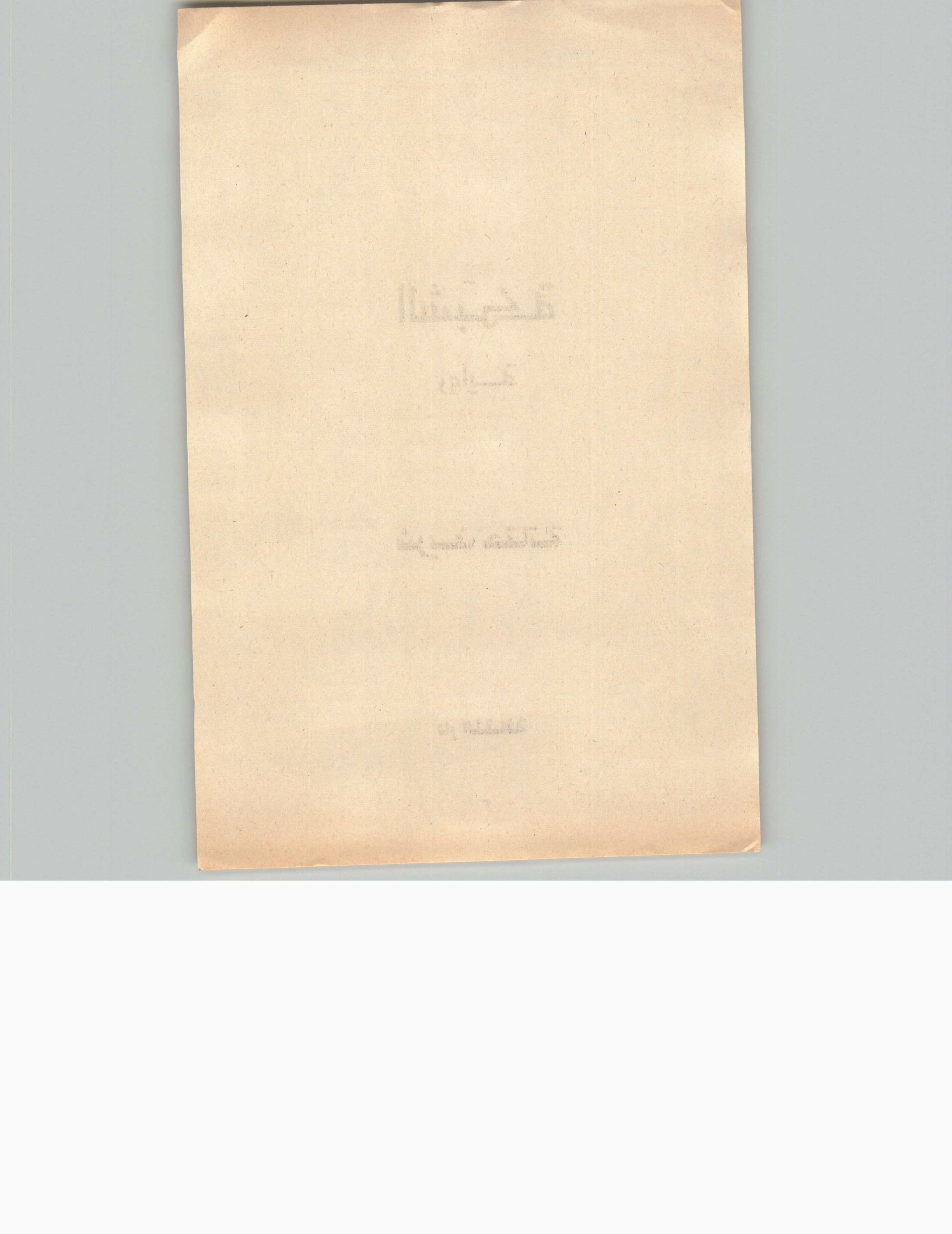
صف : سعيد أبو مسلم

الشبَكة

رواية

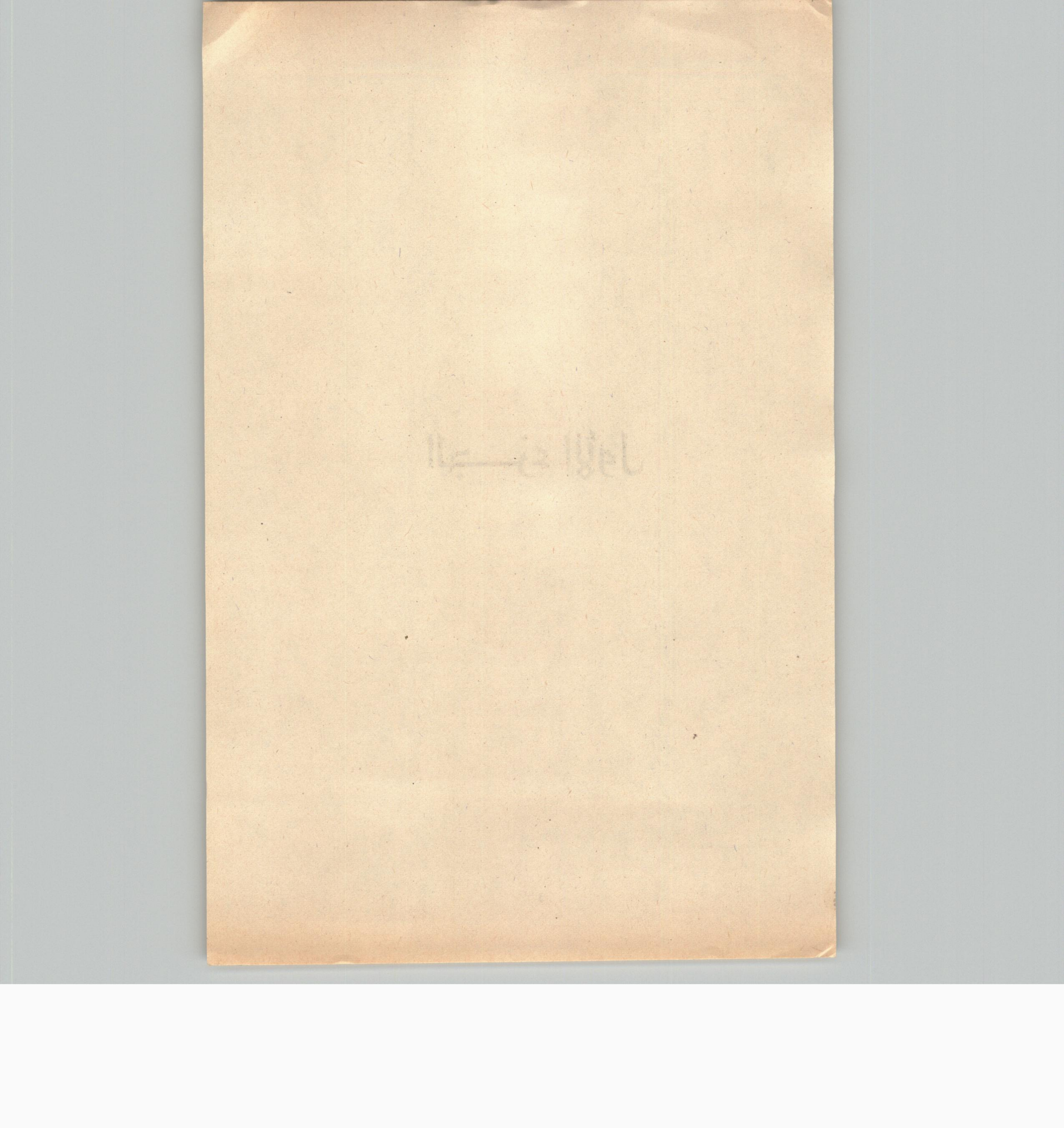
شريف حتاتة

دار الثقافة





الجزء الأول



عندما جلست فى ذلك الصباح أمام مائدة الإفطار كانت الشمس فى الخارج ساطعة تضىء الكون، وتنعكس على زجاج النوافذ، وتسقط على المنازل، والأشجار والشوارع والناس لتبدد بقايا النوم المتراكم أثناء ساعات الليل ... فنجان الشاى بين أصابعى يلسع أطرافها... أرتشف منه ببط، فيسرى السائل الساخن بين شفتى، وفوق لسانى، ويهبط بالتدريج خلف ضلوعى ليصل إلى معدتى... أحس به كالإشعاعات تتسلل من بؤرة هلامية تحت الحجاب الحاجز إلى العضلات، والعظام، والأنسجة لتعيد إليها وجودها، وقدرتها على الحركة.

من أسفل العمارة تصعد أصوات السيارات، وتملأ الجو بضجيجها المعتاد... فمنذ ساعات استيقظت المدينة على يوم رائع، مشرق من تلك الأيام التى تعرفها «القاهرة» أحيانا فى فصل الصيف.

الشقة التى أسكن فيها منذ أكثر من سنتين تطل على النيل بجوار كوبرى الجامعة. من النوافذ العريضة أرى مياهه الهادئة تنساب بين الضفاف بثبات لا يطرأ عليه تغيير سوى ارتفاع أو انخفاض طفيف عندما تفتح أو تغلق البوابات فى «أسوان»، أو مئات من الأمواج الصغيرة تتسابق فوق سطحه عندما تهب الرياح فى موسم «الخماسين»، وتلف المدينة بسحب من الرمل الأصفر.

فوق النوافذ ستائر طويلة زرقاء عليها طيور وزهور مطرزة بدقة تنطق بالمهارة... أحضرتها معى من «كاشمير»... أتذكر الجبال الشاهقة تغطيها خضرة

الربيع، وثمار التفاح تتدلى بالآلاف من فروع الشجر، والسمك كالسهام الفضية اصطدناه من النهر المتدفق بزبده الأبيض، والشرفة العريضة تطل على الشلال، نجلس عليها ونستنشق الهواء النقى، ورائحة الشواء... والهدايا الثمينة التى حملناها معنا، أنا والمستر «هاريسون» رمزا للعلاقات الودية التى نشأت بيننا وبين تاجر السجاد. الحاج «محمد بكشير».

نظرت إلى معصمى... الساعة قاربت على العاشرة والنصف... دخل الخادم بقدمين صامتتين فوق البساط السميك... أنه موجود، وغير موجود... لا أسمع صوته أبدا... يتحرك كالظل، وأصابعه حاذقة تلمس الأشياء برقة، وسرعة الساحر الذى يقدم ألعابه على المسرح فتختفى الفناجين، والأكواب، والأطباق فى لمح البصر... أعود من العمل لأجد كل شىء مرتبا، نظيفا، موضوعا فى مكانه... لم يعد يوجد إلا حفنة من هؤلاء النوبيين الذين كانوا فى يوم من الأيام عماد الخدمة فى المنازل... ولكن النقود قادرة على أن تشترى كل شىء... هكذا خيل إلى فترة من الزمن...

««جعفر».. هل استيقظت السيدة «روث»»؟

«لست متأكدا يا فندم... فهى لم تخرج من حجرتها بعد... ولم تطلب شيئا حتى الآن»...

«حسنا... جهز لها الإفطار، وابق عليه ساخنا فى المطبخ».

سرت إلى حجرتى... دخلت وأغلقت الباب خلفى.. أخرجت حقيبتين للسفر.. فتحت واحدة منهما، ووضعت فيها القمصان، وثياب النوم، والملابس الداخلية، والجوارب، والمناديل، وأشياء أخرى، ثم أغلقتها... فتحت الأخرى ورتبت فيها البذات الصيفية، وعددا من السترات، والسراويل، وأربطة العنق، والجلاليب، ثم أغلقتها بدورها... ارتديت قميصا بياقة مفتوحة، وسروالا داكنا، وسترة رمادية

خفيفة.. أدخلت أصابعى فى الجيب الداخلى، وتحسست شريطى التسجيل اللتين وضعتهما فيه بالأمس.. ألقيت نظرة سريعة على الحجرة، ثم ضغطت على الجرس، وبعد قليل نقر «جعفر» على الباب وفتحه.. أشرت إلى الحقيبتين وقلت :

«ضعهما فى الصالة، من فضلك».

أخذت محفظة النقود، والمفاتيح، وبعض الفكة، ومنديلا من فوق المنضدة الصغيرة... دسستهم فى الجيوب... تركت الحجرة مغلقا الباب خلفى، وعدت إلى جلستى بجوار النافذة... أمسكت بجريدة الصباح وأخذت أقلب صفحاتها... على الصفحة الأولى «مانشيدة» عريض: «المدفعية الإسرائيلية تقذف مدينة «صيدا» جنوب لبنان، وتقتل ستة عشرة رجلا اجتمعوا على مقهى بمناسبة العيد»... أطل من النافذة على السيارات تسرع فوق كوبرى الجامعة... لا أريد أن أتأخر.. لماذا لم تأت «روث» إلى مائدة الإفطار حتى الآن...؟ اليوم أبدأ مرحلة جديدة... قلبى ثقيل، وخفيف فى نفس الوقت... أمد يدى إلى ابريق الشاى ثم فجأة أسمع شيئا كالانفجار المكتوم، يأتى من حجرة النوم الداخلية... أدرك على الفور أن ما حدث هو بالضبط ما كنت أفكر فيه... أنطلق فى الممر الطويل أفتح الباب، وأدخل...

ترقد على السرير... عيناها مفتوحتان تطلان إلى من فوق الوسادة... سطح عسلى كالزجاج الجامد... كأنها ذهبت بذهنها بعيدا.. كأنها تنظر إلى الداخل.. إلى الأركان المظلمة الغريقة.. ذراعها ممدودة، وفى يدها أرى بريقا أسود، وفوهة صغيرة تتجه ناحية ظهر السرير... أمام الأذن بقعة مستديرة، وفوق الوسادة خيط أحمر يسيل... أشعر بساقى تميدان تحتى، وبريقى يجف... أضع يدى على معصمها بحركة آلية... أشعر بنبض خفيف فأبلع ريقى مرتين أو ثلاث بحركة عصبية.. أضع أصابعى من جديد فوق نفس المكان، فأدرك أن النبض الذى أحسه صادر منى.. أستدير كمن يبحث عن مغيث.. فى فتحة الباب ألمح «جعفر» ينظر

إلى كالشيطان الأسود... أقول بصوت يرتجف..

«يا جعفر.. اتصل ببوليس النجدة فورا... الست «روث» أطلقت الرصاص على نفسها.. بسرعة «يا جعفر»... أرجوك... وأطلب منهم الحضور فورا!.

يفحصنى فى برود متأن.. يتقدم نحو السرير، وينظر إليها... يلقى نظرة سريعة حول السرير، ثم يدلف من الباب المفتوح ويختفى.. أسمع صوته يتردد فى الصالة.. أجلس على المقعد، وأتطلع إليها.. بيضاء كالرخام. ملامح الوجه كالأشلاء المبعثرة.. اختفت الخطوط الجميلة.. الفم معوج، والغضون تزحف حول العينين، والشفتين، والأنف.. أبحث عن آثار المرأة الصبية.. تتبخر أمام عينى، ولا يبقى منها سوى الشعر يمتد فوق الوسادة كاللهيب الغامض.. والبقعة الحمراء تتسع، وتتسع، وتتسع حوله..

* * *

«أنت تنكر أنك قتلت المدعوة «روث هاريسون» عن عمد، وبسبق إصرار يوم ١٧ أغسطس سنة ١٩٨٠ حوالى الساعة الحادية عشرة صباحا»..؟ اسمع صوت رئيس المحكمة يأتينى من مكان بعيد فوق المنصة العالية... يخرج من أعماقه، ويرن فى الصالة بصدى أجوف، دون أن يحرك شفتيه، أو يفتح فمه، ودون أدنى انفعال، كالإنسان الآلى فى حرب الكواكب.. ذهنى يقفز إلى الوراء، ثم يعود.. حديد القفص رماح مشرعة منذ قديم الزمان.. أقف أمام قوى تستعد لسحقى.. ولكنى طائر يدور فى هدوء فوق أحداث الحياة.. منذ أن رأيتها راقدة على السرير فاقدة الحياة تملكنى هذا الإحساس بأنى ارتفعت حتى السماء، أطل منها على صغائر الأمور.

«نعم.. ما قصصته عليكم هو ما حدث بالضبط..».

«أليست هناك تفاصيل أخرى تريد أن تحكيها..؟».

نعم هناك تفاصيل أخرى كثيرة... ولكن ما الفائدة من الكلام..؟ ما جدوى الحديث عن تلك الأيام التى عشتها قبل أن ألتقى بها، وبعدها؟ فهذه المحكمة أقيمت لهدف محدد، هو القضاء على..

«وإذا حكيت لكم هل ستسمعونى..»؟

النظرات مصوبة إلى من خلف العوينات... إطارها معدنى، وأضواء القاعة

تنعكس فى زجاجها.. رعشة تجتاز صفوف الجالسين، وتهتز الأرواب السوداء ثم تستكين.

«ينبغى للمحكمة أن تتعرف على كل شىء حتى تصدر حكمها على أسس سليمة.. تريد أن تساعدنا فى ذلك..».

رأيت هذا الفم من قبل.. هل فى المعتقل.؟ لماذا أنشغل الآن بهذه الأشياء التافهة.. الأنى اقترب من النهاية؟ من الموت..؟ أسجل آخر الفصول بدقة قبل أن أمضى، وكأنى سأحمل كل هذا معى.. كل الأشياء يحيط بها صفاء غريب.. حتى الماضى البعيد، أصبح واضح القسمات، لا يكتنفه غموض.. هذا الفم.. لا.. لم أره فى المعتقل... رأيت أفواها كثيرة فى حياتى... الشفاه، كالعيون، كالأيدى لها لغتها... تتحدث عن الإنسان... آه... تذكرت الآن.. فم كالمصيدة.. شفتان رفيعتان تختفيان، وعصاة مرفوعة تستعد للهبوط على جسمى.. ناظر المدرسة التى قضيت فيها خمسة سنوات.. عضو الإرسالية يقود الصلاة كل صباح، ويقرأ فى الإنجيل والتوراة.. رجل إنجليزى اتضح فيما بعد أنه كان يعمل فى المخابرات البريطانية..

يريدون أن يعرفوا كل شىء حتى يحكموا الطوق حول رقبتى.. لا بأس.. هل يمكن أن تكون مواهبى وقدراتى هى التى قادت خطواتى إلى هذا القفص.؟ أشعر بابتسامة تزحف على شفتى.. معرفتى باللغة الإنجليزية مثلا.. هل يمكن أن تكون هى التى انتهت بى إلى هذا المكان..؟ اللغة تفتح أبوابا كثيرة.. ولكن لماذا طرقت باب «روث هاريسون» بالذات؟.. أم هى التى طرقت بابى.؟ وإن كانت هى التى طرقت بابى، لماذا فتحته هكذا على مصراعيه..؟ لا.. فى البداية كنت حذرا، متحفظا... جزء منى يقدم، وجزء يقاوم.. ولكن فى أعماقى كانت هناك أشياء مهدت الأرض لما حدث فيما بعد..

تنبهت إلى الصوت الرتيب الأجوف يسألنى:

«كيف التقيت بالسيدة «روث هاريسون»؟

أرى عينيك المفتوحتين تنظران إلى من فوق الوسادة.. ذهبت «يا روث» ولن تعودى.. أريد أن أتتبعك حيث رحلت لأراك، وأعرف ماذا تفعلين.. أحداث هذا اليوم تبعث أمامى من جديد، كما بعثت من قبل مئات المرات، وكأنها جزء لا ينفصل من وجودى.. أغلق باب الحجرة فى صمت، وأعود إلى جلستى بجوار النافذة.. أشعر بنظرات «جعفر» الباردة تنفذ إلى. بؤرة مظلمة، باردة تنمو، وتنتشر فى جسمى.. طلقة رصاص.. طلقة رصاص واحدة والحق بك.. لا احتاج إلى خيال لأتصور ما سيحدث بعد الآن.. سيأتون فى سيارتهم الرمادية القاتمة، ويضعون حول يدى القيود الحديدية.. قيودا من الصلب الرفيع، لها أسنان كالمشط، حتى يمكن إحكامها حول معصمى.. قيودا مستوردة حديثا، غير تلك القيود الإنجليزية العتيقة التى كنت أستطيع أن أفلت يدى النحيلة منها بسهولة.. نعم أنا أعرف كل التفاصيل، بل أدق التفاصيل التى سأعيشها بعد أن رفع «جعفر» سماعة التليفون وتحدث إليهم.. أعطيته الرقم الذى كنت قد دونته فى المفكرة الزرقاء الصغيرة.. كانت هدية منك... وأرقام التليفونات التى كنت استخدمها قمت أنت بتسجيلها فيها.. من الأفضل أن ينتهى كل شىء عند هذا الحد.. رصاصة واحدة ستتيح لى أن ألحق بك..

خطواتى تقودنى مرة أخرى إلى حيث ترقدين فوق السرير.. شعرك الغزير المتمرد يرقد مستسلما فوق الوسادة.. والدماء تزحف حمراء فوق المساحات الشاحبة.. أصابعى تلمس جلدك الناعم، وتتراجع بحركة لا إرادية سريعة، وكأن البرودة المنبعثة منك لسعتها.. أشعر أننى أفيق بالتدريج إلى وجودى.. إلى أنى ما زلت أنا، أو ربما أصبحت أنا من جديد «خليل منصور خليل».. ينتابنى فى لحظة شعور غريب، كأننى تحررت منك، وعدت كما كنت «خليل منصور خليل»

الذى كان معروفا للناس - نعم.. لم يكن رجلا نكرة.. فى السنين الأخيرة دفعت ثمن نسيانى له، وكان الثمن غاليا بكل المقاييس.

«المحكمة تنتظر إجابتك... كيف التقيت بالمدعوة «روث هاريسون»»؟

السؤال يتردد فى القاعة من جديد، ولكنى أكاد لا أسمعه.. ففى هذه اللحظة أحس بحنين غامض يستقيظ فى صدرى.. أحاول أن انحيه جانبا، ولكنه يلح على.. عندما قابلتك، كان فيك شىء غير عادى، بل أشياء غير عادية تضفى عليك جاذبية طاغية.. وكنت تنتفضين بالحياة كالمهرة.. قضيت الفترة الماضية وحدى فى الزنزانة. حاولت أن أتذكر ما حدث بترتيب منطقى.. بدأت من البداية، بل قبل البداية.. فلكل بداية جذور فى الماضى، يصعب معها أن تحدد بالضبط نقطة البداية... أشياء تمهد لأشياء.. وأنا أدرك الآن أن ثمة عوامل مهدت السبيل لما حدث... عوامل معينة شكلت تصرفاتى، وصاغت ردود فعلى.. وإذا كان لا بد من تحديد لنقطة البداية فلأحددها بتلك الأمسية التى رن فيها جرس التليفون فى بيتنا... أمسية صيف فيها براءة، وعطر.. البيت المدهون بالجير الأبيض نائم بين الحقول.. لا يفترق فى قليل أو كثير عن عشرات البيوت التى أقيمت فى ضاحية «دار السلام»، إلا فى أن له سطح، وضعنا فوقه بعض المقاعد الملونة، وأوان من الفخار تطل منها زهور بنفسجية، وحمراء..

كانت «أمينة» تسكن فى هذا البيت منذ أن استقلت عن أبويها.. تزوجنا بعد خروجى من السجن بمدة لا تتجاوز السنة، واستقرت بنا الحياة فى نفس المكان.. وجدنا هذا الحل مناسبا.. الموارد المالية اللازمة لاستئجار منزل آخر، وتأثيثه تعوزنا.. وعملنا نحن الاثنان قريب منه فى «حلوان».. فرضينا بالحجرات الثلاث، والحقول والهدوء، والإيجار المتواضع الذى لم يتعد العشرين جنيها.

أمسية صيف أجلس فيها على مكتبى، وأراجع عقد التصنيع مع شركة

«لاروشيل» الفرنسية.. رن جرس التليفون.. شعرة من الخوف الغامض ترتعش فى أعماقى.. موجة صغيرة من القلق فى الليل الصامت.. الأجراس ما زالت قادرة على أن تفزعنى.. ربما لأنى وحدى.. «فأمينة» غائبة فى «المنيا» تزور إحدى صديقاتها.. شعرة رفيعة من الخوف تخترق حاجز الزمن، وتصعد من مكان بعيد فى أحشائى.. فى السنين الأخيرة أصبحت أخاف أشياء كنت لا أبالى بها كثيرا.. وأصبحت أقبل أشياء كنت أرفضها فى الماضى... وهذا الإحساس يضايقنى.. أبحث عن مبررات لنفسى.. السن، والنضوج، والتجارب.. ولكن هذه المبررات لا ترضينى.. ولا تستطيع دائما أن تسكت ذلك الصوت الداخلى الخافت الذى يلح على أحيانا، والذى يجعل عينى «أمينة» تتبعاننى وأنا أتحرك فى المنزل.. فأتيقن مرة أخرى من قدرتها الفائقة على التقاط أدق الإشارات النفسية.. عندئذ أعرف أننى سأتذكر «سعيد أبو كرم».. فلسبب ما هناك ارتباط وثيق فى ذهنى بينهما.. ربما لأنى التقيت بهما تقريبا فى نفس الفترة.. أو لأنهما متشابهان فى بعض النواحى.. وهما أعز شخصين فى حياتى.. يمثلان بالنسبة إلى صفات أعتقد أننى افتقدها.. ولكن هذه الحقيقة تولد لدى شعورا فيه ضيق، خصوصا عندما يتفقان فى الرأى ضدى.. عقلى يقول لى أنهما ربما يكونان على حق.. أحس وكأن «أمينة» تبتعد عنى، وتنال من كبريائى بوقوفها مع «سعيد أبو كرم» فى الرأى..

كانا ماثلين أمامى فى تلك الأمسية وأنا أراجع عقد التصنيع للمرة العاشرة.. ففى فترات الصراع التى مررت بها منذ أن قادتنى خطواتى إلى «شركة طيبة للأدوية» وإلى المنزل الصغير المنزوى وسط الحقول، كان لكليهما دور له أهميته بالنسبة إلى، دون أن يرتبط هذا الدور دائما بتدخل ملموس من جانبهما. فقد أصبحا جزءا منى، أحملهما فى نفسى أينما ذهبت..

لم أكن قد تحدثت إليه عما دار فى الأسبوعين الماضيين، ولا عن الاجتماع الذى

تم منذ بضعة أيام مع رئيس مجلس إدارة الشركة.. فما زالت المسافة الوظيفية التى تفصل بينى وبين «سعيد» تلعب دورها.. إننا أصدقاء، نتعامل على قدم المساواة.. ولكن اعتزازه بشخصيته، وثقته الكاملة فى قدراته، بينما ما زال لا يشغل سوى وظيفة ملاحظ عمال، كانتا تسببان لى نوعا من الغيظ.. فى قرارة نفسى أشعر أنه أفضل منى لأنه يواجه الأمور بحسم.. فأحاول أحيانا تعويض هذا الشعور بالوقوف على السلم الإدارى.. فالسلم الإدارى خلق لكى يحقق أغراضا كثيرة.. الظاهر منها توزيع العمل والمسئولية.. والواقع الذى يخفيه هو التغطية على الفساد، وعدم الثقة بالنفس.. وعلى استغلال يمارسه الرؤساء على المرؤوسين.. لم أكن مشاركا فى هذه الأشياء.. ولكنى فى نفس الوقت كنت أتكىء عليها عند الحاجة.. أما «أمينة» فقد كانت غائبة فى «المنيا».. ولذلك لم اتمكن من أخبارها بما حدث..

طوال الفترة الماضية وأنا أنقب فى أعماقى.. كان لا بد أن أعى ما جرى بالضبط، ولماذا.. أقضى الساعات الطويلة فى الزنزانة مع نفسى.. فقد طبقوا على نظام الانفراد منذ أول لحظة.. ربما يقال أن عملية الاستكشاف الداخلى هذه لا جدوى منها.. فأنا رجل محكوم عليه بالموت.. أو هكذا أدركت بعد مدة قصيرة.. ولكن الموت ليس دائما هو النهاية، إذا كان لدى الإنسان أشياء يريد أن يتركها للناس.. وأنا لا أقصد الإرث بمعناه المادى، كالعقار، أو الأموال المودعة فى البنوك.. فالناس سرعان ما ينسون أسماء أصحاب العمارات حتى وإن كانت فاخرة.. والناس سرعان ما ينسون أسماء من ملكوا السندات والأسهم، أو شركات المشروبات الغازية.. ولكن هناك أحداثا، وأشخاصا لا ينسون أبدا.. وأنا لست ممن يطمعون أن يخلدوا.. ولكنى عندما قضيت الساعات الطويلة مع نفسى، أحسست أن لدى ما أريد أن أقوله.. أن تجربتى ربما تهم الآخرين.. وقد تبدو لأول وهلة أنها ذات طابع فريد، تفتقد لذلك مدلولا عاما.. ولكنها فى الواقع ليست

كذلك.. وكلما فكرت فى الأمر يزداد شعورى بأن ما حدث لى يجسد الحياة التى أحاطت بنا فى المرحلة الأخيرة بالذات.

أنا أؤمن بالصدف لأنها الوجه الآخر لقانون الاحتمالات.. ولكنى اعتقد أن كثيرا من الأشياء التى تبدو وكأنها تقع بالصدفة هى فى الواقع نتاج طبيعى لسلسلة من التطورات.. هذا ما وصلت إليه بعد تفكير.. وقصتى مع «روث هاريسون» فى رأيى دليل على ذلك.. فقد أدركت أن لقائى معها، وما تبعه من أحداث، لم يكن سوى تطور يضرب بأصوله، وجذوره عدة سنوات إلى الوراء.

لقد حاولت أن أفهم نفسى.. أن أستعيد تلك التجربة التى عشتها بكل نبضها، وحرارتها، ومرارتها.. وليس من السهل أن يصل الإنسان إلى فهم نفسه.. ولكنى أحاول.. ربما يكون التفكير فى مثل هذه المسائل هو الذى حمانى من الجنون حتى الآن.. فقد كنت منشغلا فى عملية استكشاف صعبة ودقيقة طوال الشهور الماضية.. وما أصعب البحث عن حقيقة النفس وتعقيداتها.. فالعلماء قادرون على كشف النقاب عن ظواهر، وقوانين كثيرة... ولكنهم ما زالوا يتعثرون أمام العمليات التى تحرك عقل الإنسان ووجدانه.. فرجال الفن يشرحونها، ويجسدونها أحيانا، وكذلك رجال العلم.. ولكننا فى حاجة إلى علماء فنانين، أو فنانين علماء لإدراك كل أبعادها.

هكذا يبدو لى وأنا أجلس هنا فى القفص استرجع ما فات.. وأعود إلى تلك الأمسية التى لا أنساها أبدا، والتى رن فيها جرس التليفون رنينا متصلا، فقطع على تأملاتى وأنا منهمك فى قراءة بنود العقد... مصباح المكتب يلقى مساحة دائرية من الضوء حول المكان الذى أجلس فيه تاركا باقى الحجرة فى الظلام.. فنجان القهوة أمامى يشع رائحة البن، والمستكة.. لم يطلب لى الرجل فنجانا من القهوة كما كان يفعل فى كل المرات.. أشياء صغيرة تدل على صغر الشخصية.. أجلس فى حجرته، وأدور بعينى حول الجدران.. صور رأيتها عشرات المرات،

فسئمت رؤيتها.. رئيس مجلس الإدارة يصافح بعض الضيوف الأجانب.. رئيس مجلس الإدارة يتحدث مع الوزير فى افتتاح المصنع الجديد.. رئيس مجلس الإدارة يلقى خطبة على العاملين فى الشركة بمناسبة ثورة التصحيح.. المكتب الذى يفصل بيننا يبدو أكثر ضخامة من المعتاد.. ومائدة الاجتماعات منزوية، مهملة فى الطرف الآخر للحجرة.. حجرة بلا ملامح محددة. فهى ليست مستديرة، أو بيضاوية، وهى ليست مربعة، أو مستطيلة، إنما تكاد تجمع بين كل هذه الأشكال.. ولا يغلب على أثاثها طابع مميز يمكن وصفه بالأناقة أو الإهمال، بالنظام أو الفوضى، بالإشراق أو القتامة.. مجرد مساحة صفت فيها المقاعد، والرفوف، والدواليب، والموائد، وآلة لتصوير المستندات، وأكوام من الملفات، والنشرات.

رئيس مجلس الإدارة رجل يتميز بأن صوته يمكن أن يهز زجاج النوافذ، وبأن قوامه طويل للغاية.. الصوت القوى مخصص للمرؤوسين، والقامة الطويلة مركزة فى الجزء الأسفل من الجسم بحيث يبدو قصيرا عندما يجلس خلف المكتب. انتظر حتى يفرغ من الأوراق التى يفحصها باستغراق، كأنه لم يلحظ وجودى.. العينان صغيرتان، عصبيتان، وحركة اليدين والشفتين تنم عن قلق مكتوم يفرج عنه فى انفجارات من الغضب أو الضحك لأسباب كثيرا ما يصعب فهمها.. الرأس صغيرة مضغوطة فوق وجه مستطيل، والأسنان تظهر كبيرة صفراء عندما يضحك.. يتراءى لى بعض الليالى فى حلم غريب.. حصان يجلس خلف مكتب ضخم.. يميل إلى الوراء، ويضرب بحوافره على السطح الممتد أمامه، وأنا أتطلع مشدوها إلى فتحتى الأنف، والعينين المحتقنتين..

يرفع رأسه عن الأوراق ويقول :

«هذا التقرير عن اتفاقية التصنيع مع شركة «لا روشيل»، أريد منك أن تعدل فيه..».

«لماذا..؟».

«سيضر بمصالح الشركة إن وافقنا عليه.. فالمستحضرات التى ستنتج بمقتضاها يمكن أن تجلب لنا ربحا وفيرا..».

عيناه لا تتوقفان عن الدوران حول الحجرة.. كالفئران عندما تحس بالحصار.. أورثه أبوه خمسة أجزخانات فى «الغربية» أضاف هو إليها مصنعا فى «القاهرة» ومكتب استيراد.. دخل القطاع العام ليعشش فيه، ويحمى مصالحه إلى أن تمر العاصفة التى أطلقتها التأميمات فى سنة ١٩٦١.. واكتشف مع الكثيرين من طبقته أن «عبد الناصر» تغافل عن حقيقة هامة.. القطاع العام إذا لم يسيطر عليه تحالف الطبقات الشعبية يتحول إلى تربة صالحة، بل وأداة لخدمة الرأسمالية، ونموها..

«لست معترضا على أن تربح الشركة، ولا على تصنيع المستحضرات التى لم يسبق لنا إنتاجها لأنها تحتاج إلى خبرة، أو دراية خاصة.. اعتراضى منصب على التوسع فى الاتفاق بحيث يشمل كثيرا من المستحضرات التى نستطيع أن ننتجها دون مساعدة من أحد.. فهذا التكرار سيكون على حساب إنتاجنا، وأرباحنا، وعلى حساب صناعة الدواء عموما...».

دعوه فى الشهر الماضى إلى «فرنسا» لزيارة مصانعهم.. عاد متورد الوجنتين، يضع حول معصمه ساعة «رولكس» جديدة، ويشد بأصابعه المتوترة على رباط عنق لونه بنفسجى يختبىء فى ثناياه مستطيل صغير من الحرير الأبيض طبعت عليه شارة «جاك فاث».. وبدلا من الاستطراد فى «غنج نساء المنصورة» و«فوائد الحشيش،.. والصلاة» أصبح يتحدث بلغة العارفين عن شوارع «باريس»، ومطاعمها، ونبيذها القرمزى ذى النكهات المختلفة، وعن بنات الليل اللائى يمارسن الجنس على الطريقة الفرنسية.

هكذا وضع قدميه على عتبة الانفتاح نحو عوالم أخرى تشترى فيها الذمم السهلة بالعملات الصعبة، وتختلط فيها الحوافز الفردية بكئوس الخمر، وسيقان النساء الشقراوات.. انتقل إلى مرحلة جديدة فى الحياة تضاف إلى مراحل سابقة نقلته من زراعة الفدادين على بعد عشرة كيلو مترات من «شبين الكوم»، إلى تجارة الأدوية فى «طنطا»، ثم من صفوف أغنياء التجار فى «الغربية» إلى زمرة المستوردين، وأصحاب المصانع فى «القاهرة» حتى قرر «عبد الناصر» تأميم الاستيراد، ومعامل الأدوية.

رجل فيه ذلك النوع من الذكاء الذى يجعله يسبح مع التيار، ويستفيد منه إلى أقصى حد.. ظل محتفظا بقدر من الشهامة والطيبة التى تميز بعض الذين نشأوا فى الريف، ولكنه تعلم فى المدينة كيف يخضع هذه الصفات إلى منطق المصلحة أساسا، وإن كان يعود إلى تلقائيته فى بعض الأحيان.

كان كل منا ينتمى إلى عالم مختلف بحكم تربيته، وظروفه.. نقترب فى بعض لحظات الصفاء، ولكن العلاقات بيننا رسمية فى أغلب الأوقات..

قطع على حبل تأملاتى:

«هل معنى ذلك أنك ترفض تعديله..؟».

«لقد عبرت عن رأيى فى مسألة تتعلق بصالح الشركة، ولا أرى مبررا لتغييره.. وفى النهاية لست أنا الذى يملك القرار، بل أنت.. فإن كنت ترى الموافقة على العقد كما هو، فهذا شأنك.. ولكنك لا تستطيع أن تجبرنى على قول ما لا يتفق مع رأيى..».

أضغط على نفسى حتى أتحدث بهدوء.. الهدوء لا يضعف موقفى ولكنى أشعر أن وراءه تختبىء الرغبة فى استرضائه.. فما الفائدة من الوقوف ضد الموجة الجارفة التى بدلت، وغيرت كثيرا من الأشياء..؟ ما الذى أخشاه بالضبط؟ فقدان

الوظيفة احتمال بعيد، وإن حدث، فعلى الأقل سأتخلص من الشعور بالصغر والعجز الذى ينتابنى فى كثير من الأحيان.. سأضطر للبحث عن عمل آخر غالب الظن أنه لن يختلف فى شىء عما أنا فيه. والاهتداء إلى عمل آخر لشخص مثلى لن يكون من السهل. أمان الوظيفة وهم، وقيد يشل الإرادة، والقدرة على الاقتحام.. ربما إن استغنيت عنه سيبتلعنى السعى وراء لقمة العيش، وهذا ما أكرهه.. أليس هناك سبيل للإفلات من هذه الدائرة المغلقة؟.. لست أنا الذى يجب أن يخاف بل هو.. أتأرجح بين الأفكار.. عيناه تتفرسان فى وجهى ثم تهربان إلى ركن بعيد.. ضغط على الجرس، فدخل الفراش، ووقف ينتظر أوامره.

«أريد فنجانا من القهوة، وعلبة سجائر «كِنت»».

لم يطلب لى فنجانا من القهوة هذه المرة.. الدماء تصعد إلى رأسى.. ترددت لحظة.. مسألة بسيطة لا تستحق الاهتمام.. ولكن فجأة أحسست أنها أهم من كل ما حدث حتى الآن، من كل المعركة الدائرة بيننا.. أنه يقول لى من طرف خفى.. أنت لست سوى موظفا مرؤوسا لى.. أنت لا شىء.. قلت :

«يا على.. أحضر لى أيضا فنجانا من القهوة، سكر قليل..».

أسمع أصابعه تنقر على المكتب فى عصبية.. توقف الفراش لحظة عند الباب كأنه أحس بما يجرى، ثم فتحه وخرج.. أعرف من احتقان العينين أنه غاضب.. يدرك أننى اتحداه.. يتملكنى إحساس بالانتصار.. أطل من فوق مرتفع وتبدو كل الأشياء تحتى صغيرة، تافهة.

«إذا كنت لا تستهدف سوى مصلحة الشركة لماذا كتبت عن الموضوع فى صحيفة «الجماهير؟»».

وصلنا الآن إلى بيت القصيد.. طالما أن المسائل تتم فى الحجر المغلقة، فلا داعى لأن تقلق... ولكن العلانية تكشف.. المعرفة هى الخطوة الأولى فى كل

تحرك.. أظل صامتا، فيستطرد.

«لماذا لا تنتبه إلى حالك، وتترك هذه المسائل؟. اسمع نصيحتى، ولا داعى للبحث عن المتاعب.. ربما لا تعلم أن الوزير يفكر فى إحالتك إلى التحقيق.. هذا سر ما كان لى أن أبوح به.. ولكنى أريد أن أحميك»..

الآن يستخدم النصائح الأخوية كستار للتهديد. ترى هل صحيح ما قاله عن التحقيق؟.. حلقى يجف.. أمد يدى إلى كوب من الماء وضع فوق المكتب، وارتشف منه.. عيناه تفحصاننى بدقة.. نفس النصائح الأخوية، ونفس النظرات الفاحصة من العيون الصغيرة تطاردنى منذ أن كنت شابا فى مدرجات الجامعة.. رجل يرتدى بزة سوداء، وعلى كتفيه قطع من النحاس، تلمع.. يرفع سماعة التليفون ويقول:

«أطلقوا سراحه هذه المرة.. وبعد ذلك، سنرى»..

ليست لى رغبة للتحدث مع أحد، ولكن رنين التليفون يأبى أن يتوقف. كأن شخصا ما يعرف أننى موجود فى المنزل.. قمت من مقعدى ورفعت السماعة. أسمع صوت أمرأة تقول:

«هالو»..

قلت

«آلو»..

تتحدث بلغة عربية تتخللها لكنة أجنبية واضحة..

«هل هذا منزل الأستاذ «خليل منصور خليل»..؟».

«نعم.. من حضرتك..؟».

«أنا أسمى «روث هاريسون»..

عضو اليمين يذكرنى «بالنحاس باشا». لا ينقصه سوى الطربوش.. الوجه الطيب، والحول، والفم العريض يعلوه شارب كفرشاة الأسنان. عين واحدة بالذات تتفرس فى باهتمام.. يميل إلى الأمام ليلتقط كلامى.. يهز رأسه هزات خفيفة أستشف منها القبول، فيعوضنى عن حياد رئيس المحكمة البارد، الملول... ظلال النهار تتبدل فوق الملامح المطلة على من أعلى، كالتماثيل.. كمعبد «رمسيس».. النهر العريض، والقلوع بيضاء فى ضوء الأصيل.. أعود من هناك.. أعود من بعيد.. لماذا لا يتركون لى فرصة الكلام.. رئيس المحكمة يقول إن ما أسرده عليهم منذ يومين ليس إلا من قبيل التفاصيل.. لكن هذه القضية مبنية على التفاصيل. يجب أن يستمعوا إلى حتى النهاية.. أن يتتبعوا التراكم التدريجى الذى أدى إلى اللحظة الحاسمة.. أو فليصدروا الحكم منذ الآن، ويتفرغوا لأعمالهم الأخرى.. هكذا يضمنوا أن تظل الحقيقة مدفونة مع «روث هاريسون».

أهذا هو صوتى الذى يرن فى قاعة المحكمة؟ إنه صوتى وليس صوتى.. صوتى كان هادئا على الدوام، تعوزه نبرة التحدى التى أسمعها الآن.. أرى عينى «أمينة» الواسعتين.. لأول مرة منذ بدأت المحاكمة ترفع عينيها، وتنظر إلى.. ربما يكون صوتى أعلى مما يجب.. ولكن هذا الصوت هو الذى يجعلها ترفع رأسها وتنظر إلى وكأنها تكتشف وجودى من جديد.. يجىء الوقت الذى يجب أن يصرخ فيه الإنسان بأعلى صوته. عندما أسمع نفسى الآن، يهيأ إلى أن صوتى ظل مكبوتا، خافتا، يكاد لا يزيد عن الهمس آلاف السنين.. الملامح المطلة علىّ من أعلى كالقدر، كالزمن، كمعبد «رمسيس».. لماذا أخاف عندما أسمع صوتى يرن هكذا، كأنى أدركت فجأة القوة الكامنة فيه.. كأنى تعودت الصمت طويلا فأصبح صوتى يخيفنى..

رفعت سماعة التليفون فى تلك الليلة الدافئة من ليالى شهر أغسطس.. صوتها الممتلىء يبث حيويته فى الآلة الصماء. اللكنة الأمريكية تضيع على

كلماتها الأولى.. ولكنى بعد قليل أفهم ما تقول..

«حاولت أن أتصل بك فى بداية السنة، ولكن رقم تليفونك لم يرد.. ثم سافرت إلى الولايات المتحدة، وعدت الأسبوع الماضى.. إحدى صديقاتى تعرفك، وهى التى حدثتنى عنك، واقترحت على أن ألتقى بك.. أقوم بالتدريس فى «المعهد الدولى لدراسات العالم الثالث» وقد فتحنا مكتبا فى «القاهرة» منذ أكثر من سنة.. وأنا متخصصة فى الدراسات التى تتعلق بالحركة النقابية».

ظللت صامتا أستمع إليها، فتوقفت لتتأكد أننى أتابع ما تقول:

««هالو».. هل كلامى باللغة العربية واضح؟»

«نعم.. واضح جدا..» كدت أن أضيف «وصوتك جميل» ولكنى سكتت..

«المهم.. أفهمتنى صديقتى أنك قمت بعمل دراسات عن هذا المجال، وأنك لا زلت مهتما به، بل ومشاركا فى بعض النشاط النقابى.. فهل معلوماتى سليمة؟»..

«إلى حد ما.. ولو أنى لست متخصصا فى الموضوع..»..

«حسنا.. أنا موجودة الآن فى «القاهرة»، وأريد أن ألتقى بك.. هل هذا ممكن.؟».

«معذرة.. أحب أن أعرف من هى الصديقة التى حدثتك عنى..».

الأستاذة «عايدة رجب».. كانت معى فى جامعة «ميتشيجان»..

أبحث بسرعة عن ملامح امرأة يمكن أن تندرج تحت اسم «عايدة رجب» ولكن دون جدوى.. ماذا أفعل..؟

«أعتقد أنى سمعت هذا الاسم من قبل.. ولكن الذاكرة لا تسعفنى الآن فى التعرف على السيدة التى أشرت إليها.».

أسمع خشخشة خافتة تتردد فى سماعة التليفون، ثم لا شىء.. ربما أحست بالارتباك إزاء ردى، أو بأننى أتهرب من لقائها.. لماذا أنا بالذات؟ تستطيع أن تحصل على كل ما تريده من الجهات الرسمية.. ربما سمعت عن ماضى، وتريد أن تهتم بوجهات النظر المختلفة.لقاء واحد ثم سنرى.. أشياء تشدنى إلى التعرف عليها.. الفضول.. وكونها امرأة، وهذا الصوت الغنى الطبقات.. بذلت جهدا حتى تعثر علىّ.. من ذا الذى يهتم بأمثالى هذه الأيام.. قلت:

«آلو».

سمعتها تنطق بثبات.

«هالو».

«أخبرنى ماذا أستطيعه من أجلك».

«أريد أن التقى بك لأطرح عليك بعض الأسئلة الخاصة بالحركة النقابية فى «مصر».. أنا مهتمة بالفترة الممتدة من نهاية الحرب العالمية الثانية حتى ثورة ٢٣ يوليو.. وذلك استعدادا لتقديم رسالة دكتوراة عن الموضوع.. ما زلت فى مرحلة تجميع البيانات، والوقائع، واستكشاف وجهات النظر المختلفة».

«لا بأس.. ما هو الموعد الذى يناسبك؟».

«لا.. حدد أنت الموعد... فأنا المستفيدة من هذا اللقاء..».

«العفو.. ستكون فرصة للتعارف، وتبادل الآراء.. هل يناسبك الخميس القادم، الساعة السادسة مساءً؟».

«نعم يناسبنى.. أين نلتقى..؟».

«عندى هنا فى المنزل إن أحببت..».

لم ترد على الفور كأنها توزن الأمر..

«أقترح أن يكون اللقاء عندى، إن لم يكن لديك مانع. فأنا ما زلت انتقل بصعوبة بين أحياء «القاهرة» المختلفة.. ثم سأضطر لحمل جهاز التسجيل، وأوراق، وأشياء أخرى معى.. بينما فى المنزل ستكون كل احتياجاتى تحت يدى..».

«وهو كذلك.. إلى اللقاء إذن يوم الخميس القادم..».

«ألا تريد معرفة عنوان المنزل..؟».

تداركت ضاحكا..

«آسف. بالطبع.. أين منزلك..؟».

«١٤١ شارع جسر النيل.. الدور التاسع شقة ٣٦.. بالجيزة..».

«أعرف هذا الشارع.. اتفقنا.. هل هناك شىء آخر..؟.».

«لا.. أشكرك. تصبح على خير..».

أسمع صوت الخط يغلق «تك».. السماعة ما زالت فى يدى.. أعيدها إلى مكانها، ثم أمد ساقى، وأسند رأسى على ظهر المقعد.. «عايدة رجب».. «عايدة رجب». فجأة تذكرت.. أصبح اسمها «عايدة رجب» بعد أن تزوجت.. كان اسمها «عايدة راشد».. و«عايدة راشد» لها أخت اسمها «تهانى» تعرفنى معرفة جيدة.. كيف يمكن أن أنسى «تهانى راشد»..

رئيس المحكمة يصر أننى أتعمد السير فى متاهات لا تجدى، ولا تفيد، وكأننى أريد أن أطيل من هذه المحاكمة.. وما الفائدة من الإطالة؟ بضعة أيام إضافية لن تغير فى جوهر الوضع.. فالنهاية أصبحت معروفة سلفا.. وإذا أتت النهاية بسرعة ربما استرحت من هذا العناء.. من انتظار الفجر يشق الظلام، ويزحف خلال القضبان بضوئه البارد، فيصيبنى برعشة، وأنا منكمش تحت

الأغطية.. أو من انتظار الليل حتى الجأ إلى وحدتى بعيدا عن عيونكم التى تطل على من أعلى المنصة تنتظر نهاية الفريسة، وعن الذين أتوا إلى هذه القاعة ليشاهدوا أحداثا تلهيهم عن ملل الأيام.. عندما أفكر فى كل ما حدث أدرك أنه نتاج حياتى.. وحياتى أشياء كثيرة استطيع أن أعيها بنفسى.. ولكن هناك ما لا يراه سوى غيرى من الناس.. هذه القضية لا تخصنى وحدى.. إنها مست كل الذين دخلت «روث هاريسون» فى حياتهم بشكل أو آخر ثم خرجت منها بعنف.. ربما يوجد آخرون يرون مالا استطيع أن أراه أنا. ليتهم يتكلمون.. عند الصف الأخير ألمح «تهانى راشد» تلوح إلىّ.. أرى شعرها الأسود الفاحم وقد تخللته خيوط فضية.. ذهنى يضيع فى الماضى البعيد ثم يعود إلى حيث كانت البداية..

أجمع أوراقى المبعثرة فوق المكتب، وصورة عقد التصنيع، وأضعهما فى حقيبة اليد الصغيرة التى أحملها معى دائما.. أخلع ملابسى، وأندس تحت الملاءة البيضاء بلهفة المتعب المقدم على ساعات من النوم اللذيذ.. الآن يمكننى أن أستريح.. لقد راجعت العقد، وأجريت فيه بعض التعديلات حتى التقى برئاسة الشركة فى منتصف الطريق.. تنهدت.. لا بد من تناول المسألة بشىء من المرونة.. هذا العقد اللعين لن يغير مجرى التاريخ.. لا بد أن أعيش.. صوت منغم فيه سحر يتردد فى أذنى، ويثير خيالى.. منذ الطفولة وأنا أحب الموسيقى، وأصوات الطبيعة.. موج البحر، وهمس الأشجار، ونداء العصافير.. وعندما حاصرتنى الجدران تعلمت كيف أرهف الحس فأسمع دقات الطبل، ورنة الخلخال، وأوتار العود فى الليل البعيد.. صوت «أمينة» هو أول شىء لفت نظرى إليها.. فأنا أتذكر أننى سمعتها قبل أن أراها.. سمعتها وهى تتحدث إلى زميلتها.. كنت جالسا فى قطار «حلوان».. شمس الشتاء تسقط على وجهى، وصدرى، وتخترق جفونى المغلقة بدفئها البرتقالى.. افتح عينى فى المحطات لأشاهد الحشود تركض فوق الرصيف، وتتدافع من الأبواب فى كتلة متصارعة من الأذرع، والسيقان،

والرؤوس، والأجسام إلى أن تستقر فى كل شبر من المساحة الممتدة بين المقاعد، وفوقها، ثم تهدأ حتى يقترب القطار من المحطة القادمة، فيسرى فيها تيار الاستعداد لمعركة جديدة..

لفت نظرى برنينه الذى يبعث على التفاؤل.. رنين فيه سعادة تلقائية، وجدية تنبع من شىء عميق فى الداخل، ينقلب بين الحين والحين إلى ضحك كالشلال الصغير.. صوتها يأتينى من مكان قريب فى الممر فأظل مغلقا عينى، مستمتعا بنبراته الفتية، تاركا أحاسيسى تنساب معه، إلى أن داس أحد الركاب على قدمى.. اتجهت بعينى إلى مصدره، فوجدت نفسى أحملق فى مقلتين سوداوتين تردان نظراتى بثبات فيه تحدى.. خفضت عينى بسرعة، كأنى ضبطت بعمل غير مشروع.. فما زلت أشعر بالخجل فى مواجهة النساء.. بحثت عنها بعد قليل.. كانت قد اختفت وسط الزحام، واختفى معها شعور الانتعاش المفاجىء الذى تسلل إلى من أوتار صوتها، دون أن أعى ما كانت تقول.. عاد إلىّ الإحساس الغامض بأننى أحيا على هامش الوجود.. بأن فى داخلى حزن عميق إلى درجة يظل معها كامنا فى باطن الشعور.. حزن يهيأ إلى فى لحظة أنه سيزول، بل أنه زال بالفعل ولن يعود.. ولكنه كالضوء الذى يفصل بين الليل والنهار.. موجود وغير موجود.. كالغسق أو الفجر.. يقترب من الفجر أحيانا، وفى أوقات أخرى يكون أقرب إلى الغسق.. أنه مثل الأمل الوليد المبتور.. بل اكتشفت وأنا فى هذا القفص أفكر فيما يدور أنه بالفعل الأمل الوليد المبتور لازمنى منذ أن عبرت البوابة الخشبية الضخمة، وسرت على قدمى طليقا فى شوارع المدينة.. لم يفارقنى سوى لحظات قليلة استغرق أثناءها فى شىء، فأنساه..

حاولت أن أتجاهل وجوده.. ألا ألتفت إليه، أو اعترف به.. ربما لأنى إلى وقت قريب كنت أخشى مواجهته.. أما الآن فلم أعد أخشى شيئا.. أحمل حياتى على كفى وأقرأ فيها بسهولة. حقيقة أكتشفتها وأنا جالس فى هذا القفص انتظر

المصير.. فكرة ومضت فى ذهنى كالضوء القوى يبدد الظلام. عشت سنين طويلة لا أنتظر فيها سوى أشياء بسيطة.. وجبة مطهية من البيت، أو زيارة من شخص محبوب، أو قصة أقرأها على ضوء الشموع.. تركزت أحلامى فيما سأفعله بعد الخروج.. كمياه الفيضان تحجز خلف السدود، تنتظر فتح البوابات لتنطلق فى شلال أبيض يتدفق فى شرايين الأرض فينبت الحياة. أما أنا فعندما أفرج عنى، وجدت أنه لا مكان لأحلامى إلا فى أضيق الحدود. رفعت عنى القيود الحديدية لتحل محلها قيود أخرى غير مرأية للعين..

وكان هذا هو مصدر حزنى.. أتساءل أحيانا عن العلاقة بين الحزن، وحبى «لروث هاريسون».. الحزن شىء أساسى فى الحياة وخصوصا حياتنا نحن المصريين.. فهناك علاقة وثيقة بين الحزن والقهر.. ونحن نعانى من القهر منذ آلاف السنين.. ولكن ما العلاقة بين الحزن والحب.؟ علاقة قد تكون وثيقة.. فالحزن شعور بالنقص، بالإحباط، بخيبة الأمل.. وهو يولد أحيانا الضعف والشعور بالهزيمة.. وبين كل هذه الأشياء علاقة وثيقة.. كنت أعانى من شعور عميق بالهزيمة... الآمال التى راحت أدراج الرياح.. والقلق المستمر على الأيام القادمة.. صورة عن نفسى لم تتحقق، وطموح مشروع دفن فى رمال الصحراء.. أما «روث هاريسون» فهى تختال فوق الأرض كالمهرة، واثقة من نفسها، سعيدة، ضاحكة، منطلقة. كان فيها بريق، وسحر، وجمال.. كانت تمثل الأشياء التى افتقدتها فى ذلك الوقت.. فعوضت النقص الذى أحسست به فى نفسى.. كالموجب الذى يجذب السالب إليه.. فيصبحان شيئا واحدا مكتملا. عندما مدت إلى يدها ظننت أننى سأجد الخلاص مما أنا فيه.. كانت كالمنقذ الذى سقط من عالم آخر يبشر بالأحلام الحلوة، والحياة السعيدة..

نعم.. كنت حزينا.. وهذا الحزن يفسر الكثير مما حدث بينى وبين «روث».. حملته معى وأنا أخرج من البوابة الخشبية الضخمة لأسير طليقا فى شوارع

المدينة. وحملته معى وأنا أتجه لأول مرة إلى المصنع فى «حلوان».. وضعته فى جيب سترتى الداخلى مع خطاب التعيين.. وظل مختبئا فى هذا المكان كدودة القز تغزل خيوطها.. والخيوط كلها تتشابك الآن لتكمل الصورة.. تمتد إلى تلك الحجرة الغريبة. كانت كالعلبة المستطيلة صفت فيها الملفات، ومكتب صغير.. الذباب يترنح حول المصباح الأصفر كأنه مخدر من قلة الأكسجين.. مضى ما يقرب من خمسة شهور وأنا أصعد مرة كل أسبوع إلى الدور الخامس فى العمارة القديمة التى تحتل ناصية «شارع الريحان» و «ميدان الهلباوى».. استنشق رائحة الفضلات المتجمعة فى الحوارى الجانبية، وعند المدخل، وأسفل المصعد، وأتحسس طريقى فى نصف الظلام فوق الدرجات المتآكله، مسندا يدى على الجدار.. فقد اكتشفت أن الحاجز الحديدى آيل للسقوط.. ربما اختاروا هذا المكان لنيأس من الحضور.. عندما يصدف حضور أكثر من زائر نجلس على دكة خشبية وضعت بحذاء الحاجز، نتبادل الحديث، وأكوابا من الشاى يحضرها لنا فراش قزم يخفى قراع رأسه بطاقية بيضاء متسخة، ونحرك أقدامنا فوق البلاط بشكل مستمر حتى فى الصيف، تفاديا للرطوبة الصاعدة منه..

«رئيس لجنة تشغيل المعتقلين» له عينان بلا رموش، ورأس أصلع.. كل شىء فيه أملس كالبرص.. حتى صوته، حتى يديه الخاليتين من الشعر. فيه برودة الزواحف، والأغوات. الرجل المناسب فى المكان المناسب.. كل المآسى التى ترد أمامه لا تحرك شعرة فى رأسه لأن رأسه ليست فيها شعرة.. ولا تؤثر فى انفعالاته لأنه على الأرجح خال من الهرمونات التى لها صلة بالانفعالات.. الزمن أمامه ممتد، ولا داعى للعجلة أو التوتر.. ينصحنا دائما أن نضع أعصابنا فى ثلاجة، كما فعل هو منذ زمن بعيد.. يحب الحديث معنا، ولسبب من الأسباب معى أنا بالذات.. خيل إلى أنه لا يحل مشاكل التشغيل حتى لا ننفض من حوله، فيعود إلى الصمت والوحدة من جديد.. لأول مرة فى حياته وجد من يبادله الحديث.. الإنسان

البائس، المرفوض الذى يتعلق بأى شىء يدخل الدفء على حياته.. هكذا نسج خيالى الساذج قصة اقتنعت بها مدة من الزمن، فأشفقت عليه، وأخذت أبرر كل ما يحدث، بل وسرت أشعر بنوع من التسامى، والرضى عن نبل مشاعرى إزاء مأساة هذا الإنسان.. فأنا ميال إلى الخلط بين المثل والأحلام التى تشغل بالى، وبين واقع الأمور.. ومازلت أتميز بشىء من السذاجة، وعدم الخبرة فى بعض الأمور.. ولكن بعد أن مرت بضعة شهور أدركت أن قمة التسلية بالنسبة إلى هذا الرجل الشاذ كانت تلك العمليات من التعذيب النفسى المتقن التى اتضح أنه متخصص فيها.. «فمتولى خير الدين». وكان هذا هو اسمه، ممن تلقوا تدريبا خاصا فى «معهد دالاس» بالولايات المتحدة..

كنت أنا أحد الذين استخدم معهم «متولى خير الدين» وسائله النفسية.. عندما أتذكره يقشعر بدنى رغم أن يدى لم تلمس يده مرة واحدة.. فبعد أن ترددت عليه فترة من الزمن كان مجرد النظر إليه، أو وسماع صوته كفيلا بأن يصيبنى برغبة فى القىء، ورعشة باردة تكاد تصل حتى نخاع العظام.. كلما جلست أمامه يجيئنى خاطر غريب.. أين المرأة التى تستطيع أن تضم بين أحضانها هذا الكائن الأملس الكئيب..

اسمعه يسألنى..

«متى أفرج عنك.»؟

«منذ شهرين..».

«ولكن ملفك ليس عندى..».

ألوذ بالصمت..

«عد إلى بعد أسبوعين. ربما جاءنا خلال هذه الفترة.».

«ربما؟! ولكنى أحتاج إلى أن أعمل..».

«أعرف هذا. ولكن ماذا أستطيع طالما أن ملفك لم يرسل بعد.؟.».

«ومن الذى يجب أن يرسله..؟»

«لا أعلم.. ليس أمامنا سوى الانتظار..».

أهبط الدرجات المتآكلة فى نصف الظلام. عاصفة ترابية تغطى المدينة.. أحس بذراتها بين أسنانى، وبطعم المرارة على لسانى.. يجب أن أصبر.. المصالح الحكومية هكذا دائما.. لا شىء يقضى إلا بشق الأنفس.. بعد أربعة عشرة يوما وليلة بالضبط جلست أمامه من جديد.. العينان تفحصاننى بلا اكتراث.. عينا سمكة ميتة..

«صباح الخير..»

لا يرد فأكرر التحية.

«نعم».

«جئت حسب الإتفاق».

«أى إتفاق.؟».

«ألم تقترح فى المرة السابقة أن أمر بعد أسبوعين.؟».

«أقترح؟!»

نطق الكلمة باستنكار فلم أعلق.

«ماأسمك؟».

يعرف اسمى جيدا.. ولكنى بدأت أشعر بتلك الشفقة التى سيطرت على فترة من الزمن..

«اسمى» «خليل منصور».

«انتظر حتى أبحث عن ملفك..»

جلست على الدكة الخارجية.. بين الحين والآخر أطل عليه حتى أنبهه إلى وجودى.. بعد نصف ساعة رفع رأسه عن الورق.. رأيته يشير إلىّ بأصبعه من الباب المفتوح فدخلت..

قال بصوت ملول..

«ما اسمك الثلاثى؟».

صعدت الدماء إلى رأسى فجأة.. بذلت جهدا لأهدأ.

«خليل منصور خليل».

عدت إلى جلستى.. مرت الدقائق ثقيلة.. عقارب الساعة تشير إلى الثانية والربع.. بعد قليل سينصرف.. وقفت واتجهت إلى مكتبه.. كان يدخن بهدوء..

«لم تقل لى شيئا..»

ألقى ناحيتى بنظرة طويلة كأنه ينبهنى إلى أن واجبى هو الانتظار فى صمت.. تنهد ثم قال:

«للأسف ملفك لم يرسل إلينا حتى الآن..».

هكذا أسبوع بعد أسبوع أصعد الدرجات إلى الدور الخامس لألتقى «بمتولى خير الدين».. فى الأيام المحددة لهذه الزيارات أظل راقدا تحت الأغطية أطول مدة ممكنة.. الجفون مغلقة، ولكن العينين يقظتان، والتوتر يصعد بالتدريج بادئا بقدمىّ حتى يصل إلى رأسى.. فأنا مشدود بين الرغبة فى الهروب من هذا اللقاء الكريه، وبين حاجتى الملحة إلى العمل..

يسألنى..

«أى نوع من العمل تريد.؟».

«عمل يتفق مع مؤهلاتى..؟».

«وما هى مؤهلاتك..».

«بكالوريوس علوم.. ودكتوراه فى الكيمياء..».

يصمت لحظة كأنه يستوعب ما قلته.. يفتح درج المكتب، ويستخرج منه مفكرة كبيرة سوداء يكتب فيها بضعة كلمات، ثم يعيدها إلى مكانها.. أظافره مقصوصة بعناية فى شكل هلال كأنه تعود تهذيبها عند «الكوافير».. يرتدى سترة من الصوف، ورباط عنق أنيق.. أتنبه إلى أنه يهتم بملابسه.. دقيق، دقة القسوة.. دقة من لا يرحم..

«أشك فى أنك ستجد العمل الذى يناسبك..».

«لماذا..؟».

يتفرس فى وجهى طويلا قبل أن يجيب.

«أنت سيد العارفين.. كيف نستطيع أن نثق فيك.. ربما انتهزت وجودك فى عمل مهم للتخريب..».

«أنا صاحب رأى، فلا داعى لاستخدام كلمة تخريب..».

أحس برغبة فى أن أضع أصابعى حول عنقه، وأضغط حتى يستغيث. عيناى مسمرتان على مساحة اللحم العارى فوق الياقة البيضاء.. أسرح فيهدأ الغليان فى صدرى.. ياقته ماركة «فان هويزن..». أبتسم فيلقى إلىّ بنظرة متسائلة..

«أراك تبتسم.. هذا يدل على أنك بدأت تتكيف.. لا تتعجل الأمور..

ستتعود حياة الحرية بالتدريج.».

أصمت.. لم أعد أطيق هذه الجلسة. أوجه إليه السؤال التقليدى..

«والملف؟».

«آه.. الملف.. ما زال فى إدارة السلام الاجتماعى.. إذا أردت أن تستعجله يمكنك أن تسأل عنه هناك..».

أتنفس الصعداء وأنا أخرج من باب العمارة تاركا ورائى روائح العطن تزداد مع اقتراب الصيف.. لا فائدة من محاولة استعجال الملف.. قضيت ثلاثة أيام بلياليها فى هذه الإدارة قبل الإفراج عنى، ولا أريد أن أعود إليها ثانيا.. سيتلقفوننى كالكرة ليستمروا فى لعبة الوعود والضغوط..

مرت شهور أربعة.. يوم أحد.. الشوارع خالية نسبيا.. أمشى فوق الرصيف متفاديا أكوام الحجر، والتراب، وبلاعة كالفخ المنصوب.. السماء فيها رقة زرقاء.. وقلبى خفيف يسيطر عليه شعور الربيع.. لو كان لى حبيب لهانت الأمور.. المقعد فيه مسمار لا بد أن أتفاداه عندما أجلس.. فى المرة السابقة تمزق البنطال، و«الكالسون».

يقول لى:

«تصور أن ملفك وصل من شهر، ولم ينبهنى السكرتير..».

لا داعى للتعليق.. يستطرد..

«الآن نستطيع أن نناقش الوظيفة، وهذا ليس سهلا.. أين كنت تعمل قبل أن يقبض عليك.؟».

يتعمد استخدام لفظ «يقبض عليك».

«أستاذ مساعد معهد الكيمياء الصناعية.. أفضل أن أعود إلى المعهد..».

يفكر قليلا واضعا يده على جبهته.. منظر هذا اللحم الأملس مقزز.. أدور بعينى باحثا عن شىء يشغل انتباهى حتى لا أتقيأ على مكتبه..

«هذا مستحيل.. سنبحث لك عن مكان آخر..».

«مستحيل..؟!.. لماذا؟».

«إدارة السلام الاجتماعى معترضة على عودتك للتدريس.. مجال الطلبة حساس كما تعلم.. بعد تفكير وجدت أنه يمكنك العمل فى مجال الصيدلة.».

«الصيدلة؟».

«نعم.. الصيدلة قريبة من الكيمياء.. «شركة طبية للأدوية» بها وظيفة خالية فى إدارة الأبحاث.. والبحث مجال مهم خصوصا فى مرحلة الانفتاح على العالم.. ثم أنك لن تجد نفسك مضطرا للاحتكاك بالعمال.. أنت محتاج إلى فترة هدوء بعد كل ما جرى لك..».

عندما يدعى العطف على أحس بمعدتى تنقبض تحت الضلوع.. يستحسن أن أنسحب بسرعة.. أعرف ألا فائدة من الاعتراض..

«متى أمر للحصول على خطاب التعيين.؟».

«بعد أسبوعين..».

مر شهر آخر قبل أن أحصل على الخطاب.. وضعته فى جيب السترة الداخلى، وهبطت السلم المتآكل لآخر مرة. شعورى مزدوج. من ناحية إحساس بالراحة.. أخيرا سأعمل.. لن أضطر للتردد على هذا المكان القبيح.. وإحساس بالحزن يتوارى فى مكان بعيد من نفسى.. لا أستطيع أن أصفه بالضبط.. كأنه موجود، وغير موجود.. كضوء الفجر أو الغسق. يدخل فى باطن الليل ويخرج منه.. يلازمنى أينما ذهبت.

دخلت حياتى فى مرحلة جديدة.. لم أعد من العاطلين الذين ليس لهم مكان فى الدنيا الواسعة التى خلقها الله موطنا لكل الناس. أركب قطار «حلوان» فى الصباح الباكر مع آلاف الآخرين. أعدو مثلهم فوق الرصيف حتى أصل فى المواعيد.. أجلس على مكتب، وأفتح الملفات، وأشرب القهوة، وأخضع للروتين.. ثم انصرف آخر النهار مع جموع العائدين..

هكذا أصبحت موظفا بين الموظفين لا يميزنى عنهم شىء سوى شعلة صغيرة لا يعيرها أحد أى اهتمام.. شعلة تحترق داخلى، وتغذى الأحلام.. أطل من النافذة على شرفات المنازل وأقول لنفسى. أهذا هو آخر المطاف؟.. فيصيبنى الفزع. أقفز من باب القطار قبل أن يقف، وأخطو خارج المحطة مسرعا، هاربا من حصار يضرب حولى بالتدريج. شوارع المدينة تطاردنى بالسناكى المثبتة فى البنادق الأتوماتيكية، وإعلانات «الويسكى» و«السيتى بنك».. أضواء، وضوضاء.. موسيقى «الديسكو» وآذان الصلاة. تراب، ودخان.. مدينة تنفجر أحشاؤها بالسكان، وتسد شرايينها بالسيارات.. أمشى وسط الزحام كالغريب باحثا عن معالم مألوفة للحياة. عن صوت فيه رنين الصدق فارتاح.

القطار يركض بين المحطات. أقف محشورا بين الناس.. صوت أنثوى له رنين خاص يتسلل إلى أذنى مخترقا ضجيج العجلات، فيستيقظ شىء فى الأعماق. هذا الصوت بحثت عنه طوال الشهور الماضية.. انطبع فى نفسى منذ ذلك الصباح.. أدور بعينى على الجالسين فوق المقاعد، وعلى الواقفين فى الممرات. فتلتقيان بالمقلتين السوداوتين تنظران إلى فى اطمئنان.. أبادلهما النظرات.. شعرها كثيف، مسترسل كأمواج البحر.. نداء داخلى يقول.. «لا تهرب من هذا اللقاء..» القطار يقترب من محطة «حلوان» فأراها تتجه بالتدريج ناحية الباب.. قوامها ممشوق، وشعرها الأسود يعلو فوق الرؤوس، ويلمع فى شعاعات الشمس تخترق الزجاج.. اتبعها وسط الزحام، غير عابىء بهمهمات الاحتجاج. إصرار

غريب يدفعنى إلى الاقتراب منها.. تسير مع صديقتها بخطوات متمهلة.. ساقان طويلتان تنتقلان فوق الأرض بثبات، والخصر رفيع فوق حركة الأرداف.. أتأمل تفاصيل جسمها بإحساس المقبل على شىء رائع فى الحياة.. قلبى يدق دقات قوية فيها خوف، وتوقع، وتردد، وإقدام. عندما وصلت إلى جوارها قلت :

«صباح الخير»

التفتت ناحيتى، وقبل أن أترك لها فرصة الرد، أكملت.

«أرجو المعذرة.. أنا اسمى «خليل منصور» أعمل فى «شركة طبية للأدوية». رأيتكما فى القطار من قبل. يبدو أنكما تعملان فى «حلوان».. هل لديكما مانع إذا رافقتكما جزءا من الطريق لنتحدث..؟».

أحس بعينيها تفحصاننى بنظرة طويلة هادئة.. كل شىء من حولى يتوارى ما عدا العينان فيهما تأمل خال من الاستعجال كأنها تضعنى فى الميزان. وشفتان ممتلئتان تشكلان الكلمات..

«لا.. ولما ممانع؟ أنا أسمى «أمينة توفيق»، وهذه تبسط يدها ناحية زميلتها، وتضيف «صديقتى «علية مصطفى»..».

أومىء برأسى إليهما علامة التحية، ثم أصمت باحثا عن تكملة للحديث.. تحس بالحرج الذى أعانيه فتبادرنى بسؤال.

«منذ متى تعمل فى «حلوان؟..».

«منذ شهر أغسطس الماضى..».

«لكننى لم أرك فى القطار سوى مرة واحد..».

حذرة، ولكنها واثقة من نفسها.. لفتت نظرها إذن، ولو مرة واحدة، وتذكرتنى.. قلبى يدق بهدوء الآن..

«إنه الزحام، واختلاف المواعيد.. أنا أيضا لم أرك سوى مرة واحدة.. ».

أدركت ما قصدت إليه.. ابتسامتها تضىء الملامح كلها، وردود فعلها سريعة، فيها ذكاء..

«هل تتذكر متى كان ذلك..؟».

«نعم.. منذ أربعة شهور ونصف.. سمعت صوتك فجذب انتباهى.. رأيتك تقفين فى ممر القطار، وتتحدثين مع صديقتك الآنسة «علية مصطفى»».

أحس أنها راضية عما أقول، ولكنها لا تريد أن يبقى تيار الحديث مقصورا عليها..

«صديقتى متزوجة ولها طفلان.. ».

«إنها تبدو كالفتاة الجامعية.. ».

تضحكان فى سرور.. فى إحدى الشرفات ألمح بعض الزهور.. عقلى يقفز فوق المسافات.. كانت مياه البئر الارتوازى ساخنة.. فحفرنا خزانا بالفئوس، والمحراث عمقه متران، وطوله أربعون مترا، وعرضه خمسة وعشرون.. كنا نتركها تبرد أثناء الليل، وفى الصباح نفتح القناة، ونروى أحواض الطماطم، والقثاء، والفول، والفجل، والجرجير، والخيار.. وحول الخزان غرسنا شتلات الزهور المائية، فنمت وأحاطت المياه الساكنة بألوانها الزاهية..

قالت

«فيما تفكر؟»

«فى هذه الزهور.» أشير الى الشرفة..

ترمقنى بنظرة سريعة.. وصلنا الى سور عال، وبوابة يقف عندها حراس.. توقفا عن السير.

«وصلنا. نحن نعمل هنا فى «المصنع الدولى للأثاث العصرى»... نبرة من السخرية الخفيفة فى صوتها.. «أنا رئيسة قسم التصميم، «وعلية» مسئولة عن الرقابة على التنفيذ..».

«إذن سنفترق..».

«نعم.»

أقف مترددا.. قلبى يدق من جديد..

«وكيف نلتقى مرة أخرى.؟».

تنطق الكلمات ببطء كأنها وصلت إلى قرار..

«نستقل القطار يوميا من محطة «دار السلام» فى الساعة السابعة والنصف..».

دلفا من البوابة الحديدية واختفيا خلف الحراس.. أحس لحظة أن شيئا ثمينا ضاع منى، فأظل واقفا عاجزا عن الحراك.. أنتبه إلى العيون ترمقنى فاستأنف سيرى فوق الطريق وسط زحام ورديات الصباح..

أصبحنا نلتقى يوميا فى محطة «دار السلام».. تجىء وحدها فى أغلب الأوقات.. فى القطار لا نتوقف عن الكلام كأننا انتظرنا هذا التبادل الذى يجرى بيننا بفارغ الصبر. نحطم سويا كل الحواجز، ونقتحم الآفاق.. تزوجت من قبل.. طبيب التقت به فى منزل إحدى الصديقات.. ولكن قبل أن تمر السنة الأولى بعد الزواج كانت قد انفصلت عنه.. طلب منها أن تترك العمل، وتتفرغ لشئون البيت فرفضت بإصرار. «ثمن الحرية أهون على النفس من ثمن القهر..» منذ ذلك اليوم رفضت جميع عروض الزواج.. عاشت مع أبويها بعد الطلاق.. ولكنها لم تتحمل قيود البقاء، فاستأجرت منزلا صغيرا فى «دار السلام» وانتقلت إليه. تقضى

أغلب أوقات الفراغ فيه، تقرأ، وترسم، وتستقبل الأصدقاء. فى فترات مختلفة ارتبطت بصداقات مع الرجال، ولكنها لم تدم.. الرجل إذا ما اقترب من المرأة اعتبر أنها ملك له، وأن من حقه أن يتدخل فى حياتها، ويتخذ لها القرارات.. وصلت إلى سن الخامسة والثلاثين.. «اعتقد أننى سأحيا بقية حياتى دون زواج، فالرجل لا يحب المرأة الذكية، المستقلة. يبدو أن عدم الثقة فى النفس صفة ذكورية» تنفجر بالضحك فيلتفت إلينا الركاب كأننا ارتكبنا فعلا فاحشا فى الطريق العام.. أسست مرسما صغيرا فى بيتها، ولكن عملها فى الشركة لا يعطيها الوقت الكافى للرسم. «حتى الآن لم أصنع فى الفن شيئا ذا بال..» لم تكن لها اهتمامات سياسية مثلى.. لعبة لا تجيدها، ولا تريد الدخول فيها لأنها تتنافى مع قول الحقيقة الكاملة عن الأشياء.

سرت اتطلع إلى هذه اللقاءات بشوق متزايد.. أركب القطار من محطة «باب اللوق» وأهبط فى «دار السلام».. أستقيظ من الفجر، وأسرع للحاق بالقطار حتى لا تضطر إلى انتظارى.. من اللحظة التى أراها فيها مقدمة فوق الرصيف بخطواتها النشيطة أحس بأن كل شىء فى الوجود جميل.. تفتحت حواسى للحياة، لخضرة الحقول، ومياه النيل ساعة الغروب، لطعم العرقسوس، ووجبة من الفول نتناولها سويا فى فترة الغذاء. عيناى تريان كل شىء بألوان زاهية، مختلفة، وأذناى تسمعان أنغاما فى نداء الباعة، ودوران العجل، وأجنحة الطيور.. نقف وسط الزحام ملتصقين، غارقين فى عالم معزول، أو نطل من نافذة القطار على الأطفال يلعبون فى حوش المدرسة، وعربات الخضار المرصوص بعناية، ونوافذ البيوت تضيئها الشمس.. عندما ألمسها يسرى فى جسمى تيار عميق كجريان الدم فى شريان الجنين.. كأكسير الحياة يبدد الغربة، والوحدة، وبرد الزنازين، كأن جزءا منى قد ضاع، فعندما وجدتها، وجدته من جديد..

هكذا أعطانى الحب ما لا يستطيع أى شىء آخر أن يعطيه..

أمسية صيف فيها عطر، وبراءة. خطواتنا لها صدى فوق رصيف المحطة الخالى من المنتظرين.. عند أسفل السلم أطفال يقفزون فوق مربعات «الأولى» المرسومة بالطباشير.. البطيخ يلمع بغموض أخضر تحت أضواء المصابيح، والناس يتزاحمون حول الحوانيت يبتاعون حاجياتهم قبل العشاء.. نجتاز شارعا ضيقا بين صفين من البيوت، ونسمع التنفس المنتظم لمواقد الكيروسين.. نتوقف عند باب خشبى منخفض تدفعه بيدها، ونخطو فوق الممشى القصير، وسلم من الحجر الأبيض يلمع فى الظلام.. أسمع صرير المزلاج.. أضع يدى على كتفها فألمس دفئه تحت الثياب.. ندخل فى الصالة الفسيحة.. تضىء الأنوار.. مقاعد، وكنبة، ومنضدة.. الجدران بيضاء، وخشب الأثاث طلاؤه داكن... الستائر، والأغطية، والأكلمة تشتعل بالألوان، وعلى المساحة البيضاء الخالية من الجدار المواجه للباب لوحة لامرأة تغزل السجاد.. أشارت إلى أحد المقاعد فجلست..

«هل تريد أن تأكل شيئا.. عندى قليل من «الزبادى» صنعته بنفسى، وجبن أبيض، وبيض، وخبز، وشاى.. أثناء إعداد الطعام يمكنك إن أردت أن تستريح على هذه الكنبة..».

«هل ستأكلين معى..؟».

«نعم..».

«ولنأكل إذن..».

اختفت فى الداخل، وبعد قليل عادت بصينية وضعتها على منضدة صغيرة بيننا.. حركاتها فيها قليل من التوتر كأنها لم تتعود إعداد الطعام.. مع ذلك ترعانى باهتمام. تعد لى «ساندوتيشات» من العيش الساخن، وتصعد إلى الصندرة فى المطبخ لتحضر اناءً زجاجيا من الليمون المخلل، ووعاءً من عسل النحل.. أحس أنها سعيدة بوجودى، مطمئنة إلى هذا الرجل تستقبله فى ساعة

متأخرة من الليل. أول مرة أشعر فيها منذ شهور أننى لست فى منزل غريب.. أجلس مسترحيا فى المقعد المريح، واستمع إليها وهى تتحدث بصوتها الغنى العميق...

«سأريك المرسم الذى أقمته فوق السطح عندما تحضر بالنهار.. أحب الرسم، وأريد أن أتفرغ له.. ولكن ظروف الحياة حالت دون ذلك.. أشياء تغلى فى داخلى أريد أن أعبر عنها.. ولكنى أضيع الأيام فى رسم الأثاث.. صحيح أننى أجد متعة فى ذلك، وأشعر أننى أصنع أشياءً جميلة للناس.. ولكنه ليس مجالى الحقيقى. فأنا خريجة فنون جميلة، ولى موهبة فى الرسم.. أريد أن أصنع لوحات يشار إليها كفن نادر المثال. فلماذا لا أكون مثل الرسامين العظام الذى أعترف بهم العالم؟ هكذا تبدو لى المسائل.. ربما احتاج إلى قدر أكبر من الجرأة حتى أقدم على ترك عملى فى المصنع، والتفرغ للفن.. فكرت فى هذا الاحتمال عدة مرات، ولكن فى آخر لحظة ترددت.. من أين أجد احتياجات المعيشة؟ ليست لدى موارد سوى مرتبى، وقد قررت ألا أتزوج حتى إذا كان الرجل الذى يتقدم لى مستعدا لتوفير الإمكانيات التى احتاج إليها.. من الصعب على الرجل أن يتعامل مع المرأة على قدم المساواة، حتى إذا شاركته فى حمل جميع أعباء الحياة.. فما بالك إذا كان يتولى الانفاق عليها.. والرسم فى بلادنا فن صعب، وغير معترف به إلا لحساب عدد قليل من الأغنياء الذين يهتمون بشراء اللوحات..».

نبرة من الأسى تتسلل إلى الكلمات.. عندما تحزن أحس أنها تدخل عالما بعيدا كأنها غابت فجأة عن كل ما يدور حولها.. كأنها تلقى بنفسها فى محيط يبتلعها. تبذل جهدا لتعود، فيعود البريق إلى عينيها.. تلتفت إلىّ.

«وأنت.؟».

قلت..

«الساعة تجاوزت الثالثة صباحا.. لا بد أن أنصرف.. ولنكمل الحديث مرة أخرى..».

تنظر إلىّ وتسألنى بصوتها الهادىء العميق..

«ولماذا يجب أن تنصرف.. أمامك مشوار طويل.. ونحن هنا على مقربة من عملك.. يمكنك أن تبيت الليلة. سنتناول الإفطار سويا فى الصباح، ثم نستقل القطار..».

أحس بالخجل، ليس إزاء دعوتها بالبقاء، ولكن لأنها تسبقنى فى الاعتراف بجوهر الأشياء، وتتغاضى عن الشكليات.. أهرب فى لحظة من الصمت.

«لا بأس.. الواقع أننى أريد البقاء معك..».

«ولماذا لا تعبر عن رغبتك؟».

«لم يتعود الناس على مثل هذا السلوك».

«مالنا وما للناس.. أنا التى أقرر ماذا أفعل بنفسى، وليس غيرى. منذ أول يوم، عندما تحدثت إلىّ فى الطريق، كان يمكن أن أرفض مبادرتك.. ولكنى أحسست بك، رغم أسلوبك غير المألوف. فوافقت على أن نلتقى.. ولولا ذلك لما نشأت بيننا هذه العلاقة..» تصمت لحظة ثم تضيف.. «هناك سرير آخر فى حجرة النوم يمكنك أن تنام عليه..».

«ولماذا لا أنام على الكنبة هنا حتى لا أثقل عليك.؟».

تلقى بابتسامة سخرية خاطفة ناحيتى..

«كما تشاء.. ولكن السرير أكثر راحة، وبه «ناموسية».. إلا إذا كنت تهوى أن تلدغ من «الناموس» طول الليل. هيا بنا ننام الآن، وإلا لما استيقظنا فى الصباح..».

تطفىء الأنوار.. أسمعها تخلع ملابسها فى الظلام، وترقد على السرير.. عيناى مفتوحتان، طار منهما النوم.. الساقان الطويلتان المستديرتان.. والشفاه.. والبطن.. ينبوع من الأبر الساخنة يرتفع فى جسمى.. بعد قليل أسمعها تهمس.

«هل نمت؟»·

«لا. ليس بعد..»

«فيما تفكر..؟»·

«لا أفكر فى شىء ذى بال.. لم أنم على الفور لأننى فى مكان غريب.. أو ربما..»... أصمت.

«ربما ماذا؟»·

«ربما لأننى أريد أن أنام إلى جوارك»·

صمت طويل ثم تقول:

«أنا أيضا أريد أن أنام إلى جوارك.. لكن على شرط. لا تقربنى.. فأنا لم استعد للقاء معك بعد...»·

أحس بجسمها الدافىء يلمسنى.. تقرب رأسى إليها برفق.. ذراعها تلتف حولى، صوتها يهمس.

«الآن يمكنك أن تنام»·

* * *

ترددت طويلا قبل أن أجيء إلى هذه المحكمة.. كانت تتجاذبنى عوامل كثيرة جعلتنى أحس أننى أتمزق فى الداخل، وأننى إذا حضرت لن أعود أبدا مثلما كنت فى الماضى، مالكة لنفسى تحت كل الظروف.. ولكنى أدركت فى النهاية أنه لا بد أن أقف إلى جواره، وألا اتخلى عنه فى هذه اللحظات.. لقد أساء إلىّ كثيرا. جرحنى حتى الأعماق.. ولذلك لم أعد أحبه. هذه هى الحقيقة.. ولكنه فى يوم من الأيام كان قادرا على العطاء، ولولا أشياء كثيرة لما قادته خطواته إلى هذا المصير.. أما أنا فعندما أفكر فيه الآن أتذكر الأشياء التى جذبتنى إليه. رقته، وإحساسه الإنسانى بى كامرأة، وغضبه على مظاهر القهر والاستغلال.. كانت فيه نواحى ضعف أدركتها مع الأيام.. ولكن الحب. مثل كل شىء يتعلق بالإنسان لا يقبل تجزئة الأشياء.. حبى أنا لم يكن أعمى. كنت أراه جيدا، وأعرف ما يدور فى ذهنه، وأتنبأ بما سيفعله فى أغلب الأحوال.. العاطفة الحقيقية تأخذ الإنسان ككل.. «وخليل منصور خليل». إذا ما أخذ بكل ما فيه من صفات كان رجلا يمكن أن يحب من امرأة مثلى.. وكان يمكن أن يكون مصيره مختلفا، لو كان فى بلد يقدر الإنسان..

أنا أعرف أنهم يودون أن أقوم بدور الشاهد ضده.. أن يلعبوا على شعورى بأننى طعنت.. على الغيرة، وعلى كل ما يمكن أن يمس كبرياء امرأة تعرف قدرها.. ولكنى لست مستعدة للقيام بهذا الدور.. ولا للخضوع للإغراءات

والتهديدات التى تعرضت لها من قبل رجال «إدارة السلام الاجتماعى»، وممثل الاتهام. لا أنكر أنه استولت علىّ فكرة الانتقام فى بعض اللحظات.. ولكنى فى نهاية المطاف قررت أن أقف مع الحق بصرف النظر عن كل الاعتبارات.. والحق فى هذه القضية هو أن «خليل منصور خليل» لم يقتل «روث هاريسون».

الصمت يخيم على القاعة.. صمت عميق مطلق لا تسمع فيه حتى الانفاس.. على المنصة تنكمش الأجسام، وتبرق العوينات فى ضعف.. أقف منتصبة القوام.. شعرى ما زال فى سواد الفحم، مسترسلا كالأمواج.. حركة أصابعى الطويلة تعبر وحدها عن الجسم المشدود، والذهن، والإحساس.. صوتى واضح النبرات يتردد فى القاعة.. أنظر إلى عينيه، وأحيا فى قطار «حلوان»، فى لحظات من العمر لا أنساها.

يبحثون عن جذور هذه القضية، وأسبابها.. ويسألوننى لماذا تزوجت «خليل منصور خليل»، وعما فعله خلال هذه السنوات، ولماذا انفصلت عنه.. أسئلة تصعب الإجابة عليها، لا لأننى لم أفكر فيها، ولكن لأنها تتطلب أن أكشف عن كثير من الأشياء.. فعالم الأفكار والمشاعر ما زال من الأسرار التى تبقى مدفونة فى أغوار النفس.. ما يقال، وما يعبر عنه الناس فى أغلب الأحوال، غير ما يحتفظون به فى الأعماق.. نحيا على الخوف، والكذب، والنفاق، ثم بعد ذلك نندهش عندما لا تنصلح الأحوال.. مع ذلك سأقدم على توضيح ما كان بينى وبين «خليل منصور خليل».. فأنا أريد له أن يفلت من حكم الإعدام الذى يعد له.. فإذا مات سأعيش أنا هذه الوفاة.. ولكن الأهم هو ألا أدعهم يشوهون ذكراه عند ولدى الذى حملته فى الأحشاء..

فى تلك الليلة نام بين أحضانى فى اطمئنان.. وظللت مستيقظة حتى الصباح. كنت أعيش معه لحظات من السلام.. استمع إلى أنفاسه تتردد بانتظام، وأشعر أننى أعطيته ما لم يستطع أن يعطيه له أحد سواى.. الراحة للإنسان الذى يعانى

من صراع لا أعرفه.. فمنذ اللحظة التى رأيته فى القطار أحسست به.. وجهه الرفيع المشدود فيه حزن. ولكنه ليس حزن الضعيف. وكتفاه فيهما انحناء. كان يجلس إلى جوار النافذة فتأملته.. لسانى يلوك الكلمات، وذهنى سرحان فى هذا المجهول.. يبدو نائما، ولكنى استشعر اليقظة تحت الجفون.. فتح عينيه والتفت ناحيتى فوجدت نفسى غارقة فى صفاء غريب يبث فى تيار الاضطراب، كأنه كشف النقاب عن نفسه، وقدمها إلى فى لحظة واحدة رائعة، ثم أسدل الستار.. دارت الأيام فنسيته إلى أن لمحته يقف فى الممر وسط الزحام.. أدركت أنه رآنى.. هبط فى نفس المحطة، وأخذ يتتبعنا على الطريق.. يوم مشمس من أيام الشتاء، وفى الحقول اخضرار البرسيم. قلبى يدق بالفرحة، ويستعجل اللقاء.. حذر السنين الماضية يتلاشى، ويذوب فى دفء النظرات استقرت على وجهى، ثم أخذت تلمسنى من الخلف.. يقترب منا ويقول «صباح الخير»... ومن أول لحظة يسرى تيار الكلام بيننا، وشىء فى العيون يقول: «لن نفترق بعد الآن..».

كنا ننتظر بعضنا كل يوم فى محطة «دار السلام»، ونستقل القطار مسافة قصيرة حى نصل محطة «حلوان»، ثم نمشى سويا على الطريق، فاتركه عند باب المصنع، ويواصل هو السير.. ساعة الظهر نتناول طعام الغذاء وسط الحقول، أو فى مطعم صغير يقدم أنواع الشواء، والفول.. لم يكن لى إلا عدد قليل من الأصدقاء نتبادل الزيارات فى بعض الأحيان.. ولكن «خليل» كان بالنسبة إلى شيئا آخر.. تسلل إلى حياتى كالنسيم، وغزاها كالعاصفة، لسبب بسيط هو أننى لم أجد فيه تلك الصفات التى تخيفنى من الرجال.. كان يقدر رغبتى فى الاستقلال، فى أن أبقى حرة، قابضة على ناصية حياتى، أقبل ما يتفق مع نظرتى للأمور، وأرفض ما هو سواه. منذ الطفولة كنت شديدة التمسك بهذا الاستقلال.. كان يتعامل مع هذه الزاوية من شخصيتى بطبيعية، وفهم. كأن فيه جانبا أنثويا يدرك كنه المرأة، ويصل إليه، ويستشعر مدى السعادة التى تحتويها إذا ما التقت مع رجل يتعامل

معها على قدم المساواة..

هكذا استسلمت لعواطفى، وأحببته.. بالطبع لم تخل حياتنا من الصراعات، ولكننا تجاوزناها سويا. لم أحس فيه أبدا بالعدوان عندما أخذنى لأول مرة بين أحضانه. شعرت أننى أنا التى تعطى نفسها.. أنه عطاء متبادل نكتشف من خلاله أن كل منا له جسم، نتبين ملامحه، ونغوص فى أغواره، ونتخطى حدوده إلى حدود أخرى نتخطاها أيضا، وكأنه ليست له حدود.. فتنفجر ينابيع الدفء، واللذة، والحب.. رأيت تجاعيد الحرمان تتلاشى من على وجهه، والجفاف الحاد يختفى من ملامحه، وحركاته تتحول إلى انسياب قوى. صار ضحوكا قادرا على الحزن بعد أن كان حزينا قادرا على الضحك. ونما حبى له إلى درجة كانت تصيبنى بالفزع فى بعض الأيام.. فأنا امرأة تريد أن تظل حرة.. ولكن فى نفس الوقت تلاشى الإحساس بالوحدة الذى لازمنى منذ الطفولة.. وكأن وجوده أعاد إلىّ جزءا ضائعا من نفسى كنت أبحث عنه من زمان..

تزوجنا فى يوم ممطر.. الهواء يصفر، والسماء تغطيها السحب الرمادية الكثيفة وتحولها إلى غطاء معدنى بارد.. ذهبنا إلى مأذون الحى الذى يسكن فيه.. أحضر هو «فاروق المغربى» كشاهد.. وأحضرت أنا أحد زملاء العمل.. كان جسمى يرتعش من السقيع وربما من فكرة أننى سأخوض تجربة الزواج من جديد، أو من إحساسى بعينى المأذون الضيقتين تتفاديان النظر إلىّ، كأنه أسقطنى من عداد الكائنات الحية، أو من صوته الرتيب المتعجل يوحى بأنه يقوم بعمل مشين يريد أن ينتهى منه فى أسرع وقت.. وعندما سأل الرجل عن مقدم الصداق، ومؤخره بدا لى أننى سلعة يسأل عن ثمنها، فانتابنى شعور عميق بالمهانة.. كنا قد اتفقنا على مبلغ صغير لمجرد تسديد الشكليات وتخفيض أجره، ولكن عندما تدخل «فاروق» وقال «جنيها واحدا» شعرت بالغضب، ولم أغفر له ذلك أبدا، رغم أننا سرنا فيما بعد من أقرب الأصدقاء..

بعد انتهاء مراسم الزواج، ذهبنا إلى مقهى مغلق بالزجاج وشربنا الحلبة الساخنة.. حاول «فاروق» أن يغير جو الكآبة الذى سيطر علينا، وأخذ يحكى لنا آخر النكات: «ذهب رئيس الوزراء لزيارة حديقة الحيوانات.. فلما وصل إلى «جبلاية» القرود أصروا على أن يلتقطوا معه صورة تذكارية.. وفى اليوم التالى ظهرت الصورة تتصدر جميع الصحف وقد كتب تحتها: «رئيس الوزراء أثناء زيارته «جبلاية» القروض فى حديقة الحيوان بالأمس.. ويرى سيادته الثالث على اليمين»..

هذه هى الانطباعات التى أتذكرها عن هذا اليوم.. لا أعرف لماذا، ولكن جاءنى شعور غامض أن هذه المراسم البسيطة لم تكن نتيجة اقتناع عميق من قبل «خليل»، وإنما بسبب القصور فى موارده المالية.. كان يبدو عليه شيء من الضيق، والتوتر فسره عقلى على أنه توتر المقدم على خطوة هامة فى الحياة.. فطردت الشعور الذى أتانى لحظة، ونسيت الموضوع.

ضحكنا، وتبادلنا القبلات وسط التمنيات بالسعادة، وطول العمر، ثم انصرفنا.. اصطحبت «خليل» إلى شقته فى «بولاق الدكرور» حيث كان قد أعد أمتعته.. هبطنا بها إلى الشارع بمساعدة البواب الذى أخذ يرمقنى بنظرات متسائلة.. ذهب «خليل» للبحث عن سيارة أجرة عاد بها بعد نصف ساعة.. أوصلنا السائق إلى بيتنا فى «دار السلام»، وعلى الباب دار نقاش طويل معه.. فقد أراد أن يتقاضى ما يساوى ضعف الأجرة المعتادة..

وضعت الحقائب فى حجرة النوم، وأشعلت المدفأة فى الصالة، ورفعت سماعة التليفون، ثم ذهبنا إلى المطبخ لنعد الطعام سويا.. شرائح من اللحم المشوى، وسلاطة، وبرتقال، وموز.. شربنا معه زجاجة من النبيذ.. تشابكت أصابعنا، ودار حديث هامس عن ذكريات الطفولة، وأغانى «فيروز»، وصعوبة الحب. طال الحديث كأننا نؤجل اللحظة التى طالما انتظرناها.. وبعد أن عاد إلينا الإشراق والدفء،

دسسنا أنفسنا فى السرير تحت أغطية من الصوف، وأعطيت نفسى للرجل الذى أحببته كما لم أعط نفسى له من قبل.

هكذا بدأت حياتنا الزوجية.. كنا متقاربين إلى حد بعيد، رغم بعض الاختلافات.. النظرة العامة للأشياء تكاد تكون واحدة.. جاءته عن طريق تجربته فى السياسة وجاءتنى من ظروف أسرتى التى كنا فيها عشرة من الأخوة والأخوات.. عمل والدى طوال حياته موظفا فى وزارة الصحة.. لم يتخط الدرجة الثالثة عندما مات.. عشق الثقافة والأدب العربى، وكره المظاهر الكاذبة فى الحياة.. نشأت احترم المعرفة، والعمل، واحتقر من يختالون فوق الأرض لمجرد أنهم أغنياء.. أقارب أبى من الفلاحين، ولكن أمى من أسرة موسرة إلى حد ما.. تزوجت من والدى عن حب، وأصرت عليه رغم كل الاعتراضات، وكان هذا شيئا نادرا للغاية فى ذلك الوقت، وما زال.. فعشت منذ بداية حياتى فى هذا التناقض بين الأسرتين.. انتقل فى إجازات الصيف بين البيت الصغير المبنى بالطوب الأخضر، والتبن، والطين فى قرية والدى «كفر الطحين»، وبين المنزل الفسيح المبنى بالحجر الأبيض، والرخام حيث كان جدى يعيش فى «مصر الجديدة».. عندما يحضر أقاربنا من «كفر الطحين» لزيارتنا كانوا يرتدون الجلاليب الداكنة تفوح منها رائحة الحطب، والحلبة، والتراب.. كعوبهم المشققة تطل من تحت أطراف الثياب، والغضون محفورة بالمحراث فى ملامح الوجه.. فأشعر بالخجل من نظرات الجيران، وأتوارى خلف الباب.. ولكن عندما يحضر أقارب أمى، وقد لفوا أجسامهم فى البذات الأنيقة، والفساتين المكواة، أقفز وأجرى كالأرنب من مكان إلى مكان. وأخرج إلى الشارع ، وأدخل عشرات المرات حتى يسألنى الصبية، والبنات «من هم أولئك الناس؟» ولكن سرعان ما اقنعنى أبى أن الرجل والمرأة قيمتهما ليست فى الضياع، والحلى، والثياب.. كان يحترم أمى لأنها رفضت كل من تقدم إليها من الأثرياء، واختارته دون سواه. وظلت العلاقة بينهما صافية،

جميلة إلى آخر الأيام. فلما ماتت لحق بها كأنه يريد أن يبقى بجوارها إلى الأبد. أدركت أن قيم المجتمع التى نؤمن بها معوجة لا علاقة لها بجوهر الناس.. وكان «خليل» يفكر مثلى.. ولكن موقفه هذا كان عقلانيا قبل أن يكون نابعا من ظروف الحياة، وعمق الإحساس.. كان يتذوق الفن.. وأهم من هذا أو ذاك، كانت علاقته بالمرأة سوية، خالية من العقد والإلتواء.. لذلك عشنا أياما من السعادة لا يمكن أن أنساها. لقد أساء إلىّ كثيرا فيما بعد.. ولكن فى بعض الأمسيات عندما أجلس وحدى، أقول لنفسى أننى كنت محظوظة رغم كل العذاب.. فلا تتاح للمرأة مثل السعادة التى عرفتها معه إلا نادرا. لذلك أشفق عليه مما حدث وأحس ناحيته بنوع من الامتنان.. فالذين يبحثون عن العدالة يجب أن يتعلموا كيف يمارسونها فى كل الأشياء..

لقد أحببته باخلاص... وبعاطفة قوية كالشلال. وأعطيته نفسى حتى الأعماق.. ولكنه لم يستطع أن يدرك أن ما قدمته له شيء نادر المثال.. كان فيه كسر أو شرخ فى مكان ما.. ربما حياته الأولى عودته أن ينال كل ما يبتغيه بسهولة، فعندما واجه الحرمان، والنكران بحث عن طريق آخر يعوض فيه ما فات.. وربما القهر، والحديد، والقضبان، والطموح المشروع يصطدم بمصاعب كثيرة فيولد لديه شعورا قويا بالإحباط.. أو ربما كل هذه العوامل تضافرت فى فترة حاسمة وجد نفسه فيها مضطرا إلى أن يستأنف الحياة بعد أن انقطعت مدة سنوات.. يبدؤها من جديد وفى ظروف اشتد فيها الحصار حول أمثاله من الناس. فقادته خطواته إلى أشياء فيها سهولة، وفيها بريق.. إلى امرأة جاءته من قارة أخرى خلف المحيط.. وهو فى هذا لم يشذ عن الكثيرين الذين يسيرون فى الركاب.. ربما تكون ميزته أن كان له ماض أقلقه بعض الوقت فحاول الاستمرار فيه.. أما هم فليس لهم ماض، وليس لهم تاريخ..

عندما قلت هذا لرئيس المحكمة حاول أن يمنعنى من الكلام.. قال إننى أخوض

فى مسائل سياسية ليس لها علاقة بالقضية.. ولكن كيف استطيع أن أتفادى السياسة بينما هى تدخل فى صميم الحياة الشخصية.. «فخليل منصور خليل» لم يفعل أكثر من مسايرة التيار الذى تقوده اليوم الصفوة الحاكمة فى البلاد.. كل الفارق بينه وبينهم هو أنه أبى أن يصل حتى النهاية.. لقد حاول المدعى الوطنى العام، شأنه شأن رجال «إدارة السلام الاجتماعى»، أن يصوروا موقفى على أنه لا يعبر سوى عن الغيرة من امرأة استولت على الرجل الذى كنت أحبه. ورددت الصحافة نفس الحجج المغرضة، الهزيلة، «فخليل منصور خليل» محكوم عليه سلفا بالإعدام. وما أقوله لن يغير شيئا فى مصيره.. و«روث هاريسون» توارت تحت التراب. أما حبى فقد مات، أو بالأحرى دفنته بيدى منذ أن واجهت حقيقة الأوضاع.. أحيانا أقول لنفسى ربما كنت سأغار لو أنه أحب امرأة من نوع آخر، تتفق مع ماضيه، ومع ما قدم من تضحيات.. كنت حينذاك سأفهمه، واحتفظ بتقديرى له.. ولكن عندما ارتبط «بروث هاريسون» قتل ما كان بينى وبينه من عواطف. وكل ما أشعر به الآن هو مزيج من الاشفاق عليه والوفاء لأيام مضت..

انقضت الأيام الأولى بعد زواجنا كالنهر المتدفق الخصب، لا يكدر صفوها أى شىء.. فنحن شريكان بمعنى الكلمة نتحمل كل أعباء الحياة، ونغترف من ملذاتها سويا. فى لحظات قليلة كانت تحدثنى حاستى العميقة بأن هناك خطا رفيعا أسود فى النسيج الناصع البياض.. دودة تنهش فى مكان بعيد من أعماق الرجل الذى ارتبطت به.. يجلس وحده أحيانا فى ركن مظلم من الحجرة، ويغيب فى عالم خاص.. يبقى هكذا ساعات طويلة دون أن ينطق بكلمة، أو ينشغل بشىء، وعندما أسأله يدب فيه النشاط، ويتحدث عن الوقت الضائع، ويقلب فى أحد الكتب، أو فى بعض الأوراق، أو يصعد على السلم لينظف رفوف المكتبة. فإذا حاولت أن أضيق عليه الحصار، أكتشف فجأة أن لديه موعدا هاما كاد أن ينساه.. فيغير ملابسه بسرعة ويندفع من باب المنزل إلى الشارع دون أن يخبرنى متى

يعود.. كنت أحس فى تلك الأوقات بأنه يضع حاجزا سميكا بينى وبينه، وأنه بعيد، بعيد، لا أستطيع أن أصل إليه مهما حاولت.. يتملكنى شعور بالعجز كأنه أحاط نفسه بقوقعة لا يمكن اختراقها، أو رفع ذراعا قوية بيننا حتى لا أضمه إلى صدرى.. وجهه حزين، ولكنه حزن يفتقد التحديد، حزن بلا معالم أو حدود. كأنه أفرغ من الداخل، ولم يعد فيه صراع يستعر، أو عذاب يتألم، أو شعلة تومض فى الظلام.. كان هذا هو إحساسى ولكنى كنت واثقة أن هناك ما وراء الانطباع الذى يصل إلىّ.. كانت هذه اللحظات تصيبنى لا بالضيق، والقنوت فحسب، ولكن أيضا بحزن فظيع. فأنا أكره الشعور بالعجز، ولم اتعوده.. إذا واجهت مشكلة أصارع حتى أجد لها حلا، أو ألغيها من ذهنى، ولو إلى حين، والتفت إلى ما يمكن عمله. ولكن كان من المستحيل أن ألغى الحالات التى تصيبه من ذهنى، لأنى كنت أحبه، وأحس أنه يعانى، وأريد أن أعوضه عما فاته.. وفى نفس الوقت كان يبدو لى جاحدا. فأنا أقدم له الاهتمام، والحب، ولكنه لا يكلف نفسه حتى بالرد علىّ.. كان يبدو لى ضعيفا لأنه يستسلم لمثل هذه الحالات التى لا مبرر لها.. وكنت أقاوم لحظات اليأس والضعف التى يعانى منها حتى لا تتغلغل إلىّ أنا أيضا.. وهكذا أصبحت فريسة لمجموعة من المشاعر المتناقضة تجذبنى فى مختلف الاتجاهات..

تنبهت بالتدريج إلى أنه لا يصنع بحياته شيئا ذا بال.. أصبح موظفا بين الموظفين، يروح ويجىء فى المواعيد، ويكتب التقارير، ويتلقى التعليمات من رؤسائه.. أقدر ذكاءه، وثقافته، ورهافة حسه، ولكن ما الذى يفعله بهذه الميزات؟.. فى هذه الفترة بدأت أعطى جهودا مركزة للرسم.. أقضى الساعات الطويلة بعد العودة من العمل فى المرسم.. أهبط قرب منتصف الليل لأجده محملقا فى الفراغ، أو غارقا فى كتاب، أو مستسلما فى وداعة، أو بالأحرى فى بلاهة لإحدى المسلسلات التليفزيونية.. شىء واحد ظل مضيئا لا يصيبه الوهن..

الحب الذى كان بيننا.. ولكن الحب وحده لا يملأ حياة رجل مثله، أو امرأة مثلى.. وبعد ستة شهور من الزواج أضيف عنصر جديد للموقف. فقد أصبحت حاملا فى ابنى البكر، الوحيد. «عصام».

قررت ألا أستسلم لهذا الوضع.. ولكن حتى أحمله على مصارحتى لا بد من تهيئة الظروف التى لا تسمح له بالتهرب من المواجهة.. انقضى شهر مايو، وذهب معه موسم الخماسين.. أخذنا نفكر فيما عسى أن نفعله فى فصل الصيف.. تعودنا كل يوم جمعة أن نقضى النهار بعيدا عن البيت، فى الهرم، أو القناطر، أو الفيوم، أو أى مكان نحس فيه بالتغيير.. اقترحت عليه أن نكسر هذا الروتين. أن نأخذ اجازة لمدة ثلاثة أيام ونسافر فى قطار الديزل إلى الإسكندرية.. الجو دافىء، والشاطىء فى شهر يونيو لم يكتظ بعد بالمصطافين.. قبل الفكرة بترحاب، وأخذ يستعد للسفر بلهفة الطفل.. يكاد لا يستقر فى مكان.. عيناه عاد إليهما ذلك البريق الذى تعودت عليه. كم هو جذاب عندما يكون مرحاً، وسعيدا.!! أحس بالقوقعة تذوب، بالجوهر المتفائل يكسر الطوق.. يداه عندما تلمسانني تنقلان إلىّ شحنة من الحب.. فأحس أننى أريد أن أحتويه فى بطنى كالجنين.. قررنا أن نذهب إلى «سيدى كرير». يوجد فندق متواضع ولكنه نظيف، والرمال بيضاء، والبحر أزرق عميق.. وصلنا حوالى الساعة الحادية عشرة صباحا فى سيارة أجرة اتفقنا مع سائقها أن يأخذنا من باب البيت.. ألقينا بالحقائب فى الحجرة، وارتدينا ثياب البحر، ثم انطلقنا نعدو إلى الشاطىء. لا أحد فى المساحات الممتدة أمامنا سوى عدد من الصبية يصطادون السمك.. افترشنا الرمل.. السماء صافية، والشمس تدفىء جسمى وتثير فى شعلة الحياة.. الهواء، والرذاذ، وطعم الملح على الشفاه ووجه «خليل» إلى جوارى، يغلق عينيه فى نصف إغفاءة، ويفتحهما بين الحين، والحين.. نظراته تنفذ إلى كالتيار الكهربى، فاستسلم لعملية استكشاف بطيئة تثير فىّ مكامن لم أعرفها من قبل، وتزحف

للأركان البعيدة الراكدة.. يرقد قريبا منى، ويتأملنى فأتأمله، ونتحدث بكلمات قليلة. أضمه بين ذراعى، وأبحث عن فمه بشفتى.. أحس به ساكنا دافئا بين يدى.. المسافة حتى حجرتنا تبدو طويلة، مضنية.. قلبى يدق كحوافر الخيل على أرض السباق.. جسمه الخمرى يعلو ويهبط كالموجة، وأنا على سطحها كالمركب الشراعية.. وخزان ينفتح داخلى، ويسكب ما فيه.. يمتلىء المرة بعد المرة ويفيض.. أحس به ينتفض كالمذبوح، نفرغ الأجسام من كل ما فيها، ونكتشف صفاء الروح بعد اللذة الشقية.. افتح جفونى.. أراه يميل على ويقول: أعشق ما أقرأه فى عينيك»..

صوته هادىء، وملامحه مسترخية.. أحببته فى تلك الليلة.. كان قريبا منى، قلبه مفتوح، وعقله كالسكين الحاد فى يد الجراح «أنا لم أخلق للتأشير على أوراق يكتبها آخرون، أو لأحيا فى هذه الدائرة الضيقة، الرديئة.. شىء حدث داخلى لا أعرف ما هو، جعلنى كالمشلول، فاقد الثقة فى أننى استطيع أن أحقق ما أصبو إليه.. أحيانا أرتعد فى الليل، وتغزونى الكوابيس.. أرى القضبان تطل منها النجوم الباردة، وأسمع لسعة الكرباج على الظهر العارى ساعة الغروب.. أضغط بأسنانى على لسانى حتى لا أصيح، فيسرى طعم الدم بن شفتى.. أو أحلم أنهم قرروا ألا أخرج أبدا من خلف الجدران. فأستيقظ وقد استولى على رعب يكاد يخنقنى.. وعندما أجلس أمامك على مائدة الإفطار.. وأضع يدى حول فنجان الشاى، ونتحدث عن الأشياء العادية، يعود إلىّ الاطمئنان، وأحس أننى ما زلت قويا.. ولكن هذه الأحلام كثيرا ما تعود إلىّ عندما افتح جريدة الصباح وأقرأ عن قانون جديد للاشتباه، أو «لتنظيم الحرية».. أو إذا أحسست بوطأة السلطة تضرب حصارها حولى.. بالعيون تتبعنى فى الطريق، أو تنتظرنى فى المحطات، أو تتلصص أمام باب البيت.. بالبذة السوداء، وأزرارها النحاسية. بالسيارات البوليسية تزحف.. والسناكى المشرعة فى أركان المدينة.. برجل يقف على

الناصية ويتفادى النظر إلىّ.. بتهديد خفى فى صيغة نصيحة أخوية، أو إنذار مفاجىء من الشئون الإدارية. فأنا أخشى السجن.. كانت هناك لحظات كثيرة من العذاب تجاوزتها، ولكن ربما نالت من قدرتى على الصمود خطوة وراء خطوة إلى أن فتحت البوابة الخشبية، فخطوت فوق العتبة أحمل فى خيالى أحلاما وردية.. عندما وقفت تحت الشمس، ورفعت وجهى إليها.. إلى ورق الشجر، والسحب، والسماء، ونافذة أطلت منها صبية.. لكنى وجدت نفسى أقف وحدى.. لا أب، ولا أم.. لا حبيب، ولا صديق.. فأنهار البناء الداخلى الذى أقمته بالصبر طوال السنين وتحولت أحجاره إلى كومة من الطين».

«هذا ليس صحيحا.. أنت تبالغ.. نوع من تعذيب الذات، كأنك تشعر بذنب ما.. ربما لأنك لا تفعل شيئا. ما زالت فيك قدرة على الصمود. أنا واثقة من ذلك.. لا يمكن أن يكون شعورى قد أخطأ إلى هذا الحد.. لماذا تتذكر المآسى وحدها، وتنسى الأشياء المشرقة فى الوجود؟.. وكيف تتجاهل اللقاء الذى حدث بيننا.؟».

«نعم.. التقينا.. وفعلت من أجلى الكثير.. وهبتنى الحب، والثقة ولكن الثقة بالنفس تنبع من الداخل.. ليست حقنة استطيع أن آخذها من الآخرين.. أنت قوية، تعرفين ماذا تريدين، وإلى أين تتجهين.. وأنا متأكد أنك ستصلين بعنادك الذى لا توقفه العقبات. ولكن ربما تكون قوتك مصدرا من مصادر الضعف الذى أشعر به. فأنا أقارن بينى وبينك على الدوام.. وأحس أحيانا بضيق من نفسى يصل إلى حد الإزدراء..».

«هذا شعور خاطىء، وليس له أساس.. أنت صاحب تاريخ، وماض عظيم وما زال أمامك الكثير.. أما أنا فلم أفعل شيئا حتى الآن..».

«ولكنك ستفعلين.. الماضى مهم، ولكنه لا يكفى وحده. الماضى شىء كالكنز

يمكن أن احتفظ به، وأعرضه من باب المباهاة على الآخرين. ولكن إذا أردت له أن يكون ذا فائدة، لا بد أن أصرف منه، أن أعطيه.. لست متغاضيا عن قيمته، ولكنى لا أستطيع أن أحيا فيه.».

«وما الذى يمنعك من أن تواصل الطريق؟».

«شىء فى داخلى كالجدار العتيد..».

«حاول. عندكم فى الشركة يوجد «سعيد».. أننى اثق فيه. وهو يقوم بالكثير».

«أسود كالليث، وجميل.. وأنت بيضاء.. فيكما جمال مفترس. ووديع أنت الأنثى وهو الذكر، ولكنكما من نفس النوع.. رضعتما من لبن اللبؤة فسرت فيكما روح التحدى.. أحيانا أحس بالغيرة عندما أصعد إلى المرسم فأجدكما تتحدثان سويا..».

«ولكنى أحببتك أنت «خليل».. الإنسان الرقيق، والرجل الذى يعرف كيف يثور.. «سعيد» لا يمكن أن يكون بالنسبة إلىّ أكثر من صديق.».

«ربما أخطأت التقدير.. لا يمكن أن أكون مثل «سعيد».. لماذا لا أعرف. هل هى الظروف، أم هى المعدن الأصيل.. أنا كالزجاج الثمين، صافى فى بعض الأحوال.. وعندما تصفرالعاصفة تلطخنى بالطين.. أنا قابل للكسر. لذلك لست مثل «سعيد».. أنه شىء آخر جديد.. لم يفقد قدرته على التحدى، لم تبل أسنانه، وأظافره من كثرة القص، والبرى، والتهذيب.. نفسه قوية.. وعقله يقظ.. لا يحتاج سوى إلى المعرفة، وصقل الأدوات التى يستخدمها.

«لكن لك تجارب، وتاريخ.. فلماذا لا تعطيه.؟».

«فكرت فى ذلك، وربما حاولت..».

«أحبك «يا خليل».. خذنى بين أحضانك. عندما تتحدث هكذا أشعر كأنك تعود إلىّ.. وأننى وجدتك من جديد».

* * *

الأفكار والذكريات ترتبط فيما بينها بعلاقات خاصة لا تخضع فى أغلب الأحيان للمكان أو الزمان... لها منطقها الخاص والأصيل.. لم أتصور فى يوم من الأيام أننى سأقدم للمحاكمة بتهمة القتل. فأنا لست عدوانى الطبع. لقد حدث أثناء الدراسة فى الجامعة أن اشتبكت فى بعض المعارك مع رجال الأمن، أو مع أعضاء الجماعات الدينية المتطرفة عندما حاولوا فض الاجتماعات بالقوة، أو الاعتداء علينا بالمطاوى والعصى.. وفى الليل كنت أحلم أحيانا أننى أضرب أحد الأشخاص الذين أكرههم.. ولكنى لم أحلم أبدا بالقتل.. فأنا أميل إلى التعامل بالعقل.. وعندما انخرطت فى الحركة السياسية وقفت دائما ضد الإرهاب..

قرأت فى الفترة الأخيرة ما كتبته الصحف، ووجدت أن هناك جملة تستهدف إعطاء أبعاد سياسية للقضية.. «فروث هاريسون» أمريكية.. وكانت لها علاقات واسعة بالأوساط الجامعية، ودوائر أخرى ذات نفوذ فى المجتمع. وقد نقبت بعض الصحف ذات الهوية المعروفة فى حياتى الماضية، وأعادت تلك اللعبة القديمة التى تستهدف خنق الأصوات المعارضة.. فظهرت العناوين الرئيسية تصرخ باللون الأحمر «شيوعى ملحد يقتل أستاذة جامعية أمريكية».. وانبرت الأقلام التى تدافع ليل نهار عن المصالح الأمريكية والصهيونية لتكتشف مرة أخرى أن هناك «مؤامرة تدبر ضد مصالح مصر من عملاء موسكو».. وأن «خليل منصور خليل» من الذين لهم تاريخ عريق فى العمالة».

وهناك وقت فى حياة الإنسان يشعر فيه بأنه يريد أن يقول الحقيقة، ويرتاح.. أن يفرغ كل ما حمله فى أعماقه من شحنة مثقلة بالتوتر، وينتهى، حتى ولو كانت النهاية هى الموت. فأنا كالمسافر فى الصحراء بلا ماء.. لم أعد أقوى على الاستمرار. أريد أن أرقد فوق الرمال وأن أستسلم له.. بل أنا أرحب به لأن من خلاله سأفلت من العذاب..

إن «روث هاريسون» لم تكن سوى مظهر فردى لظاهرة عامة، أو ظواهر عامة شملت حياتنا كلها. وكنت أنا أحد ضحاياها لظروف، وأسباب ليس من السهل أن أعى كل دقائقها.. إنها أشياء معقدة فى النفس، تعود إلى الماضى البعيد، وإلى تطورات السنين تؤتى آثارها بالتدريج.

مرت ستة شهور بعد أن حصلت على خطاب التعيين دون أن يحدث فى الشركة ما يستحق الذكر. استقر بى الحال فى العمل، بل صعدت سلم الوظائف بسرعة وأصبحت رئيسا لإدارة البحوث.. خصصت الإدارة لى مكتبا مستقلا، وسكرتيرة ترتدى طرحة بيضاء، وتصبغ شفتيها، وأظافرها بلون أحمر كالدم، وساع للبريد ينتفض واقفا كلما دخلت أو خرجت من الباب. أشرب القهوة فى فنجان «خاص»، وتوضع الجرائد إلى جوارى فى الصباح..

تزوجنا أنا و«أمينة» يوم ٥ فبراير سنة ١٩٧٣... وفى أكتوبر من نفس السنة عبرت الجيوش المصرية قناة السويس، وحطمت خط «بارليف»، فطارت قلوبنا من الفرح.. ولكنها فرحة لم تدم.. فبعد هذا الانتصار ببضعة أسابيع بدأت سياسة التسليم.. «كيسنجر» يروح ويجىء. نقرأ العناوين: «دبلوماسية المكوك».. و«سياسة الخطوة، خطوة».. و«الكيلو خمسة وتسعين، ومائة وعشرين..» عيناه الباردتان تطلان علينا مع فنجان الشاى الساخن فى الصباح، وكلماته الغامضة ترددها الصحف لتخفى ما كان يدبر لمصر. أما أنا فأحيا بعيدا عن كل ذلك.. أنسى الماضى، والأمل، وأعيش فى حاضر ضيق، محدود، ولكن مريح.

كانت «أمينة» بالنسبة لى كالمياه تروى النبات العطشان، وتفتح مسامه للحياة.. أقبلت على ممارسة الأشياء العادية التى حرمت منها منذ سنين. التهم الكتب التى تشتريها أثناء جولاتنا على المكتبات، والأكشاك.. أتنزه فى المساحات الممتدة على ضفاف النيل.. أستنشق رائحة الأرض المبللة بالندى، واقتطف الفروع المحملة بالياسمين.. أغرق جسمى فى دفء الشمس، ونعومة الجسم الأنثوى، اكتشف من جديد لذة الطعام الجيد، والنبيذ، والجنس.. أنا وهى كالتوأمين الملتصقين لا نفترق إذا وجدنا إلى ذلك سبيلا.. أنام بين أحضانها فى الليل، واستيقظ بين أحضانها فى الصباح.. استطعم معها سعادة نادرة كالوليد يفتح عينيه على الدنيا فى اندهاش.. ولكن فى ثنايا النغم الجميل همس كالنشاز يشغلنى عنها فى بعض الأيام.، وفى أعماق النفس جرح صغير تمسه أحيانا دون قصد، فينتفض من الألم.. وتحت سطح الحياة المبهجة شعور غامض بالإحباط، يجعلنى ألوذ إلى الصمت.. أقرأ فى عينيها كلمات عتاب لا تقولها.. فمن عاش مثلى أحلام الزنازين، وأنغرست فى نفسه القيود له عالم آخر يصعب اختراقه.. عالم يتسع للأمل، أو ينكمش من الخوف، عالم غريب فيه أسباب الطموح، وآثار القهر القديم. وتنتشر فيه الظلال أحيانا فتطغى على النور.. كانت هناك عوامل تشدنى فى مختلف الاتجاهات.. فأنا من ابناء الطبقة المتوسطة تجذبنى أشياء للقلة المتميزة، وانجذب أحيانا للفقراء.. عرفت حياة الرغد والراحة قبل أن ارتبط بالنضال.. أحن إليها بعض الأوقات، ولكنى عادة أميل إلى الاستمتاع بأشياء قليلة، طابعها جيد، وذوقها رفيع.. وهذا يفسر ولو جزئيا ما نشأ بينى وبين «روث هاريسون» من تقارب سريع.

كان والدى من أصحاب الفدادين.. ولدت فى منزل كبير فى الريف تحيط به الحدائق، وحظائر الجاموس، والخيل.. يراه الفلاحون مضاء بالمصابيح تومض كالنجوم فى الليل.. أنام على فراش وثير بين أغطية بيضاء كالحليب، وبطاطين

مغزولة من الوبر الناعم.. نأكل على مائدة طويلة تبرق فوقها أكواب الكريستال، والفضة الخالصة فى الشوك، والسكاكين.. ثم انقلب كل هذا فى السجن إلى النقيض.. إلى معاناة فى كل الأشياء، وحرمان.. كرهت القذارة، والقبح، والبق الزاحف على جدران الزنازين.. عرفت لسعة الكرابيج، والجروح تنزف الدم، والصديد، والسجائر المطفأة فى فتحة المستقيم.. وقضيت الليالى أطل من القضبان على البيوت المحيطة بسور السجن أحلم بالدفء، والطعام، وجسم امرأة التصق به، وأضيع. تحملت كل ذلك بكبرياء فقد كان الحلم الذى راودنى زاهى الألوان، جميل.. حلم الإنسانية القديم عن مجتمع فيه مساواة، وفرص للجميع.. كنت أشعر أن قدراتى على التحمل ليست لها حدود.. أن الجسم ربما أصابته الجراح، وسوء التغذية، والقرح تنخر فى المصارين، ولكن النفس كما هى لا تلين..

وكان يمكن أن يكون كل هذا صحيحا. أن أواصل الطريق الذى اخترته من قبل.. لكن الامتحان الحقيقى كان ينتظرنى خارج السجن.. خطوت من البوابة إلى الميدان الفسيح.. مددت ساقى إلى آخر المدى لأول مرة مذ سنين.. الشمس تصعد من خلف البيوت.. تسكب أشعاتها الأولى على أوراق الشجر، والناس، والسيارات، والكلاب، والبرتقال المرصوص كالهرم فوق العربات.. قلبى يدق من اللهفة.. أحمل كيسا من الملابس فى يدى، وأبحث بعينى فوق الطريق.. أبحث بين الواقفين أمام الباب، وصفوف السائرين على الأقدام.. نظراتى تنتقل بين الوجوه بإلحاح لا يمل.. تدرس الملامح، والملابس وطريقة الوقوف، وميل الكتفين، وانتقال القدمين على أسفلت الرصيف. تتبع حركات اليدين، وإيماءات الرأس، وبسمة الشفتين وخطوط الشيب.. أذناى تلتقطان مقاطع الكلمات، ونبرات الصوت، والضحكات، والهمسات المحبوسة فى الصدر كأنها ستخرج فى أى لحظة لتصرخ باسمى فى الفضاء.. أبحث مرة، واثنتين، وثلاثة، وأربعة، وعشرات المرات

كالمحموم يدور فى حلقة آلية مفرغة، ويعجز عن التوقف من شدة اليأس.. أبحث حتى عن أبى الذى أعرف أنه مات، وأنا أسير بقدمين حافيتين فوق رمال الصحراء.. وأبحث عن أمى التى راحت بعد أن ولدتنى فلم أرها قط. أبحث عن صديق تذكر يوم الأفراج عنى فجاء.. أو عن شخص أعرفه ربما يقف بالصدفة أمام الباب، أو يمشى فى الميدان. ولكن قبل هذا أو ذاك أبحث عنك أنت يا «تهانى» فقد تواعدنا منذ سنين على اللقاء.

بحثت عنك يا «تهانى راشد» فى ذلك الصباح.. درت بعينى على الرصيف، والشوارع، وأركان الميدان، وشرفات المنازل، والنوافذ، والسيارات.. ولكنى لم أجدك بين الناس.. وبعد أن مرت ساعات لم أحصها، وصعدت الشمس فى السماء، أدركت أنك لن تأتى مهما انتظرت.. فسرت وحدى على الطريق.. فى يدى اليسرى كيس الملابس، وفى قلبى حزن كالشلل أصاب الأحاسيس.. وعلى الحجر الصلب ترددت خطواتى برنين أجوف لم أسمع مثله من قبل.. السماء صافية، والميدان يزخر بالحياة. لحظة الحرية طالما انتظرتها.. والآن لا أعرف ماذا أفعل بها.. لا أحد ينتظرنى، ولا يوجد مكان أريد أن أتجه إليه.. كالذرة الهائمة الضائعة فى الفضاء.. أنا «خليل منصور خليل». أحمل معى قلبا حزينا، وغربة غريبة عن الحياة. فى لحظة الانتصار على كل ما مضى، أواجه نفسا خاوية، وهزيمة تطعننى حتى الأعماق.. الآن لا يوجد شىء. أعود إلى حيث جئت.. طفلا ضائعا يبحث عن صديق.. بيتنا كبير.. والفرش وثير. ونأكل طعاما جيدا بالشوك والسكاكين تبرق تحت المصابيح. ولكنى وحيد.. أبحث عن لمسة اليد الحنونة لأرتاح.. عن قبلة الصباح.. عن نظرات التقدير عندما أتفوق، وكلمات الإطراء.. أنا ابن الأسرة التى ولدتنى، ونتاج ظروف شكلتنى.. أنا طفل بلا أم.. أنا محصلة الكيمياء المعقدة التى تتفاعل فى النفس.. من السهل أن يلومنى الناس، أن يشيروا إلىّ بأصبع الاتهام.. ولكن الإنسان فى نهاية المطاف إنسان فإن لم يجد

من يستطيع أن يفهمه، ويمد له يد العون.. قد يقع، ويهشم رأسه فالذين يسيرون وحدهم ليسوا من البشر.. إنهم آلهة.. والآلهة نسجد لهم، ونتطلع إليهم فى إعجاب.. ولكنهم ليسوا مثلنا..

«وأمينة» لم تكن أبدا كسائر البشر.. خلقت لكى تحيا فوق القمم. وعندما يحب شخص مثلى امرأة مثلها، عليه أن يرتفع معها ليطل على جمال الكون.. على الزهور، والأشجار، والأنهر تجرى فى السهول.. عليه أن يحسم الأمور.. أن يتغلب فى نفسه على بذور الفشل.. وإلا تضاعف شعوره بالإحباط، وأصبح معرضا للخطر..

وكان حبى «لأمينة» كبيرا.. دخلت فى قلبى وساعدتنى فى خطواتى الأولى بعد السجن. كنت أحتاج إلى فترة نقاهة.. إلى أن أدرب قدمى على السير فى الشوارع، وعقلى على لقاء الناس. فأنا كالعائد من كوكب بعيد، أكتشف أن الدنيا تغيرت، وأننى أصبحت على هامش الأحداث.. تضاعفت غربتى فسرت عاجزا عن الانفعال، عن الانغماس فى دورة الحياة.. ما زلت اتمتع بخمسة حواس لكنى كآلة للتسجيل تنطبع فى ذهنى التضاريس، والأصوات، والروائح، والنكهات، وملمس الأشياء، ولكنها تمر على سطح الإحساس، كأنه يوجد سياج يحيط بالنفس.. كلما ذهبت إلى منزل أحد الأصدقاء، أو دخلت مكانا ما، أدور على الحجرة التى نجلس فيها، أفحص الصور، والأثاث، والجدران عن قرب، وألمسها بأطراف الأصابع كالأعمى يحاول أن يجسد لنفسه مختلف الأشكال.. وكان الحب بالنسبة إلىّ كالشفاء.. فعندما خرجت من البوابة الخشبية، وسرت فى شوارع المدينة، بحثت عن وجه أعرفه، وأحضان تستقبلنى بحنان. عن شخص ينتظرنى.. شخص واحد فقط أحس بوجودى، وتذكر أن «خليل منصور خليل» ما زال حيا.. وأنه عائد إلى الدنيا من جديد.. عن مكان، ومأوى أشرب فيه الشاى الساخن، وأدخن سيجارتى وأمد ساقى، وأستريح. عن الصداقة، والحب، والعطاء. عن

جسد امرأة يخرج جسدى من تحت الرماد.. كنت أبحث عن «تهانى راشد».. نعم عن «تهانى راشد» بالذات. ولكن ربما كنت أحتاج فى الحقيقة إلى حب إنسان يعيدنى خطوة بعد خطوة إلى الحياة..

و«أمينة» ليست مسئولة عما جرى.. فالآلهة لهم مميزات لا يمكن إنكارها.. أنهم يحركون المياه الآسنة، ويزرعون بذور الخلق. ولكنهم نوع خاص لا يصلح للتزاوج مع أمثالى من البشر.. هذا ما أدركته بالتدريج.. ولكن فى تلك الأيام كانت الدنيا تعطينى بسخاء، كأنها تعوضنى عما فات.. كل شىء على ما يرام، لولا شعورى بأننى أصبحت مجرد ترس فى الآلة الصماء.. موظف بين الموظفين.. أجلس خلف مكتبى.. أفحص الملفات، وأؤشر على الأوراق، وأعود آخر النهار فى أعماقى شعور بالإحباط..

ولكن فى ذلك الصباح كان مقدرا أن يحدث تغيير.. سمعت نقرات خفيفة ثم انفتح الباب.. رفعت عينى عن الأوراق لأجد شخصا يقف أمامى فى صمت.. أسنانه البيضاء تبتسم فى الوجه الأسمر. «الأفرول» الأزرق مكوى بعناية.. والجسم الطويل فيه قوة كامنة تحكمها الإرادة. قال:

«صباح الخير.. أنا «سعيد أبو كرم»، ملاحظ فنى عمال فى قسم الأقراص.. ورئيس اللجنة النقابية..».

«أهلا بك.. تفضل.. قبل أن أعرف منك ما تريد.. هل تشرب شيئا يدخل عليك الدفء.. فالبرد قارص فى هذه الأيام..؟».

«لا مانع..».

«قهوة، أم شاى، أم ينسون، أم قرفة.؟».

يضحك فى مرح..

«قرفة لو سمحت..».

لا أتذكر الآن كل الموضوعات التى طرقناها.. كان يتفرس فى وجهى بين الحين والحين، كأنه يحاول أن يحدد أى نوع من الناس أكون.. بعد أن انتهينا من المقدمات، وشربنا القرفة، أطرق إلى الأرض مدة قصيرة يفكر ثم رفع رأسه وبادرنى بسؤال لم أكن أتوقعه.

«هل قررت أن تعتزل العمل العام تماما، أم ماذا؟».

أتفادى نظرة العينين الجادة تأبى أن تترك لى فرصة الهروب.

«أنا أقوم بعمل عام فى وظيفتى، أليس كذلك..؟».

يصمت كأنه لا يرى مبررا للرد.. ولكن نظرته ما زالت تواجهنى بالسؤال..

قلت:

«لماذا تسأل..؟».

«أنت صاحب خبرة نحتاج إليها.».

«وما الذى استطيعه أنا، كفرد.؟».

«إذن أنت مستعد، ولكنك ترى أن دورك محدد.».

«لم أقل هذا.. لم أبد استعدادا لأى شىء..».

«لماذا.. ؟ ألا تثق فىّ.؟».

«المسألة ليست متعلقة بثقتى فيك.. لقد قمت بما يمكن أن أقوم به.. ودفعت الثمن.. والآن جاء دور الآخرين..».

«هل قررت أن تكون من عداد المتفرجين..؟ اشتراكى سابق، مثل الموظف الذى وصل سن التقاعد، وقرر أن يستقيل؟».

أحسست بالضيق.. ما الذى يبيح له أن يتحدث إلىّ بهذه الطريقة؟

«وأنت.. ماذا تفعل..؟».

«أنا رئيس اللجنة النقابية، كما قلت لك من قبل..».

«وخضعت طبعا لعملية الفرز الدقيق..».

مسحة من الألم فى الملامح، كالخاطر السريع.. ثم ابتسامة تهتز عند أركان الفم، تزحف فوق الشفاه، ثم تنسحب من جديد..

«لى اقتراح محدد.. أنا لست سياسيا، ولست منضما إلى أى تنظيم.. ولكنى رجل من العاملين.. أعرف أنه إن لم نتكاتف ستبتلع الحقوق القليلة التى حصلنا عليها بعد جهد طويل.. لذلك كرست جهودى للجنة النقابية، ولاتحاد العاملين فى الصناعات الكيماوية..».

«وماذا تريد منى بالضبط.؟».

«أنت لا تستطيع أن ترشح نفسك. سيعترضون عليك حتما. ولكن من حقنا أن نكون مجموعة استشارية تدرس معنا المشاريع وتقدم التوجيه الذى نحتاج إليه لتدعيم العمل النقابى.. فهل توافق على الانضمام إليها..؟».

وجهه فيه شىء مريح.. ولكن كيف يمكننى أن أثق فيه.. ربما تكون مصيدة جديدة.. شبح الماضى مخيف.. السيارة تزحف كالذئب عند الفجر.. والقبضة الغليظة على الباب تنتزعنى من دفء السرير.. الطفل الذى سيولد بعد شهور قليلة.. والأحضان تحتوينى فى الليل بدلا من البرش والبطاطين..

«لا أريد أن أشترك فى العمل النقابى، أو فى أى عمل آخر من نفس النوع. ولكنى سأستأنف عن قريب بعض الدراسات التى كنت أقوم بها فى الماضى.. وعندئذ سأتصل بك حتى تقدم لى ما لديك من معلومات إذا كنت مستعدا

لذلك..».

يقوم من المقعد. حركته فيها رزانة. لا يتلكأ، ولكنه ليس بطيئا.. كأنه يقرر بنفسه متى يذهب، ومتى يجيء.. أعجبتنى طريقته فى التصرف، فقمت ومددت له يدى..

«إلى اللقاء، يا «سعيد»...».

«إلى اللقاء، يا أستاذ «خليل.»..».

كان هذا هو أول اتصال بينى وبين «سعيد أبو كرم».. توقعت أن زيارته لن تكون الأخيرة. مرت ثلاثة أسابيع دون أن يتصل بى مرة أخرى.. فأحسست بمزيج من الفضول، والضيق.. ومع ذلك فتصرفه طبيعى. لقد قلت له أننى لا أريد أى نوع من الارتباط باللجنة النقابية، وأننى ربما اتصلت به فى شأن الدراسة التى أنوى القيام بها.. لماذا إذن هذا الشعور بالضيق؟ كأننى لا أستحق من وجهة نظره مزيدا من الاهتمام. أنا مركون على الرف، لا فائدة منى بعد الآن. ومن عسى أن يكون «سعيد أبو كرم» هذا..؟ ليس إلا عاملا. بسيطا، وفى أحسن الأحوال نقابيا يكرس جهوده للعمال. وفى هذه الأيام أغلب النقابيين من الصفر. أما أنا فسياسى قديم عرفت السجن، والتشريد، ولى اسم.. ولكن إلى متى أحيا على هامش الأحداث؛ واكتفى بهذا المكتب، والملفات التى تحمل إلىّ كل صباح، وخدمة تلك المصالح التى لا يربط بينى وبينها سوى المرتب الذى اتقاضاه، مصالح أحس ازاءها بغربة تتزايد مع الأيام. أما «سعيد» فعلى الأقل يحاول أن يفعل شيئا.. هكذا يقال عنه. إنه لم يخضع للمصير.. للقوى التى تبيع البلد جزءا جزءا فى المزاد. أرفع سماعة التليفون اطلب السكرتيرة.. تفتح الباب وتدخل.. تتأرجح فى ثوبها الطويل يلتصق بالأرداف، وحول وجهها الطرحة البيضاء..

«يا إيناس».. أريد أن أسألك عن أحد العمال. «سعيد أبو كرم» الملامح

تتجمد قليلا وعلى العينين يسقط سياج من الحذر.

« «سعيد أبو كرم»؟ لا أعرفه شخصيا، ولكنى سمعت عنه..».

«وما الذى سمعته.؟».

«أنه رجل مشاغب..».

«ماذا تقصدين.؟».

«يقولون أنه يصطدم بالإدارة دائما، وأنه».. تتردد قليلا «شيوعى»..

«شيوعى..»؟!

لحظة صمت أنتهزها لأفكر فيما عسى أن أقول.. المواجهة أفضل. «أليس هذا ما يقولونه عنى أيضا».

«نعم، ولكن الناس يعرفون أنك تبت.».

أحس بالدماء تصعد إلى أذنى، قفز قلبى فوق الضربات كأنه مهدد بالتوقف.. رفعت عينى إلى الوجه الأبيض فيه براءة من أعطى لله حقه فأصبح يتمتع بحرية الفساد. ليس لدى ما أرد به. تجاهلت ما قالته، وسألت.

«ولماذا يقولون عنه أنه «شيوعى»..».

«أنه لا يصوم شهر رمضان، ولا يرى بين المصلين..».

«ولكن أمثاله كثيرون..».

صمتت كأنها تبحث عن رد.

«هذا ما يقوله المدير الإدارى، ومكتب الأمن.».

«وما رأيك أنت.؟».

«رأيى أن الصلاة والصوم، لا بد منهما.».

«أقصد رأيك فى «سعيد»».

«الآراء تختلف.. وأنا بعيدة عما يدور. فى حالى.. لا علاقة لى بأحد»..

أعرف أن علاقتها وثيقة برئيس وحدة الأمن فى الشركة. لذلك خصصوها لى حتى يطلعوا على ما أفعله عن قرب.. فى يوم من الأيام سأتخلص منها.. عيناها لا تكفان عن الحركة. تدوران حول الحجرة كأنها تبحث عن شىء.. فى بعض الأيام أحس أنها فتشت مكتبى قبل أن أجىء.. تبقى قابعة فى حجرتها حتى أستدعيها، وعندما أمر على أوراقى أجد ترتيبها مختلفا عما كان.

«شكرا.. يمكنك أن تنصرفى..».

ستبلغ عشيقها بما دار.. لا يهم.. من خاف من الموت جاءه قبل الآوان. أكره عينيها تجريان كالجرذان فوق الأشياء. ربما كانت فى يوم من الأيام فتاة طيبة تطل من النافذة فى بيتها وتترك نفسها للأحلام.. لا بد أن أتخلص منها. لا بد أن أتخلص من أشياء كثيرة. ضقت بالوقوف على الشاطىء.. بشعور الندم، والنقصان. سأبحث عن «سعيد أبو كرم»، وليكن ما يكون. نعم من خاف الموت جاءه قبل الآوان..

* * * *

عندما ذهبت إلى المحكمة لأشهد فى قضية «روث هاريسون» الأمريكية. أخذوا يسألوننى كأننى أحد المتهمين. فأجبت عليهم بهدوء حتى لا أخلق مشكلة «لخليل منصور خليل».. كنت أريد أن أقول أشياء فى صفه دون أن أجنى على الحقيقة. فى البداية قلت: «أنا اسمى «سعيد أبو كرم»، سنى أربعون سنة، وكنت فى تلك الأيام ملاحظا فنيا فى قسم الأقراص «بشركة طيبة للأدوية..» من مواليد محافظة «أسوان».. نزحت مع أسرتى إلى القاهرة بعد ستة شهور من ولادتى. أتممت الدراسة الابتدائية، ثم التحقت بمدرسة الصنائع قسم خراطة. منذ أن تخرجت انتقلت بين عدد من المصانع فى «حلوان».. ذلك أن نشاطى النقابى كان يدفع الإدارة إلى تضييق الخناق علىّ، واضطهادى بمختلف الوسائل. استقر بى الحال فى «شركة طيبة للأدوية»، حيث توسط لى أحد أقربائى، يعمل طباخا لدى رئيس مجلس الإدارة..».

سألنى رئيس المحكمة فوضحت له أننى تركت الشركة لأعمل ميكانيكا فى ورشة لإصلاح السيارات الخاصة يملكها أحد أفراد أسرتى فى «أسوان».. فقد أرادت الشركة أن تنقلنى إلى مخازنها فى «أسيوط» بعد الإضراب الذى وقع فيها منذ ثلاث سنوات. ذلك أننى اتهمت بالتحريض على الإضراب. كنت رئيسا للجنة النقابية اذ ذاك. وكانت هناك مفاوضات مع «مؤسسة لاروشيل» الفرنسية لتحويلنا إلى إحدى شركات الاستثمار، والاستغناء عما يقرب من مائتين من العمال بحجة

العمالة الزائدة، وضرورة ترشيد الإنتاج.

ربطتنى «بخليل منصور خليل» أواصر صداقة متينة منذ أن عين فى هذه الشركة. ولازلت أكن له شعورا قويا حتى الآن، رغم كل ما حدث..

الحقيقة تختلف حسب الطبقة التى ينتمى إليها الإنسان، حسب الأرض التى نشأ فيها، وحسب وعيه بالأشياء. ولذلك أحسست أن المحكمة كانت ترى الأشياء فى هذه القضية من زاوية خاصة شأنها شأن موقف الحكام..

أتذكر الآن أنه عندما عين «خليل منصور خليل» فى شركتنا سرت همهمة بين العاملين. لقد كان ماضيه معروفا للجميع.. وهو نفسه لم يحاول إخفاءه. لم يكن يتحدث عن نفسه كثيرا، ولكن إذا سأله أحد كان يجيب بوضوح. «أنا اشتراكى منذ سنة ١٩٥٦.. وما زلت.». فى اللجنة النقابية ناقشنا الموضوع. هل نتصل به، أم نتغاضى عن وجوده بيننا.. كان الجميع باستثنائى أنا يرون أن الأفضل تفاديه.. بعضهم بسبب الظروف المحيطة بنا، والخوف من اتهام اللجنة النقابية بأنها أخذت تقع فى براثن «الملحدين» و «المخربين».. والبعض الآخر بسبب عدائهم لميوله الاشتراكية - أما القسم الثالث فقد كان حريصا على الابتعاد باللجنة عن التيارات السياسية عموما.. وفيما يتعلق بى فقد كان رأيى مختلفا تماما..ليس لأننى فى هذا الوقت بالذات كنت أنتمى لأى حزب. ولا لأنى كنت أدعى لنفسى وعيا خاصا بالقضايا السياسية أو الفكر الاشتراكى، ولكن لأنه بدا لى أن رجلا «كخليل منصور خليل» من الصعب أن يكون ضد مصالح العاملين. فقد نختلف معه فى بعض الأمور.. وقد يخطىء التقدير.. ولكن مفكرا سياسيا مثله يدعو إلى إلغاء الاستغلال لا بد أن يكون مع الإنسان الذى يعمل.

هكذا بدت لى الأمور. ربما كان هناك أيضا دافع الفضول.. فهذا الشخص الذى قضى سنين من العمر فى السجن دفاعا عن آرائه، ترى أى نوع من الناس يكون.؟

هل هو فاسد، أو مأجور. الاحتمال موجود.. ولكن الاحتمال الأكبر أن يكون مميزا عن الناس العاديين.. على أقل تقدير لم ينشغل بنفسه فقط، وبعالمه المحدود.. إذا كان صاحب طموح فقد سعى إلى تحقيق ذاته من خلال مبدأ إنسانى عام.. وكل هذه الضجة المثارة حوله من أناس أعرف أن كثيرين منهم ضد مصالح العمال، أو حتى لصوص. ما سببها؟ أليس ظاهرة تثير التساؤل.. هل أظل هكذا مغمض العينين، يسايرنى الآخرون، دون أن أسمع وجهة النظر الأخرى، وأحكم على المسائل بعقلى أنا، بعيدا عن التعصب الذى يرفض استكشاف الأمور.؟

فكرت فى المسألة طويلا قبل أن أقدم على التحدث إليه. فأنا فى مركز حساس تسلط على العيون، الظاهرة منها، والمستترة.. طحنتنى الرحايا من قبل، ولكنى صلب العود.. فذهبت إليه بعد عدة شهور من وصوله.. نقرت على بابه فى الصباح وسمعت صوته يقول: «ادخل»، فدخلت. كان يجلس خلف مكتبه يقلب فى بعض الأوراق. منذ أول لحظة أحسست بدفء النظرات. الوجه رفيع فيه شىء كالإرهاق، أو الجفاف، وغضون حفرها الزمن، ولكنه خال من المرارة.. مكتبه بسيط... أقلام، ونشافة، ومساطر، وورق لصاق، وصندوق للوارد، وآخر للصادر. الجدار خلفه يحتله برواز كبير يسجل سير الإنتاج، والمشروعات الجديدة، والبحوث.. جو يوحى بروح عملية، وعزوف عن الإدعاء. وقف يشد على يدى، ويرد تحية الصباح. ثم دعانى إلى الجلوس، وسألنى أن كنت أرغب فى فنجان من القهوة، أو كوب من الشاى، أو القرفة، أو الينسون. يسرد المشروبات كأنه يخشى نسيان أحد الأصناف.. يحدد مقاطع الكلمات، وينطقها بهدوء. أحس بالدقة، والترتيب فى طريقة تناوله للأشياء. بالمثقف الذى عودته أسرته على رفاهية محكومة بنظام. يبتسم ناحيتى بإشراق تظلله بين الحين والحين سحابة من الحزن. شخصية فيها جاذبية. كالوتر يرن بصفاء، ولكنه مشدود إلى آخر المدى، قابل للتمزق فى أية لحظة. رجل قوى فيه ضعف لم استطع تحديده منذ أول لقاء. ومع

ذلك شعرت نحوه بارتياح.

دارت الأيام وتوثقت بيننا العلاقات. صداقة من نوع فريد فى جو المصنع المشحون بالتناقضات بين أولئك الذين ينتمون إلى أوساط مختلفة.. فالفنيون يتعالون على الإداريين، والإداريون على العمال. والرجال على النساء، والمسئولون على سائر الناس، كأن التجزئة، والتنافر سنّة الحياة. جو تغذيه السلطات حتى نظل عاجزين عن توحيد الجهود. وتقسيمات يفرزها مجتمع مبنى على عدم المساواة، والتناحر فى الحصول على احتياجات الحياة.. لا تظهر روح التضامن إلا ساعة الكوارث والأزمات التى تهدد الجميع.. لذلك كانت هذه الصداقة بين رجل يتميز بقدر من الثقافة، ويعتبر من المسئولين فى الشركة، وآخر ملاحظ عمال من أقاصى الصعيد محط الأنظار والتعليقات العديدة. قدرت فى «خليل منصور خليل» الجانب الذى يجعله يبحث عن الإنسان بصرف النظر عن الاعتبارات الوظيفية، والاجتماعية التى يضعها الناس عادة فى مقام أهم الأشياء. بل أنه لم يتردد فى دعوتى إلى منزله، وهناك التقيت بزوجته «أمينة توفيق».. كانت من نفس نوع «خليل منصور خليل». تتميز عنه بشىء واحد اكتشفته فيما بعد. أنها كالوتر المشدود مثله، ولكنه وتر قادر على تحمل مختلف الضغوط.. عندما فكرت فى هذا الفارق بينهما احترت فى الاهتداء إلى تفسير يرضينى.. ربما يولد كل منا بمعدنه الأصيل، أو ربما نولد بمزاج معين يحدد نواح من تكوين الشخصية.. ثم تأتى الأسرة، والطفولة ومسار الحياة عموما لتلعب دورها.. واعتقد أن «خليل» كان يختلف عن «أمينة» فى شيئين مهمين. أولهما سنين الطفولة فى أسرة موسرة أنقذته من العوز، ولكنها حرمته أيضا من التجارب التى تصقل الإنسان إذا تفوق عليها.. وثانيا ظروف القهر والسجن التى ربما كانت أكثر مما يستطيع أن يحتمله شخص مثله.. أما «أمينة» فقد كانت كالحجر الذى أصبح قويا، ناعما من دوران الرحى المستمر.. بل ربما كانت قوتها هذه وحسمها،

بل وقسوتها فى بعض الظروف هى التى مهدت جزئيا لسقوطه.

كان رئيس المحكمة يسمينى «العامل الفيلسوف».. وما الضرر فى ذلك؟ فأنا إنسان لى عقل، أعمل، وأعيش، وأقرأ فى الكتب حتى أعى ما يدور.. وهذا ما نريده لكل الناس. ألا يجتازوا الحياة مغمضى العيون. أن يفهموا حتى يغيروا الأشياء.. ألا تمتص جهودهم لصالح فئة من الغرباء. ورئيس المحكمة بالطبع يحتقر العمال.. أمثاله يريدون أن نبقى تروسا فى الآلة. ندور وندور، وندور، وندور حتى نموت.. أنا لا أعرف تفاصيل العلاقة التى قامت بين «روث هاريسون» و «خليل منصور خليل»... ولكنى أشعر أنها نفذت إلى نقاط الضعف فيه وجرفته إلى بئر سحيق.. و«روث هاريسون» ليست وحدها هذه الأيام.. بل يوجد منها الكثيرات. إنها فرد تجسدت فيها الظواهر التى غزت حياتنا. إنها الاستيلاء على كل شىء أصيل، ونظيف بهدف تشويهه. أنها الثروة، والذكاء، والقوة، والبريق الذى يمتص ما فينا. وأنا لست سوى عامل بسيط لم أدخل فى دهاليز الحكام المعقدة. أقول الأشياء كما أحس بها وكما كانت تقولها «أمينة توفيق».. ومع ذلك لا أستطيع أن أنسى أن «خليل منصور خليل» هو الذى حمل إلى فهما جديدا. وهو الذى قال لى يوما. ««سعيد».. لا أمل لكم إلا فى ظل الاشتراكية»..

عندما ذهبت اليه بعد وصوله إلى الشركة ببضعة شهور كنت أقصد أن أتعرف عليه.. ولكنى كنت أقصد أيضا أن أدعوه إلى مشاركتنا أعمال اللجنة النقابية.. أدرك أنه لا يستطيع ترشيح نفسه للانتخابات. فالديموقراطية كما يفهمها الحكام عندنا تتطلب أن تظل الحركة النقابية خاضعة لمصالح رأس المال، ولذلك لا بد من اقصاء كل من يدافع حقا عن مصالح العمال. و «خليل منصور خليل» كان اشتراكيا منذ وقت بعيد. صحيح أنه لم يعد يمارس أى نشاط، ولكنه لم يتحول فى وقت من الأوقات إلى بوق للدفاع عن النظام. لذلك كنت أكن له قدرا من الاحترام. اهتديت إلى فكرة عرضتها على الزملاء، وأمكننى بعد مناقشات دامت أسابيع أن

أقنعهم بها.. لماذا لا نكون مجموعة استشارية من بعض الذين نريد الاستفادة من خبراتهم. فلما ووفق على هذه الفكرة ناقشنا الأسماء.. واخذت منهم تفويضا للاتصال «بخليل».

ولكن عندما طرحت عليه الفكرة وجدت منه اعراضا، لم أستطع أول الأمر أن أتبين أسبابه.. برقت عيناه، وأشرق وجهه، وهو يستمع الىّ.. ثم بعد لحظة راح البريق، واختفت الابتسامة ليحل محلها نوع من الجمود الذى ينم عن حذر عميق.. كأنه رفع الستار عن نفسه الحقيقية لحظة، ثم أسدله من جديد.. أخذ يوجه إلىّ أسئلة متشككة.. واثناء النقاش رد بجفاء، فكدت أن أنصرف وأتركه لحاله.. ولكنى قلت لنفسى: «هذا الرجل قد عانى الكثير، ومن المتوقع أن تكون لديه ردود فعل تبدو غير طبيعية لشخص مثلى لم يعان ما عاناه.. يجب أن أتعامل معه بشىء من الفهم، حتى أتخطى المسافات التى أوجدتها ظروفنا المختلفة. ولكن فى نفس الوقت لا داعى للضغط عليه، أو المبالغة فى الاهتمام به.. فقد يظن أن لدى اغراض خفية، ويتزايد عنده الشك. كما أنى لا أحب أن أضع نفسى فى وضع من يتوسل اليه..»

المهم.. لم نصل إلى اتفاق.. قال لى أنه ربما اتصل بى فيما بعد لأمر يتعلق ببعض الدراسات.. أحسست وأنا أهبط السلم الذى يقود من الإدارة إلى قسم الاقراص بمشاعر متناقضة.. فمن ناحية، أرتحت له. شىء فى الوجه، وفى النظرات يحدثنى عن شخص لم يتلوث، أو يتعود النفاق.. وفى نفس الوقت ضقت بتردده، وخوفه من الاقدام. فنحن فى حاجة اليه لينقل الينا خبرته، وقدرته على فهم الأوضاع.. أنه يضن علينا بجهوده كالرجل البخيل. أنه ليس منا لا يهمه سوى أن يبقى فى مأمن عن الصراع.. وعندما عدت إلى زملائى ضحكوا علىّ، وقالوا: «أرأيت يا زميل، هؤلاء الاشتراكيين. الكلام جميل.. لكن المكتب، والسكرتيرة، وبدل الانتقال، والوظيفة بيت القصيد..» صمتت، لم يكن لدى ما أقوله، فقد كان

موقفه هو الدليل العملى الوحيد.

بعد هذا اللقاء بمدة لا تزيد عن ثلاثة أسابيع كنت أقف أمام آلة أصابها خلل يؤدى إلى تفتيت الأقراص أثناء عملية التشكيل.. سمعت أحد العمال ينادينى «يا سعيد»، يا «سعيد» رئيس إدارة البحوث يسأل عنك..» التفت لأجد «خليل» يتقدم ناحيتى بخطوات توحى بأنه فى مكان لم يألفه من قبل. عندما رآنى أضاءت وجهه ابتسامة مترددة، كأنه ليس واثقا من الاستقبال الذى سيلاقيه. فشددت على يده بحرارة، ثم دعوته إلى الجلوس، وتناول فنجانا من القهوة حتى أقرر ما يجب أن نفعله إزاء تعطل الآلة التى كنت أفحصها.. عدت اليه بعد قليل فوجدته مستغرقا فى حديث طويل مع أحد العمال.. أوضح لى أنه يريد استئناف الموضوع الذى كنا نناقشه منذ أسابيع، فرحبت بذلك على الفور حتى يشعر أننى أقدر زيارته لى فى قسم الأقراص..

هكذا أستؤنفت العلاقات.. دخل فى المجموعة الاستشارية، وبالطبع دارت فى الشركة موجة من الهمسات حول الرجل «الشيوعى» الذى أخذ يتصل بالعمال.. وحيث أننى كنت أيضا متهما مثله، وإن كان هذا بغير أساس على الاطلاق، ارتفعت موجة الهمسات إلى حملة منظمة تقودها الإدارة بمساعدة اثنين من عملائها فى اللجنة النقابية، والأشخاص المنتمين بشكل رسمى، أو غير رسمى إلى وحدة الأمن.. وأثارت هذه الحملة من جديد مناقشات حادة بيننا فى اللجنة.. ولكن الأغلبية قررت الصمود، مع التقليل من عدد الاجتماعات حتى لا يبدو أن المجموعة الاستشارية التى كوناها تنشط بشكل غير عادى.. وبالتدريج هدأت الأمور، ما عدا تلك الهمسات التى تعتبر جزءا من الحياة العادية فى كل المؤسسات.. أما «خليل» فقد ابلغنى أن رئيس مجلس الإدارة استدعاه، وقدم له بعض النصائح الأخوية التى رفضها بحزم، موضحا أنه بصفته عضو فى النقابة يخصم منه اشتراك شهرى، من حقه أن ينضم إلى أى مجموعة تعمل تحت إشرافها.

وأن الفيصل فى الأمور هو قانونية النشاط الذى يقوم به، وهى مسألة من اختصاص النيابة، والقضاء.

قدرت صموده أمام هذه الحملة، وأصبحنا منذ ذلك اليوم أصدقاء.. ينتظرنى فى بعض الأيام آخر النهار، ونمشى سويا حتى المصنع الذى تعمل فيه «أمينة».. فى البداية كانت تحيط بنا نظرات الفضول، بل والاستنكار، إلى أن تعود الناس على رؤيتنا سويا. أحيانا أقضى الأمسية فى بيته، أتناول العشاء، ونتحدث، وأحيانا أبيت. ففى ذلك الوقت لم أكن قد تزوجت.. أسكن وحدى فى حجرتين على سطح العمارة التى بناها المقاول «محمد الغبيط» فى «البساتين» من حصيلة المتاجرة بالأسمنت فى السوق السوداء.

كان سعيدا فى تلك الأيام. اختفت من وجهه بقايا الحزن. ينطلق هنا وهناك بنشاط، ويحكى لنا أشياء كثيرة.

عندما حضر معنا أول مرة خيم على الاجتماع جو من التحفظ.. لم يضحك أحد، ولم نتبادل الأخبار الشخصية، والنكات. أحسست أن الحاضرين يتفادون النظر اليه مباشرة، وإن كانوا يتتبعون كلماته، وتصرفاته من طرف خفى.. ولكن قرب نهاية جدول الأعمال عادت الأشياء إلى طبيعتها، وانطلقت الالسن تثرثر، وتحكى الحكايات.. أما هو فقد أعجبنى فى ذلك اليوم.. لم يحاول أن يقترب اليهم، ويتبسط بطريقة مصطنعة.. ولم يرتد فى نفس الوقت ثوب التعالى الصامت أو الادعاء.. كان يتدخل بين الحين والآخر فى المناقشات بهدوء، ويقدم الاقتراحات بطريقة تدل على أنه فكر فيها. وفى نفس الوقت يلقى بالفكرة، ولكنه يتركها تدور حتى تتبلور فى شكل نابع من اللجنة.. حاول أحد عملاء الإدارة أن يجره فى مناقشة تتعلق بسياسة تسعير الأدوية فامتنع عن الاجابة موضحا أنه لم تتح له فرصة كافية لدراسة الموضوع من جميع الزوايا التى تهم الشركة والعمال. كان يتذكر جميع أسماء الأعضاء، ويتفادى أى نوع من النقد، ويستمع أغلب

الوقت.. وقبل أن تنتهى الجلسة اقترحت على المجموعة بحث مسألة كانت مثار اهتمام ومخاوف العاملين. فقد سمعنا من أحد موظفى الإدارة أن هناك مفاوضات تجرى فى تكتم شديد بين شركتنا وبين أحدى المؤسسات الفرنسية الضخمة تدعى «لاروشيل»، وأن هذه المفاوضات تهدف إلى عقد اتفاق تصنيع يشمل عددا كبيرا من المستحضرات. على أن تتقاضى مؤسسة «لاروشيل» رسوما تصل إلى ١٥٪ من سعر البيع بالجملة نظير الخبرة الخاصة التى ستقدمها فى أساليب الانتاج. كما اتفق أيضا على أن تقوم هى دون سواها بتوريد الكيماويات، ومستلزمات الإنتاج، وبعض الآلات. وقد كان العاملون فى قلق شديد من هذا الاتفاق.. فالمكاسب التى ستعود على «مؤسسة لاروشيل» لا بد أن تؤثر على الأرباح، ومكافآت الإنتاج، وربما أيضا على العمالة إذا حدث تغيير فى الآلات المستخدمة وزادت طاقاتها. وكانت هناك إشاعات أخرى تقول إن هذا الاتفاق ليس سوى خطوة تمهيدية يتم بعدها تحويل «شركة طبية» إلى مشروع مشترك تساهم فيه «مؤسسة لاروشيل» بنصف رأس المال فتصبح الشركة الجديدة خاضعة للقوانين، واللوائح المطبقة على قطاع الاستثمار الاجنبى..

دار بيننا تبادل أولى للآراء. ظل «خليل» صامتا كأنه يحس بالحرج فى ابداء الرأى، أو يفضل أن يستمع فى هذه المرحلة الأولى.. فقررت أن أطرح عليه سؤالا مباشرا لأرى كيف سيتصرف فى الموقف..

«يا أستاذ «خليل».. لم توضح لنا وجهة نظرك فى هذه المسألة»

ظل مطرقا بعينيه إلى سطح المنضدة برهة من الوقت، ثم التفت إلى وقال:

«هذه أول مرة أسمع فيها عن هذا الموضوع، ولذلك لم أستطع أن أكون رأيا تفصيليا فيه.»

«ولكن اتفاقات التصنيع عموما، أعرف أنك مهتم بها كجزء من عمل إدارة

البحوث. وأنك قمت بدراسة بعض الاتفاقات السابقة كنموذج.. »

يتطلع إلى بشيء من الحيرة، كأنه يتساءل لماذا أدخلته منذ اللحظة الأولى فى صلب أحد المشاكل الحساسة.. أصابعه تتشابك، وتنفك فى حركة تنم عن التوتر..

«هذا صحيح، ولكن لم تتح لى فرصة الاطلاع على هذا المشروع بالذات.. إن المسألة تتوقف على تفاصيل الاتفاق. فاحيانا، وبشروط معينة يمكن أن تكون اتفاقات التصنيع مفيدة إذا ما أدخلتنا فى مجالات تنقصنا فيها الخبرة، ولم نطرقها من قبل.. »

تدخل أحد الحاضرين.. عامل.. من «دمياط»، ورئيس وردية يدعى «مصطفى رمضان.» نظرات مباشرة من العيون الزرق، كالصيادين، والبحارة تعودوا استكشاف الآفاق..

«إذن تتوقف المسألة على دراسة العقد المقترح من «مؤسسة لاروشيل؟»

«نعم»

«يا أستاذ «خليل».. هل يمكن أن نطلب منك القيام بهذه المهمة.. فانت بحكم خبرتك تستطيع أن توضح لنا الموقف السليم. ما الذى يضر بالشركة، وبنا، وما الذى يفيد.. »

بدت عليه علامات الحيرة من جديد. يدرك أن الدخول فى هذا الموضوع سيثير حفيظة ذوى النفوذ ضده. ويدرك أيضا مخاطر الاتفاق على مصالح أغلبية العاملين.

تدخلت وقلت:

«لنترك للاستاذ «خليل» فرصة للتفكير فى الأمر. لديه أعمال كثيرة.. إذا كان من الصعب عليه أن يقوم بدراسة تفصيلية لهذا الاتفاق بالتحديد، ربما أمكنه

أن يوضح لنا، فى مرة قادمة، ما هى المزايا والعيوب المحتملة فى اتفاقات التصنيع، حتى نستطيع أن نكون رأيا لأنفسنا. أما ما يقال عن مراحل أخرى ستلى اتفاق التصنيع، فلدينا الوقت لدراسة الأمر دون استعجال. ولكن يجب أن يتولاه أحدنا منذ الآن، وأنا شخصيا على استعداد لذلك.. والآن أقترح أن ننهى اجتماع اليوم.»

فتح أحدنا الباب. قمنا من جلستنا.. أسرع «خليل» بالانصراف. لم ينتظرنى. رأيته يسرع الخطوة مجتازا حوش التخزين. الظهر نحيل، والكتفان فيهما انحناء بسيط. فلأتركه يسير.. أحيانا يحتاج الإنسان أن يكون وحده. ترى هل أحس بالضيق لأننى واجهته بموضوع عقد التصنيع؟

تنهدت وأنا أدلف من باب المصنع.. حيانى الحارس. «تصبح على خير يا زميل»... وابتسم، فأحسست أن الدنيا بخير. الآن سأعود إلى الحجرتين الخاليتين.

أين الفتاة التى ترضى بأمثالى، فأنا لا أنفع كعريس؟.. منذ أن جئت إلى هذه المنطقة لا أعلم ما يحتجزه الغد من طرد، أو تشريد، أو بيات فى قسم البوليس.. لا أفكر فى هذا كثيرا. لكل شىء ثمنه، ولكل شىء قيمة يضيفها أحيانا للجيب، وأحيانا للنفس والضمير..

* * *

ما الذى جعلنى أقبل الارتباط باللجنة النقابية؟. أشياء كثيرة يصعب تحديدها. الضيق من حياة بلا مستقبل، ولا آفاق تغرسنى يوما بعد يوم فى عالم الأوراق التى تتداول بين الموظفين.. أنا المكافح «خليل منصور خليل» الذى عرف المعارك، والسجون، والتشريد، وأطل بعقله على أفكار جريئة، وعالم جديد، هل ينتهى بى المطاف فى الملفات، والأرشيف، وتعليمات أتلقاها من رجل كالحصان يبعث بها مع ساعى البريد، أو ينقلها عبر أسلاك التليفون، أو أتلقاها منه وهو جالس خلف المكتب العريض كالامبراطور؟.. جاءت أيام صعدت فيها فوق القمم أشهد الشمس تضىء الكون، وتبدد ظلمة الليل.. أدركت قيمة المعرفة العلمية تضع بين يدى قدرة التحليل، ورؤية عن بلادى، وإلى أين تسير. وقفت أمام المحاكم، والقضاة، والجند أتحدى المصير. واجهت الطغاة، والمستبدين، ورأيتهم يرتعدون فى مواجهة الجماهير.. ذقت طعم الصداقة التى تغذيها الصعوبات، ويحميها الزحف الطويل.. ورأيت الأشجار، والسماء، وموج البحر والسحاب، والزهور البرية على جانبى الطريق بعيون أرهفتها المخاطر. شاهدت الظلم، والجبروت، ورجالا يسقطون، والخيانة تلدغ كالأفعى دون تمييز. وعرفت قيمة الحب الذى يبقى، وقيمة الحب الذى يضيع.. عشت وفى صدرى قلق لا يستقر، وطموح لا يستكين..لم أخضع للظروف، أو لاستبداد السلطة، أو القيم الموروثة تجرنى إلى

الخلف. راودتنى الأحلام الجميلة لتبقى فى عينى قدرتهما على البريق..

لذلك عندما جاء إلى «سعيد» لم تكن المسألة تتعلق فقط بانضمامى إلى أعمال اللجنة النقابية وإنما بحياتى كلها، بمعناها وجدواها.. كنت أريد أن أسمع الناس وهم يقولون.. «ها هو» «خليل منصور خليل» عاد كما كان..» وأن أرى ابتسامات الترحاب فى عيون الشباب. كانت هذه الخطوة تعنى، بالنسبة الى، الكثير. ولكن فى نفس الوقت تراءت أمامى من جديد مخاطر الطريق مضاعفة. فقد عرفت أخيرا معنى ألا ينام الإنسان كل يوم فى سرير جديد.. أن يأكل حتى يشبع وأن يمتلك مكتبة لا يستولى عليها البوليس. أن يستمع إلى الموسيقى حين يريد. أن يهب نفسه لأمرأة يحبها، وأن يعطى نفسه للجنس. أما النقيض فقد عشته لمدة طويلة عندما احتوتنى جدران الزنازين.

دار فى نفسى صراع حسمته بعد جهد، واتخذت قرارى. ربما خاننى التوفيق، وربما أصبت. أقول لنفسى أحيانا أنه كان يجب أن أعرف نفسى كما هى بالفعل، وليس كما أردت لها أن تكون. ربما تعلمت الدرس بعد فوات الأوان. لا بأس. فإن أغلبية الناس لا يكتشفون حقيقة أنفسهم طوال الحياة. هكذا أخطأت التقدير. وحملت نفسى ما لا أستطيع. هذا هو سر الانحدار الذى جاء فيما بعد، والذى لعبت «أمينة» دورا فيه. فقد كانت مثالية. والمثل فى الحياة شىء ثمين. ولكن المثالية أسلوب فى التفكير قد يهدم الإنسان، أو يهدم الغير. لأنها تتطلب منه المستحيل. حاولت أن البى نداء الطموح، ودواعى الماضى، والتاريخ. أن أكون فى المستوى الذى تريده لى «أمينة». أن أحقق أحلامى، وأحلامها بكل وسيلة. فانتهى بى الأمر إلى أحضان «روث».. ورغم ذلك ينتابنى الآن شعور غريب هو أننى ربما من بعض النواحى أصبحت أكثر إنسانية من أصدقائى القدامى.. حقيقة خرجت بها من تجربتى الخاصة. أن الذين ينشغلون بالقضايا العامة، كثيرا ما ينسون أن للإنسان قيمة فى ذاته تستحق الاهتمام. أننا فى حاجة إلى تبادل

الأحاسيس، والعواطف، والتجارب الشخصية إذا أردنا أن نصبح قوة تحرر حقيقية.. ألا ننشغل بالصعود إلى السماء، بالاحلام، والزعامات، فننسى الأشياء العادية. أن يصبح العمال، والفلاحون، والمثقفون، والنساء كيانات فعالة لها شخصية. وليست مجردات، تستخدم كمطية.

كنت فى يوم من الأيام زعيما للكلية.. وفيما بعد أصبحت أحد قادة الحركة الوطنية. والمحكمة تعرف هذه الحقائق، وتريد أن تستخدمها فى القضية.. ولكن بالقدر الذى يؤكد ضرورة القضاء على كل من يرفع صوته ليعارض النظام وينادى بالأفكار الاشتراكية. لقد أطلقوا على كل النعوت. ملحد، مخرب، عديم الضمير، قاتل، وطبعا عميل للشيوعية الدولية.. كل هذا لم يعد يهمنى فى شىء.. فأنا أعلم مقدما ما يبيتونه لى فى هذه القضية.. وأضعف الايمان أن أظهر بعض الوفاء لماضىّ.. وللذين اعطونى أحلى اللحظات فى حياتى الشقية.

توطدت العلاقة بينى وبين «سعيد أبو كرم» حتى أصبحنا نلتقى تقريبا فى كل أوقات الفراغ.. يقضى الساعات الطويلة فى بيتنا.. يتناقش معى فى شتى الأمور، وعندما انشغل فى بعض الأعمال المكتبية، أو فى قراءة كتاب، أو فى حلقة تليفزيونية لا يريد أن يتفرج عليها، يصعد إلى المرسم، ويتابع «أمينة» وهى مستغرقة فى لوحة تولد بالتدريج أمام عينيها.. عندما تتعب، تتوقف، ويتبادلان حديثا طويلا عن الفن، ينهل منه كالعطشان الذى حرم طوال العمر من نبع الحياة. أو يهبطان من المرسم لتناول الشاى أو العشاء. أخذ يستعير كتبا من عندى، ويلتهمها بين يوم وليلة. عندما ينتهى من كتاب يأتى الى بأسئلة مكتوبة فى كراسة صغيرة.. يستمع إلى الاجابات، وأحيانا يعلق، أو يدون بعض الملاحظات. يقرأ كل شىء. اقتصاد، اجتماع، تاريخ.. ومن «أمنية» يستعير كتب الفن. لا يرتوى أبدا. وجهه الأسمر يلمع تحت الأضواء، والاسنان البيضاء تبرق فى الفم.. كان يعوضنى عن شعورى بالذنب.. فأنا أعطيه كل ما عندى..

عندما أصبحت «أمينة» حاملا فى شهرها الثالث، واستبدت بها نوبات الغثيان والقىء، تولى عنها بعض شئون البيت، وسرنا أنا وهو نشارك فى الاعباء. هكذا وجدناه وقد تسلل إلى حياتنا كنسمة الهواء.

وربما نسيت كثيرا من الأشياء.. ولكننى لا أنسى ذلك اليوم الذى ذهبنا فيه بعد الافطار إلى استراحة «حلوان».. النيل عريض، وعلى الأرض سقط بساط من الزهور الحمراء. وبين الحين والحين زورق للصيادين، أو «فلوكة» تزحف عند الأفق البعيد. سألنى فجأة.

«يا زميل.. ما معنى» «الاقتصاد المزدوج..»

كنت سارحا فى أحداث الأمس.. زيارة ودية إلى مكتبى من رئيس وحدة الأمن.. يسألنى لماذا أستغنيت عن خدمات الآنسة «ايناس».. فأعادنى سؤاله إلى واقع اليوم، وسألت:

«أين قرأت هذا الاصطلاح..؟»

«فى كتاب عن اقتصاديات التنمية فى بلاد العالم الثالث..»

«الاقتصاد المزدوج ينشأ فى البلاد التابعة اقتصاديا ويؤدى إلى خلق قطاع حديث متطور يخدم مصالح الاقلية المتميزة، ويسمح باستنزاف موارد هذه البلاد لتذهب إلى الرأسمالية الأجنبية تشاركها الرأسمالية المحلية، ويعتمد على مشاريع إنتاجية رأسمالية تعمل بالوسائل التكنولوجية الحديثة نسبيا، وعلى خدمات متطورة.. كما يؤدى إلى خلق قطاع آخر يضم الأغلبية الساحقة فى الحضر والريف يظل متخلفا، دوره أساسا إنتاج الحاصلات الزراعية وبعض السلع الاستهلاكية..»

أحب هذا الوجه الأسمر يتتبع ما أقول فى تركيز..

«فهمت... أليس هذا هو ما يحدث عندنا..؟»

إلى حد كبير... الفارق هو أنه حدثت عندنا حركة تصنيع.. ولكنها تحولت بسرعة إلى خدمة الاقتصاد الغربى، وأساسا أمريكا..»

وكيف وصلت أنت إلى معرفة هذه الأشياء..؟»

«بالقراءة.. والدراسة فى فترات الفراغ.. وفى السجن..»

«ولكنك الآن...؟»

سكت... فقلت..

«أكمل سؤالك...»

«لا تفعل شيئا...»

ترددت لحظة قبل أن أجيب... هل أقول له الحقيقة، أم ماذا.؟ أنه يحتاج إلى تشجيع، ولا أريد أن أجهض حماسه.. ولكن فى نفس الوقت لا أريد أن أكذب عليه..

«أخشى من السجن..»

«تخشى من السجن؟!»

نطق الجملة بشىء من الدهشة..

«نعم.. أحيانا أقول لنفسى إن الإنسان العاقل يحسب الثمن.. ربما إذا طلب منى ما يستحق التضحية، لأصبحت قادرا على تقديمه من جديد. وأحيانا يبدو لى أن هذا لن يغير شيئا. على أية حال لم يهتم بى أحد إلى هذا الحد..»

«لماذا..؟»

«ربما تشغلهم أشياء أهم.. كل واحد منا له مشاكله خصوصا فى هذا الزمن..

وربما لأننا نحتاج إلى نوع من الانفتاح فى الفكر.»

ظل صامتا. الشمس تسقط على جلده اللامع، فتجعله أكثر لمعانا..

«ولكن إذا كنت تقول أنك تخشى السجن. فكيف يثق فيك المرء.؟»

«سؤال يصعب الاجابة عليه. لا بد من المجازفة، ولا يمكن عمل أى شىء ذى قيمة إلا بالثقة فى الناس، إلا بنوع من المجازفة المحسوبة. ثم من ذا الذى لا يخشى الاضطهاد بصوره المختلفة..»

«أنا لست مستريحا لهذا الكلام.. وما كنت أتوقعه منك»

«الكلام غير المتوقع أفضل من الأشياء المعروفة مقدما. أنه على الأقل قد يبعث على التفكير.»

«أنا لا أشعر أن هذا هو المهم.. ما نحتاج اليه هو أن نعمل، ألا نتقاعس».

«ربما تكون على حق. ولكن لكل منا ذات، وتجاهلها يقتل الشخصية، ويقود إلى طريق مسدود.. المسألة هى كيف تنمى الذات دون تقويض الإطار العام. هذه هى المشكلة الديموقراطية. وتزداد المشكلة عندما يرى عدد من الأشخاص أن الإطار العام يتجسد فى بقائهم على قمة الهرم..»

هذه مشكلة دائمة حتى بين العمال فى المصنع. ولكن أرى أن يصبر الإنسان. فلا يوجد من يغير الأحوال وحده..»

«صحيح.. أحيانا يكون الصبر مطلوبا.. وأحيانا العكس. كل شىء يتوقف على الظروف.. ولكنى أحسدك.»

«لماذا.؟»

«ترى المسائل ببساطة.. وهذا مريح»

«قل لى «يا خليل» هل أنت سعيد؟»

«فى بعض الأوقات.. معك، ومع «أمينة».. عندما أقرا كتابا جيدا، أو أتذوق الفن.. وعندما أحضر معكم فى اللجنة.. ربما أحتاج إلى أن أكون أكثر عطاء وإنتاجا.. لكن أحيانا تساورنى المخاوف، وأشعر بالضغط. أو أحس أننى مهمل لا أنال ما أستحقه من تقدير..»

«أنا أكن لك عواطف صادقة، فقد علمتنى الكثير..»

وضعت يدى على كتفه، وضغطت..

«أنت ستستمر «يا سعيد».. هذا شىء تأكدت منه.. أنت و «أمينة».. أما أنا فلا أعرف.. ربما أستأنفت السير، وربما توقفت.»

ظل صامتا.. ملامحه مشدودة كأنه يتألم مما أقول. أحس أنه يفهمنى.. أنه لا يضع نفسه موضع الحكم. يأخذ منى ما أعطيه، ويدفع الثمن مقدما.. وهذا هو سر حبى «لسعيد أبو كرم»...

* * * *

كنت أستمع إلى أخبار الساعة السادسة مساءً عندما سمعت المفتاح يدور في الباب.. اندفع «خليل» دون أن يغلقه وراءه، وجذبني من المقعد، ثم أحاطني بذراعيه وقبلني.. أبعدته عني قليلا فوجدته يبتسم كأن لديه سرا يتردد هل يبوح به، أو لا يبوح... أجلسني على «الكنبة» ووقف يطل عليْ من فوق فقلت:

«لماذا تبقى هكذا واقفا.. أجلس.»

«سأصنع برادا من الشاى، وأحضر بعض البسكوت، ثم نتحدث.. فأنا لم آكل شيئا منذ الصباح..»

عاد بعد قليل يحمل صينية، وضعها على المنضدة، وصب لنا كوبين من الشاى.. ثم أخذ يقص على تفاصيل اللقاء الذى تم بينه وبين «سعيد أبو كرم».. كنت أعلم أنه سيتصل به، فقد نصحته بذلك بعد أن رفض الانضمام إلى المجموعة الإستشارية، وبعد أن لاحظت كيف كان مهموما، متوترا، نادما على تصرفه.. فاقترحت عليه أن يأخذ الأمور ببساطة، وأن يتوجه اليه مباشرة فى قسم الأقراص.. صحيح أن مثل هذه الخطوة قد تبدو غريبة فى الجو المحيط بنا، ولكن ماذا يهم..؟ لسنا من النوع الذى يتمسك بالشكليات.. فليلق إذن بتحفظاته من النافذة، ويقدم على ما يعتقد أنه سليم..

بعد ذلك أدركت أنه استراح. زال عنه التوتر، وزالت شدة الملامح، وتقطيبة الجبين اللتان تطرآن على وجهه كلما أخذ يفكر بعمق فى مسألة تقلقه.. أصبح يمرح فى البيت كالطفل، ويحتضنى كثيرا، ويراقصنى.. ويحاول اثارتى لأمارس معه الجنس.. وأحسست أنه مقبل على الحياة، راض عنها إلى حد بعيد.

توثقت العلاقة بيننا، وبين «سعيد» وأخذ يقضى الساعات الطويلة معنا فى البيت. كان يصعد إلى المرسم. يجلس على مقعد صغير ويتابعنى وأنا أعمل دون أن يتحرك، كأنه تمثال.. أحس بعينيه الحادتين تمتصان التفاصيل وبأنفه يرتعش كأنه يستنشق رائحة الألوان، «والترابنتين».. عندما أستريح يسألنى عن بعض الرسومات، أو يعلق عليها. فقد بدأت أعد لمعرض قررت أن أقيمه فى الصيف. أدركت أن لديه حسا فطريا مرهفا. يحدد رأيه بطريقه قاطعه تجعله يستشف ما يخفى على الآخرين، ولكنه أحيانا كان يخطىء التصويب، ويبعد تماما عما أحاول أن أجسده باللون. فإذا ضحكت عليه التفت ناحيتى باندهاش فيه عتاب. بمرور الأيام أدركت أنه إنسان مريح فنمت بينى وبينه علاقات وطيدة، وسرت أتحدث معه طويلا... فهو يرى الأشياء الأساسية، وينفذ اليها بسهولة... ثقافته ما زالت محدودة ولكنه خال من ذلك التعقيد الذى يجعل «خليل» يضيع أحيانا فى المتاهات، وينصرف عن جوهر الحقيقة.. أحسست أنه أقرب الى فى بعض النواحى، وكأننا نشأنا فى نفس البيئة، أو فى بيئة متقاربة، لا مكان فيها للزخرفة أو الذواق الشديد.. يتشرب المعلومات والمعرفة بسرعة، ويمتصها كالاسفنج الجاف.. يفتح مسامه للمياه، والهواء، والكائنات الدقيقة، ويهضمها على المهل فى مكان ما من نفسه العميقة.. كثرت زياراته للمرسم عندما عرضت عليه أن أرسم له صورة زيتية.. فقبل الفكرة بحماس جعلتنى أحس بامتنان كبير.. «خليل» يقدر فنى إلى حد بعيد، ولكن تقديره فيه دقة المعرفة أكثر من الانبهار الوجدانى والحسى بما أصنعه.. ومما ساعد على نمو هذه الصداقة هو احساسى بأن «خليل» لا

يمانع فيها، بل على العكس يشجع حضوره إلى منزلنا، وصعوده إلى المرسم فى أى وقت من النهار، أو الليل.. وهكذا نشأت بيننا نحن الثلاث علاقة وثيقة اضافت إلى حياتنا أبعادا ورونقا جديدا...

كنت فى ذلك الوقت حاملا فى «عصام» مما أقعدنى عن القيام ببعض الأعمال خصوصا قرب الشهر الثالث.. فأخذ «سعيد» و «خليل» يتعاونان فى تحمل هذه الأعباء.. كنت أحب أن أراهما سويا فى المطبخ.. «خليل» يرتدى معطفا أبيضا قديما.. «وسعيد» «أوفرولا» أزرقا باهتا تمزق عند الأكمام.. يقطعان البصل إلى حلقات صغيرة، ويمسحان الدموع بالمناديل.. وكنت استمتع بالاستماع اليهما يتحدثان، ويتجادلان فى أشياء كثيرة.. وأحس أننى أمام عقليتين صقلتهما محاولة مستمرة للبحث عما وراء المسلمات. لكن فى يوم من الأيام، وأنا أحاول أن أختطف دقائق من النوم ساعة القيلولة، بدا لى أن صوت «خليل» ارتفع بعض الشىء.. فجذب إنتباهى، وأخذت أتابع ما يقولان.. ولما وجدت أن بعض الكلمات تفوتنى من خلف الباب المغلق. فتحته قليلا، ثم عدت إلى السرير... كان «خليل» يقول:

ولكن لماذا الإصرار على أن أجاهر برأيى فى هذا الموضوع..؟».

«طالما أن لك وجهة نظر تتفق مع ما يراه أغلبية العاملين فى الشركة لماذا لا تعبر عنه علنا أمام الجميع..؟»

«وما الفائدة فى ذلك..؟»

لحظة صمت ثم أسمع «سعيد» يقول ببطء..

«عدة فوائد.. أنت شخص مسئول، ورئيس إدارة البحوث.. ووجهة نظرك لها قيمة خاصة.. لن يستطيعوا أن يقولوا أن الجهلة، وغير المختصين هم وحدهم

الذين يعارضون الاتفاق.. فهذا هو مجالك بالتحديد.. ثم فيه تشجيع للعاملين.. سيشعرون أنه حتى فى المستويات العليا للشركة يوجد من يقف نفس الموقف الذى يرون أنه سليم.. وأخيرا أظن أنك لست فى حاجة إلى أن أحدثك عن التحالف.. فأنت الذى علمتنى أنه على العمال أن يبحثوا لأنفسهم عن حلفاء.. وطالما أنك لست منضما للحزب الاشتراكى فيمكننا أن نعتبرك ممثلا للطبقة المتوسطة..» .

رنت ضحكته المرحة فى الحجرة فبددت جو التوتر الذى كان يسود.. خرجت من الباب، فقال «سعيد».

ها هى أمينة قد جاءت، فلنأخذ رأيها.. أنها متحيزة لك.. ولن تستطيع أن تقول أنها لا تراعى مصالحك فى هذا الموضوع.. المسألة..»

قاطعته وقلت:

«أنا أعلم جميع التفاصيل.. وقد سمعتكما تتناقشان.. رأيى مثل «سعيد».. أن تقف معهم بوضوح»..

رأيت وجه «خليل» وقد كساه الشحوب.. أصابعه ترتعش قليلا. يبحث عن سيجارة فى الجيوب.. لا يدخن عادة، وعندما أراه يفعل ذلك، أدرك أنه يشعر بالضيق.. أخيرا عثر على لفافة ضاع جزء من دخانها فى الجيب.. ذهب إلى المطبخ ليشعلها، وعاد يشفط منها فى اجتهاد عصبى.. سألته..

«ما رأيك أنت..؟»

صمت طويل.. أرى أنه يبذل جهدا حتى لا ينفعل..

«أرى أن من يستخدم عقله يتفادى الانتحار.. قمت بدراسة العقد، وكتبت مذكرة مستفيضة سأعطى «لسعيد» نسخة منها لتستخدمها اللجنة النقابية فى توضيح وجهة نظرها.. هكذا أخدمهم دون أن أكشف نفسى.. وهكذا أيضا أبقى

فى مكانى. وأساعدهم فى مواقف أخرى ستجىء.. فالمعارك لن تنتهى فى هذه الظروف الصعبة. البلد يباع قطعة، قطعة للاحتكارات الأجنبية.. ولن يحتفظوا فى القطاع العام سوى بالشركات التى لا تدر ربحا، أو التى يحتاجون اليها لخدمة القطاع الخاص، أو تحافظ على الاقتصاد من الانهيار التام، لأنها مجال للتشغيل ومورد للمال مثل الطاقة والمواصلات، والحديد والصلب، والغزل والنسيج.. أما الباقى فمآله الشركات المشتركة، وشركات الاستثمار، وأصحاب الملايين..»

تدخل «سعيد» من جديد..

«أنت تريد أن تمسك بالعصى من الوسط، حتى تظل حرا فى تحديد موقفك حسب الظروف»

«ربما.. من الذى سيسندنى إذا وقعت الفأس فى الرأس..؟ أنت أم اللجنة النقابية..؟ أم الذين لا يهتمون إلا بذوى المناصب الهامة..؟»

«هذا كلام مردود.. الناس يساعدون على قدر طاقتهم..»

«لا.. ليس دائما.. ولا حتى عادة..»

«يا أستاذ «خليل».. أنت تستخدم الحقائق للدفاع عن أهداف خاصة بك.. تريد ألا تبلل قدميك فى البحر القارس البرودة..»

«ولنفترض أن هذا صحيح.. خذ من كل واحد ما يستطيع أن يعطيه..»

ساد الصمت.. صمت طويل فيه وجوم.. أشعر أن «خليل» يتفادى العيون.. قام «سعيد»، وقال: «تصبحون على خير»، ثم انصرف.. شعرت أننى لن أستطيع أن أقوم بأى عمل فدخلت فى السرير.. ظل «خليل» جالسا فى الصالة بعد أن أطفأ النور.. مرت مدة بدت لى طويلة.. ثم دخل من باب الحجرة فى هدوء.. أحسست به بعد قليل يندس فى الفراش.. أدار الىّ ظهره فقلت:

«خليل».. هل أنت غاضب منى؟»

«لماذا أغضب؟.. ألم تقولى ما تعتقدينه..؟»

«كان هذا هو رأى «سعيد» أيضا»

«أنت و «سعيد» متفقان دائما..»

«هذا ليس صحيحا.. ثم أنا أرى أن وجهة النظر التى دافعنا عنها سليمة..»

«أنتما متشابهان.. تحكمين بالعواطف لأنك فنانة، وهو كذلك لأن ليست عنده خبرة..»

«وأنت؟»

يصمت.

«لم ترد..»

«سنكمل النقاش باكر.. «تصبحين على خير..»

لم نكمل النقاش.. أحسست أنه يتفادانى.. لم يعد حتى يضمنى بين ذراعيه فى الليل، كما كان يفعل دائما عندما ننام.. مرة أخرى يقيم سياجا بيننا، أحاول اختراقه بشتى الوسائل.. أقترب منه وأقبله.. وفى الصباح استيقظ مبكرا، وأعد له الشاى، وأثرثر عن هذا وذاك، وأحكى قصصا عن الشغل، وأعلق على أخبار الصحف، وأسأله عن الدراسة التى ينوى القيام بها.. ولكن كل محاولاتى تذهب سدى.. يختبىء خلف جدار من الصمت والوجوم أو يرد بضعة كلمات يغلق بها الموضوع. أحس بالقنوت..أهذا هو ما أستحقه منه؟ ألا يتحمل منى أن أختلف معه فى الرأى..؟ أدرك أنه يتصرف بوحى من كبريائه المجروح.. كأننا نطعنه فى شجاعته، وهو الذى كان يتحدى أعتى أشكال الجبروت.. ولكن الموقف تغير.. كان هذا فى الماضى، ولكن الآن يجب أيضا أن يقف موقفا فيه صمود.. انقطع «سعيد» عن المجىء، فزاد إنكماشه.. أحس أنه وحيد، لا أحد يسأل عنه.. ما

الذى أستطيعه من أجله..؟ أنا لم أمر بتجربة السجن.. ربما لو قبض على أستطيع أن أكون أكثر دراية بحاله، وأقدر على مواجهة مثل هذه الأمور..

بعد أسبوع من هذه المناقشة، فى إحدى الأمسيات كان «خليل» فى الخارج عند أحد الأصدقاء، وأنا فى المرسم أضع اللمسات الأخيرة لإحدى اللوحات.. رن جرس التليفون عدة مرات.. لم تكن بى رغبة للرد، ولكن الطالب أصر، فهبطت مسرعة على السلم.. رفعت السماعة فجاءنى صوت «سعيد» يقول:

«آلو..» «أمينة».. مساء الخير.. كيف حالك؟»

الحمد لله.. لا بأس.. وأنت..؟»

«كل شىء على ما يرام..»

«لماذا انقطعت عنا، هكذا؟»

«بعض المشاغل.. ثم أردت أن أترككما بعض الوقت على أثر النقاش الذى دار..»

«لا.. كان يجب أن تجىء.. سيظن أنك لا تريد أن تراه.. أنه يشعر بالوحدة خصوصا عندما تغيب..»

صمت قليلا ثم قال:

«لم أكن أدرك ذلك.. سأحضر غدا.. ولكن هناك مشكلة..»

«ما هى؟»

«تعرفين أنه قدم مذكرة فى شأن اتفاق التصنيع مع «شركة لاروشيل».. وكتب مقالا فى صحيفة «الجماهير».. يبدو أن رئيس مجلس الإدارة ناقشة أخيرا بلهجة فيها تهديد.. وأن الوزير يفكر فى تقديمه إلى لجنة للتحقيق..»

«لم يقل لى شيئا عن ذلك»

«على كل حال سأحاول أن أمر عليكما يوم الجمعة مساءً. سلامى إلى «خليل» قولى له فضلت ألا أمر عليه فى المكتب نظرا لما سمعته بشأن المقابلة التى تمت بينه وبين رئيس مجلس الإدارة.. تصبحين على خير يا «أمينة»، وإلى اللقاء..»

كان مقدرا ألا ألتقى «بسعيد» يوم الجمعة حسب الاتفاق.. جاءتنى برقية من إحدى صديقاتى فى «المنيا» يوم الاثنين تطلب منى أن أسافر أليها فورا لأنها تعانى من مشكلة خطيرة، وتريد أن أقضى معها يومين أو ثلاث.. رتبت بعض شئون البيت بسرعة، وأعددت حقيبة يد وضعت فيها ملابسى، ثم ودعت «خليل» وركبت سيارة أجرة حتى محطة مصر.. فى الساعة الثامنة مساءً كنت أجلس فى قطار الصعيد وفى قلبى قلق أحاول أن أنحيه.. ترى هل من السليم أن أترك «خليل» وحده فى هذا الوقت؟ ولكن مهما أوتيت من خيال خصب لم يكن من الممكن أن أتوقع القصة التى بدأت فى هذه الفترة بالتحديد.. وما زلت حتى يومنا هذا أحس بالندم.. فربما كان من الأوفق أن أرفض السفر.. وما زال يخيل الى فى بعض الأحيان أن كل ما حدث مجرد حلم سأستيقظ منه فى أية لحظة لأجد الأشياء، وقد عادت إلى ما كانت عليه من قبل...

* * * *

هبطت من سيارة الأجرة أمام العمارة رقم ١٤١ شارع جسر النيل.. سرت تحت العواميد الرخامية السوداء المغروسة فى الأرض ترفع الجسد العملاق.. البواب أسود طويل، يلف حول رأس عمامته البيضاء.. رمقنى بنظرة سريعة كأنه تنبه إلى أنه لم يرنى من قبل.. يسجل الملامح، ويخزنها فى مكان ما من العقل.. أحس بالأداة المدربة على عمليات الرصد.. أقول له «مساء الخير»، أين تقطن السيدة «روث هاريسون» بالضبط»؟.. يجيبنى بأدب جم، ويقول فى صوت يسمع بالكاد: «الدور التاسع، شقة ٣٦.. على يمين المصعد عندما تخرج من الباب».. عيناه تمتصان تفاصيل وجهى، وثيابى، والطريقة التى أقص بها شعرى، ولون الحذاء. المصعد ينفتح أمامى تلقائيا ،يومض بأضواء حمراء، وخضراء، ويتحرك بصوت لا يزيد عن الهمس.. توقف عند الدور الخامس، وأنزلق بابه فخرجت.. أحسست به يختفى كالظل فى بطن العمارة ليؤدى مهمته فى صمت.. خطوت فوق البلاط الأبيض متجها إلى اليمين. الأرقام النحاسية تبرق فوق الخشب اللامع السميك.. ضغطت على زر ولكنى لم أسمع الجرس.. انفتح الباب بعد لحظة قصيرة شعرت خلالها كأن شيئا يمر على وجهى بخفة.. كالريشة.. كالنظرة السريعة.. كأصابع من الضوء.. رجل يقف خلفه.. السترة البيضاء، والسروال أسود، والشعر أكرت كثيف.. قال:

«تفضل.. السيدة «روث هاريسون» منتظرة سيادتك».. أغلق الباب وسار أمامى فى دهليز طويل تتخلله أبواب مغلقه، وصور معلقة بينها على الجدران.. تنبهت إلى أنه لم يسألنى عن اسمى، ولكنى آثرت الصمت.. شىء فى الجو العام يشغلنى.. يثير التساؤل، أو الفضول، أو ربما التوقعات.. واحساس عام بالدقة، والاتقان، ورفاهية العصر.. وجدت نفسى أقف فجأة فى حجرة تمتد بالطول، وبالعرض.. اتجه الرجل إلى الشرفة المفتوحة، ونطق بضعة كلمات بصوت منخفض.. الضوء الخافت ينشر ظلالا غامضة، ويبرق فى الفضية المرصوصة على المائدة، والأوانى، والطفايات.. من النافذة المفتوحة أرى أضواء كوبرى الجامعة، والبيوت على الضفة المقابلة، والمئذنة رقيقة، مدببة،.. سمعت صوتها يقول: «وصل».. أراها تقف.. الجسم متوسط الطول، والشعر كالهالة المضاءة تحت القمر.. قالت:

«معذرة.. كنت أستريح من يوم طويل..» مدت يدها إلى شىء بجوارها فانبثقت الحجرة من جوف الظلام، ولفها النور الهادىء الأبيض.. وجدت نفسى أقف أمامها.. وجه بيضاوى يحيطة شعر كستنائى، ولكن العينين يخفيهما اتجاه الضوء.. وجه أفاجأ بشبابه. تشبه الطالبة الجامعية، ربما فى آخر سنة.. يدها تمتد أمامها بحركة مميزة سريعة كأنها أطلقت من الكتف.. الأصابع تلتف حول يدى دون تردد.. تسعى إلى مقبلة، كأنها تستقبل صديقا تعرفت عليه منذ زمن.. نوع من الألفة الطبيعية..

«أهلا بك.. كنت أتطلع إلى هذا اللقاء.. فقد سمعت عنك الكثير من صديقتى «عايدة رجب».. تفضل أجلس».. تشير إلى «كنبة» وثيرة بجوار النافذة.. «يمكننا أن نخرج إلى الشرفة، ان إردت.. فالجو الليلة فيه رقة الخريف..»

«لقد مشيت كثيرا اليوم.. وهذه «الكنبة» تبدو مريحة للغاية»..

تبتسم.. أرى عينيها الآن.. صغيرتين عسليتين يشع منهما الدفء.. الفم ممتلىء فيه شبق.. والملامح فيها براءة، تنقلب أحيانا إلى شىء كالنضوج الصلب.. أحس بامرأة تحمل فى نفسها شخصية قوية، وربما شخصيتين..

أفاجأ بها تقول:

«هه.. قللى، ماذا رأيت..؟»

ندت منى ضحكة قصيرة أخفى بها الارتباك

«رأيت أشياءً جميلة للغاية..»

الوجه أمامى ينطق بالاشراق، ثم يتجهم فجأة ويغطيه سياج جاد..

أوه.. لا تقول الأشياء العادية.. سمعت من «عايدة» أنك مختلف..» أحس بالرضا يملأنى.. أطرقت إلى الأرض، ثم رفعت عينى اليها.. صمتت كأنها تنتظر الرد.. طال الصمت.. أسمعها تقول:

«لا أعرف كم من الوقت تستطيع أن تعطيه للموضوع الذى حدثتك عنه.. لذلك أقترح أن نبدأ على الفور.. ولكن دعنى أولا أسألك ماذا تشرب؟.. شاى.. أم عصير.. أم تفضل الخمر..؟»

كدت أن أطلب كأسا من «الويسكى» ولكنى قلت:

«الليمون ربما يروى عطشى، ويجعلنى أكثر قدرة على التركيز فى الموضوع..»

«كما تحب.. أما أنا فسأشرب كأسا من «الويسكى»..» ضغطت على زر إلى جوارها، فظهر الرجل الأسمر فى الباب، وانتظر فى صمت:

«لو سمحت يا «جعفر».. أحضر للأستاذ دورقا من عصير الليمون المثلج، ولى أنا كوبا من «الويسكى».. ولكن زد المياه قليلا عن المعتاد..»

لماذا خجلت..؟ كأن شرب «الويسكى» ونحن وحدنا غير مستحب.. أو ربما لأنى لم ألتق بها من قبل.. تلفتت ناحيتى:

«أم تريد أن تغير رأيك؟»

هذه المرأة الفتاة خطيرة.. كأنها تقرأ أفكارى.. لا بد من الحذر..

«لا شكرا.. الليمون أفضل..»

«أنا لا أدخن.. ولكن ان أردت توجد سجائر، وسيجار إلى جوارك على المنضدة.. والآن هل أنت على استعداد للأجابة على أسئلتى.. كما قلت لك أنا أعد دراسة عن الحركة النقابية فى مصر، من بعد معاهدة سنة ١٩٣٦ حتى بداية الثورة فى سنة ١٩٥٢.. سأقدمها كرسالة لأنال بها الدكتوراة من جامعة متشجان» وقد أشارت «عايدة رجب» إلى كتابك الذى نشر سنة ١٩٧٠.. قرأته بالفعل، وأفادنى كثيرا.. ولكن هناك زوايا من الموضوع، أريد أن أسألك عنها.. تعودت أن أعمل بجهاز تسجيل.. فهو يضمن الدقة.. ويوفر على بذل جهود كبيرة، فلدى سكرتيرة تقوم بالتفريغ.. ثم أنقح الموضوع وأصحح، فيه، وأرفع ما لا أريد.. وبعد ذلك أعرضه على صاحبه حتى أضمن أن المكتوب يعبر بدقة عما أراد أن يقول.. وقد استجوبت عددا من الناس قبلك، ولكنى أفضل ألا أعرض عليك ما قالوه حتى لا تتأثر فى اجاباتك بما يحملونه من آراء..»

لوحت بيدى نافيا أن هذا يمكن أن يؤثر على تناولى للموضوع فقالت:

يهمنى أن تفهم ما أقصده بذلك.. أننى لا أريد أن ترد ضمنا على آراء الآخرين.. فأنت قد قرأت لا شك كل، أو أغلب ما كتبوه.. عندما أريد أن أطرح إحدى النقاط التى يوجد حولها خلاف سأوجه سؤالا مباشرا اليك حتى تعبر عن وجهة نظرك.. فمن المهم أن أظل على قدر الإمكان متحكمة فى الموضوع.. وألا أضيع فى متاهات تخرجنى عن الخط الذى رسمته لنفسى..»

أومأت برأسى موافقا..

«دورى أن أساعدك على قدر الإمكان.. ولكنك أجنبية، وليس من السهل أن تحيطى بكل التفاصيل، بل وببعض الزوايا الهامة.. أنها ترتبط بالتاريخ، والمناخ الاجتماعى، وطريقة تفكيرنا فى الأمور.. وهذه مسائل يصعب استيعابها إن لم تتح للباحث إمكانية معايشة الأشياء عن قرب.. على أى حال أنت صاحبة الرسالة..»

أحس بشعرة من الضيق، كأننى أستخدم.. وبالفضول.. ترى من هم الذين أستجوبتهم..؟ أبحث عن نوع من التمييز عنهم.. غرور الذكر عندما يواجه امرأة جميلة.. وجهاز التسجيل يسبب لى بعض القلق.. رد فعل من عرفوا جلسات التحقيق، أو مطاردات البوليس..

«ربما تكون على حق.. تنقصنى الخبرة إلى حد ما فى مثل هذه الأشياء... فأنا فعلا فى بلد غريب مما يصعب على الاستيعاب.. أحيانا أتخبط فترات طويلة دون أن أكتشف الطريق.. وهذا يضيع على وقتا كثيرا أحوج ما أكون اليه.. فأنا محكومة بفترة زمنية لا أستطيع أن أتعداها.. ربما أمكنك مساعدتى فى فترة لاحقة بوسائل أخرى غير مجرد الرد على أسئلتى.. على كل حال سنرى.. ستصبح الأمور أكثر وضوحا مع الوقت.. والمسألة تتوقف أساسا على استعدادك أنت.. فأنا أحس أننى متطفلة على وقتك، وهذا يضايقنى بعض الشىء، ويمنعنى من التمادى فيما أطلبه منك..»

أرفع كتفى، وأميل برأسى نافيا أى احتمال للضيق.. ترى هل هى صادقة، أم أنها مجرد امرأة ذكية تريد أن تستفيد منى على قدر الإمكان..؟ فهؤلاء النساء الآتيات من الغرب تستهبلن أمثالى من رجال الشرق.. البشرة البيضاء.. والسيقان الملفوفة، والشعر المسترسل الهفهاف.. تمد قدميها فأكتشف أن قوامها

فى السروال الضيق جميل.. أملأ كوبا من دورق الليمون لأنشغل عنها.. السائل المثلج يعيدنى إلى الأشياء العادية. يطفىء اللهب الصاعد.. أضغط بقدمى على الأرض.. لسبب ما هذه المرأة تثير فىّ الاضطراب..

«ولكن قبل أن أدخل فى صلب الموضوع أريد أن تتحدث عن نفسك قليلا.. نوع من السيرة الذاتية المختصرة..»

«على شرط أن تتحدثى أنت عن نفسك عندما ننتهى من الأسئلة.. وأعدك أننى لن أسجل ما ستقولينه..»

وجهها يتحول فجأة إلى كتلة تكاد تكون حجرية لولا البشرة الناعمة النابضة بالدم.. كأنها أسدلت ستارا على نفسها وانسحبت وراءها.. السائل العسلى فى العينين يتجمد ويصبح كالسطح الأملس المغلق على العالم الخارجى..

تضحك ضحكة قصيرة جافة، وتضغط بحركة سريعة على مفتاح التسجيل.. ترفع الميكروفون الصغير..

«والآن أحك..»

كانت الساعة قد قاربت على الواحدة بعد منتصف الليل عندما تسللت من تحت الأعمدة الرخامية.. سرت متمهلا فى الشارع العريض المحاذى للنيل.. صعدت الدرجات إلى كوبرى الجامعة. وصلت محطة «باب اللوق» حوالى الساعة الثانية .. وجدت القطار الأخير يغط فى سكون عميق. اخترت مقعدا خاليا بجوار النافذة.. فى قلبى سعادة غامضة. وقلق. كأنى مقدم على أشياء جديدة لم أكن أتوقعها.. أدرت المفتاح فى الباب. ودلفت فى سكون إلى حجرة النوم.. أحسست بحركة فى السرير وسمعت «أمينة» تقول:

«انت يا خليل».. أهلا بك.. عدت منذ الساعة السابعة. ولكنى لم أجدك.. أين كنت؟..».

انها لا تنتظر الاجابة.. احس أنها سعيدة بالعودة مشتاقة إلى الحديث، والثرثرة...

«آه.. انى جد مرهقة.. صديقتى «زينب» ملأت رأسى بالمشاكل.. وجعلتنى أشعر أن الحياة كئيبة.. كيف أنت يا «خليل»؟ وحشتنى.. تبتسم فى خبث مصطنع.. «كم الساعة الآن..؟ أرجو أن تكون قد قضيت وقتا طيبا..».

«الثالثة».. ترددت.. هل أحكى لها الآن.. «كنت عند صديقى «فاروق المغربى» وبعد أن تركت منزله وجدت الليل صافيا، فقررت أن أمشى حتى محطة «باب اللوق».

«من بولاق الدكرور؟»».

«نعم»

«لابد أنك تعبت.. اخلع ثيابك.. وارقد إلى جانبى.. كيف حال «فاروق»..؟ وحشتنى يا حبيبى..».

«وأنت أيضا كانت لك وحشة.. البيت كان بلا حياة فى غيابك» تضمنى بين أحضانها، تقبلنى.. فأظل مستسلما بين ذراعيها، دون حركة..

«مالك..؟»

«أبدا.. أنا متعب من المشوار الطويل..»

«إذن، ليس عندك مزاج للحديث.. فلننم».. تنطق الكلمات بشىء من الحزم الجاف..

أطفأت النور، وساد الظلام.. جسمى يطلب الراحة، ولكن عقلى يقظ.. وتحت ضلوعى، أحس بقلبى يدق بايقاع جديد.

بعد عشرة أيام من عودة «أمينة»، دخلت مكتبى، فوجدت مظروفا أبيضاً

داخل ملف بريد الصباح.. فتحته، وأخرجت الورقة المطوية داخله.. خط «سعيد».. ترى ماذا يريد..؟ لم أره منذ مدة.. انقطع عن زيارتنا بعد النقاش الذى دار بيننا حول موقفى من عقد التصنيع.. الضيق منعنى من الاتصال به، وربما قليل من وخز الضمير.. لعله كان يجب أن أتخذ الخطوة الأولى، فهو الذى يزورنا فى بيتنا.. يأكل معنا، ويشرب، وأحيانا يبيت.. وظروفه لا تسمح له أن يرد الينا شيئا من هذا القبيل.. لم نفكر أبدا فى هذه المسألة.. ولكن ربما فكر هو فيها، وأحس بالحرج بعد المناقشة الحادة، التى دارت بيننا.. أعرف أن خلف موقفه العملى فى الحياة، يخفى احساسا مرهفا للغاية، وكبرياءا ربما سببه الأساسى الأسرة المتواضعة التى ولد فيها.. نعم.. كان يجب أن أبحث عنه.. وأسأله لماذا لم يحضر الينا طوال هذه الأسابيع.. بسطت الرسالة أمامى على المكتب.. وأخذت أقرأها:

«الصديق العزيز «خليل».

لم نلتق منذ مدة.. حالت دون ذلك بعض المشاكل وربما احساسى بأنك غضبت من رأيى ازاء موقفك فى موضوع عقد التصنيع، وتحتاج إلى فترة للتفكير، حتى نعيد ترتيب علاقتنا فى ذهنك، وتضعها على أسس ترتضيها.. ومع ذلك بدا لى فى بعض اللحظات أننى أتوهم أشياء لا وجود لها.. ولكنك تعرف أنه بقدر متانة العلاقات بين الناس تكون ردود الفعل أحيانا قوية.. وهذا عذرى الوحيد..

مررت على منزلك الأسبوع الماضى.. كان يوم خميس حوالى الساعة السادسة مساءً.. لم يكن أحد موجودا فى ذلك الوقت.. كنت مستعجلا، ولم يكن معى قلم، لذلك لم أترك رسالة تحت عقب الباب.. وتصادف أيضاً أننى نسيت المفتاح فى شقتى، فلم أستطع أن أدخل.. المهم أريد أن نلتقى لنتحدث فى بعض الأشياء.. تفاديت زيارتك فى المكتب منعا للقيل والقال فالجو مشحون هذه الأيام، وأعصاب الادارة مشدودة إلى آخر المدى، وعلى الأخص أعصاب «الحصان».. اقترح أن نلتقى فى مقهى «الزجاج»، يوم الأحد القادم حوالى الساعة السادسة مساءً.. إذا

كان الموعد لا يناسبك ابعث إلى برسالة عن طريق «مصطفى رمضان».. فان لم تصلنى رسالة حتى يوم الأحد صباحا سأعتبر أن الموعد قائم..

تحياتى وأشواقى إليك وإلى «أمينة»

وإلى اللقاء

«سعيد أبو كريم»».

وضعت الورقة فى جيبى وسرحت.. ترى ماذا يريد؟ .. فقدت الشركة جو الاستقرار القديم.. موضوع الاتفاق مع «مؤسسة لاروشيل» يثير مخاوف العاملين.. طبعت اللجنة النقابية عدة مئات من نسخة الدراسة التى سلمت صورة منها إلى «سعيد». ووزعتها، بعد أن أدخل عليها عدة تعديلات حتى لا ينتبه المسئولون إلى أنها نفس المذكرة التى قدمتها لرئيس مجلس الإدارة.. أنه يقظ رغم الأعباء التى تتزايد عليه.. لم أطلب منه اجراء التغييرات، ولكنه تصرف من نفسه، وأضاف بعض آراء العاملين، فنالت تأييدا واسع النطاق، وشحذت همم المعارضين.. ربما سمع أننى قدمت مذكرة جديدة مخففة.. على أى حال أنا أدرى بما يجب أن أفعله.. أنه متحمس، ولكن تنقصه الخبرة.. لا يدرك أن المعركة مازال أمامها شوط طويل.. عندما انضممت أول مرة إلى صفوف الاشتراكيين كان سنى ثلاثين سنة وها أناذا أناهز الخمسين.. يبدو لى فى بعض الأوقات أن المسائل توقفت عن السير.. ان الاشتراكيين أنفسهم فى حاجة إلى من يتول تحريرهم.. أما أنا فما زلت أختبىء أغلب الوقت بين صفوف المتفرجين.. ماذا يريد منى «سعيد».. ذهنى ليس معه هذه الأيام.. وعدتنى «روث» أن تتصل بى عندما تنتهى من تفريغ الشريط.. مر وقت طويل منذ ليلة الخميس، أو هكذا يبدو لى.. أعد الأيام على أصابعى.. اليوم الاثنين.. لا الثلاثاء.. أحد عشرة يوما.. ليس هذا بالكثير.. فالحديث امتد ما يزيد عن أربع ساعات.. استرحنا مدة ساعة فى

الشرفة وتناولنا وجبة خفيفة وزجاجة نبيذ.. نسيم الصيف الطرى يهب علينا، ويحمل إلى رائحة عطرها الخفيف.. تحكى عن الخريف فى بلادها، عن الهند التى عاشت فيها سنين مع زوجها عندما كان يعمل فى «البنك الدولى لاقراض الريف».. عن الاله «رام» له جسم مكتنز ووجه فيل صغير .. عن الشمس تشرق خلف جبال «الهيمالايا». وتفيض على القمم البيضاء كالذهب والورد والكركم، والجنزبيل.. استمع اليها، اترك نفسى زورقا ينساب على متن الريح.. ترى ماذا يريد منى «سعيد»؟ أحيانا أشتاق إلى المعارك.. وأحيانا عقلى وجسمى يقولان لى: لماذا لا تستريح؟.. ولكنى أعلم علم اليقين، أن الماضى جزء منى لا أستطيع أن أنحيه..

* * * *

نظرت إلى معصمى.. الساعة الثامنة والربع.. تثاءبت.. اليوم أمامى طويل.. أصبحت أكره المجىء إلى الشركة أكثر من أى وقت مضى.. لا شىء يربطنى بهذا العمل سوى المرتب، ومكان أذهب إليه كل يوم، بدلا من البقاء فى البيت.. ترى كم عدد الذين يقبلون على العمل ويجدون أنفسهم فيه؟ من الذى قال أنه فى يوم من الأيام سيصبح العمل احتياجا، ومتعة للانسان، وليس مجرد وسيلة للحصول على العيش؟.. ماركس.. أحلام رجل اقتصاد، أم فنان؟.. أم أحلام رجل معتوه..؟ من يدرى..؟ ربما بعد مئات السنين سيوجد مجتمع آخر على هذه الأرض..

أهوى هذه التأملات تخرجنى عن واقع اليوم.. دق جرس التليفون.. استمع إلى الصوت المبحوح من كثرة السهر والدخان.. ما الذى جاء به فى هذه الساعة المبكرة؟ يطلبنى فى مكتبه.. ترى ماذا يريد..؟ لابد أنه أمر مهم ذلك الذى جاء به قبل الميعاد.. أو ربما شىء تافه.. بنت من البنات حاول المدير الادارى أن يجذبها إلى شقته فى «المقطم»، فوصله الهمس.. يهتم بهذه الحكايات.. يفرغ فيها حرمانا جنسيا اصابه من زمان، وينصب نفسه قيما على الأخلاق.. يستفيد منها لممارسة الضغوط عندما يحتاج.. على أية حال.. ليس هو الوحيد، ولا هو أسوأ الرجال..

وجدته جالسا خلف مكتبه، وعلى وجهه علامات الجد، والاهتمام.. حليق

الذقن، معطر، يرتدى بذة سمنية اللون مصممة على آخر طراز.. تبادلنا تحية الصباح ومد يده إلى بورقة مطوية.. فتحتها وقرأت.. برقية مرسلة باللغة الفرنسية تفيد أن «المسيوجان روكار» سيصل على الطائرة «أيرفرانس» رقم ٤٩٤ يوم الجمعة الموافق» ١٤ أغسطس لاستكمال المباحثات بين «مؤسسة لاروشيل» و«شركة طيبة للأدوية».. وأنه سيقيم فى فندق «الميريديان».. على أن يعقد أول اجتماع صباح يوم السبت بمقر الشركة فى الساعة التاسعة والنصف..

عندما رفعت عينى عن البرقية وجدته يفحصنى فى صمت كأنه يحاول أن يستشف أثرها على.. أشعل سيجارة وقال:

«اجلس، واستمع إلى جيدا.. الآن دخلنا فى مرحلة الجد.. المسيو «باركار» هذا..».

قاطعته

«روكار»..

«روكار».. ولا «باكار».. ولا «زفت الطين»، يحمل معه مشروع اتفاق جديد..» صمت لحظة، تفرس أثناءها فى وجهى ثم أكمل «أقول مشروع اتفاق جديد.. ومن المفروض أن ندرسه، ونرد عليه قبل أن يغادر القاهرة، يوم الخميس القادم، «بنعم» أو «لا».. فقد كتبوا إلى ما معناه أن صبرهم قد نفد.. وأن هذه آخر فرصة أمامنا لعقد اتفاقية مع «مؤسسة لاروشيل»..

صمتت.. من الأفضل أن أتركه يكمل كلامه..

«أراك صامتا.. ألم يعجبك هذا الكلام؟»

«أعجبنى، أم لم يعجبنىَ.. لن يؤثر هذا فى كثير.. أنا منتظر حتى أعرف ما تريده منى..».

«أريد أن تدرس المشروع، وأن تكتب لى برأيك..»

«مرة أخرى بعد كل ما حدث..!»

«نعم.. مرة أخرى بعد كل ما حدث.. دعنى أحدثك فى صراحة..» مد يده بعلبة السجائر، وقال: «سيجارة»؟

«لا شكرا. توقفت عن التدخين منذ شهر..»

«لماذا..؟»

«أفيد للصحة.. ثم الغلاء... كنت أصرف ما يزيد عن عشرين جنيها فى الشهر..».

«عشرين جنيها؟!.. أنا أصرف ما يزيد عن سبعين جنيها» يقولها بفخر.. «ما علينا.. لنعود إلى موضوعنا.. أنا لم أفقد الأمل فيك بعد.. ومازلت متمسكا بك.. فأنت من الكفاءات النادرة فى الشركة... بل، وأنا أقولها لك الآن، دون لف أو دوران، لم أعمل مع أحد له قدراتك على الاحاطة بأى موضوع، وإستيعاب الأساسيات وتحديد الموقف المطلوب.. ومستعد أن أحلف اذا لزم الأمر بالطلاق أننى لا أكن لك سوى الخير.. ولكن يجب أن تساعدنى. فأنا فى حاجة إلى جهدك الصادق.. ومقابل ذلك سأفتح لك أبوابا واسعة، لم تخطر لك على بال.. أبواب المكسب المادى.. وان كان يبدو أن ذلك لا يهمك كثيرا.. وأبواب السفر، والفرص العلمية. أنت بالطبع تعرف جيدا ما هى «مؤسسة لاروشيل؟..».

«أعرف».

«نحن بالنسبة اليها قطرة فى بحر»... يزم شفتيه بازدراء «هه.. ماذا تقول..؟»

«هذا فى صميم عملى.. فان طلبته منى كيف أقول لا...؟».

لوح بيده فى عصبية..

«لا تتغاب على. ليس هذا هو ما أقصده... وأنت تعى ذلك تماما.. أقصد أنه، منذ اللحظة التى اسلمك فيها صورة من المشروع ستصبح من الرجال الذين اعتمد عليهم فى كل الامور، وستقع عليك مسئوليات، وتجنى الفوائد التى ترتبط بهذا الوضع.. وأول هذه المسئوليات هو الإخلاص التام للادارة العليا فى الشركة.. أى بالتحديد.. لى أنا شخصيا... والحفاظ الكامل على أسرارها... بمعنى آخر إذا بلغنى أنك تحدثت مع آخر، أو آخرين، عن الاتفاقات المزمع عقدها مع «مؤسسة لاروشيل»، أو عن جزء منها، سيكون هذا هو آخر عهدك بالشركة».

أشعر بقلبى ينبض تحت الضلوع، وبجفاف فى الحلق.. رفع سماعة التليفون دون أن يرفع عينيه الصغيرتين عن وجهى.. تركهما يجريان فوق ملامحى كالحيوانات الصغيرة تشمشم.. تبحث عن ثغرة تنفذ منها تحت السطح.. الآن وصلت إلى مفترق الطرق.. إما معه.. أو معهم... إما مع القذارة التى تجرى فى شرايين البلد.. أو مع البقية الباقية من الصدق والنظافة.. لم يترك لى الخيار.. فاذا قلت لا... سيدرك أننى معهم... وسيتصرف فى المستقبل على هذا الأساس.. لابد اذن أن أقول، نعم.. ولكن كلمة نعم هذه تحتمل موقفا من اثنين، لا ثالث لهما.. اسمعه يقول:

« «يا سهير»... إرسلى إلينا فنجانين من القهوة» ينظر إلى متسائلا... «على الريحة»... هززت رأسى موافقا، فأعاد السماعة إلى مكانها. ساعة المكتب تسجل زحف الثوانى.. تك..تك... مازال ينتظر الاجابة على سؤاله... التردد سيثير عنده الشك خصوصا وأنه شكاك بطبعه...

أخذت نفسا عميقا وقلت:

«أنا موافق...»

أرى أسنانه الكبيرة الصفراء تبتسم فى رضى..

«أهنئك... أخيرا اثبتت انك، إلى جانب كفاءتك فى العمل اصبحت تدرك مصالحك... ولكن..» يصمت، ويتفرس فى وجهى من جديد كأنه يريد أن يتأكد...

«لا تنس.. ولا كلمة واحدة عما دار بيننا..» «مسيو باكار» سيصل فى التاسعة والنصف حسب البرقية.. ساجتمع به وحدى لمدة ساعة... ثم بعد ذلك سأرسل فى طلبك حتى تتعرف عليه، ويشرح لك بعض النقاط إن أراد..».

دخل الفراش يحمل القهوة، فتوقف عن الحديث إلى أن خرج وأغلق الباب وراءه..

«ولا تنس أيضا أن للجدران آذان، بل وعيون.. وبعضها تعمل معنا، ولكن ليس كلها.. وانت تعلم أن لا شىء يحدث فى هذا المصنع إلا وعرفته.. لماذا لا تشرب القهوة؟».

رفعت الفنجان فى صمت، ورشفت منه.. أحس بشىء كالدوامة فى عقلى..

«كيف حال «أمينة؟»..»

أول مرة يتبسط معى إلى هذه الدرجة، ويسألنى عن زوجتى.. كان يتعامل معى دائما وكأنى أعزب.. أصبحنا فى نفس المعسكر..

«الحمد لله، بخير»

«اذا أردتما أى شىء لا تتردد...».

أومأت برأس.. ابتلعت رشفتين من القهوة، وقمت.. أحسست وأنا أخرج بعينيه فى ظهرى..

يوم السبت التقيت «بالمسيو روكار» حوالى الساعة الواحدة ظهرا.. عندما دخلت وجدته جالسا على «الكنبة» الكبيرة فى حجرة الرئيس... وقف وبادلنى

التحية.. جسمه طويل، وعيناه تطلان من أعلى... فيهما برود الترفع عن صغائر الأشياء والناس، كأنه تعود أن يحكم دون أن يتدخل.. يرتدى سترة داكنة من قماش رفيع وسروالا رماديا ضيقا. ينطق مقاطع الكلمات الفرنسية بشكل محدد كأنه أعدها وقسمها، ورتبها قبل أن يتكلم.. يتحدث العربية بسهولة، وإن كانت لكنته غريبة.. قضى سنين طويلة فى الجزائر فى عهد الإدارة الفرنسية.. يكره «ديجول» لأنه فى رأيه.. «لم يدرك أننا فى عصر المصالح المتعددة الجنسية، ولابد من تجاوز الاعتبارات القومية، وأن تتكاتف الدول الغربية لمواجهة البربرية السوفيتية..» جلست أتأمله.. كل شىء فيه منسق، ومهذب.. من أول أظافر اليدين، وشعر الرأس، حتى الحقيبة الأنيقة الطرية يفتحها بشفرة سرية.. يطلب الأشياء بأدب جم كأنه فى بلاط الامبراطورية الفرنسية. ولكنه عندما يجلس يمد ساقيه كأنه من أهل البيت.. حاول أن يستدرجنى إلى مناقشة سياسية، فحولت الموضوع إلى سؤال عن أسعار المواد الكيماوية التى سنستوردها عن طريق «مؤسسة لاروشيل».. يتمشى معى فى الحديث بمرونة تبدو طبيعية.. قبل أن أنصرف أعطانى صورة من مشروع الاتفاق، فأدركت أن الرئيس تحدث معه عنى، وقصد أن يقدمنى له حتى يتعرف على، باعتبارى أحد مساعديه.. يضرب عصفورين بحجر .. يدخلنى فى العملية، ويوضح للرجل أن لديه كفاءات فى الشركة يستطيع أن يعتمد عليها...

وضعت مشروع الاتفاقية فى مظروف، وانصرفت قبل الميعاد بساعتين.. ذهنى مشغول. أريد أن أمشى.. أن أبذل جهدا عضليا ربما يفرغ جزءا من التوتر الذى تراكم طوال النهار... أحسست أن الهدوء يخيم على المكاتب بطريقة غير عادية.. الأبواب كلها مغلقة.. حركة الأقدام فى الممرات توقفت... والأصوات التى أسمعها لا تعلو عن الهمس... عند أسفل السلم وجدت عددا من العاملين مستغرقين فى الحديث، ولكن عندما لمحونى انتظروا حتى مررت، ثم تفرقوا..

دلفت إلى الحوش... سيارة سوداء كبيرة قابعة بين المبانى فى سكون كأنها تنتظر اشارة خفية وعند المدخل الخارجى وجوه الكتبة والحراس فيها تساؤل ووجوم.. أسرعت فوق الطريق... فكرت لحظة أن أمر على «أمينة» ثم غيرت رأيى.. إنها منهمكة فى الإعداد للمعرض، وذهنها لن يكون معى.. لا تميل إلى مناقشة مثل هذه المشاكل. تتتبعها من بعيد، وبعد قليل أجدها تسرح.. ركبت القطار فى محطة «حلوان»، وعندما وصلنا الى «دار السلام» قررت أن استكمل الطريق حتى «باب اللوق» فلا يوجد ما أصنعه فى البيت وحدى.. أحتاج الى أن أفكر فى المسائل... أن تحملنى قدماى بينما عقلى يقلب الأمور، ويخطط لنفسه سبيلا واضحا وسط الغيوم..

كانت الساعة قد قاربت على الثامنة مساءً وأنا مازالت أسير.. شوارع المدينة تحاصرنى بالبنات ترتدين القبعات البيضاء، وتبعن مناديل الورق... بسيارات البوليس، والمتاريس، والسناكى المشرعة... بالوعود تتراءى أمام عينى.. بجواز سفر أرحل به بعيدا، ورزمة من العملات الأجنبية... بنظرات العيون الباردة، ومظروف أصفر يحمل أوراق الاتفاقية.. قدماى تنتقلان فوق الأرض فى اعياء.. جسمى أرهق، ولكن عقلى مازال عاجزا عن الرؤية.. لن أحل المشاكل التى تواجهنى بهذا التجول فى شوارع المدينة.. الأفضل أن أعود الى البيت... أن أنكب على أعداد المذكرة التى طلبت منى، وبعد ذلك سنرى..

لم اشعر كيف وصلت الى البيت.. اتحرك بطريقة آلية.. الضاحية غارقة فى السكون، وعندما أدرت المفتاح فى الباب بدا لى أن صوت صريره الخافت ايقظ النائمين فى أسرتهم.. خلعت حذائى وجوربى وارتديت الخف.. اعددت كوبا كبيرا من القهوة، وضعته فوق المكتب... أخرجت صورة الاتفاقية من المظروف الأصفر، والى جوارها أعددت كمية من الورق الأبيض.. رشفت رشفتين من القهوة، فأحسست بذهنى يصفو، وبالغيوم ترتفع عنه فى بطء كالشبورة الكثيفة فى يوم

ينذر بالمطر.. أدرت مفتاح الراديو.. «لندن» تذيع نشرة الأخبار..

«البابا» ينصح الفقراء فى مدينة «مانيلا» بالفليبين بعدم التكالب على الأشياء المادية!! «وموشى ديان» يزور القاهرة.. أغلقته من جديد، وأخذت أقرأ بنود الاتفاقية.. وأدون ملاحظاتى على الورق.. بالتدريج وجدت نفسى مستغرقا.. أفقت على صوت سيارة تمر فى الشارع.. أحد الجيران يعود فى وقت متأخر. أعيد قراءة الخاتمة التى كتبتها... «وهكذا يتضح مما سبق أن الاتفاقية ستؤدى فى ظرف ثلاث سنوات الى مضاعفة أرباح الشركة، والى حدوث توسع فى الإنتاج يصل الى ثلث المعدل الحالى، والى رفع انتاجية العامل بنسبة خمسين فى المائة... وهذه مكاسب لايمكن التغاضى عنها... أما الخسائر فتتلخص أساسا فى أن مركز القرار سينتقل الى الجهات المهيمنة على «مؤسسة لا روشيل» فى «باريس» حيث أن دخولها فى رأس المال، بالإضافة الى التغييرات المزمع ادخالها فى هيكل الاستيراد، والبيع، والإنتاج تعنى استحالة السيطرة محليا على سياسات الشركة وبالتالى على طريقة توزيع الأرباح، واستخدامها... كما أن زيادة الإنتاجية ستؤدى حتما الى الاستغناء عن مائتين أو أكثر من العاملين، وعلى الأخص أولئك الذين يفتقدون المؤهلات، والخبرات الفنية المطلوبة...

وقد اقتصرت فى تحليلى لبنود الإتفاقية على الآثار المتعلقة بالشركة، ولم اتطرق الى المسائل ذات الطابع القومى التى يبدو أنها خارجة عن نطاق اختصاصنا.. والأمر مرفوع الى سيادتكم رجاء الدراسة..»

مازالت «أمينة» فى الخارج.. اشعر بموجة سريعة من القلق اطردها بسرعة.. انها مشغولة فى هذه الفترة بالاستعداد للمعرض.. تجرى هنا وهناك منذ اللحظة التى تغادر فيها المصنع الى أن تعود بعد منتصف الليل.. انشغلت عنى تماما... وأنا أيضا انشغلت عنها.. احيانا يبدو لى أننى اتهرب.. اتفادى الناس، واحيا معظم الوقت وحدى... ترى ماذا يفعل «سعيد» الآن..؟ جو المصنع هادئ، بل

أهدأ من المعتاد.. لقد رأى العاملون الرجل الفرنسى عندما حضر، وطار فى صفوفهم الخبر.. حدثت بعض الاضطرابات فى اليومين الاولين.. ذهب وفد من اللجنة النقابية لمقابلة الرئيس.. تفاديت أن أكون موجودا فى هذا اللقاء، خرجت من الشركة لعذر طارئ اصطنعته.. ولكن عرفت فيما بعد أنه طمأنهم، ووعدهم أن السنوات القادمة ستكون فترة خير ورخاء للجميع.. ثم نصحهم بالإنصراف الى العمل، والإنتاج، وعدم اثارة الاشعاعات، والأحقاد، وفضح المخربين الذين يصطادون فى الماء العكر ويسعون الى احلال الفوضى مكان الاستقرار والسلام.. قال إنه بريد منهم أن يعتبروه مثل أخ كبير أو أب يراعى مصالحهم، ويسهر عليها، وطلب منهم أن يتركوا له كل شئ..

أصابنى الاندهاش عندما علمت انهم لم يجادلوه، وأكتفوا بالاستماع اليه، رغم أنه اكد ماسمعوه عن وجود مشروع إتفاق جديد ستدخل مؤسسة «لاروشيل» بمقتضاه كشريك فى رأس مال الشركة، وأنه سيتم تحويلها من القطاع العام، الى شركة استثمار تطرح أسهمها فى السوق..

ترى مارأى «سعيد» فى كل مايجرى؟.. لا أتصور أنه اقتنع بما قيل.. أعرفه جيدا.. يدرك ماالذى يرتبون له منذ الآن.. لماذا ظل صامتا اذن؟.. ربما خاف.. راقت لى هذه الفكرة.. لن أكون وحدى.. ولكن «سعيد» لم أره يتراجع من قبل إلا عند الضرورة.. الخوف.. طبعا لا يسلم منه. ولكن يعرف كيف ينساه عند اللزوم.. لا.. هناك شئ آخر.. هذا الصمت بلا جدال وراءه تدبير...

فوجئت بعد أيام بالرئيس يوجه الى سؤالا عابرا، كأنه طرأ على ذهنه فى الحال.. «مارأيك فى اللجنة النقابية؟..» أحسست بالحيرة.. بماذا أرد..؟

«من أية ناحية»...؟

«ماذا تظن أنهم سيفعلون ازاء الاتفاقية الجديدة»..؟

يريد أن يستفيد من خبرتى ليس فقط فى البحوث، ولكن ايضا فى مسائل أخرى.. ترددت.. أسهل طريقة للصعود. لما لا..؟ ولكن الى أين ستقود هذه اللعبة؟ الأفضل أن استخدم اسلوب التسويف، حتى أفكر فى الأمر.. اذا قدمت له خدماتى فى هذا المجال لن تقف المسائل عند حد... والتراجع عندئذ يصبح صعبا.. الفخ المنصوب باتقان لايترك الفريسة تفلت.. رأيت هذا من قبل.. لا أفكر فى المبادئ الآن.. أشعر فقط بالغثيان.. ربما تكون فى نقاط ضعف.. ولكن هذا..

«الواقع أننى لم أفكر فى الأمر.. كنت مشغولا فى كتابة المذكرة، وأعمال الإدارة.. ربما لأنى أحاول أن أبعد نفسى عن مثل هذه المجالات..»

يرمقنى فى تساؤل..

«أم الغريزة تدفعك كما فى الماضى الى الاهتمام..؟»

رفعت كتفى فى حركة تدل على عدم الأكتراث.. النفى ربما يثير شكوكه، وهو دائما مستعد للشك..

«هل تظن أنهم سيستسلمون..؟»

«ولكنك وعدتهم خيرا..؟»

ضحك...

«أنا، وأنت نعرف جيدا معنى الاتفاق..»

آثرت الصمت،، أنا وأنت.. ما الذى أدخلنى فى كل هذا..؟ لماذا لا أكتفى بركن متواضع أطل منه على الصراع، واقضى الوقت فى الدراسات، والكتب.. «أمينة» تسألنى بين الحين والحين.. «والدراسة لماذا لم تبدأ فيها؟» فأرد ضاحكا.. «مازلت انتظر الوحى». عندما أفكر فى نفسى هذه الأيام، ينتابنى الاشمئزاز..

نعم الإشمئزاز.. والحزن...

«لم ترد..»

«ماذا أقول.. طبعا هناك احتمال أن يفكروا فى شئ.. وهناك احتمال أن يؤثروا السلام - مسألة تقدير موقف..»

«السلام؟ - لاأظن.. هذا البربرى «سعيد أبو كرم» لن يتركهم.. إنه وراء كل حركة للعاملين تتم فى المصنع.. لايرتاح إلا فى الشغب... افكر فى أن أريح نفسى وأفصله..»

أحسست بقلبى يسقط.. رمقنى بنظرة سريعة.. يعرف طبعا أن «سعيد» صديقى، فلماذا يتكلم أمامى هكذا..؟ يريد أن أوصل ماقاله اليه.. أن يبث فيه الخوف.. لو كان ينوى أن يفصله لما تحدث عن هذا أمامى.. ولكن ربما أفلتت منه الفكرة وعبر عنها دون أن يتنبه.. أو وثق فى.. الاحتمال الأخير بعيد.. الشك يحركه أكثر من أى شئ آخر، وهذا مفيد فى بعض الأحيان.. يجعله يحسب لكل شئ ألف حساب قبل أن يقدم عليه..

«وماتقديرك أنت للموقف... ألست رجل سياسة..؟»

«كنت..»

«رأيى فيك إنك مازلت ترنو الى الماضى... فيك نوع من الوفاء الغبى... وأنا أقدر مواهبك... ولذلك أحاول أن أجذبك الينا... فأنت خسارة مع الامعات...»

رجل غريب... فيه أحيانا ذكاء فطرى كأنه يحس بالناس... ذكاء ربما صقله التنقل المستمر، والارتباط بواقع الصراع فى مختلف المجالات..

«هه... لازلت تحتمى فى الصمت... اذن لأكمل أنا كلامى... اصدقاؤك لايعرفون كيف يقدرون الناس، ولا كيف يضعونهم فى مكانهم.. لذلك يفقدون

أحسن عناصرهم باستمرار..»

ابن اللئيمة... يضغط على المواضع المؤلمة.. المسيح قال «خذ الحقائق من أفواه الاطفال.. فهم سيدخلون ملكوت السماء..» أنه أحيانا كالطفل.. كالحصان الجامح. لاشئ يوقفه عما يريد أن يقوله.. تخرج منه التراهات - والحقائق فى سيل مختلط..

يبتسم ناحيتى بسخرية..

«عندكم زعيم من زعمائكم قال: «خذوا الحقائق أحيانا من أفواه الاعداء» أسمه «لينين»، أليس كذلك؟ قرأتها فى كتاب «لحسنين لهيطة»... هذا للتوضيح حتى لايختلط عليك الأمر، وتظن أننى «ماركسى» مثلك..»

يضحك مسرورا بما يقول.. انه فى حالة انتشاء اليوم. الاتفاقية رفعت معنوياته فى هذه الايام.. يعيشون فرصة العمر، وينتهزون الظروف قبل أن تزول.. يستطرد.. «ولكنى حتى الآن لم أعرف رأيك.. ماذا سيفعلون..؟»

«لا أعرف...»

يرمقنى كأنه يوزن الأمور قبل أن يستمر فى الحديث..

«حسناً.. أنت لاتعرف.. أما أنا فأعرف بالدقة ما الذى استقر عليه رأيهم..»

لن أسأله.. اذا أراد أن يفصح عما عنده لن ينتظر السؤال..

«إنهم يعدون للاضراب..»

«الاضراب؟!»

«نعم الاضراب.. انهم مغفلون.. سنضرب نحن بيد من حديد.. ونكسر ظهر الأفعى قبل أن تلدغنا.. فالاضراب ليس مسألة تخص الشركة وحدها.. إنها تمس السياسة العامة، والقوانين.. والدولة لن تتركها تمر، والا تكررت فى مواقع

أخرى..»

لماذا يخبرنى بكل هذا..؟ استبعد أنه وثق فى فجأة. مازلت فى مرحلة الاختبار... سيجرى على اختبارا، واثنين، وثلاثة... وربما اختبارات مدى الحياة... ينطبق على أمثالى قانون الاشتباه... انا متهم دائما الى أن اثبت براءتى.. وأحيانا متهم حتى وان كنت بريئا.. ليست مسألة ثقة.. أنه يريد أن يستخدمنى دون أن أشعر.. أن انزعج مما يقول، ومن الاحتمالات، فأسرع اليهم، وأحاول اقناعهم بالعدول.. يعلم جيدا أنه مازال عندى تأثير.. أنه حريص على حمايتى من الاقاويل، من انكشاف الصلة الناشئة بينى وبينه، حتى أستطيع أن أمارس هذا التأثير.. هذا الرجل ليس بسيطا كما كنت أظن.. أنه قدر الموقف جيدا وأدرك أن الهدف الرئيسى يجب أن يكون الحيلولة دون حدوث اضطرابات فى المصنع قبل امضاء الاتفاقية... وإلا ربما انسحبت «مؤسسة لاروشيل» بسبب عدم استقرار الوضع.. واذا كانت استنتاجاتى أنا سليمة يصبح الرد الواجب من جانب العاملين هو الاضراب، ولاشئ سواه.. أشعر بالدماء تجرى فى عروقى، كالمحارب القديم يجلس على المقعد الهزاز، ويلتقط صوت البروجى من بعيد... ويختلط فى قلبه الانفعال، وشعور عميق بالأسى... فأين أنا من كل مايحدث..؟ لماذا لم يحضر الى «سعيد؟»... أو لماذا لم أذهب أنا إليه؟.. فى مثل هذه الظروف هل يوجد شئ اسمه الكبرياء...؟ نعم يوجد فماذا يساوى الإنسان بلا كبرياء؟.. الشخصية الهزيلة وحدها هى التى لاتعرف هذا الشعور وأنا «خليل منصور خليل» ربما أكون ضعيفا فى بعض الاشياء... ولكنى لم أكن هزيلا فى يوما ما..

قمت من جلستى أمام المكتب.. فتحت النافذة وملت الى الأمام.. جو الخريف... النجوم معلقة فى السماء، ومن الحقول يهب النسيم، يداعب الشعر، والوجه.. هذه الحياة.. كم كان من الممكن أن تكون جميلة.. أمثال «أمينة» حظهم سعيد... عندما يستغرقون فى الفن، تهون عندهم كل الأشياء... فالسعادة هى

أن تمتص فى شئ ما.. هى عدم الشعور بالزمن.. ومشكلتك «ياخليل» هى أنك أعطيت نفسك كاملة لاتجاه، ولكن الآن عندما كبرت اصبحت تتجاذبك أشياء مختلفة، وأخذت تسبح وحدك وسط التيارات، بعد أن خمدت قوة الشباب.. اذا لم يأت «سعيد» ربما ذهبت انا إليه.. اغلقت الشيش وعدت الى جلستى أمام الورق.. المح وجهى فى المرآة وابتسم «يموت الزمار وأصبعه يلعب».. صدق احساس الرجل - اسمع ساعة الحائط عند الجيران تدق منتصف الليل.. جاء ميعاد النوم.. وفجأة فى الصمت رن جرس التليفون... ترى من يتصل بى فى هذه الساعة المتأخرة من الليل؟...

ترددت لحظة، ثم قمت.. يستحسن أن أرد... سينتابنى القلق اذا لم اعرف الموضوع.. رفعت السماعة... صوت أنثوى نبراته ترقص بالحيوية، واللكنة الأجنبية... هى... تقول دون مقدمات:

«خليل...؟» قلبى يخفق

«نعم،أنا...»

«أنا «روث».. آسفة إن كنت قد ازعجتك فى هذه الساعة المتأخرة من الليل.. ولكنى حاولت أن أتصل بك طوال النهار بلا جدوى... الجرس يرن ولكن لا أحد يرد...»

«لا تبالى بهذا.. فانا سعيد بسماع صوتك. سعيد جدا...»

تصمت قليلا ثم تقول:

«وأنا أيضا سعيدة لأنى وجدتك.. كيف حالك...؟»

«لابأس... أين كنت طوال هذه المدة...؟»

«سافرت فجأة الى «أمريكا» بعد أن التقينا... وعدت بالأمس..»

توقف الحديث كأننا نبحث عن الكلمات.. استطردت..

«قمت بتفريغ التسجيل الذى أعددته معك... متى يمكن أن نلتقى..؟»

«فى أى وقت تريدين..»

«غداً.. فى المساء.. بعد الساعة السابعة.. عندى هنا فى البيت..»

«وهو كذلك... الى اللقاء.. يا «روث»..»

«الى اللقاء...»

أسمع صوت السماعة تعاد الى مكانها، ويغلق الخط.. كان بودى أن أطيل الحديث، ولكنى أحسست بالارتباك.. لايهم.. غدا سأراها، ونتحدث طويلا..

قمت الى المكتب.. اعدت الأوراق الى المظروف الأصفر.. أطفأت الأنوار، ماعدا المصباح السهارى... خلعت ملابسى، وارتديت المنامة.. ثم آويت الى الفراش.. تنبهت الى أن «أمينة» لم تعد.. على أية حال ليست بى رغبة الى الكلام.. افضل هذه الليلة أن أكون وحدى... هناك أشياء كثيرة يجب أن أفكر فيها.. قلبى يدق خلف ضلوعى كأنه يردد.. «روث»... «روث»

* * *

كنت أسجل معدلات إنتاج شهر يوليو عندما سمعت صوتا ينادى.. رفعت رأسى لأجد «محمد عبد الفضيل» أحد الحراس التابعين لمكتب الأمن يقف عند بداية العنبر، ويلوح الى بيده... أشرت اليه بالاقتراب، وعدت الى تسجيل الأرقام.. ترى ماذا يريد؟.. كلما رأيت كلبا من كلاب الصيد فى هذه الأيام، أشعر بالعضلة الصغيرة فى عنقى تنتفض... عندما أصبح على بعد خطوتين أو ثلاث قال لى:

«صباح الخير، يامعلم «سعيد».. يريدونك فوق..»

«من الذى يريدنى؟..»

«الرئيس..»

«شخصيا..؟»

«نعم، شخصيا..»

وضعت القلم على المكتب، وأغلقت السجل ثم قمت..

«أذهب أنت.. سأمر على رئيس الوردية حتى يعرف أين يستطيع أن يعثر على اذا حدث شئ..»

دخلت عند السكرتيرة لأبلغها بحضوري.. تذكرني بعروسة ملونة من المطاط... العينان المستديرتان، والأهداب الطويلة ترفرف في اندهاش.. في أوتار صوتها نغم كالنواح. قالت:

«ادخل فورا.. ليس عنده أحد..»

وقفت أمامه انتظر... يتحدث في التليفون... يستمع في انصات، ويعلق بين الحين والآخر تعليقات مختلفة... «حاضر يافندم...» «طبعا، طبعا..» «أنا فهمت..» «لا.. لايمكن أن يسمح بهذا..» «سنكون عند حسن ظن سعادتك..» «أخذنا جميع الاحتياطات، وأنا شخصيا متابع الموقف عن كثب..»

أعاد السماعة الى مكانها، وأخذ يحملق خلال النافذة المفتوحة كأنه سرح.. أصابعه تنقر على المكتب ببطء... التفت الى.. عيناه الصغيرتان فيهما احمرار خفيف... من هواة الحشيش، وربما الأفيون.. ينظر الى في تساؤل من لايعرف لماذا جئت قال:

«نعم..»

«حضرتك أرسلت فى طلبى..»

لحظة صمت ثم استدرك..

«آه مضبوط... يا أستاذ «سعيد» يضغط على كلمة استاذ بسخرية ثقيلة... «في يوم من الأيام سأعطيك هذا الملف لتقرأه...» يرفع يده بملف أصفر سميك مكتوب عليه «سرى.. مكتب الأمن..» «إنه خاص بك»

«ربما أعرف مايكتب فيه...»

«طبعا... لأنه يحكى بالتفصيل ماتفعله وما تقوله للآخرين... لقد انذرتك من قبل الا تستمر فى تحريض العاملين..».

«أنا لا أحرض أحدا...»

«كذب..» يده تبحث عن سيجارة... يشعلها بولاعة فضية، ثم ينفث الدخان... «أقول لك، كذب... لولا أن ابن عمك طباخ ممتاز لطردتك من الشركة فى الشهور الأولى بعد تعيينك.. وقد ظهرت حقيقتك بوضوح منذ البداية.. تلدغ اليد التى تطعمك..»

أحسست بالدماء تصعد الى رأسى.. اللص يتجرأ على قول هذا الكلام بينما لا يدخل شئ الى الشركة، أو يخرج منها دون أن يتقاضى نسبته المقررة... والآن يريد أن يبيعها كلها.

«لا أحد يطعمنى... أنا أعمل، وأكسب قوت يومى... الكلاب فقط هم الذين يطعمهم الناس... وهناك كلاب فى كل المستويات»

أرى بريقاً معدنياً فى العينين... كنصل السيف. جبان مع رؤسائه.. ومع مرؤسيه أسد.. ولكنه يخاف منى.. يعرف أننى أستطيع أن أوقف دوران المكن...

«لا تطل لسانك على... ستجد نفسك فى الشارع اذا لم تتعظ... نصحتك من قبل عدة مرات... وها أنذا أنصحك من جديد... لاتتدخل فى سياسة الشركة العليا... أنها مستمدة من سياسة البلاد.. لقد انقضى عهد الانغلاق، والأسوار المضروبة حولنا... الآن فتحت الأبواب... نحن فى حاجة الى الخبرة الأجنبية... الى «النوهاو»...

«مامعنى «نوهاو؟»..

يلقى ناحيتى بنظرة سريعة متسائلة فيها شك كأنه يستشف السخرية المستترة فى الكلمات...

«تعنى الخبرة والمعرفة الفنية لتصنيع منتج معين..»

«وهل تنقصنا الخبرة اللازمة لتصنيع نفس المستحضرات التى كنا نصنعها من قبل؟..»

«أظنك سمعت هذا الكلام من «خليل منصور خليل».. لقد اعطاك نسخة من مذكرته لتستفيد منها فى كتابة بيان اللجنة النقابية.. اليس كذلك؟»

اذن صحيح أنه متتبع الأشياء.. عيونه فى اللجنة.. كيف نتخلص منهم.. انتخبوا بأغلبية كبيرة... يستفيدون من علاقاتهم بالسلطات لتأدية بعض الخدمات الفردية للعاملين، فيكسبون تأييدا من ورائها... يستطرد..

«هذا آخر انذار يا «سعيد»... كن عاقلا، وافهم مايدور حولك، فأنت رجل ذكى... لاتلقى الى البحر بالفرص التى فى يدك... انا مستعد لمساعدتك... وعندما يوقع الاتفاق سنرسلك للتدريب فى «فرنسا» لتحصل على خبرة، ونقود، وربما تتصيد لنفسك بنتا حلوة... الفتيات هناك يعشقون السمر..»

يضحك ضحكة ممطوطة بذيئة، ثم بسرعة كأنه نسى نفسه لحظة، اعتدل فى جلسته وعاد الى سيماء الجد..

«فكر فيما أقوله لك. اللجنة النقابية لن تجلب لك سوى المتاعب.. لماذا تهوى اللعب بالنار... غدا ستتذكر ماقلته لك، وتشكرنى... وابتعد عن «خليل منصور خليل»... من يقترب منه يوصم نفسه الى الأبد... عندما دخلت على كان يحدثنى ضابط «السلام الاجتماعى» فى «حلوان»... وهذا يدلك على أن المسألة دخلت فى طور خطير... فتنبه.. ولكن قبل أن تنصرف دعنى ابلغك خبرا قد يهمك.. «خليل منصور خليل» سحب مذكرته الأولى، وقدم مذكرة جديدة.. وهذه نسخة صورتها لك لتقرأها... والآن انصرف، عندى عمل كثير... ولا أستطيع أن أضيع اليوم كله معك...»

خرجت من الباب... رأسى فيها دوامة... توقفت عند اخر الطرقة وجلست

على مقعد أحد السعاة... جاء الرجل بعد قليل، ورمقنى بنظرة استغراب.. قمت، وهبطت على السلم، وأنا استند الى الحاجز. أجتزت الحوش الداخلى دون أن أدرى أين أسير... دخلت من باب العنبر، وتوجهت الى مكتبى فى الركن البعيد.. بدا لى إن أحدا يوجه كلامه الى، ولكننى أكملت السير دون أن التفت... سحبت مقعدى وجلست... بحثت عن قلم ولكنى لم أجده.. ففتحت السجل، وأخذت أحملق فيه... مر الوقت، ولكنى لم أشعر به... أفقت على يدى تصطدم فى جيبى ببعض الأوراق المطوية... أخرجتها... على الصفحة الأولى عنوان:

«مذكرة مقدمة فى شأن مشروع عقد التصنيع بين «مؤسسة لاروشيل» الفرنسية «وشركة طيبة للأدوية»..»

قرأت السطور الأولى... «سبق أن تقدمت بتاريخ ٣٠ يونيو سنة ١٩٧٨ بمذكرة فى شأن الاتفاق المزمع عقده بين شركتنا، و«مؤسسة لاروشيل» الفرنسية، أوضحت فيها وجهة نظرى حول المضار التى قد تصيبنا من جراء الموافقة على هذا العقد...

ولكن بعد أن أعطيت لنفسى فرصة أخرى لإمعان النظر فى بنود الاتفاق، بدا لى أننى تسرعت فى الحكم على الموضوع، ولم أتنبه الى كثير من الفوائد التى يمكن توقعها من الارتباط بمؤسسة عالمية لها الإمكانيات المالية والعلمية التى تتمتع بها «مؤسسة لاروشيل».. كما أننى ربما أكون قد بالغت بعض الشئ فى المضار المتوقعة من اتفاق التصنيع بسبب عدم تنبهى الى حقيقة هامة، وهى ان قطاع الدواء فى بلادنا عموما، «وشركة طيبة للأدوية» بصفة خاصة لها خبرة طويلة فى هذا المجال يضمن عدم الوقوع فى الأخطاء التى كنت أخشى منها... وقد دارت مناقشات مستفيضة بينى وبين السيد رئيس مجلس ادارة الشركة مما ساعد على توضيح بعض النقاط التى كانت غائبة عن ذهنى..» «غائبة عن ذهنك».. لاشئ يغيب عن ذهنك بهذه السهولة ياصديقى العزيز.. وهذه هى

المشكلة... ولكن قلبك فى هذا الموضوع، أين هو؟.. مع السماسرة، أم مع العاملين...؟ فقلبك هو الدليل... ولكنى لن أدعك تفلت بهذه الطريقة... المعركة محتدمة الآن، وسنحارب... سنحارب من أجل لقمة العيش.. ومن أجل الحقوق التى اكتسبناها... سنحارب من أجل الكبرياء... فقد سئمنا التراجع، وسئمنا التضليل... نساق كالماشية، ونستسلم للمصير.. نعم يا «خليل منصور خليل».. لابد أن تعطينا مما لديك.. لن نترك لك الفرصة للهروب...

فى اليوم التالى بعثت برسالة الى «خليل» عن طريق «مصطفى رمضان»... طلبت منه أن يتركها على مكتبه.. تفاديت الإتصال به شخصيا... فالجو العام غير مستقر.. وفضلت ألا اتفق على موعد فى بيته، حتى نجتمع على أرض محايدة، واستطيع التصرف دون قيود.. لم أرد أن تشهد «أمينة» النزاع الذى لامفر من أن يقع بيننا... فأنا واثق من موقفها ولكن وجودها سيسبب لى الحرج، ويحول دون أن أتكلم بحرية...

ذهبت الى الموعد، وفى صدرى شئ كالحجر الثقيل ينقلب كلما فكرت فى الموضوع... الجو خانق، مكتوم، والسماء فوق رأسى غطاء من الرصاص... وصلت المقهى حوالى الساعة الثالثة والنصف... النوافذ مفتوحة فى محاولة يائسة لتحريك الهواء الراكد، المستكين... ضجيج الشارع يصل الى مضاعفاً، أم ربما أعصابى المتوترة هى التى توحى الى بذلك... أريد أن آرى حجرتى... أن أغلق الشيش، وأدير المروحة، واستسلم للهدوء.. جلست فى آخر الصالة، وطلبت لأول مرة فى حياتى «كرسى دخان».. رواد المقهى يدخلون الواحد تلو الآخر.. أعرف أغلبهم، فمنذ سنين، وانا أجلس فى هذا المقهى... أنه قريب من محطة «باب اللوق».. الراديو يذيع، بصوت أجش، تمثيلية قصيرة عن طوابير الجمعية، وضرورة احترام النظام.. انصرف عنه الى مشاهدة مايدور.. الرؤوس المحنية يخطها الشيب تحيط بلا عبى النرد. وعلى مائدة أخرى مجموعة من العمال الشبان

يلعبون «الكومى» فى استغراق عميق.. صوت الحجارة تصفق فى الصندوق، وورق اللعب يقطع الهواء بهمس مسموع... طلبت فنجانا من القهوة، وسرحت... العرق ينز من كل المسام.. أخرج منديلا، وأمسح على الجبهة، وتحت الياقة، وفوق الوجه.. هذه الحياة الى ماذا تقود؟ أمثالى لا تتاح لهم فرص الخروج من الدائرة المغلقة... المصنع، «والمكن» وصراع يومى من أجل القوت.. كالبهيمة المربوطة فى الساقية.. كل الفارق أننى أصبحت أدرك الحقيقة المرة... ألمس الاستغلال عن قرب، وأفهم جذوره، وأعانى منه كل يوم.. ترى هل الوعى جعلنى أكثر سعادة مما كنت..؟ أحس بالانبهار أمام حقائق الكون، ويذهنى ينفتح لأشياء لم أفكر فيها من قبل.. ولكننى أرى الطريق أمامنا صعب.. قوى عاتية تتصدى لإيقاف التغيير.. والضعف يتسرب الينا بكل وسيلة.. «خليل منصور خليل»، ذلك الإنسان الجذاب ذو الابتسامة الحزينة.. أدخلنى عوالم جديدة.. حدثنى عن سبيل للخلاص أمام الكادحين.. عن صراع من أجل الحرية يمتد خطوة بعد خطوة ليشمل كل الجماهير.. جبهة واسعة من كل الكادحين، تعيد البلاد الى طريق الاستقلال، وتمهد لبناء الاشتراكية. أحلام موحية جميلة، بينما مازلنا نسعى للحفاظ على لقمة العيش... قال لى أنها البداية.. مطالب صغيرة تقود الى النهر العريض.. تتجمع فيه الروافد الفرعية لتكون تيارا قويا عميقا.. مئات، المعارك اليومية، تتدعم أثناءها قوى العاملين فى المدينة والريف، رجالا ونساء... ومثقفين... وجهد متواصل لنشر الفكر المستنير، ولفهم الواقع الذى نحيا فيه... جهد يومى صبور، طويل.. قدرة على التراجع فى بعض الأحيان وقدرة على الاقتحام الجرئ.. ولكن «خليل منصور خليل» عندما يواجه الصعوبات، والتهديد، ينسى ماقاله لى.. يبقى قابعا فى الحجر المغلقة.. يلقى الخطب عن صراع الطبقات، والديمقراطية، وضرورة التنظيم.. ولكنه يبتعد عن معارك الجماهير..

تأتى أيام أقول لنفسى: «وأنت ياسعيد» متى تستريح. متى تقبل عروض

الرئيس.. بعثة للتدريب... سفر، ونقود، شئ من الترفيه.. لا... لن اختار هذا الطريق... لايوجد فى الحياة شئ بلا ثمن.. والشئ الغالى ثمنه فيه..

فى هذا الصراع المرير لابد أن نأخذ من كل واحد مايمكن أن يعطيه. وأن نعطى لكل واحد التقدير بسخاء النفس الكبيرة.. أيا كان شعورى بالضيق «فخليل منصور خليل» انسان أعطى الكثير... المهم أن نعرف موضعه الصحيح.. الا يبقى ممتطيا ظهرنا لمجرد أنه متحدث لبق، أو قارئ عميق، أو مناور، أو رجل له تاريخ.. لن نسمح للذين يجيدون فن التحنيط، أن يحولوا ميدان الصراع الى متحف للتاريخ.. فى شرايينهم تجرى لعنه الفراعنة، مرض الصفوة، تحمى نفسها وتلجم حركة الجماهير..

نظرت الى الساعة.. قاربت على السادسة والربع.. مر بذهنى خاطر سريع.. ربما قرر ألا يجئ الى الميعاد.. النهار تلتف حوله بالتدريج عباءة الليل.. رأيته يخطو داخل المقهى من على الرصيف... الجسم النحيل، وانحناء الكتفين، المصابيح الصفراء تلقى على وجهه اشعاعا مريضا... لمحنى، فتقدم ناحيتى... شئ فى خطواته المترددة، يوحى بأنه كالمقدم على واجب ثقيل.. فقد حماس الأيام الأولى.. ذهب الصفاء، وجاءت الغيوم... لاشئ يسهل الا بقاء عليه فى هذه الظروف.. السم يزحف من كل الشقوق، ويفسد العلاقات بين الناس... لايترك أحداً دون أن يناله شئ... قمت ومددت له يدى.. يتكلم بصوت خفيض..

آسف... تأخرت... طارئ جاءنى فى آخر لحظة.. تليفون من أحد اقربائى لم أره منذ سنين...»

«كيف حالك «ياخليل»؟ تبدو مرهقا..»

هز كتفيه فى عدم اكتراث.. لمح الشيشة الى جوارى، فندت منه ضحكة طويلة بدت لى مصطنعة، خالية من الروح.. أحس أنه يمر بأزمة يحاول أن يخفيها..

ولكنى لن أشفق عليه.. لابد من الحسم، شئ من القسوة حتى يفيق.. ضحكت أنا بدورى.. وقلت..

«أنت تعرفنى.. أحب التغيير..»

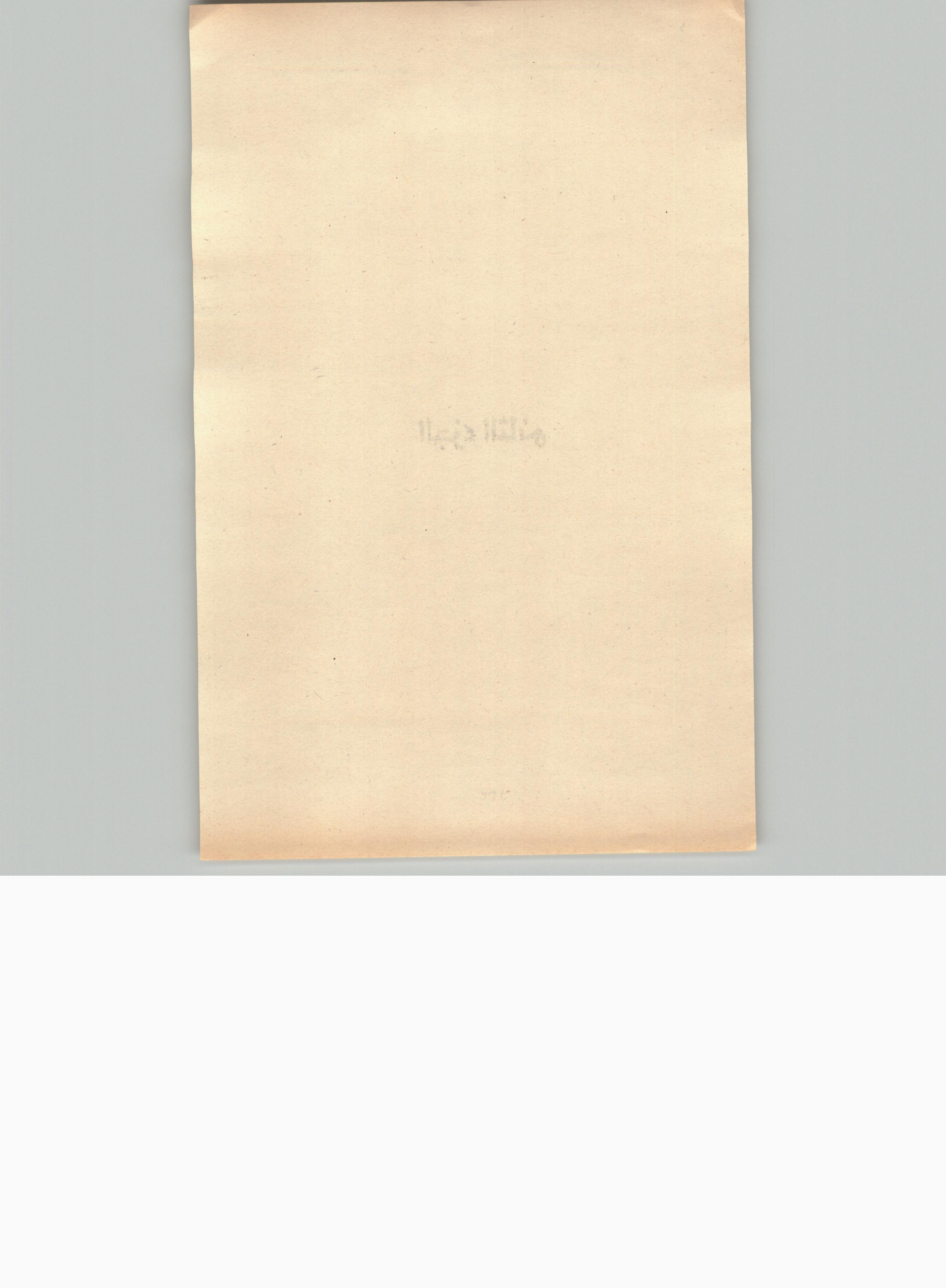
لما جاءت القهوة التى طلبها، قررت أن أفتح الموضوع على الفور.. أحسست وأنا أتحدث اليه بأن الرجل الذى يجلس أمامى رجل مقهور.. يعلق، ويجادل، وأحيانا يثور، ولكن فى أعماقه، اتخذ القرار، ولم يعد على استعداد للرجوع عنه.. ملامح الوجه مفككة فيها شئ قبيح.. تنتابنى رغبة فى أن أقوم من جلستى، وأنهال عليه بالكلمات.. ولكن صوتا داخليا يحدثنى ألا أدع اعصابى تفلت.. أتحدث معه بصراحة ولا أخفى عليه شيئا.. ولكنه يتهرب منى، أو يلوذ بالصمت.. أصبح كالزواحف الباردة عاجز عن الانفعال، أو حتى عن الغضب.. اذا بقيت أمامه سأختنق.. لم أعد أحتمل..

قمت من جلستى فجأة، وتركته... خرجت الى الشارع.. انفاسى رغم الحر المكتوم تدخل، وتخرج من صدرى كأن قنوات الرئتين لم تعد مسدودة.. الباعة يضيئون «الكلوبات» فوق عربات البطيخ.. ورجل عملاق يسقط اقراص الطعمية الخضراء من كفه الضخم.. الناس يتزاحمون حول سيارات الأجرة، ونسيم الليل ينبئ برفع الغطاء المعدنى الذى أحكم غلقه على الكون طوال اليوم.. فتاة تبتسم لصديقها وتقول.. «نجحت بتفوق، وغدا سأذهب للالتحاق بمعهد الإحصاء..» احرك ذراعى، وساقى، فتجرى الدماء فى الشرايين... أشعر بالحياة تستأنف سيرها الطبيعى، فابتسم.. ألمح نفسى فى واجهة من الزجاج... الأسنان البيض تضوى فى وجهى الأسمر...

* * * *



الجزء الثانى



مرت الأسابيع سريعة وجاء الخريف.. لا أفيق من دوامة العمل، فى المصنع بالنهار، وبالليل أباشر شئون الأتحاد، واللجنة النقابية... اختطف ساعات قليلة فى الأسبوع للتنزه على شاطىء النيل.. أو الجلوس على المقهى أتحدث مع الأصدقاء... أو ألعب النرد. بدا أن اتفاق التصنيع دفن فى أحد ملفات الحفظ إلى الأبد.. وبالتدريج سقط كالحجر الثقيل فى قاع الصمت.. يساورنى بين الحين والحين قلق عميق أحاول أن أنساه.. فهذا السكون الغريب ربما فيه اعداد لشىء ما..

اتذكر هذا اليوم جيدا.. السبت الأول فى شهر أكتوبر.. كسل العودة من الإجازة الأسبوعية يخيم على الجو.. مرحلة انتقالية قبل اللحاق بايقاع المكن.. أتحدث مع أحد الصيادلة الشبان حول بعض شئون الإنتاج.. نقف فى الحوش الخارجى تحت الشمس، ونشهد حلقات الدخان تصعد بطيئة فى زرقة السماء، والحقول تعرض بطنها السمراء العارية فى سلام. أحسست بحركة غير عادية عند مدخل الشركة فألتفتت ... سيارة «مرسيدس» سوداء تتسلل من الباب.. تجتاز المسافة الممتدة حتى مبنى الإدارة فى حرص.. يهبط منها رجل طويل القامة... أرى السترة الداكنة المهندمة، ثم الوجه. عيناه تدوران حوله فى استطلاع بارد.. يحمل فى يده اليسرى حقيبة صغيرة الحجم.. رئيس مجلس الإدارة يتقدم ناحيته

بابتسامة عريضة، ويشد على يده بحماس... ومن خلفه تقفز السكرتيرة مثل كرة من المطاط... يتبادل بعض الكلمات مع الزائر، ثم يختفى الثلاثة فى جوف المبنى المنخفض... تتحرك السيارة من جديد كالحشرة السوداء تبحث عن مأوى تتوارى فيه... زحف إلى خوف غامض تبدد معه الإحساس باليوم الجميل.. اعتذرت للشاب الذى كنت أتحدث معه، وعدت إلى قسم الأقراص فى انتظار الأخبار التى أعرف إنها ستجىء..

قرب استراحة الغذاء جاءت إحدى موظفات الإدارة تحمل أولى الأنباء.. مسئول من شركة «لاروشيل» وصل حوالى الساعة التاسعة، ومنذ ذلك الوقت يتداول مع الرئيس خلف أبواب مغلقة... المصباح الأحمر مضاء يلقى ناحيته الموظفون بنظرات القلق... يومض فوق الباب السميك كإشارة الخطر... والسكرتيرة تعتذر باصرار لكل من يتصل بالرئيس عن طريق التليفون، ولكل زائر يحضر لمقابلته ولو كان بموعد سابق.. العيون تنظر أمامها بثبات، أو تلقى بنظرات خاطفة.. والصوت الذى يرتفع عن الهمس يجذب الانتباه..

وكما يحدث دائما فى مثل هذه الحالات تسربت الأخبار بالتدريج.. هبطت من مكتب الرئيس.. عبرت الممر الطويل، واجتازت الحوش، مرت من أبواب العنابر إلى أقسام الأقراص، والحقن، والسوائل، والمحاليل.. وتحول جو الهدوء، والترقب إلى حالة اشتعال بطىء... فى الأيام الأولى تناقضت الأقوال.. ولكن قبل أن ينتهى الأسبوع أصبحت الحقائق معروفة... «مؤسسة لاروشيل» سحبت مشروع اتفاق التصنيع وتقدمت بمشروع جديد للمساهمة بنسبة ٤٩٪ فى مجموع رأس المال..

حل الاضطراب الواسع النطاق محل الصمت، كأن لوحة ضخمة من الزجاج انفجرت، وأطلقت شظاياها.. لم ينقطع سيل الوافدين على مكتبى، أو رنين التليفون، منذ اللحظة التى وصلت فيها حتى ميعاد الانصراف.. دار النقاش من

جديد مضنيا، طويلا... الملامح مشدودة تلفها سحب الدخان فى حجرة الاجتماعات، وتطل منها العيون فى أعياء، ونبت من الشعر ينمو على الوجوه مع الأيام.. فالوضع الآن أصبح أخطر بكثير مما كان.. اتفاق التصنيع كانت له مدار.. ولكن اشتراك «مؤسسة لاروشيل» بما يقرب من نصف رأس المال يعنى وضعا جديداً سيتحمل وطأته أساسا جموع العمال.. عرف أن المستثمرين الأجانب يستعجلون الأمور.. فمن يدرى إلى متى تستمر الظروف المواتية القائمة الآن.. علمتهم الأحداث أن لا شيء مضمون.. مهما كانت دقة العقول الألكترونية، والتنبؤات، وأساليب الرصد، وبحوث العمليات فإن الشعوب لا تتصرف بطريقة يمكن حسابها فى كل الأوقات.. فيها مكامن للقوة، وعواطف، وينابيع الغضب، والحيوية، ودوافع ظاهرة، وخفية، وقدرة على مقاومة الضغوط يصعب قياسها.. لذلك لا بد من استعجل الأمور.. فنحن فى عصر الأرباح المضاعفة السريعة للشركات العالمية الكبيرة.

هكذا جاء ممثل «مؤسسة لاروشيل» حاملا معه مشروعا جديداً.. استقل الطائرة النفاثة من «باريس» فى الليل.. وفى الصباح تسللت سيارته من فندق «الميريديان» على كورنيش النيل.. تطلع من النافذة، وفرك يديه.. يوم صحو، جميل... وجهه الحليق ذو البشرة الوردية ينطق بالرضى، والنبيذ.. يربت على الحقيبة الراقدة إلى جواره على المقعد الوثير، ويبتسم.. وعند آخر العنبر الكبير جلست أناعلى مقعد من القش أمام مكتب عتيق أرتب أوراقى استعدادا لأسبوع العمل الجديد.. كنت سعيدا فى ذلك الصباح... تناولت افطارا لذيذا من الفول والبيض.. وبالأمس نمت نوما هنيئاً فى منزل صديق، فاحاطتنى اسرته بالرعاية والود.. ولكن بعد ساعة من الزمن هبطت الهموم الثقيلة على.. الأفكار تدور فى ذهنى مثل خلية من النحل اثارتها يد غريبة... تتضارب، وتتناقض، وتتأرجح، ولا تستقر على وضع. لا أعرف لماذا فى تلك اللحظة تذكرت «خليل».. ربما

لأننى تعودت منذ أن عرفته أن أعرض عليه مختلف المشاكل، فرغم عيوبه ظل صاحب عقل راجح.. كنا نستفيد من وجوده معنا فى المجموعة.. يساعدنا فى رسم الخطط، وادخال الفكر المنظم مكان الفوضى التى غرستها فينا البيئة، والظروف..

جاءتنى فكرة سرعان ما طردتها من ذهنى.. لماذا لا أذهب اليه؟

ولكنها ألحت طوال الأيام التى تلت زيارة ممثل «مؤسسة لاروشيل»..

تتسلل اليّ وأنا جالس فى الصفوف أثناء الاجتماعات التى عقدناها مع العاملين.. أو عندما تحتدم المناقشة فى جلسات اللجنة النقابية... أقلبها من جميع الوجوه.. بعد الموقف الأخير كيف أستطيع أن أعود إليه؟ ولكن الفكرة ظلت تلح عليّ فقررت أن أستشير بعض الزملاء فى اللجنة النقابية.. الوضع ينبىء بمختلف الاحتمالات أغلبها خطير.. ولكن هذه المرة ينبغى الاحتياط من عيون الإدارة.. عندما عرضت عليهم الفكرة ساد الصمت، ثم تعالت أصوات الاستنكار.. بعد قليل هدأت العاصفة الأولى.. فأخذنا نتبادل الآراء.. وفى النهاية، بعد ما يقرب من ساعتين أخذنا قرارا بأن أزوره أنا، و «مصطفى رمضان»، وأن نفاتحه فى أمر الاتفاق الجديد لعله يفيدنا برأيه.. إننا فى احتياج شديد للحصول على صورة من مشروع العقد حتى نكشف بنوده للعاملين، ونثير حملة واسعة عن طريق الأتحاد.. كما نريد أن يبدى رأيه فى الخطوة التى اتفقنا عليها بالإجماع، وهى أن نعد من الآن لحركة إضراب تبدأ فى موعد لم يحدد بعد..

طلبته فى التليفون عدة مرات قبل أن أجده.. رد على بتحفظ واضح.. فكرت أن ألغى اللقاء لولا الجهد الذى بذلته لإقناع الزملاء.. كيف أعود بعد كل هذا الاصرار من جانبى وأقول لهم أننى غيرت رأيى لمجرد أنه لم يبد حماسا عندما تم بيننا الاتصال.. ذهبنا إليه فى المساء، قرب الساعة الثامنة... البيت يغط فى

الظلام، فظننت فى البداية أنه لا يوجد أحد فيه.. ضغطت على الجرس ففتح الباب.. تنبهت إلى أن ملامحه فيها أعياء، وأن الشيب على جانبى رأسه زاد بشكل ملحوظ... دعانا للجلوس، وأحضر الشاى.. حاولت أن أبدد البرود الذى سيطر على الجو حتى نستطيع أن نفتح الموضوع الذى جئنا من أجله، ونتداول فيه بقلب مفتوح.. فسألته عن أخباره.. عما يفعل... وعن الكتب التى قرأها أخيرا.. عن «أمينة» ومتى ينتظر أن تنجب طفلها.. عن رأيه فى الموقف.. ولكن جميع محاولاتى باءت بالفشل.. ظل جالسا فى وجوم، غير ملتفت تقريبا إلى ما أقول.. أحسست «بمصطفى رمضان» وهو ينقل قدميه فوق البلاط، ويرمقنى بنظرة جانبية، زاد الحاحها كأنه يريد أن يقول.. «لماذا لا نقوم..؟ لا داعى للإصرار..» لكنى تجاهلت هذه الاشارات.. فهذا اللقاء بالنسبة الىّ مهم يتعلق أساسا بالاضراب، وببعض الجوانب التى ربما يوافق على مساعدتنا فيها... ساءنى أن أجده فى هذه الحالة.. لا بد أن أبذل محاولة أخيرة.. حتى نبقى على علاقتنا سليمة...

أخيرا قررت أن أفتح الموضوع... ربما تكون أحسن وسيلة لإعادة خطوط اللاتصال بيننا...

«يا أستاذ «خليل».. هل سمعت بالأخبار الجديدة؟»

«أية أخبار؟»

«أخبار الاتفاق مع «مؤسسة لاروشيل»...

«طبعا سمعت... هل هناك أحد فى الشركة لم يسمع عنها.؟»

«وما رأيك فيها..؟»

يتردد طويلا قبل أن يجيب.. يعرفنى جيدا، ويدرك أن وراء السؤال غرضا..

«تطور جديد يحتاج إلى دراسة...»

«وهل رئيس إدارة البحوث لم يدرسه بعد...؟»

«كما تعلم أنا لم أعد من الذين يستشاون فى مثل هذه المواضيع»

«إذن لم تطلع على نص الاتفاق..؟»

«لماذا تسأل؟»

لم ينف أنه اطلع عليه.. إذن ربما يقصد فتح الباب.. قررت أن أواجهه بحقيقة الموقف.. لا يمكن أن يكون كل ما فيه قد مات...

««يا خليل».. هذا العقد الجديد كارثة على أغلب العاملين.. أنهم لا يفكرون سوى فى الأرباح التى ستجنيها قلة قليلة.. «مؤسسة لاروشيل» ومجلسُ الإدارة الجديد الذى سيشكل إذا ما تحولنا إلى شركة استثمار.. وعلى الأخص شلة المساهمين الكبار.. أما نحن فجزء منا مآله التشريد.. والجزء الآخر مزيد من الاستغلال مقابل زيادة الأجور سرعان ما سيمتصها الغلاء.. أساليب الإنتاج التى ينوون ادخالها ستؤدى إلى الاستغناء عن عدد كبير من العمال والعاملات.. حتى فى الأعمال الإدارية... الكومبيوتر، والآلات الحاسبة، والتسجيل، والتصوير، والطباعة الكهربائية، وتغيير دورة المستندات كلها وسائل تؤدى إلى وفر فى الأيدى العاملة..»

«هذا هو التقدم..»

«لا.. ألم تقل لى أنت نفسك أن الصناعة تنقسم إلى قسمين: بعض المؤسسات الكبيرة التى تغطى الصناعة الثقيلة، والصناعات الأساسية، والطاقة وبعض الخدمات تحتاج إلى التكنولوجيا الحديثة حتى نلحق بالركب.. أما القسم الآخر الذى يتعلق بالصناعات الاستهلاكية فيجب اللجوء فيها إلى الأيدى العاملة

المتوفرة لدينا، مع تغيير انماط العمل، وإعادة تنظيمها، والاهتمام بالتدريب فى كل المستويات...»

وجهه ينبسط قليلا كأنه راض عن تلميذه..

«ماذا تريد منى بالضبط..؟»

«قل لى أولا.. هل اطلعت على مشروع الاتفاق الجديد؟ وإذا لم تطلع عليه هل يمكن الحصول على نسخة منه..؟»

الآن ينظر إلينا بملء عينيه. أنا بالذات.. لن يكذب علىّ... صوته يكاد لا يسمع.. كأنه يسلم أمره لشىء يحس أنه آت.. شىء كالقدر أقوى منه..

«نعم اطلعت عليه.. ولكن قل لى «يا سعيد».. أنا لا أعرف ما الذى تفكرون فيه.. وهل تدركون جيدا ما أنتم مقدمون عليه..»

«ما نحن مقدمون عليه؟.. سنناقشه معك.. ولكن دعنى أسألك أولا.. هل أنت مستعد للقيام بدراسة عن مشروع الاتفاق، لنسترشد بها..؟»

يأخذ نفسا عميقا.. أدرك أن فى أعماقه يدور صراع هائل، لم يسبق له مثيل.. شعلة بعيدة تقاوم... كالشمعة تنتفض فى الريح.. على وجهه أعياء فظيع يضغط بكل ثقله..

الصمت يمتد كأنه بلا نهاية.. صمت يلف كل شىء.. صمت الزمن الذى توقف، والحركة التى ماتت فوق الطريق.. تحت سطح الملامح الجامدة ما زال يدور الصراع الرهيب... رفع رأسه.. عيناه تنظران فى عينى.. عسليتان فيهما ألم عميق..

«الدراسة عملت بالفعل، بناء على طلب رئيس مجلس الإدارة..»

قلبى ينتفض بالفرحة.. امد يدى إليه، ولكنه يتجاهلها، فتبقى معلقة فى الهواء كأنها تبحث عن مكان تستقر فيه.. تحت الضلوع ينتفض قلبى بمزيج من

الكبرياء المجروح، والخجل، والضيق..

اسمعه يقول فى هدوء موجها كلامه إلىّ..

«تريد أن تستخدمنى مرة أخرى.. كالعادة أنا لا أهمك فى شىء.. ما يحدث لى ثانوى... طول عمرى سأبقى ضحية.. مرة لصالح رأس المال... ومرة لصالح العمال، أو الاشتراكية.. فما الفارق.؟ تريدون دائما أن تأخذوا.. ولكنكم لا تسألون أنفسكم سؤالا مهما للغاية.. ما الذى نعطيه..؟»

وما الذى يمكن أن نعطيه حاليا، ونحن لا نملك شيئاً.؟»

ليس صحيحا.. تملكون الكثير.. الإخوة، والتضامن، والصداقة، والحب، والحماية الواجبه لاولئك الذين يضحون... ولكنكم مشغولون بقضايا أخرى..»

«نكاد لا نلتقط أنفاسنا من كثرة المهام.. من طاحونة الحياة.. من السعى وراء لقمة العيش..»

«من لا يستطيع أن يلتقط أنفاسه يعجز عن التفكير..»

أحسست بالغضب يعلو فى صدرى.. هاوى وقوف على المنابر، والقاء الخطب، هاوى التدريس، والنصائح، وإظهار حكمته الإلهية.. ولكن فى وقت الحاجة جبان رعديد... جلست أحملق فيه.. انتظرت حتى تهبط موجة الكراهية.. لم أحضر لأتعارك معه...

«جئت لأطلب منك المساعدة...»

«اعرف هذا... ولكن قبل ذلك لم تجىء..»

«أنا آسف... كنت أظن أنه من الأفضل ألا نلتقى..»

«لا كنت تريد أن تلقى على درسا... أما أنا فلم الق عليك دروسا من هذا النوع..».

نسى أن «مصطفى رمضان» معنا... أحس بالإنسان المجروح..

«لنصف هذه المسائل فيما بعد.. ماذا قلت..؟»

«لا يوجد الآن ما أريد أن أصفيه.. ولكن دعنى أسألك.. إذا وافقت على مساعدتكم مرة أخرى.. فهل أنتم قادرون على حفظ السر؟»

«طبعا»

«كالمرة السابقة...؟»

سكتت، ثم قلت

«لا ليس كالمرة السابقة... فنحن نتعلم من الدروس..»

«اذن قبلت..»

قمت من جلستى، وحضنته، فاستجاب... دمعة صغيرة فى ركن عينيه يمسحها ثم يضحك ويقول:

«لاعب المزمار يموت، وأصابعه تلعب..»

ضحكنا.. السعادة تغمرنى... استعدت الصديق العزيز علىّ...

وجهه يشرق من جديد.. أحس بأن داخلى عواطف تفيض.. نظرت إلى ساعتى

«لقد تأخرنا عندك كثيرا... الزملاء ينتظرون على المقهى... سيقلقون لهذا التأخير... هيا بنا «يا مصطفى»... لا بد أن ننصرف حالا..».

قمنا من جلستنا فرفع «خليل» وجهه الينا بابتسامة ودودة..

«والاضراب؟!» ننظر اليه فى اندهاش.. كيف عرف؟

«أترون كيف تحفظون السر.. الإدارة تعرف أنكم تعدون للاضراب.. وقد قال

لى رئيس المجلس... «الكلاب... سنلقنهم درسا لن ينسوه.. أما أنت يا أستاذ «خليل»، فأنصحك لله.. إذا عرفت أن مذكرتك وصلت اليهم، سيكون هذا آخر عهدك بالشركة..»

جلسنا من جديد فى نفس اللحظة كأن سيقاننا خارت قواها قلت..

«وما العمل..؟»

أخذ يمشط شعره بأصابع يده فى حركة تميزه عندما يستغرق فى التفكير..

«لا بد من الاسراع بالاضراب قبل أن يتخذوا الإجراءات المضادة..»

«اذن أنت ترى أن الاضراب سليم..؟»

«هل يوجد حل آخر..؟ إذا نفذ الاتفاق سيستغنون عن مائتين من العاملين أو أكثر أو عشرين فى المائة من القوى العاملة.. أما الباقون فسيرفعون أجورهم بنسب تتضاعف فى المستويات العليا... وبهذا يأملون اقناع أغلبية العاملين بأن الاتفاقية فى صالحهم، لأن كل واحد منهم سيظن أنه ربما أفلت من انهاء خدمته.. المهم هو الاعداد للاضراب، والاستفادة من جهود اتحاد نقابات الصناعات الكيماوية».

ذهنى يسرح.. أتخيل ما سنراه فى الأيام القادمة... العضلة الرفيعة فى عنقى تنبض، وشىء كالتيار البارد يهبط فى احشائى... تنهدت وقمت..

«لا بد أن ننصرف..»

«مددت له يدى»

«إلى اللقاء..»

* * *

كانت الساعة قد قاربت على السابعة مساءً عندما ادرت المفتاح فى الباب.. فى قطار الديزل الذى حملنى من «المنيا» إلى «القاهرة» زحفت على هواجس غامضة لم أعرف سببها.. ربما القصة التى عشتها فى اليومين الماضيين.. الخلافات الحادة بين «زينب»، وزوجها... الاهانات.. والكلمات الجارحة.. والمعارك العنيفة التى شاهدتها... يبحثان عن الذكريات الاليمة، والاشياء السيئة فى حياتهما.. ويصران على هدم كل ما قام، أو ما زال قائما بينهما... يتهمها بأنها تصر على الاستمرار فى عملها لأنها تغازل أحد زملائها.. تتوسل إليه أن يحكم عقله، وألا يلتفت إلى الاشاعات التى ينشرها أحد الذين أوقفتهم عند حدهم لأنه تطاول عليها أثناء العمل.. كيف يصرفان على اسرة من أربعة بينما الأسعار تقفز يوميا فى حركة دائبة.. أرى عيون الاطفال يطل منها الخوف، والألم.. واسمع كلمة الطلاق تتردد فى الحجرات الضيقة كالكرباج..

ربما يكون هذا هو السبب فى القلق الذى سيطر على.. ولكن منذ أن تركت «القاهرة»، وقلبى يحدثنى عن أشياء ستقع أثناء فترة الغياب. حاسة المرأة التى نادرا ما تخيب.. أو بالأحرى حاسة الحب التى تولد عند الشخص قرونا للاستشعار يلتقط بها أدق الاشياء حتى إذا غلفها الظلام.. فالحب هو الاهتمام، والملاحظة، والمعرفة، والحرص... وكلها أشياء تجعل الإنسان قادراً على الرؤية، شديد

الذكاء.. أنا أعرف «خليل» جيدا، وأحس به، وأهتم بما يحدث له فى كل وقت.. قلبى يقول لى أنه يمر بفترة صعبة، بأزمة وصلت إلى قمتها... فهو رغم كل ميزاته مرهف الحس.. فى تكوينه ثغرة ينفذ خلالها اليأس.. أخشى عليه من توالى الضربات.. ومن خيبة الأمل فى نفسه، وفى الناس.. فهو فى حاجة إلى العواطف الجياشة رغم مظهره الهادىء البارد فى بعض الأحيان..

أطل من النافذة على حقول خططها المحراث.. الشمس تغرب خلف النخيل، وتعكس أضواءها الوردية على سطح الترعة والقنوات.. طوابير الجاموس تطل على القطار بعيونها المسطحة... والثوب الأسود الفضفاض يرفرف حول قوام مرفوع فى كبرياء.. أو جسم ممصوص من العمل الشاق.. مناظر فيها جمال وبؤس... فيها مخاوف تسقط مع الليل، وسلام الحياة البسيطة، والجهد...

ظللت طوال الطريق افكر فيه حتى وصلت... البيت غارق فى الظلام.. أضأت النور، وبحثت عنه فى حجرة النوم، فلم أجده.. خلعت ثيابى، وسرت إلى الحمام على قدمين عاريتين.. ملأت الحوض بالمياه الساخنة وتركت نفسى انزلق فيه برفق... أرى النهدين بارزين على سطح الماء، وأمر بيدى على البطن، والساقين... أحس بالجنين ينبض فى أحشائى، بجسمى ما زال قويا، وعضلاتى تحت الجلد.. أحس بالدماء تجرى فى عروقى، وبالمياه تحيطنى بالدفء... الفراق زاد اشتياقى اليه رغم أننى لم أغب عنه سوى يومين...

التعود فيه مزايا، وفيه عيوب، فاحيانا يثير الملل.. لو كان معى لأحتضنته، وقبلته، واحتويته بجسمى اللدن. هذا الرجل دخل حياتى.. عقله المرن يغزو الآفاق، ويروى فى أعماقى بذور الفن.. عشقه يغذينى، ويشبعنى، ثم يتركنى دون الشبع.. أشعر إلى جواره بالاطمئنان، والحرية النادرة.. ومع ذلك تنتابنى فجأة مخاوف غامضة.. ففى أعماقه تناقضات يمكن أن تقوض الأرض المشتركة من تحت أقدامنا..

ارتديت قميصا للنوم من القطن، ومددت جسمى المرهق فوق السرير.. غبت فى سبات عميق، واستيقظت على صوت المفتاح يدور فى الباب الخارجى.. دخل إلى حجرة النوم، واضاء النور، فأحسست بالفرحة.. رحبت به قائلة.. «أهلا.. اين كنت فى هذه الساعة المتأخرة؟ عندما عدت لم أجدك هنا..» تتبعته يخلع ثيابه، ولمحت حركة عضلاته تحت الجلد.. أحس بلهفتى إليه تصعد.. ولكنى أشعر به مشغولا عنى.. كأنه مر بتجربة مست اوتاره بأصابع ذكية.. فأنا كالرادار التقط الاشارات الخفية.. ترى أين كان فى هذه الليلة؟... امرأة أخرى جذبته اليها..؟ ربما... ابتعدت عنه قليلا.. فليذهب حيث يريد.. أنا قادرة على كل شىء... قادرة على التضحية حتى به، إذا لم يتعامل معى على نفس المستوى.. فليذهب إلى الجحيم. أنا امرأة أبية.. أكره الكذب، والأشياء الخفية، ولا أسمح لأحد أن يجرح مشاعرى. أنا لست فى حاجة اليه..

أدرت له ظهرى ونمت.. عندما استيقظت فى الصباح، كان قد غادر الفراش.. لحقت به فى الحمام، يقف أمام المرآة، ويحلق ذقنه، بنفس الاستغراق الذى يفعل به كل الأشياء، ابتسم عندما اراه منكبا بكل اهتمام على أبسط الاعمال.. يقطب جبينه، ويمر بلسانه على الشفتين.. كالاطفال.. وضعت يدى على كتفه وقلت «صباح الخير.. أنا سعيدة اليوم لأنى عدت» نسيت الضيق الذى سيطر على بالأمس.. فأنا هكذا.. لا أحب أن أحمل الهم.. أن أضيع بهجة اليوم.. استقبل الصباح بترحاب المقبل على ساعات جميلة.. افتح ذراعى لما هو آت.. للشمس، والسماء، والعصافير فوق الشجر.

جلسنا على المائدة الصغيرة فى المطبخ نحتسى الشاى.. لاحظت عينيه تنزلقان على بطنى المنتفخة.. أصبحت فى الشهر السادس.. جسم غريب وأليف يتحرك داخلى.. يضرب بخفة على الجدران كأنه يقرع باب العالم الخارجى.. يجرب نفسه، أو يطلب منى أن أهتم به... أو ربما يختنق دون أن استطيع أن أمد

له يدى، فأكاد استغيث من رعب يصيبنى.. أحيانا يبقى ساكنا مدة طويلة.. فتساورنى المخاوف على حياته.. تنتابنى رغبة فى أن أمزق الاستار التى تخفيه لأطمئن عليه.. أقوم بأعمال اليوم كأن عقلى هرب منى إلى تلك النقطة الهلامية النابضة التى تحتمى فى جسمى.. إذا كان ولدا سأسميه «عصام»... وأنا أريد أن يكون ولدا.. ليس لان الأولاد أفضل من البنات.. ولكن لأنه ربما يعوضنى إذا ما فرقت الايام بينى وبين «خليل»... فهذا الاحتمال يساورنى فى بعض الأيام.. شىء عميق فى داخلى.. احساس.. ربما لأننى أعرف أن السعادة نادراً ما تكون كاملة.. أن الشىء الثمين بالذات قابل للفقدان، وأن الحياة تعطى وتأخذ على الدوام.. نعم سأسميه «عصام» فهذا من حقى.. أنا التى حملته فى بطنى وبعد ثلاثة شهور سألده.. اعطيته الحياة والحماية، وسأرضعه بثديى.. «خليل» ينظر إلىّ بعيون متسائلة.. وضع البذرة ومضى، والآن لا يحس ربما بأكثر من لحظة فضول.. وهل يستطيع الرجل أن يفهم المرأة.. أن يعيها دون أن يمر بنفس التجربة؟ ومع ذلك فأنا أحبه.. أحب فيه رقته ومحاولاته فى أن يفهمنى..

عندما أفكر الآن فى تلك المرحلة ينتابنى أحيانا احساس بالذنب.. كنت أقرب الناس اليه أكاد أحمله داخلى أينما ذهبت. أجرى معه حواراً صامتاً أغلب الوقت.. كأنه عندما وضع فى جسدى بذوره سرب إلى فى نفس اللحظة روحه، وعقله.. نضج الجنين فى بطنى ودبت فيه الحركة فزاد هذا الشعور بأننا لسنا شخصين، وإنما شخص واحد أنثى وذكر.. التبادل بيننا كالتيار يروح ويجىء دون انقطاع.. ولكن عندما سافرت إلى «المنيا» فى تلك الأمسية، وعدت، أحسست كأننى تركته فى لحظة حاسمة.. ربما تكون المسألة مجرد خيال مبالغ فيه نما عندى من كثرة التعامل مع الألوان، والرسم.. ولكن عند كل إنسان فترات يصل فيها الصراع إلى أوجه. ويحتاج فيها إلى أن يكون بجواره من يستطيع أن يتبادل معه الرأى، وأن يحدثه.. والنفس غريبة الاطوار.. فربما بدا له فى الأعماق أننى تخليت عنه، ولم

استشف ما كان مدفونا تحت مظهره الهادىء.. أو كنت منشغلة عنه بالآخرين، أو بالرسم.. أشق طريقى نحو آفاق بعيدة اراها، وأتركه يقع.. وأنا لا أقول أنه كان على حق ولكن فى مثل هذه الحالات ماذا يهم من فينا على صواب، ومن فينا على خطأ.. إلى الآن تنتابنى مثل هذه الهواجس، واتعذب.. اعرف أنها تتعارض مع المنطق والعقل.. لأن حياة رجل مثل «خليل» لا يمكن أن تكون متوقفة على علاقته بى.. ولأن كل ما حدث نابع من أشياء فيه، أو من ظروف ليس لى بها أدنى علاقة.. ولو لم يسقط فى هذا الامتحان بالذات، كانت ستعترضه أزمات أخرى.. كان عليه هو أن يقتلع من نفسه بذور الضعف... ظللت إلى جواره فى كل الأوقات وغيابى فى تلك الليلة مجرد صدفة.. ليلة أن رن جرس التليفون فى بيتنا، وحدثته امرأة جاءت من خلف المحيط، وكأنهما على موعد... فكيف أعتبر نفسى مسئولة عما حدث.. كان سيذهب اليها على كل الأحوال.. مع ذلك أقول لنفسى أحيانا.. لو كنت موجوده فى البيت ربما اعتذر.. كان وحيدا فى تلك الليلة، والوحدة فى بعض الظروف عدو الإنسان.. هناك، فى الأعماق صوت يسألنى: لماذا تركته وذهبت فى تلك الليلة بالذات؟ ألم يكن هناك سبب؟... وكما يواجه هو الحقائق بشجاعة ترن كل يوم فى القاعة كالنداء، ويواجه القفص الحديدى، واحتمال الاعدام، أليس من واجبى أنا أيضا أن أبحث فى جوهر ما حدث.. لماذا ذهبت إلى «المنيا» فى ذلك الوقت..؟ هل اشفاقا على «زينب» وتضامنا معها؟.. إلى حد ما.. ولكن السبب الرئيسى كان غير ذلك. كنت أحس بالضيق، فأنا أشاركه أغلب الأشياء.. حتى حياته السياسية.. ولكنى لست مثله.. أنا شديدة التمسك بالذات.. أنا فنانة أحيا فى مرسمى، وأصنع اللوحات، واتساءل عن جدوى المعارك والتضحيات.. أقول له فى بعض الأوقات، ما الذى أخذته من كل ما فات..؟ وفى أيام أخرى أدرك أنه مر بتجارب ثمينة حرمت أنا منها، وعاش وجها آخر للحياة.. نعم كنت قد ضقت من المصنع، والفراغ،

والزملاء، والتخوفات نحيا فيها الليل، والنهار.. لذلك قررت أن أهرب.. أن أركب القطار يشق الحقول، ويزحف تحت السماء. أن أجلس على المقعد، واستنشق رائحة الفضاء العريض، والحطب، والافران.. أن أكون وحدى حتى أفكر فى الأشياء.. وأن أترك ورائى تفاصيل الحياة اليومية، والمناقشات التى لا تنتهى، والثمن الذى ادفعه لأننى ارتبطت برجل يؤرقه ماضيه، ويتردد بين أن يحيا فى سلام، أو يحيا فى خطر.. كنت أفكر فى نفسى ولذلك رحلت.. ومن حقى أن أفكر فى نفسى.. ولكن السؤال الذى ما زال عالقا بذهنى.. هل كان لا بد أن أتركه وحده وهو يعانى أزمة هزته حتى الأعماق؟..

وعندما أتذكر ما حدث بعد ذلك أحس أن المسألة لم تكن مجرد صدفة، وإنما اتجاه.. فبعد عودتى من «المنيا» غضبت لأنه لم يصارحنى بكل الأشياء، وأخفى على علاقته الناشئة مع هذه المرأة.. لم أكن أعرف الموضوع بالضبط، ولكن كان يساورنى الشك.. لذلك قررت أن ادير له ظهرى، وانشغل بأشياء أخرى.. أخذت أعد للمعرض، وتركته لشئونه كما لو أنها لا تعنينى على الاطلاق.. هكذا انصرفت عنه، ولم أعد أسأله عن أحواله.. عن المعركة الدائرة، وعما سيصنعه.. سمعت عرضاً عن زيارة ممثل «مؤسسة لاروشيل»، والاتفاق الجديد، والمذكرة التى أعدها. لم أحاول أن اتفهم تفاصيل الموضوع. وحتى عندما ترددت كلمة الاضراب وأنا اهبط فى إحدى الليالى من المرسم، لم اتنبه.. أخذت قرارا بينى وبين نفسى بأن كل هذه الأمور ليست مهمة بالنسبة الى، وليست من شأنى فأنا فنانة يجب أن أحيا فى عالمى الخاص... وكل ما عدا ذلك مضيعة للجهد، والوقت. ما زلت اتمسك بهذا الموقف حتى الآن، ولكن الحياة لا تحتمل أن نفعل ما نريده فى كل الأوقات.. المنطق، والعقل، والحسابات الدقيقة يمكن أن تخطىء، ويصبح القلب المحب هو الأهم.. فى تلك الفترة نسيت أن السياسة كانت قد دخلت فى صلب حياتنا ولم يعد منها مفر... أن الحب الذى بيننا شىء ثمين للغاية يجب الحفاظ

عليه بكل وسيلة..

هكذا تتابعت الأيام دون أن أتنبه إلى ما يجرى فيها من أحداث.

كنت أخرج من البيت مبكرا فى الصباح، ولا أعود فى أغلب الأيام قبل منتصف الليل.. فقد اتفقت مع مجلس مدينة «حلوان» على إقامة معرض فى صالة ملحقة بمعهد الفنون.. زرت المكان فوجدته فى حالة قريبة من الخراب... حجرة فسيحة الأرجاء القى فيها بمئات الملفات الممزقة فتناثرت أوراقها على الأرض... والاثاث القديم تحطمت أجزاؤه ليطل منها القطن، والأسلاك، وقطع من الخشب، وقماش ممزق فقد لونه الأصلى من كثرة التراب.. الجدران عليها بقع من الحبر، وأسماء محفورة بالأقلام الملونة، أو الأدوات الحادة، وآثار الأيدى الملطخة بالشحم.. الأرض مغطاة بأكوام من التراب، والأسمنت والجير، وقطع متناثرة من الطباشير، أختلطت معها فضلات الفئران والصراصير..

أدركت أن عمل معرض للرسم فى هذه الصالة أمر مستحيل.. قضيت أسبوعين أجرى هنا وهناك أتصل بالمسئولين... كل واحد منهم يحولنى على الآخر حتى وصلت فى النهاية إلى رئيس مجلس المدينة... رجل بدين، يرتدى صديرى، ويتدلى فوق فمه العريض شارب مصبوغ بلون الحنة.. عيناه تتفرسان فى صدرى، وتسقطان بالتدريج على أجزاء أخرى من جسمى.. قال لى لابد من العودة يوم الخميس بالليل لأنه لا يفرغ من أعماله الكثيرة إلا ساعات معدودات بعد أن ينصرف الموظفون.. فيستطيع أن يعطى الوقت اللازم لمناقشة الموضوع بالتفصيل، لعله يجد حلا مناسبا... ادركت أنه لا داعى للعودة حتى لا أتعرض لما هو أكثر من مجرد المرور على جسمى بالنظرات..

كنا قد تعودنا أنا و «خليل» على الذهاب إلى العمل سويا.. ولكن فى هذه الفترة أخذ يتأخر فى النوم كأن الذهاب إلى العمل أصبح بالنسبة اليه شيئا ثقيلا.. أصبحنا لا نلتقى إلا نادرا.. مع ذلك كان مهتما بالمعرض الذى أعد له..

يسألنى عن كل التطورات، ويعرض مساعداته، ويذهب معى أحيانا لمقابلة بعض الموظفين... كانت الأيام تمر سريعا دون أن أستقر على حال... أقترح على أن أرضى بالصالة الملحقة بمعهد الفنون، أن نبذل جهدا لاخلائها من كل ما فيها، وفى طلاء الجدران، والأرض.. عرض على أن نذهب سويا إلى عميد المعهد للتداول فى الأمر، فهو يعرفه منذ أيام التلمذة فى «طنطا»..

استقبلنا الرجل بترحاب.. ابدى استعداداً طيبا لمساعدتى، وتحمس للمعرض بشكل لم أتوقعه... قال أنه سيناقش مع أعضاء الاتحاد إمكانية الاستفادة من جهود بعض الطلبة والطالبات لإعداد صالة العرض.. وعندما ذهبت بعد عشرة أيام، وفتحت باب الصالة، تسمرت قدماى فى الأرض، ولم استطع الحراك من الدهشة... فقد حدث تغيير لم يكن من الممكن أن أتوقعه حتى فى الأحلام.. أصبحت الجدران ناصعة البياض، لا تشوبها بقعة أو خدش.. الأرض طليت «بالورنيش» فظهر خشب الأرو بمربعاته الجميلة.. أما الإضاءة، فقد تم تركيب مصابيح فى كل الأماكن... كدت أبكى من السعادة، وعدت إلى المنزل كأنى أطير... وجدت «خليل» هناك.. ولأول مرة منذ أسابيع حضنته.. أحسست به ينبض بين يدى من جديد.. لاحظت أنه نحل كثيرا وأن تحت الملامح شيئا يحترق كالحمى الدفينة.. سألته عن أخباره فقال: «بخير» واستفسر عما تم فى مسألة إعداد الصالة للمعرض... عندما وصفت له ما أدخل عليها من تغيير برقت عيناه بالفرحة، واقترح أن نتوجه إلى المعهد لشكر العميد والطلبة على الجهد الذى بذلوه.. وفى اليوم التالى بالفعل قابلنا العميد فى مكتبه وقضينا معه بعض الوقت، ثم انتلقنا إلى الحجرة المخصصة لسكرتارية الأتحاد، وهناك جلسنا مع الطلبة والطالبات الذين تطوعوا لإعداد الصالة.. تناولنا الشاى وحولنا دائرة من الوجوه الشابة.. كان «خليل» فى أحسن حالاته يسألهم عن الدروس، والمعهد، وحياتهم اليومية... وجهه عاد اليه الاشراق حتى بدا لى وكأنه واحد منهم... يضحك من القلب، ويحكى قصصاً من أيام الشباب، والطفولة... وبعد قليل

تجرأ، وأخذ يحكى آخر النكات.. لا أتذكر أننى رأيته سوى مرات قليلة فى مثل هذه الحالة من السعادة والإنسجام... أحسست فى ذلك اليوم أنهم أحبوه، وتآلفوا معه بسرعة.. أما أنا فكنت كالزورق النشوان.. امشى فوق الأرض وعقلى يسبح فى السماء..

فى طريق العودة أمسك بيدى وقال: «أنا أحبك يا «أمينة»، واتمنى أن يكون هذه المعرض فاتحة عهد جديد بالنسبة اليك... ومهما يحدث بيننا فتذكرى دائما هذه الحقيقة... لا تشكى فى نفسك ابداً فأنت إنسانة عظيمة، وبالقدر الذى ستعطين للفن، سيعطيك».. توقفت فوق الطريق، وقبلته. شفتاه فيهما دفء غريب.. لن أنسى هذه القبلة فوق الطريق.. كان لهَا طعم خاص، كأن كل منا يهب للآخر نفسه الأولى البريئة.. تشابكت أيدينا لحظة طويلة، ودخلنا فى عالم ليس فيه سوانا.. نسينا الماضى، والحاضر، وفقدنا الشعور بالأرض الصلبة تحت أقدامنا.. افقنا على صوت القطار، يمر مسرعا عند «المزلقان»، وعلى عيون المارة تحملق فينا..

مرت الأيام والليالى بأنفاس لاهثة.. كل دقيقة تقربنى من اللحظة الحاسمة.. فى أعماقى شىء كالحريق يعطينى طاقة مضاعفة.. أنام ساعات قليلة، واستيقظ قبل الفجر.. ابقى حيث أنا راقدة، اسمع صوت انفاسه الهادئة.. احيانا أحس به يرتعش، فالتصق به لعلى أطرد بجسمى الصور المزعجة.. وقبل أن تنقشع ظلال الليل يأتينى آذان الصلاة، ينساب عبر الفضاء... يفتح عينيه.. لا أرى الجفون ترتفع، ولا ألمح بياض العين، أو المقلتين.. ولكنى أعرف أنهما مفتوحتان.. أن عقله رحل إلى الصحراء، والخيم.. وخطواته فوق الرمل... ساقاه تميلان تحته فى ارهاق، والعرق يسيل، ويسقط على الأرض.. جسمه يغطيه الدقيق فيبدو كالشبح الابيض... فوق رأسه ترتعش النجوم من البرد.. يرهف السمع للصوت الحلو الحزين يحكى مأساة الإنسان البعيد.. يبحث عن سلوى فى الفضاء العريض، عن الرب القوى القدير... يناجى الشمس المختفية تحت الأرض...

يناجى الزوجة، والاطفال، والعاصفير، وكل الأشياء التى تركها، ورحل.. اعرف أنه ما زال يسير.. فى قلبه سلام ورضى الجهد المبذول، وعرق الجبين، والخبز الساخن يرتفع ايذانا بيوم جديد.. الكون الصامت يهمس من حولنا، وآذان الفجر يتلاشى فى الفجر المخيف.. انقلب على جانبى والتصق به.. أحس ببطنى، وصدرى فى الظهر النحيل.. التصق، والتصق كأنى أريد أن أحتمى فيه..

أقوم من على السرير.. اعد الشاى، وأضع قرصا من الفطير على نار هادئة.. أغلى اللبن، وأضع السكر، «والفناجين» على المائدة الصغيرة.. يمد رأسه من باب المطبخ ويقول «صباح الخير» ومنذ تلك اللحظة أنسى ساعات الليل، وانساه... أنسى كل الأشياء ما عدا اللوحات تعلق فى مكانها على الجدران تحت المصابيح... أحيا على نار موقدة فى جسمى... ابتلع الشاى يلسع فمى، ولسانى، وانطلق من باب البيت... أرى الجارة السمينة وهى تفتح الشيش، وتميل بصدرها الابيض الممتلىء، يكاد يقع من فتحة القميص.. أعدو فوق الرصيف إلى محطة القطار، وفى عقلى تسبح أجسام ملونة ومن حولها الأفاريز...

أعددت ملصقات، وبطاقات عن المعرض.. وزعتها على المصانع فى منطقتنا بمساعدة «خليل» و «سعيد»، وزملائه، وتركت كمية منها فى مكاتب مجلس المدينة.. مررنا على البيوت، والمدارس، والحوانيت فى «دار السلام»... وألصقنا بعضها فى محطة «حلوان».. تكفل «سعيد» بتوزيعها فى «البساتين».. عند مدخل المعرض وضعت منضدة، وصففت فوقها كمية من الكتيبات الصغيرة، وخلف المنضدة جلست طالبة من المعهد توزع الكتيبات بعشرة قروش وترد على استفسارات الوافدين.. اتفقت مع عدد من الطالبات والطلبة لحماية اللوحات، والرد على أسئلة الزوار.. وعقدت ثلاثة اجتماعات معهم لشرح الاتجاه العام للمعرض، وتفاصيل الصور..

أخيرا جاء يوم الافتتاح.. فتحنا باب المعهد الخارجى، وثلاثة أبواب أخرى

تقود إلى صالة المعرض.. على الجدران سهام حمراء تشير إلى الطريق، وبعض الملصقات... فى نصف الساعة الأولى لم يأت أحد على الاطلاق.. أحسست بقلبى يسقط بالتدريج، حتى خيل الى أنه التصق بالجنين.. ولكن بعد قليل وصل الزائر الأول... مد قدمه فوق عتبة الباب فى تردد كأنه لم يتعود حضور المعارض... فالتف حوله عدد من الشباب كأنهم يريدون منعه من الافلات.. رأيت الرجل المسكين يمسح العرق من صلعته بمنديل كبير... سار بينهم فى استسلام، واختفى داخل المبنى... كأن دخوله بمثابة القطرة التى تسبق الغيث.. فبعد لحظات بدأ الوافدون يتكاثرون على الباب.. أسر بأكملها... الرجال، والنساء، وحتى الاطفال، والشيوخ... من حين لآخر كنت ألمح جلباباً مخططاً أو «ملاية لف»... وقفت كالمذهولة عند مدخل الصالة.. ما الذى جاء بهؤلاء الناس، وما سر قدومهم هكذا أفواجا. أن أغلبهم لا يعرفون عن الفنون التشكيلية حتى اسمها، والأقلية ربما سمعت عرضا كلمة الرسم.. لم يكن عقلى قادرا على استيعاب هذه الظاهرة، فقد كنت فى حالة من الاضطراب والنشوة لم اعهدها من قبل... ادركت أن «سعيد» وزملاءه لعبوا دوراً أساسيا فى جذب المجاميع التى ظلت تتوافد طوال الاسبوع على المعرض. فما أن تفتح الأبواب حتى يتدفق الناس إلى صالة العرض..

شعرت بالاعياء يسقط على فجأة.. شحذت طاقاتى لمدة طويلة إلى أن استنفدتها، فلم يتبق منها حتى ذرة واحدة.. أنا كالعروسة من القماش انفصم داخلها السلك المشدود، فانهار القوام.. جلست على مقعد فى الصالة دون حراك.. عيناى فقط تتبعان الناس.. ما زلت لا أصدق ما أراه... يمرون على اللوحات ويتطلعون اليها فى فضول.. عدد قليل منهم يتوقف أمامها، ويمعن فيها النظر.. يقترب، أو يبتعد، أو يطل عليها من مختلف الزوايا.. رجل عجوز شعره أبيض وعيناه الصغيرتان فيهما حيوية يتقدم ناحيتى.. يميل على ويشد على يدى.. سمعته يقول: «مبروك» صورة «الصياد» رائعة... يشحذ كل طاقات الجسم

الظاهرة والخفية.. لا شىء سيحول دون وصوله إلى الهدف الذى يراه أحيانا، وأحيانا يختفى.. ولكنه يتتبعه بإصرار.. هكذا تنطق الخطوط.. رائعة.. أهنئك يا سيدتى، أهنئك..» أحسست بالدموع تسقط من عينى.. امسحها بالمنديل، واضحك من الخجل... ينظر إلى فى جد... ضغط على كتفى.. اصابعه القوية فيها لمسة تشجيع، وفهم.. حيانى، واختفى وسط الجموع، فظللت احملق فى الفراغ حيث كان يقف.. ماذا يعنى هذا اليوم بالنسبة الى؟ اشعر بسعادة تولد كأننى أفيق إلى الحدث بالتدريج.. ومعها شىء كالرهبة.. كالخوف.. منذ اليوم لن أعود كما كنت من قبل.. ستطاردنى هذه اللحظات فى كل وقت، كالقضاء، كالشىء الذى لا رجعة فيه. أحملق فى الفراغ ضائعة.. طفل صغير، شعره الأسود ملفوف، يضع اصبعه فى الفم، ويدرسنى فى بطء.. لماذا جاؤوا الى بهذه الاعداد؟ ليس من أجل الرسم وحده، فهو مجال لم تتح لهم ظروفهم التعرف عليه.. جاؤوا ربما بسبب الفضول.. ولكن أساساً لأننى قلت: «أنتم أهلى وناسى.. لستم جهلة، ولا أغبياء.. وربما أمكنكم أن تروا بعض الأشياء، وأن تفهموها.. فمنكم تعلمت ألوان البهجة والحزن، والبساطة فى الخطوط..»

أحسست بيده على رأسى.. أعرف لمسة هذه اليد بين آلاف اللمسات.. تثير الزوابع، والهدوء.. تزحف فى تعرجات النفس إلى أركانها البعيدة التى لم تصل اليها غيرها من قبل.. تحيى ما مات، أو ما لم يولد بعد.. التفتت اليه وابتسمت.. قال «مبروك. لقد رأت عيوننا ما لم يكن متوقعا، رغم كل الجهد.. والآن جاء وقت الانصراف.. لا تنتظرى حتى النهاية كما يفعل رسامو الصالونات... يقفون على الباب لتلقى التهانى، وتوديع الزوار.. اليوم يومك أنت.. ولا أحد سواك.. الليل ينتظرك نجمة لها ضوؤها الخاص... والصيادون ينشرن الشباك تحت القمر... هناك عند الشاطىء مائدة اعدها لنا «سعيد».. هيا بنا يا «أمينة»... فهذه الليلة لك أنت دون سواك..»

وضع ذراعه فى ذراعى وسرنا حتى الباب.. كلمات الوداع، ووجوه الشباب «مبروك.. يا «أمينة».. مبروك» الاضواء القوية، وضوضاء الإنصراف.. التعليقات والضحكات.. وقع الكعوب على الأرض، وصوت المحركات.. رأسى تدور.. يقودنى برفق تحت جنح الظلام.. الآن أصبحنا وحدنا مع الهدوء.. يبتسم ناحيتى.. يضع يديه على ظهرى، ويجذبنى اليه.. اشعر بضلوعه تضغط على.. يقبل عينى ويقول «مبروك..».

عندما استيقظت فى الصباح وجدته وقد غادر المنزل.. اليوم الجمعة فلماذا خرج مبكرا؟ لم يقل لى شيئا بالأمس.. أحسست بالكآبة.. كنت اتطلع إلى أن نقضى اليوم سويا.. نستريح من عناء الأسابيع الماضية.. نستمتع بساعات من الكسل.. نشرب الشاى فى السرير، ونتبادل الحديث... وربما.. ولكنه خرج فى هذا اليوم بالذات.. رأسى ما زالت تدور، وجسمى ثقيل يتحرك بصعوبة.. توجهت إلى الصالة.. ورقة بيضاء مطوية تحت مجلة «الألوان».. سحبتها.. خطه المتقن الدقيق..

«أمينة»

«آسف جدا.. اضطررت للخروج. اتصل بى «سعيد» الساعة السابعة فى مسألة تتعلق بالاضراب.. كنت أود أن أقضى اليوم معك... سأسعى إلى الانتهاء بأقصى سرعة لأعود إلى البيت.. إذا وجدت تليفونا فى المكان الذى ذهبت اليه سأحاول الاتصال بك.. اليوم يبدو دافئا ولكنه لن يكون حاراً... فإذا رغبت فى الخروج لا ترتبطى بى حيث أننى لا أعرف متى أعود بالضبط..

أقبلك وإلى اللقاء.

«خليل»

«ملحوظة.. قمت بغلو اللبن، ووضعته فى الثلاجة..»

قلبى يخفق.. فى الأسابيع الماضية سمعت كلمة الاضراب تتردد فى أحاديثهم.. ولكنها لم تترك فى أثرا محسوسا.. فقد كنت منهمكة فى أشياء أخرى.. ولكن اليوم ينتابنى شعور مختلف.. كأن السعادة لابد أن تكون قصيرة المدى... نكاد لا نتذوق طعمها لحظات حتى يجرفها طوفان الحياة.. يختطفها القدر الذى كتب علينا الشقاء.. لا داعى للاسترسال فى هذه الأفكار... لا بد أن أحيا أطول مدة ممكنة فيما حدث بالأمس.. أن اقلبه على كل الوجوه ببطء، واستخرج منه المتعة والدروس... كانت ليلة جميلة تلك التى قضيناها بعد أن تركنا المعرض.. أكلنا وشربنا حتى الثمالة... وتملكنا الاعياء وآلام فى البطن من كثرة الضحك.. لا أتذكر أننى ضحكت هكذا طوال الحياة.. كان «سعيد» فى قمة المرح، يقلد شخصيات الناس فى قريته.. و «خليل» كذلك عاد إلى أيام الشباب وما كانوا يفعلون مع المدرسين فى «طنطا» .. أحسست أنهما يريدان اسعادى، والاحتفاء بى، كما لم نحتف من قبل.. عندما افترقنا قبلت «سعيد» على وجهه. «متشكرة.. متشكرة..» فبانت عليه علامات الخجل.. تطلع إلى الافق البعيد، وهرش، رأسه، ثم ابتسم بأسنانه البيض.. ومضت فى ظلمة الليل وقال: «هذه أول مرة تقبلنى فيها امرأة غير أمى»..

ليست لى رغبة للخروج.. سأنتظر «خليل» إلى أن يعود... توجهت إلى المطبخ وأعددت لنفسى كوبا من الشاى ثم عدت.. فتحت جريدة الصباح.. العناوين لا تتغير.. «الأمن الغذائى والسكن لكل مواطن بعد ثلاث سنوات..» السنون تمر، ولا شىء يتحقق.. وسيلة لتأجيل الحساب.. لم يعد الناس يعيشون حتى على الأمل.. ولكنهم ينتظرون الفرج من عند الله، ولا يحركون ساكنا.. القيت بالجريدة على الأرض.. ومددت جسمى فوق السرير.. أرى بطنى تعلو، وتهبط بانتظام.. اضع يدى فوقها واتحسس الجسم الصلب يبتعد عن يدى كلما ضغط عليه... أحس به يسبح فى السائل.. ابتسم لصورة الوجه الصغير،

والاصابع الدقيقة تلتف حول طرف القميص. ترى عندما يولد هل سيشبهنى أم يشبه أباه؟ أتمنى أن يأخذ منا نحن الأثنين.. أن يأخذ أحسن ما فى، وأحسن ما فيه.. سمعت جرس التليفون يرن فى الصالة فقمت مسرعة.. صوت «خليل» يأتينى من بعيد.. أكاد لا أسمعه، أطلب منه أن يعيد ما قال من جديد..

«يا «أمنية»... عرفت منذ دقائق أن العاملين فى المصنع سيضربون ابتداء من الساعة الثانية عشرة غداً... سأتناول طعام الغذاء مع «سعيد» ثم أعود إلى البيت. لن أتأخر عن الساعة الرابعة.. لا تخبرى أحداً بما قلته لك.. موضوع الاضراب سر إلى أن تعلنه اللجنة النقابية.. هل سمعت كل ما قلته؟»

«نعم... سمعت»..

بطنى تعلو وتهبط فى انتظام.. لكن الوجه الصغير اختفى من خيالى. الاضراب.. لم أر إضراباً من قبل.. كلمة تثير فى القلق لسبب لا أدركه.. الجماهير الغاضبة.. والبوليس... الدروع والعصى، وأحيانا الرصاص. يتحدثون عن السلام فى النهار والليل.. عن الأمن والاستقرار... أى أستقرار ذلك يتحدثون عنه.. استقرارنا نحن... أم أستقرارهم هم...

* * *

عيناها تحتوياننى بدفء عسلى... أحس بهما كالسائل أسبح فيه.. أتجرد من ثيابى، وأسبح عاريا... تمسك بيدى، وتفحص وجهى باهتمام.. لم نلتق سوى مرة واحدة، ولكننا كالصديقين، بيننا ألفة غريبة، واشتياق.. تقدم على ببساطة رائعة... تشعرنى أننى أهم من كل الأشياء...

«مالك؟... أراك غير المرة السابقة. كأنك قلق... أو مشغول البال..»

ابتسم

«لا بد أنه غيابك الطويل...»

تضحك فى سرور..

«آه منكم.. أنتم الشرقيون... الكلمة الحلوة عندكم كل شىء..»

«ليتك كنت على حق فى هذا.. فما يحدث الآن هو العكس.. ولكن لو صح كلامك فما العيب فى ذلك..؟ إنها تجعل الحياة أكثر جمالا...»

«ليس دائما.. أحيانا تتحول إلى مجرد شكل لا يعنى شيئا، أو وسيلة للهروب من الفعل... وقد تستخدم لاخفاء الحقيقة كما هو حالك الآن...»

تنظر فى وجهى بثبات... تنظر إلى الأشياء مباشرة... لم أر جفونها

ترتعش... تفتح عينيها على الحياة... تملأنى بشعور يريحنى.. كأنها تقول.. أرفع البراقع، وارتح.. خذ الأمور ببساطة، ولا داعى للزوغان..

لا أرد.. لا أبوح عما فى نفسى بسهولة... ولكن معها أحس أن كل شىء يمكن أن يصبح سهلا، وأحس برغبة فى الكلام...

«أراك تغلق شفتيك كأنك قررت أن تحبس لسانك باحكام... أنا أريد أن أسمع منك، ولكنى لن أتحايل عليك... ملامحك تحدثنى عما فيك... دعنى أسألك.. ماذا تشرب الليلة... ويسكى، أم دورق من الليمون..؟!»

تضحك برنين متصل...

«وجهك ينم عن البراءة، ولكنى اكتشف بسرعة أنه ليس سوى مظهر خداع، وأنك يمكن أن تكونى صعبة المراس»..

«ولم لا ... لا يوجد تناقض بين الأثنين... أحيانا بريئة كالطفل.. وأحيانا مفعمة بالشر، وصلبة كالحجر... تعلمت مع الأيام..»

«ومعى؟»

تقوم دون أن ترد.. أرى قوامها من الخلف يتحرك فى يسر، والشعر الطويل كالنار الهادئة فى الضوء.. أسمع صوت سائل يصب، وثلج يسقط فى الكأس.. تعود حاملة كأسين.. تضعهما على المائدة أمامنا.. تجلس فى الطرف المقابل للكنبة منزوية فى الركن... ترفع قدميها العاريتين، فأرى حمامتين يتواريان تحت ظلام الثوب.. تضع ذقنها على ركبتيها وتستغرق فى الصمت... أشعر فجأة أنها لم تعد فى الحجرة فيخفق قلبى بالقلق.. لحظة قريبة منى، ولحظة أخرى تفلت هناك...

«ما زال سؤالى قائما..»

تلتفت إلى فى جد.. تقطب جبينها كالطفل كأنها تبذل جهدا فى التفكير..

«معك.. لا أدرى... أو بالأحرى، لم أحدد بعد..»

«ولماذا لم تحددى..؟»

«لأننى لا أعرفك..»

«ليس هذا صعبا..»

«بل صعب.. أنت تنتمى إلى عالم آخر غير عالمى.. نحن نمشى فى الحياة بنفوس عارية.. أما أنتم فنفوسكم فى الأعماق»

«لا... لا أوافقك على هذا.. نحن نمكر بسذاجة تعكس سذاجة الحياة.. ولذلك قد يستعصى عليكم فهمنا... أما أنتم فعالمكم معقد، ولذلك تمكرون بذكاء.. وفى المسائل المهمة»..

تحت البشرة الناعمة تتصلب العضلات.. الملامح جميلة متموجة، ولكنها كالرخام... والعيون تحملق بعيدا كعيون التمثال... هذه المرأة تحمل فى نفسها شيئا يثير فضولى، ورغبة ملحة فى الأكتشاف.. ترى هل تسلمنى المفتاح، أم على أن اعثر عليه بجهودى الخاصة.. ربما لن يكون من السهل..

«هل غضبت؟»

تهز كتفيها فى حركة استعلاء، كأن الغضب لم يخطر على بالها، فأدرك أنها غضبت بالفعل... تظل صامتة...

«على كل حال إن كنت قد غضبت فأنا أعتذر.. أريد أن أقول لك إن أمكن ما يمر بذهنى دون موارية.. وهذه ليست مجرد كلمات...»

تلقى الى بنظرة سريعة فيها مسحة عتاب..

«لا تعتذر، فهذا هو ما ابتغيه ايضا... ربما فى بداية العلاقات يحدث سوء فهم.. كل منا يتلمس الآخر..»

«والأصابع أحيانا تخطىء الهدف..»

«لا... ليس اصابعك.. أنها مرهفة الحس..»

نبضى يسرع فى مكان ما.. يجرى تحت السطح.. الجمه قبل أن يصبح جامحا..

«أنت المسئولة عما يحدث بيننا لسببين.. السبب الأول.. هذا»..

ألوح بكأسى فارغا..

«والثانى..؟»

«والثانى، وهو الأهم.. هو أنك تدفعيننى إلى أن أكون نفسى...»

«وهذا أفضل بالطبع..؟!»

«معك... لا أدرى... أو بالأحرى لم أحدد بعد..»

تضحك فى استرسال مرح..

«"بصرة" كما تقولون فى مصر... أعطنى كأسك حتى أملأه... فأنا أريد أن أعرف ما تخفيه فى الأغوار.. يبدو أننى سأكتشف ما يستحق المعرفة...»

«ربما أصبت بخيبة أمل..» أبعد يدى بالكأس..

«لا... لا أظن.. أعطنى كأسك، ولا تخف... فانا الليلة سعيدة للغاية... والسعادة تقتلع الشر...»

مدت ذراعها خلف رأسها فأطفىء المصباح المتدلى من السقف... ألمح نهدها يرفع الثوب، وظلال الأبط، وفتحة الفم... عيناها تلتقطان شعاعات الضوء،

وتلمعان فى غموض... وصوتها يأتينى كالقطيفة الداكنة يلتف حول أذنى...

«ألا تريد شيئا مع الكأس..؟»

«لا.. أشكرك... أريد أن أحيا هذه الليلة على الخمر، وشفافية الروح..»

«عش أنت على شفافية الروح... أما أنا فلا أتحمل الجوع.. سأعد وجبة خفيفة لنفسى وأعود..»

تختفى فى الداخل.. عيناى تدوران حول الحجرة... النوافذ العريضة مفتوحة... أرى الليل، والنجوم، وأشباح العمارات فى الضفة الأخرى.. أستنشق الكون.. ساعتى تشير إلى الواحدة صباحا.. لا بد أن أعود... نحيا هذه الأيام على شفا كارثة... تحت السطح الهادىء، الجو يموج، ولا أحد يعلم متى يحدث الانفجار... يستحسن أن أذهب إلى العمل مبكرا... أن أحتفظ بصفاء الذهن... أشعر برغبة قوية فى أن ابقى حيث أنا، أن أترك نفسى للظروف... سأسألها عندما تعود عن الحديث الذى سجلته، ثم انصرف...

عادت تحمل صينية عليها كأسان من الويسكى، وبعض المأكولات... قلت:

«ما هذه الألوان الجميلة... الطماطم الحمراء.. «والكافيار» الأسود... والجرجير الأخضر.. والجبن الأبيض والزيتون..»

تلقى بشعرها الكستنائى إلى الخلف بحركة من الرأس تشبه المهرة.. على شفتيها ابتسامة خجولة كالفتاة مدحتها أمها أمام الضيوف..

«إذن ستأكل معى، أليس كذلك؟»

«لا.. لا أستطيع أن أتأخر، أكثر من هذا.. سأشرب كأسا، وأنصرف.. تصمت فاستطرد...

«كنت أود أن ابقى، وأتناول معك الطعام.. ولكن..»

«لكن ماذا..؟»

«يستحسن أن أنصرف الآن.. وقبل أن أنسى ما جئت من أجله، أريد أن أسألك... هل جهزت الحديث؟..»

«نعم!.. هو هنا..»

مدت يدها بملف أنيق من البلاستيك.. تقول:

«لن تجد صعوبة فى قراءته.. السكرتيرة افرغته على الآلة الكاتبة... أرجو أن تراجعه، وإذا سمح لك الوقت أن تكتب ملاحظاتك عنه، أو تسجلها فى نقاط حتى نتناقش عنها سويا..

«وهو كذلك... أشكرك على الوقت الطيب الذى قضيته معك..»

«وأنا أشكرك على مساعدتك لى وعلى هذه اللحظات... سنلتقى..» قمت من جلستى.. عند الباب مالت ناحيتى وقبلتنى على الخد... أحسست بشفتيها الساخنتين لحظة، وبالشعر الناعم يلمس أذنى ثم ابتعدت عنى.. رأيت البريق فى عينيها... قالت.. «أتصل بى أى يوم بعد الساعة السادسة مساءً... وداعا وإلى اللقاء»

هبطت السلالم محمولا على جناحين.. رأيت البواب يقف كالشبح.. رمقنى بملء عينيه.. نظرة كالحجرة الصغيرة تلقى فى المياه.. أحسست ببرودة الليل المنعشة تستقبلنى، وأنا أخرج من الباب.. وجدت سيارة أجرة أمام إحدى العمارات، وهى تتأهب للإنطلاق.. أوصلتنى حتى البيت... فتحت الباب، ودخلت.. المصباح السهارى يشتعل بضوئه الهادىء... ذهنى متيقظ يرفض النوم.. أعددت بعض الأوراق الخاصة بالشركة، ووضعتها فى حقيبة اليد.. ذهبت إلى المطبخ... مائدة الأفطار معدة للغد.. «أمينة» ذلك النوع من الناس الذى يشق طريقه بثبات.. يمكن الاعتماد عليها، وفيها وفاء.. ليست مثلى تتأرجح من

هنا إلى هناك... هل لأنها امرأة، أم أنها مسألة طباع.. رغم التجارب التى خضتها يوجد بيننا اختلاف.. جذورها مغروسة فى الأرض، كالشجرة القوية فى الأرياف.. أتذكر أمام «الدوار» على هضبة صغيرة شجرة التوت ترفع رأسها العملاقة.. أفرش تحتها فى الصيف وأنام... أستمع إلى همسها فاشعر بالاطمئنان... أريد أن أركن اليها، ولكنى أهرب.. أخشى من هذا الإحساس... يذكرنى بالفارق بيننا... يشعرنى أننى أحتاج اليها، وأنا أكره هذا الاحتياج... منذ أن خرجت من البوابة الخشبية، وواجهت الحياة، عجزت عن الاستقرار.. عندما أراجع نفسى أحس بالفشل، بأننى لم أحقق شيئا ذا بال.. وهل لا بد أن أحقق شيئا.. يوجد ملايين الناس يحيون حياتهم العادية، ولا تؤرقهم هذه الأفكار... لماذا لا أستكين وأواجه الحياة ببساطة... خضت تجربة تركت آثارها إلى الأبد.. وهكذا سأبقى دائما... أتأرجح بين الرغبة فى الراحة، والرغبة فى العذاب.. و«أمينة»، لماذا لا ألجأ اليها بحثا عن الأطمئنان.. ألأنها تذكرنى دائما بكل هذه الأشياء...؟ أنها لا تقبل منى الأعذار... و «روث» أشعر بقوة طاغية تجذبنى اليها... قوة لا أستطيع مقاومتها، أو إذا أردت الصراحة لا أريد مقاومتها... سحر الجديد، المجهول... سحر الهروب إلى أحضان مفتوحة... إلى عالم آخر مريح.. كل شىء فيه جاهز، معد.. الطعام، والشراب، والمال... الفرش الوثير.. والنوافذ تطل على النيل.. والجسم ناعم، شاب، فوار.. اغلق عينى وأتصورها عارية.. أحيطها بذراعى... أرتعش.. أحملق فى كآبة المطبخ الصغير.. فى المائدة، والفناجين، وطبق من العسل الأسود والطحينة... من النافذة يتسلل ضوء الفجر باردا موحشا... أشعر بالحزن.. لو كانت الحياة بسيطة.. تتسلل إلى شعرة من الخوف... صوت فى داخلى ينذرنى أن لكل شىء ثمنه.. أفتح عينيك قبل أن تقدم... أنحيه جانبا.. أخنقه.. وأعود إلى صورة جسمها بين ذراعى.. استيقظ فى الصباح على يد تهزنى فى رفق.. وجه «أمينة» يطل على فى تساؤل:

صباح الخير... ألن تذهب إلى العمل اليوم؟»

نظرت فى الساعة وقفزت من السرير... الساعة السابعة والربع.. على مائدة الإفطار لم تسألنى عن شىء.. شعرت أنها تتفادى الحديث... فجوة تتسع بيننا فى الأسابيع الأخيرة.. أنا منشغل بالعمل فى الشركة، والموقف الذى يتأزم بالتدريج، وهى بالاعداد للمعرض.. لا نلتقى إلا قليلا... اعرف الآن متى تكون غير راضية... تلجأ إلى الهدوء التام.. تقوم بكل الاعمال، ولا تهمل فى شىء، وتسير المسائل دون عقبات.. ولكنا نظل نحيا فى الروتين العادى، ويتوقف بيننا التبادل الذى تعودناه.. أرى بطنها المنتفخة.. لم أسألها حتى عن الحمل، وحالتها الصحية.. أحس بالندم.. أقوم من مقعدى، وأضع يدى على كتفها، ثم أقبلها على رأسها. تبقى جالسة كما هى دون حركة، تحملق أمامها فى صمت... أرفعها بين ذراعى، وأدفن رأسى فى عنقها.. تربت على ظهرى كأننى طفل.. ابعدها عنى قليلا. أشعر أنها تصارع حتى تصفح عنى... أراها تبتسم.. تربت على ثانيا كأنها تطمئننى أنه لا داعى للقلق، وأن شعورها نحوى لم يتغير.. أحتضنها بين ذراعى.. أشعر فى بطنها بشىء صلب يتحرك.. تترك جسمها بين ذراعى فى استسلام.. جدار ينتصب بيننا يحول دون الوصول. أسألها:

«والمعرض؟»

وجهها يشرق قليلا فأتشجع

«انتهيت من إعداد اللوحات التى سأقوم بعرضها.. ولكن أمامى مشكلة لم أنجح فى حلها»..

«وما هى؟»

«الصالة الوحيدة التى وافقوا على تخصيصها للمعرض فى حالة سيئة للغاية..»

«ما عيبها...؟»

«استخدمت كمخزن، ولم يتم تنظيفها، أو صيانتها منذ سنين..»

«أين هى..؟»

«فى معهد الفنون التطبيقية «بحلوان»..»

أخذت أفكر.. تذكرت فجأة..

«معهد الفنون؟!.. أننى أعرف عميدها معرفة جيدة.. كنا فى المدرسة سويا.. وكنت أزوره فى البيت.. ويحضر أحيانا لقضاء بعض الأيام معى فى العزبة.. ما رأيك.. سنزوره سويا فى المكتب، ونناقشة فى الأمر..؟»

أحسست أنها تبذل جهدا حتى تعود إلى حالتها الطبيعية..

«طبعا موافقة.. متى؟»

«باكر..»

قمنا بالزيارة التى اتفقنا عليها فى اليوم التالى.. رحب الرجل بنا ترحيبا حارا.. عندما دخلت فى مكتبه احاطنى بالأحضان، وبذلك الجو الدافىء الذى تثيره ذكريات الطفولة، والشباب.. رتب لنا كل الأمور بالتعاون مع اتحاد الطلبة.. تكونت فرقة من المتطوعين قاموا بنقل الاثاث المخزون، وتنظيف الصالة، وطلاء الجدران، والنوافذ، والأبواب.. حتى الاضاءة أعادوا توزيعها بحيث تتناسب مع احتياجات المعرض.. وبعد أن انتهى كل شىء قامت «أمينة» بتفقد ما تم.. عادت إلى ذلك اليوم بوجه فتاة تلقت أنباء نجاحها بتفوق فى الثانوية العامة.. تكاد تقفز فوق الأرض رغم الحمل... شعرها طائر فى الهواء، وعيناها تتدفقان حبا واشراقا.. أخذتها بين ذراعى وقبلتها قبلة طويلة اغرقت فيها شعورى بالندم... أخذنا نجرى هنا، وهناك فى البيت كالاطفال... نغنى، ونرقص، ونضحك، ونثرثر

دون انقطاع..

أخيرا جاء يوم افتتاح المعرض.. أعرف أن قلبها يتوجس خيفة من هذه التجربة... فكرت فى أن أكون إلى جوارها، اتلقى معها التهانى والفرحة أن نجح.. واعزيها، واشجعها أن لم يلاق النجاح الذى تأمله... ولكنى فى النهاية قررت أن أتنحى جانبا... اليوم، يومها هى، دون سواها.. لن يكون لى فضل أو ذنب فيما سيحدث... فلتتحمل هى نتائجه وحدها.. سأذهب اليها قرب ميعاد الانصراف.. هكذا حدثتنى نفسى.. لم اعد إلى البيت بعد انتهاء العمل.. اتفقت مع «سعيد» على أن نحتفل «بأمينة» فى المساء، وطلبت منه أن يقوم بحجز مائدة فى «كازينو الشاطىء». رحب بالفكرة وقال: «الحياة تجرفنا، فلا نرى الأشياء التى توجد تحت أعيننا... أحس أحيانا أننى لم أر النيل منذ سنين.. أمشى إلى جواره دون أن أتنبه اليه.. ولم أحتفل بأحد منذ مدة طويلة..»

جلست على مقهى منزو فى حارة جانبية على أطراف «حلوان».. دكك خشبية، ومقاعد من القش، ووجوه تشبه عمال التراحيل.. يعملون فى البناء.. على مائدة خاصة دائرة صغيرة.... الشوارب الكثة، والاجسام العريضة، «واللاسات» البيضاء.. جمع من متعهدى الانفار يراجعون الحساب.. يدسون رزم النقود المتسخة بالعرق، والتراب فى ثنايا الجلباب... ترى لماذا أجلس هنا، بينما تقف «أمينة» هناك تواجه الامتحان؟.. أليس مكانى الطبيعى إلى جانبها؟.. أتهرب كالعادة، ولكن مما؟ أتهرب من احتمال الفشل، واحتمال النجاح، فإن كان الفشل لا أريد أن أشاهده إلا بعدها... وإن كان النجاح سأحيا فى الفشل الذى أصابنى أنا.. أشعر بالخجل... هذه هى الحقيقة التى اتفادى الاعتراف بها.. كيف سمحت لنفسى أن تتدحرج إلى هذا المنحدر؟ دفعت الحساب، وقمت... الجالسون ينظرون الى فى فضول.. أخطو مسرعا فى الحارة بين اطفال يلعبون، وأسراب الذباب، وبرك المياه والصابون.. أخرج إلى المساحات المفتوحة. وانطلق.. أقفز فوق

الرصيف... جسمى خفيف، وصدرى يتنفس بحركة منتظمة.. اشق طريقى بين الناس، يحملقون فى هذا الرجل. أشيب الرأس، وقور المظهر يجرى بسرعة كأنه مطارد.. لا أبالى بالنظرات «فأمينة» هناك.. كيف أتركها وحدها.. أرى الأضواء الملونة على السور، والملصقات موزعة على الجدران... عشرات من الزوار عند باب الدخول.. أتوقف عن الجرى وأتسلل من الباب وسطهم.. أجتاز الحوش، وأصعد الدرجات.. أمر من الباب الثانى، والثالث... الصالة تلمع بيضاء تحت المصابيح المثبتة فى السقف، وفوق اللوحات.. أحس كأننى لم أرها من قبل... تنطق بالجهد، والصبر، وعصارة الاحساس، والعقل... تتحدث عن الهدم والبناء.. عن النفاذ إلى عوالم غامضة، تختلط فيها الألوان بالنغم.. تبحث عن انسجام مختف فى ثنايا الفوضى، وتستشف الاسرار المختبئة خلف الرؤى المجردة... أرى «أمينة» الآن كأننى أراها لأول مرة... تجلس على المقعد... تشد على بطنها الحامل بالجنين، بالحياة... ترتعش أصابعها المتوترة بالفن العبقرى.

وضعت يدى على كتفيها. أحس بملمسهما الدافىء... استطيع أن أتبينهما، وسط الزحام... اعرف تضاريسهما العارية، فطالما رفعت شعرها من فوقهما، وطالما أسندت رأسى المتعبة اليهما، ونظرت إلى نهدها المستقر يبث حوله هدوء الأنثى وثقتها...

رفعت وجهها إلى... قلت: «هيا بنا... الليلة سنحتفل بك... الليلة ليلتك أنت، ولا أحد سواك.. نجمة فى السماء.. نجمة مضيئة»... نسير وسط الناس.. نخترق ضوضاء الحديث، والضحك، والسيارات تتأهب للطريق.. نجتاز الأفواج، والتحيات، وكلمات التهنئة، ونختفى فى جوف الظلام، فى عالم من صنعنا، أنا وهى... أضع ذراعى حولها... شفتاى تبحثان عن شفتيها، والأرض تتوارى من تحتنا.. تسقط وتتركنا نحلق وحدنا على قمة شاهقة..

عند الشاطىء جلسنا حول المائدة، هى، و «سعيد»، وأنا.. والكلمات

الصادقة.. نأكل فى بطء، ونشرب، ونتحدث، ونضحك كما لم نضحك طوال عمرنا.. نشرب للحياة وللفن، والجنين الذى يرقد فى بطنها.. نحتفل بها نجمة فى السماء، ونحتفل بأنفسنا.. أشرب يا «خليل» كأسا وراء كأس ربما تلاشى شعور لا يفارقك إلا نادرا... ترى هل هذه هى كأس الآخرة؟..

نمت بين احضانها، غائبا عن الدنيا، غارقا فى بئر عميق مفرغا من الاحاسيس، والذاكرة إلا احساس السعادة النادرة... أسند رأسى فى الفجوة المستديرة تحت الكتف.. عندما أفتح عينى ألمح نهدها... أشعر أن فى الدنيا سلام، فأنام... أحلم بأمى التى لم أرها أبدا.. أرى عينيها الضاحكتين، وأسمع صوتها ينادينى... أفتح عينى فى الظلام.. ألمح نهدها.. وأستنشق رائحة جسمها كالارض، كالخبز الطازج.. رائحة الشجر، والزهور، والاشياء الطبيعية... رائحة العمل، والعرق... رائحة ذكية... فأنام..

فى الصباح فتحت عينى.. أصعد درجات اليقظة بالتدريج ثم فجأة أسمع رنينا من خلف الباب الموصد... أبحث عن الخف وأدس فيه قدمى على عجل... أتسلل من باب الحجرة... أرفع سماعة التليفون... صوت «سعيد» يقول:

«صباح الخير... آسف لازعاجك... ولكن وجودك معنا اليوم مهم..»

«أين أنت، الآن؟»

«فى مقهى الزجاج مع بعض اعضاء اللجنة ..»

«ماذا تفعلون..؟»

«نناقش موعد الأضراب..».

صمتت.. يلح على:

«يا خليل... هه... ماذا قلت؟»

«سألحق بك فى ظرف ساعة..»

«إلى اللقاء..»

أعدت السماعة إلى مكانها.. أنظر إلى معصمى.. الساعة السابعة.. جلست على المقعد استجمع شتات عقلى... عدنا إلى الحياة... الحياة الحقيقية لكل يوم.. السعادة، لحظات قليلة كالسراب... قمت إلى الحمام.. حلقت ذقنى، وأخذت دشا ساقعا حتى افيق... أرتديت ملابسى.. «أمينة» ما زالت نائمة... أرى تنفسها الهادىء، وبطنها ترتفع قليلا تحت الملاءة.. انتابتنى رغبة ملحة فى أن أقبلها كأنى مقدم على السفر إلى مكان بعيد، وأريد أن أودعها... أحساس باللحظة الفاصلة... بالمخاطر، والفراق... قاومت رغبتى... لا داعى لإزعاجها.. سأترك لها ورقة فى الصالة... ذهبت إلى المطبخ أعددت فنجانا من القهوة بسرعة، وخرجت إلى الشارع... نسيم الصباح ينساب فوق الحقول، والشمس تصعد فى السماء:. مذا أخشى؟... الدنيا بخير... المعرض، وليلة الأمس.. ماذا أريد؟ لا· أرضى ابدا... لا أترك لنفسى فرصة أتذوق فيها الحاضر... عقلى يقفز دائما إلى الأمام، فتضيع اللحظة الحاضرة قبل أن تجىء اللحظة القادمة، وأظل معلقا بين اللحظات..

دلفت من باب المقهى فى الساعة الثامنة بالضبط.. هناك وجدت «سعيد» «ومصطفى رمضان» وأثنين من الآخرين اعضاء اللجنة النقابية: «حسن عيد» «وعلى الشرقاوى»... وعندما سألت عن باقى الاعضاء قالوا أن اللجنة اعطت تفويضا للأربعة لكى يصلوا إلى قرار، منعا لوجود عدد كبير يلفت الأنظار وهم مجتمعين، وحتى يبقى الموضوع فى أضيق نطاق، ولا تتسرب أخباره إلى الإدارة أو رجال الأمن... جلست فى صمت... من الواضح أنهم وصلوا إلى قرار... لا مفر من اعلان الاضراب فى أقرب فرصة ممكنة، قبل أن تنتهى إجراءات العقد الجديد، ويصبح العاملون أمام الأمر الواقع... اقترح «سعيد» أن يبدأ من باكر..

قال أنه قام بكل ما يلزم حتى يلقى الاتحاد بكل ثقله فى تأييد الاضراب.. ذلك أنها معركة فاصلة ستترتب عليها آثار بعيدة فيما يتعلق بسياسات الاستثمار فى الصناعة، ومستقبل العاملين... التأجيل من شأنه اضعاف الحماس، وكلما طالت المدة تعددت الاشاعات، وأمكن لعملاء الإدارة، والأمن أن يبثوا الفرقة فى الصفوف، والشك ومختلف أسباب النزاع.. دارت مناقشة حامية.. آثرت الصمت حتى أرى ما سيصلون اليه... لست عضوا فى اللجنة النقابية، وهم يتقبلون وجودى لأننى صديق «سعيد أبو كرم»، قائدهم منذ سنين، الذى يثقون فيه... ولكننى أحيانا ألمح نظرة تساؤل فى عينى احدهم كأن صاحبها يقول: «هذا الرجل ليس منا.. انه ينتمى إلى طبقة أخرى، إلى مراتب المسئولين فى الشركة... ما الذى جاء به إلى هنا؟ ما مصلحته فى كل هذا؟» عندما يرانى التفت اليه تختفى بسرعة وكأنها أطلت فى لحظة من السهو.. أدرك أن مثل هذه الأفكار لا بد أن تدور فى أذهانهم.. الحياة علمتهم الحذر من أمثالى.. ومع ذلك يتملكنى شعور من الضيق، يذكرنى بأيام مضت.. كان لى زملاء من العمال ربطتنى بهم علاقات طبيعية. ولكن هناك آخرون ينظرون الى كمورد للمال. أو كعنصر لا يجوز الاعتماد عليه.. وكنت أحيانا اثور.. فما قدمته من تضحيات أضعاف أضعاف ما قدموه... أليس ماركس هو الذى قال: «ان العمال لن يخسروا سوى القيود..؟» ولكن مع الأيام اصبحت اتعامل مع الواقع، وأحاول أن أفهم جذور المسائل. وأسبابها.. أنهم يخشون تسلط مصالح الفئات المتميزة عل حركتهم.. اتساءل احيانا أين مكان المثقفين.. فى ظل الرأسمالية مقهورين.. وفى ظل الاشتراكية ما زالوا يعانون الكثير.. شأنهم شأن النساء.. أحس بنفسى بعيدا عن هؤلاء الرجال وهم يتناقشون. كأنى مجرد متفرج.. اعطونى هذا الأحساس.. لم يسألنى أحد عن رأيى، بل حتى الآن لم يلتفتوا إلى وجودى.. لماذا طلبوا منى الحضور؟ حتى «سعيد أبو كرم» منهمك فى النقاش معهم.. ربما يكون معذورا... فعندما

أحسوا أن الاضراب أصبح وشيكا وأنهم ربما سيواجهونه بعد ساعات، ظهرت عليهم علامات التردد.. أسمع الآن كلمات مثل «الحذر»، و «الوقت المناسب»، و«المغامرة».. يدركون جيدا ما هم مقبلون عليه.. يريدون إثارة كل الحجج، ليسمعوا الرد عليها.. ويفحصون الأمور بروية..

ارهاصات الغد أراها تولد أمام عينى، فى هذه الوجوه التى حفر فيها العرق خطوطا عميقة.. وفى الأيدى الغليظة نمت من كثرة الاحتكاك بالحديد والحجر.. وفى العقول تجهد نفسها لتفهم الواقع.. تسمع أذنى الكلمات تنتقل بينهم كالمكوك، وتنسج خيوط الاتصال.. تحول الأفكار إلى حركة تضم المئات والآلاف.. يدرك عقلى ذلك الاصرار الذى ينمو بالتدريج. يزحف إلى الأمام، ويتراجع، ثم يسير من جديد خطوة بعد خطوة... اتابع الآراء تتصارع، وتختلف، وتلتقى فاندمج.. انسى ذاتى، وآلامى، والتردد الذى يحاصر خطواتى.. احيا فى أيام مضت... صوت «سعيد» يجيئنى كالجرس..

«يا زميل «خليل» لم نسمع رأيك..؟»

«لست عضوا معكم.. وليس لى صوت»

يلوح بعصبية كأنه يبعد ذبابة ضايقته..

«لن أرد على ما قلته.. فأنت تعرف الإجابة... أهذه هى طريقتك فى التهرب؟»

«لا»

«إذن ما رأيك؟»

«الاضراب اليوم قبل الغد، قبل أن يفوتكم القطار، وتتفرق الصفوف، أو يصيبها الوهن..».

لم يعد أحد يتكلم.. ساد الصمت كأن كل منهم يفكر... ترى ما الذى يدور فى الأذهان هذه اللحظة... لحظة لن تتكرر ربما فى العمر كله.. أحملق من النافذة. صبى هزيل الجسم يقف عند ركن الحارة، ويبول.. التفت الى «سعيد»... ارى وجهه لأول مرة لا تتحرك فيه عضلة.

فى الصباح ذهبت إلى مكتبى كالمعتاد.. ظللت مغلقا الباب على نفسى، أحاول أن أقرأ فى بعض الملفات.. أعود إلى السطور مرة، واثنين، وثلاث. من حين لآخر يهيأ إلى أننى أسمع أصواتا تصيح، فأقوم، وأطل من الباب.. دق جرس التليفون فانتفضت.. المدير الإدارى يسألنى عن رأيى فى إحدى الموظفات... اكره هذا الرجل.. ناعم الصوت، والتصرف، والثياب.. عمل طويلا فى جهاز من أجهزة الاستخبارات، ثم نقلوه إلى الشركة عندما استقالت الوزارة السابقة، وإجريت تعديلات فى مختلف الجهات.. فمع كل خطوة فى تنفيذ الاتفاقيات العلنية والسرية، ومع كل تغير فى الوضع يتغير الطاقم.. وجد الرجل نفسه بين يوم وليلة ينتقل من مكتب تطل نافذته على الرئاسة إلى حجرة لا يرى منها سوى براميل المواد الكيماوية المرصوصة فى الحوش...

حجرتى موقعها فى الطرف الغربى لمبنى الإدارة، وإلى جوارها المكتبة.. ركن هادىء لا يصله ضجيج المصنع.. كل ما أسمعه عادة هو نوع من الأزيز البعيد، والذبذبة الخفيفة، كأن هناك فى مكان آخر آلات وعجلات تدور وتهز الأرض والجدران.. كنت أتأهب للخروج من حجرتى، والتوجه إلى دورة المياه القريبة عندما أحسست فجأة بصمت غريب، كأن كل شىء حولى توقف عن الحركة.. خرجت من الباب... نسيت السبب الذى من أجله خرجت. وقفت فى الممر أرهف أذنى، وأطل من إحدى النوافذ على الحوش الداخلى وأقسام المصنع الممتدة فى نصف دائرة خلف مبنى الإدارة.. الحوش خال من العاملين ما عدا ثلاثة من الحراس تركوا موقعهم المعتاد فى الاكشاك الموزعة على شكل مثلث أسفل الجدران

العالية، ووقفوا يحملقون فى المبانى الممتدة تحت الشمس.. مقعد الفراش اختفى من مكانه المعتاد.. سرت خطوات فى إتجاه المكتبة مارا أمام باب الصالة الواسعة المخصصة لأعمال الآلات الكاتبة. والتصوير والطباعة على «الأوفسيت»، فتنبهت إلى أنه لم يعد يأتينى ذلك الصوت الخافت الذى تعودت على سماعه كلما اقتربت من هذا المكان.. نقرت الباب، وفتحته.. وجدت الحجرة خالية تماما.. درت بعينى على المكاتب... فنجان من القهوة لم تمس محتوياته، وحقيبة يد على مائدة صغيرة، وسجل مفتوح، وسيجارة مشتعلة يرتفع منها الدخان ببطء، وسلة مهملات انقلبت على جانبها، وتسربت منها بعض المحتويات... أغلقت الباب، وأكملت طريقى إلى المكتبة... لا أحد هناك.. بعض الكتب مرصوصة على المائدة الكبيرة الخضراء.. وعلى أحد المقاعد رباط عنق يتدلى حتى الأرض.. عدت ادراجى إلى المكتب.. شىء غير عادى فى الجو كأن كل الناس تركوا أماكنهم فجأة وهربوا.. ادركت أن هناك شيئا ما قد حدث.. أن الاضراب بدأ.. جلست أستمع إلى أنفاسى تتردد كالهمس العالى فى صمت الحجرة المغلقة...

دق جرس التليفون.. رفعت السماعة.. صوت الرئيس يتسلل الى فى هدوء.. هدوء لم أعهده من قبل.. كأنه مقدم على أمر خطير.. قال:

«أستاذ خليل».. أرجو أن تهبط إلى مكتبى فورا..»

وجدته جالسا على «الكنبة» يدخن.. وجهه شاحب.. وطرف السيجارة المشتعل لا يخبو... اشار إلىّ بالجلوس... نظر الى مليا، ثم سمعته يقول:

«تعرف بالطبع يا أستاذ «خليل» أن العمال أضربوا منذ الساعة الثانية عشر إلا ربعا..

«أضربوا؟!»

«نعم، أضربوا..»

لا أعرف لماذا فى تلك اللحظة فكرت فى «روث»... روحها تنفلت منى فجأة كأن جسمها وحده هو الموجود.. ولا أعرف لماذا فكرت فى نفس اللحظة فى الموت... تشابكت اصابعى كأننى أتعلق بشىء فى الهواء لا يراه الآخرون وأحسست بتيار بارد يسقط فى الكفين..

«ألم تسمعنى؟!»

«نعم. سمعت..»

«ولماذا لا تنطق إذن» .. يقولها فى حدة، كأنه يبحث عن ضحية يفرغ فيها ما يختزنه فى صدره من قنوط..

«ماذا تريد أن أقول؟»

تبدو عليه الحيرة.. ماذا يتوقع منى؟.. أن انقذه..؟ أن أقدم له النصح..؟ ليتحمل نتيجة ما أقدم عليه.. هو وكل أمثاله.. هو وكل الذين يريدون الاستيلاء على البلد، ويجعلون من أعداء الأمس أصدقاء اليوم.. يهرولون ناحيتهم كالخدم.. فنتجرع نحن كأس الهوان مع بداية كل يوم.. مع عناوين الصحف فى الصباح، وفى المساء مع صور التليفزيون...

«سأبلغ وزارة شئون الأمن القومى..»

«هكذا.. منذ أول لحظة..؟»

«ماذا تريد أن أفعل..؟ لا أستطيع أن أتحمل مسئولية ما يدور وحدى..» يصمت لحظة.. «سيسيئون الى سمعتنا مع المؤسسات الأجنبية... سيقولون أين مصر الاستقرار، والهدوء.. و «شركة لاروشيل»!! يشعل سيجارة أخرى، ويرمقنى بنظرة متشككة كأنه يخشى أن يكون قد تجاوز الحد، وتسرع فيما يقوله أمامى.. عندما تضطرب الأحوال، تتضاعف عنده الشكوك..

لم أرد على سؤاله، فأعاده على..

«ما رأيك.؟»

قطبت جبينى كأننى أفكر فى عمق..

«لماذا لا تذهب اليهم وتناقش الأمر معهم فى هدوء.؟»

«أنا أذهب اليهم؟!.. هل أنت مجنون.. سيظنون أنى خائف منهم.. لا.. لا يمكن.. إذا أرادوا مناقشتى ليحضروا هم إلى هنا.. اقصد مندوبهم..»

ابتسمت.. يشبهون بعضهم.. غرور الجهل.. التحدث مع المندوبين، تدعيم لوحدة الصف.. وإنما فى الاجتماع العام هناك احتمال لأن يشذ بعضهم.. ربما يفضل أن يلعب لعبة الانتظار، أو أن يعتمد على جهود عملائه المندسين بين العمال.. أحسست فجأة بالضيق.. ما الذى يجعلنى أقوم بدور الناصح؟..

نظر إلى طويلا... انفاسه تتردد بسرعة كأنه يجد صعوبة فى استنشاق الهواء.

«أريد منك أن تذهب اليهم لتستكشف الحالة وتعود..»

ما الذى يرمى اليه من وراء هذا الاقتراح.. اقلب الموضوع فى رأسى. اشعر بالحيرة.. ربما ابحث عن اغوار لتفكيره ليست لها وجود. يريد فقط أن أنقل اليه وصفا لما يدور فى عنابر المصنع.. لا يحتاج إلى أكثر من هذا.. ادرك أنه فوجىء بالاضراب اليوم.. لم يكن يتوقع حدوثه بهذه السرعة.. يرفع سماعة التليفون، ويدير القرص..

«آلو... إدارة السلام الاجتماعى.. اعطنى العقيد «عادل مشهور».. أنا «عبد العزيز القبانى» رئيس مجلس إدارة «شركة طيبة للأدوية».. ينظر إلى ويقول:

«اذهب أنت، وعد بعد أن تكون قد أكملت المرور»..

ربما يظن أننى سأخبرهم بهذا الاتصال.. ما زالت علاقتى «بسعيد» عالقة بذهنه.. هبطت الدرجات، واجتزت الحوش.. فى العنابر وجدت العمال والعاملات يفترشون الأرض أو يجلسون على المقاعد القليلة، ويتحدثون فى هدوء، بين الحين والآخر ترتفع ضحكة مكتومة سرعان ما تموت، كأن صاحبها يحس أن الموقف لا يحتمل الضحك... عند الأبواب، وحول المبانى، وفى بعض المواقع داخل الاقسام، عدد من الشبان يقومون بالحراسة.. جميع الأنوار مطفأة، والآلات ساكنة لا تتحرك. أدركت أنهم رفعوا سكين الكهرباء... الضوء الذى يتسرب من النوافذ ضعيف.. الأصوات الهامسة، ونصف الظلام، وملابس العمل البيضاء تضفى جوا من الرهبة... أحس بالناس فى العنابر وكأنهم أشباح... بأن الموقف ملىء بالاحتمالات.. أعدوا فرقا للأطفاء مكونة من ثلاثة أو أربعة من العمال والعاملات.. لاحظت أن موظفى الإدارة انضموا إلى الآخرين فى العنابر.. مررت على كل الاقسام، وقرب نهاية المرور وجدتهم يفرشون الجرائد على الأرض، ويضعون عليها المأكولات، ثم وزعوا أنفسهم فى مجموعات صغيرة، وأخذوا يتناولون طعام الغذاء.. ظل الحراس واقفين إلى أن انتهوا من الأكل... بحثت عن «سعيد» فى كل مكان ولكنى لم أجده... ترى ماذا يفعل الآن؟ لا بد أنهم كونوا نوعا من أركان الحرب... الهدوء، والتنظيم الدقيق يدل على ذلك... تفاديت أن أسأل عنه.. ولكنى حرصت على التحدث مع البعض وسؤالهم عن أسباب ودوافع هذه الحركة فوجدتهم يتعاملون معى دون أن يظهروا أى عداء أو ضيق، كأنهم بعد أن قرروا الدخول فى المعركة أحسوا أن أهم شىء هو المحافظة على الهدوء، والنظام.. أدركت من طريقتهم فى التصرف، ومن الاجابات أن اللجنة بذلت جهدا كبيرا فى الإعداد للاضراب..

كانت الساعة قد قاربت على موعد الانصراف عندما عدت إلى حجرة الرئيس.. وجدته جالسا خلف مكتبه، وأمامه المدير الإدارى، ورئيس وحدة الأمن، ورجل يرتدى ملابس مدنية، أحسست من النظارة السوداء، واختياره الكلمات أنه

ضابط.. قدمنى اليه قائلا.. «حضرة العقيد «عادل مشهور».. «الأستاذ خليل منصور»» جلست.. طلب منى أن أصف بالتفصيل ما رأيته فى العنابر.. الضابط يحملق فى وجهى من خلف النظارة السوداء... ظل صامتا لا يعلق بشىء ثم قال فجأة:

«لا بد من الضرب فى الرأس.. عندئذ سينتهى كل شىء.. أليس، كذلك يا أستاذ «خليل»؟..

يتعمد توجيه السؤال الىّ أنا بالذات.. لا بد أن لهذا التصرف مغزى.. على أقل تقدير يعرف من أنا..

«لم أفهم ما تقصد بالضبط..»

«أقصد أن نطيح بالقيادة فيصبح الجسم فاقد القدرة على الحركة»

صمتت.. أشار إلى الرئيس وعندما اقتربت قادنى إلى جوار النافذة العريضة المطلة على مدخل الشركة.. أحسست بقلبى ينبض.. صفوف وراء صفوف من الشرطة على رؤوسهم الخوذات.. فى أيديهم مطارق من المطاط، ودروع.. كالنمل الأصفر زحف على الشارع، والحقول، وحول الأسوار، إلى أن غطى كل شىء... كأسراب الجراد سقطت من السماء... لمحت سيارتين كبيرتين لونهما أزرق تقفان على بعد قليل، وقد ارتفع من سقفهما عامود اللاسلكى الطويل.. وخلف صفوف العسكر مصفحتان لونهما رمادى.. من ثنايا الصلب المدرع يطل مدفع صغير.. كم من المرات نظرت من هذه النافذة على الحقول الخضراء، الآن انقلبت إلى ميدان يعد للقتال.

فى الساعة الثالثة والنصف دلفت من باب جانبى تركوه مفتوحا لدخول وخروج رؤساء الإدارات، والاقسام، ورجال الأمن والضباط.. مررت على «أمينة» فوجدتها سبقتنى إلى البيت.. أسرعت الخطا على الطريق حتى لا أتأخر.. فى الأيام الأخيرة ظهرت عليها علامات التعب.. لا بد أنه الحمل، وفصل الصيف..

الجو هذه السنة شديد الحرارة... وجدتها راقدة على ظهرها فى حجرة النوم، تئن بصوت خافت.. أمسكت بيدها، وسألتها عن سبب الأنين.. أخبرتنى أن آلاما شديدة أخذت تمتد من ظهرها حتى أسفل البطن.. وجهها شاحب وعلى الجبهة حبات صغيرة من العرق... ترفع جسمها من السرير ثم تتركه يسقط عندما يتوقف الألم.. قلت لها أنه ربما يكون الطلق فهزت رأسها بالايجاب، وفجأة صرخت.. قلت لها «سأبحث عن سيارة تنقلك إلى المستشفى»... خرجت من باب البيت. وأخذت أعدو بأقصى سرعة فى إتجاه المحطة.. هناك وجدت سيارة أجرة تنتظر... كان السائق يستمع إلى الراديو، ويحملق أمامه فى ملل.. عدت بالسيارة إلى المنزل... ارتدت «أمينة» جلبابا واسعا، وصندلا، وأعدت حقيبة وضعت فيها بعض الملابس، والأدوات، والصابون، واللفائف، والثياب الخاصة التى أعدتها للطفل.. ركبنا السيارة، وانطلقنا إلى مستشفى العجوزة.. وفى الساعة الثانية صباحا من يوم ٢٥ سبتمبر سنة ١٩٧٩ ولد طفل ذكر سميناه «عصام».

تغيبت عن العمل لمدة أسبوع.. أرسلت خطابا مسجلا إلى رئيس مجلس الإدارة أخبره فيه بأننى رزقت بطفلى الأول، وأن زوجتى ما زالت فى المستشفى لأنها أصيبت ببعض المضاعفات بعد الولادة، وطلبت اجازة لمدة اسبوع.. ظلت «أمينة» فى المستشفى مدة تجاوزت الخمسة عشر يوما... فقد أصيبت بحمى النفاس، ولم تعد إلى حالتها الطبيعة إلا بعد أن تناولت كمية كبيرة من المضادات الحيوية.. أحسست أننى لا أستطيع أن أتركها وحدها، فلا يوجد أحد من أسرتها يمكن أن يرعاها، ولم أطمئن إلى الرعاية التى ستلقاها فى المستشفى، فقضيت المدة كلها معها.. ربما فى قرارة نفسى كنت مستريحا لهذا الغياب الاجبارى عن الشركة اثناء فترة الاضراب.. وضعوا لى سريرا فى نفس الحجرة... اقضى اغلب الليل إلى جوارها حتى تنام، ثم أخرج إلى الشرفة لأدخن سيجارة، وأفكر فيما جرى، وأتذكر أن هناك فى «حلوان» ضرب الحصار حول المصنع... أقرأ عناوين

الصحف، واستمع إلى إذاعة الأخبار على أمل أن التقط شيئا عن الاعتصام... ولكن الموضوع احيط بالكتمان.. حاولت الاتصال بالإدارة فى «حلوان»، ولكن باءت كل محاولاتى بالفشل.. ارسلت خطابا مسجلا ثانيا قبل انقضاء الاسبوع اطلب فيه مد الاجازة عشرة أيام.. قلت لنفسى أننى سأسوى المسائل عندما أعود... على أية حال لا يعلم أحد متى تستقر الأمور.. كانت تنتابنى موجات من القلق على «سعيد» والاخرين، وعلى الأحوال عموما، وما عسى أن يحدث لنا جميعا.. فكرت أن أذهب فى زيارة سريعة للشركة، ولكن فى نفس اليوم أصيبت «أمينة» بارتفاع شديد فى درجة الحرارة، وأخذت تنتفض.. كدت أن أنهار من الفزع، وقررت ألا أتركها لحظة.. أنظر إلى وجهها الناحل الأبيض، وأقول لنفسى أنها أغلى إنسان فى الوجود.. أما «عصام» فلم أتنبه اليه طوال هذه الفترة ولم أشعر أننى رزقت طفلا إلا يوم أن خطونا فوق عتبة البيت، وفتحنا النوافذ فى حجرة المعيشة.. وضعته «أمينة» على «الكنبة»، ولمحته ينظر الىّ فى تساؤل.. عيناه المفتوحتان تشبهان عينى «أمينة»، ويده الملتفة فى اصرار حول أصبعى نموذج مصغر من يدى..

مرت ثلاثة أيام.. وفى اليوم الرابع دق جرس الباب حوالى الساعة الحادية عشرة صباحا.. كنت أحمل «عصام» على ذراعى وأتأهب لوضعه على السرير الهزاز، فوضعته على «الكنبة»، وفتحت الباب.. ساعى البريد يبتسم ويقول:

«صباح الخير.. خطاب مسجل يا بك..»

اعطيته عشرين قرشا، ووقعت بالاستلام.. شىء كالغاز البارد يتسرب من خزان صنبوره مدفون فى الاعماق منذ سنين... أعرف هذا الاحساس منذ أن جاءوا الىّ أول مرة.. فتحت المظروف وقرأت:

«السيد الأستاذ «خليل منصور خليل» مدير إدارة الأبحاث.

تحية طيبة وبعد،،

نفيد سيادتكم علما أنه نظرا لغيابكم بدون أذن سابق مدة تزيد عن خمسة عشرة يوما فقد صدق مجلس إدارة الشركة على قرار بفصلكم من الشركة فى جلسته المنعقدة يوم ١١ أكتوبر سنة ١٩٧٩

نرجو أن تتوجهوا فور استلامكم هذا الخطاب الى مقر الشركة لاتخاذ الإجراءات اللازمة لاخلاء طرفكم واجراء التسويات المطلوبة فى حالتكم..

وتفضلوا بقبول فائق الأحترام..

امضاء.

«مختار حسين»

المدير الإدارى بالشركة..»

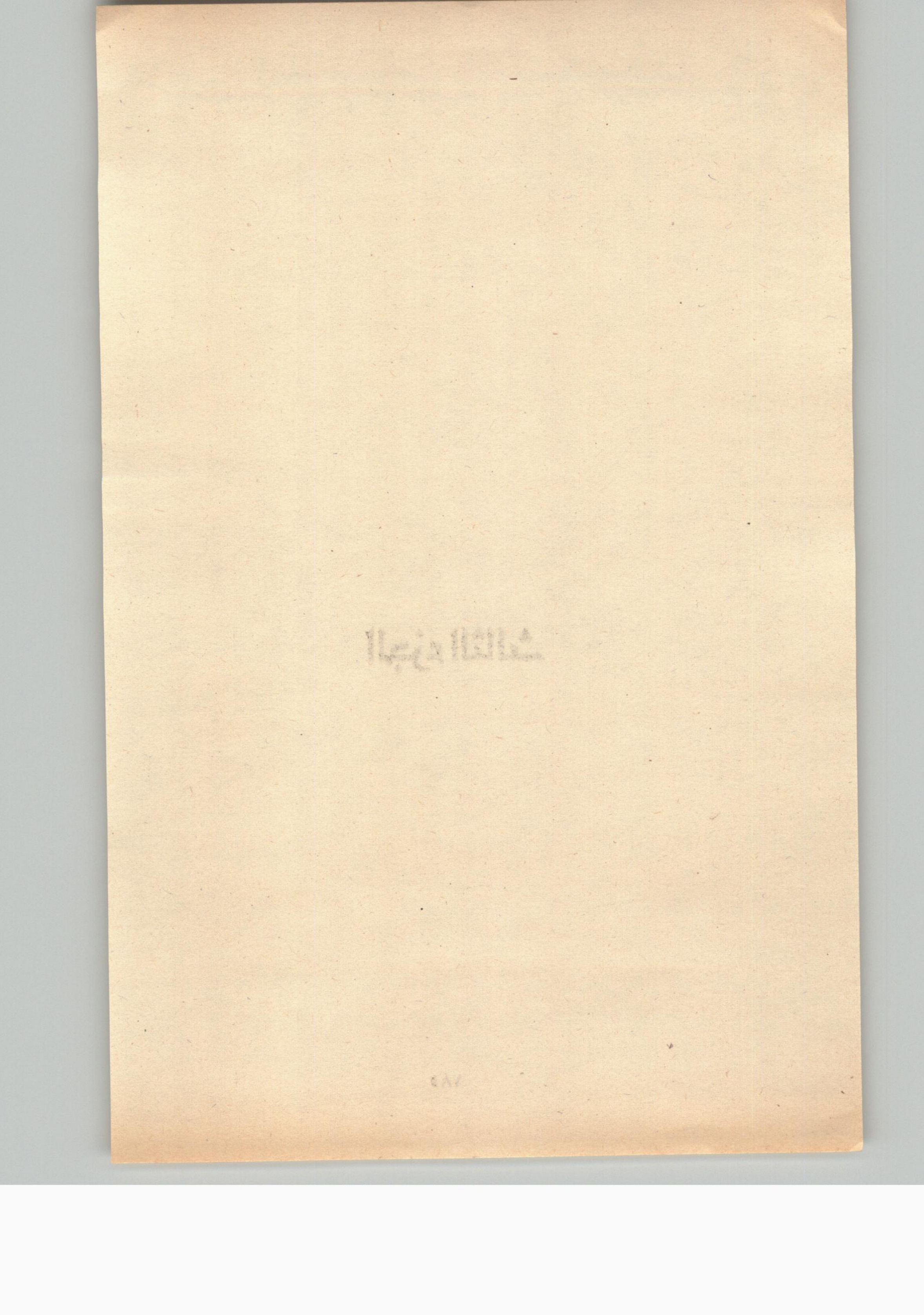
صادر بتاريخ ١٢ أكتوبر سنة ١٩٧٩

رقم ١٧١٢/ ١٢/ ١٠/ ٧٩

***



الجزء الثالث



يوم الجمعة الساعة الثامنة مساء.. خرجت من المقهى بعد أن انتهينا من المداولات... غدا يبدأ الاضراب فى الساعة الثانية عشرة إلا ربعا.. امشى فوق الرصيف ببطء، واتأمل الناس.. كل شىء يسير كالمعتاد.. صبى صغير يجلس على الأرض منكبا على علبة فيها اعقاب سجائر ومشط كبريت... رفع عينيه فى فزع عندما أحس بخطواتى تقترب منه.. واجهات المحلات المضاءة تعرض قمصان الصيف الملونة، والجلاليب... والجزار يرتدى فوطة بيضاء ويقطع فخذ «كندوز» بسكينه الحاد.. يلقى بالقطع على الميزان، ويلفها فى ورق الصحف تتبعه عيون الزبائن فى قلق وهو يضيف قطع الدهن، والشغث، والعظم.. تضاعفت قدرتى على التقاط الاشياء.. أرى، وأسمع بدقة لم أعهدها من قبل.. كأن المعركة القادمة جعلتنى ارهف الحس.. اتلقى كل الذبذبات الكونية، والاشارات، وأسبح بشفافية غريبة فى نسيم المساء.. أحيا بكل طاقاتى كمن يمشى على شفا هوة، فيشحذ كل قدراته للنجاة، أو يقترب من الموت فيشعر بقيمة اصغر وأدق الاشياء فى الحياة.. ترى غدا فى مثل هذا الوقت من اليوم ماذا سيكون الوضع؟..

اسرع الخطوة. لا بد أن أمر على الاتحاد لاطمئن على كل الترتيبات التى اتفق عليها.. لا ينبغى ترك أى شىء للصدف، أو لاحتمالات النسيان.. كل خطوة لا بد أن يعمل حسابها. ومع ذلك كم من الاشياء ستبقى فى علم الغيب!! فالإنسان

عندما يتحرك، ويثور هل يمكن أن يعرف بالتأكيد كيف سيتصرف، وماذا سيدور؟ عشرات العوامل المنظورة، وغير المنظورة تتلاطم حوله، تعلو أو تخبو فى أتون المعركة، تتبدل، أو تولد، أو تموت.. تتفاعل وتعطى حصيلة عامة متغيرة على الدوام.. ولذلك مهما كان التخطيط والتنظيم تبقى هذه الأشياء المجهولة المرتبطة بمجموع الرجال والنساء، بالاصدقاء والاعداء التى يصعب تقديرها بالضبط. هذا هو ما يثير القلق.. أمشى فى الشارع بذهن مشغول.. أراجع مرة واثنتين، وثلاثة وعشرات المرات كل الخطوات.. أحس بعقلى وقد انقسم إلى جزئين.. جزء يعمل كالآلة الدقيقة تدور تروسه بانتظام، وتطبع على الورق الابيض خطوط المعركة محسوبة بكسور لا تزيد عن الواحد فى الألف.. وجزء يحيا فى عيون الناس، ونسيم الليل اتلقاه فى وجهى، وصدرى.. وضحكات أسمعها وأنا أمد ساقى فوق الرصيف، وعصير القصب الفوار فى الأكواب، وثمر الهند.. وكل الأشياء التى تذكرنى بأن الحياة تتدفق بقوة فى شوارع المدينة، وفى شرايين الجسم..

صعدت سلالم المبنى القديم تضيئها لمبة وحيدة غطاها التراب، وفضلات الذباب.. أمر فى صمت أمام أحد العمال اسند رأسه على مكتب الاستقبال، ونام.. اتوجه للحجرة الداخلية.. على مقعد من القماش الملون جلست عاملة ترتدى عفريتة... وخلف المكتب انكمش رئيس الاتحاد بجسمه العجوز.. رجل أشيب الشعر تطل عيناه الضيقتان من بين تجاعيد حفرها الزمن بصبر طويل كنسيج العنكبوت.. قال فى شىء من القلق..

«أهلا يا «سعيد»... أين كنت؟ أعرفك «بعلية» ابنتى..» ثم مشيرا إلى ««سعيد أبو كرم»... رئيس اللجنة النقابية فى «شركة طيبة للأدوية»»..

جلست على مقعد من الخيزران وضع فى الركن وقلت

«كنت فى الاجتماع»..

سكت برهة كأنه لا يستعجل الأمور ثم سأل..

«وما الذى وصلتم اليه..؟»

«قررنا الاضراب عن العمل ابتداء من الساعة الثانية عشرة إلا ربعا باكر..»

الأنفاس فى الحجرة توقفت لحظة ثم تلاها صوت نفس واحد طويل وعميق.. الوجه العجوز ثابت، جامد كالخشب المحفور.. إذن جاء الوقت.. معركة كالقبضة المرفوعة فى تحدى.. كالبصقة فى وجه النظام.. كالنذير ينبىء بالعاصفة تتجمع فى الأفق.. يطل من النافذة على الحوارى الكئيبة لا يضيئها سوى مصباح ضعيف، والبيوت القديمة ظلالها تقف فى أعياء مسنود..

«طبعنا بيان التأييد باسم الاتحاد.. غدا سيوزع فى الميعاد على المصانع من «الإسكندرية» إلى «أسوان»..»

«فقط؟»

«وإذا حدث اعتداء على المضربين أو محاولة لاخلاء المصنع بالقوة سنعلن الاضراب العام فى مصانع الأدوية، والكيماويات لمدة يوم وهذا مكتوب فى البيان..» يشير إلى رزمة ملفوفة لونها بنى وضعت على ظهر الدولاب،، «هذه اللفة بها مائتى منشور للتوزيع عندكم فى المصنع».. وقف. «حذارى من التخريب.. شددوا الحراسة، وضاعفوا فرق الاطفاء.. أتريد شيئا آخر..؟»

«لا..»

«إذن حظ سعيد.. وإلى اللقاء.. الله معكم يا زميل.»

شد على يدى بقوة.. أمسك بها لحظة طويلة بين أصابعه الصلبة ثم تركها.. الفتاة تنظر فى وجهى بثبات.. العينان والرموش جميلة. لو كان لى رفيقة فى الحياة.!

«أنا أمينة الإنتاج فى اللجنة النقابية بمصنع «أبى زعبل للكيماويات».. لن تكونوا وحدكم. كونوا متأكدين من هذا.»

أشكركما.. انشاء الله نلتقى بعد الاضراب..»

هبطت السلم الحلزونى الضيق.. أعرف كل درجة من درجاته.. المتآكلة، والمكسورة، والآيلة للسقوط.. أخرج إلى الحارة، واستنشق الهواء.. أشعر بالوحدة.. فى ليلة كهذه كيف يمكن أن أنام.. احتاج إلى من اتحدث معه حتى الصباح.. ترى ماذا يفعل «خليل» الآن..؟ كان يمكن أن أمر عليه، وأن أقضى الليلة معه، هو، و «أمينة».. سيرحبان بى كما كان يفعلان دائما. ولكنى اتردد.. علاقاتنا لم تعد كما كانت من قبل.. اصابها شرخ بسيط لا بد أن يأخذ وقته ليلتئم.. سأعود إلى حجرتى فى «البساتين»، إلى الجدران العارية، والاريكة الخشبية، وسرير من السلك.. لا بأس.. لكل حياة مسارها الخاص.، ومنطق يحكمها. مسألة اختيار.. المهم هو الغد.. ارفع كتفى ورأسى فالمح نجمة الشمال تبرق واضحة فى الليل.. لا بد أن أنام ساعة أو ساعتين.. ترى هل عمل ترتيب وجبات الطعام..؟

فى الصباح جلست على مكتبى كالمعتاد أعد سجلات إنتاج العاملين فى القسم.. كل شىء هادى، وعلى السطح لا ألاحظ أى تغيير، ما عدا نظرة فيها تساؤل، أو قلق يلقيها، ناحيتى أحد العاملين.. أو ربما يهيأ الىّ هذا.. انظر إلى ساعتى أكثر من المعتاد.. أتنبه إلى أننى أهز قدمى بحركة لا ارادية، أوقفها فى الحال.. أذهب إلى دورة المياه عدة مرات.. جسمى يطلب الحركة ويضيق من جلستى خلف المكتب.. ولكننا اتفقنا ألا أترك مكانى حتى يسهل الاتصال بى فى أية لحظة.. عقارب الساعة تزحف كالنمل البطىء.. كأن الساعة الواحدة انقسمت إلى ألف دقيقة.. مندوب العنبر يطل من النافذة على فترات منتظمة، والأصابع تلمس المكن كالفراشات القلقة.. عقلى يقفز هنا، وهناك.. يلتقط

شذرات من الماضى، والحاضر، ويضيع فى المتاهات.. أجرى على شاطىء النيل وأنا طفل صغير.. القدم سمراء.، وبطنها أبيض.. أسبح فى المياه الرطبة، المنعشة، وأقضم بأسنانى على البلح الأحمر.. أجلس فى المساء إلى جوار أمى تمد إلى يدها بالجبن، والخبز المقدد.. حول ذراعيها تشخشخ الغوايش الملونة بصوتها الأليف تقطع صمت الجبل الموحش.. أتنبه فجأة إلى «مصطفى رمضان» يقترب ويهمس: «عملت الترتيبات الخاصة بالمطبخ».. أعود إلى الصور تدور فى ذهنى دون توقف.. وجه رئيس الاتحاد حفره الزمن بصبر لا ينفذ.. حكى لى أشياءً سمعتها منه لأول مرة.. عندما نزح إلى «المحلة» سنة ١٩٣٣ كانوا ينامون ثمانية من العمال على الأرض فى حجرة واحدة، فلا تفصل بين أجسامهم أية مسافة.. عندما ينصرفون فى الصباح يحل محلهم آخرون من وردية الليل.. يتناوبون أسبوعا بعد أسبوع والوردية تمتد اثنتى عشرة ساعة.. فى الطريق إلى العمل يشربون «قرعة من البوظة» وفى المساء عند العودة من المصنع.. قضى جزءا من حياته يغطس فى المجارى.. جسمه يتجمد من البرد، وعلى جلده يتراكم غطاء الفضلات الأسمر.. مهما اغتسل بالصابون واللوف يحمل رائحتها فى كل مكان.. عندما يدخل على الناس يحس بالأنوف تتذبذب وبالجفون تطرف.. تعلم القراءة والكتابة عندما ذهبت ابنته «علية» إلى المدرسة، فأخذ يجلس معها فى المساء، ويقرأ.. ترى ماذا سيحدث اليوم إذا أحاطونا بالعسكر..؟ ربما جن جنونهم، وحدثت مذبحة، وستتحمل أنت مغبة هذا وحدك.. إذا نجح الاضراب سيرفعونك فوق الرؤوس، وسيحيون فيك البطل المنتصر.. وإذا فشل ستزوغ منك العيون، ويهبط عليهم الصمت كلما مررت بين المكن.. هذا إذا أبقوا عليك فى المصنع.. فى مثل هذه الأوقات أقول لنفسى.. الحمد لله.. لا زوجة.. ولا أطفال.. فالعيون الجائعة كانت ستقصف ظهرك..

الثانى عشر إلا سبعة عشرة دقيقة.. أسمع همهمة، وأرى يد مندوب العنبر

ترتفع.. فجأة يتوقف المكن، ويسود الصمت الرهيب كأن العالم انتهى، ثم تنطلق الكلمات المرتجفة من هنا وهناك ترفرف كالأجنحة المضطربة فى الهواء.. يقف المندوب بقدميه على المقعد، ويرفع فوق رأسه منديلا مخططا أبيض وأحمر.. يتجمعون حوله ويحملقون نحوه فى أنصات.. مرة أخرى تموت الكلمات فى العنبر الممتد.. يقول: «أيها الزملاء والزميلات.. لقد بدأ الاضراب منذ هذه اللحظة.. كل الأخبار، والتعليمات ستصدر عنى أنا بصفتى مندوب العنبر.. لا تستمعوا إلى أحد سواى.. حافظوا على المكن، واقبضوا فورا على من يحاول المساس بها، أو اثارة الفوضى، أو الضوضاء..تفادوا المعارك، وافعلوا كل شىء فى هدوء ونظام.. أعددنا ما يلزم لتوفير وجبات خفيفة، وشاى إلى أن يتضح الموقف.. كونا فرق للحراسة والاطفاء، وإذا طلبوا منكم أية مساعدة قدموها فورا.. ولكن باقى التكليفات تلقوها منى مباشرة.. إذا حدث شىء سيحل مكانى زميل آخر هو «عوض المليجى..»

أدور بعينى حول العنبر.. كل شىء هادىء، منظم.. قلبى يدق.. بدأت المعركة.. أشعر بالارتياح.. الآن لا مجال للتردد.. المسألة حسمت، ولن نستطيع بعد الآن أن ننظر وراءنا.. دخلنا فى مرحلة جديدة، فى المستقبل.. عدت إلى مكتبى.. فتحت كتابا، وأخذت أقرأ.. بعد ساعة تقريبا جاءنى «مصطفى رمضان» يلهث.. وجهه فيه شحوب، ونظراته تتذبذب.. يبذل جهدا كبيرا حتى يبدو هادىء المظهر.. قال فى صوت منخفض.. «هيا بنا نصعد على السطح.. سنستخدم السلالم لأن السكينة مرفوعة، والمصعد معطل».. امسك بذراعى، وسرنا فى إتجاه الباب الرئيسى للعنبر.. خرجنا فجأة تحت أشعات الشمس القوية، فوضعت يدى على جبهتى لأحمى عينى.. بعد لحظة أصبحت قادرا على الرؤية.. بحثت عن الحقول الخضراء الممتدة حول المصنع.. كأنها تراجعت إلى الخلف، وبدلا منها رأيت صفوفا متراصة من العسكر.. الثياب الصفراء، والخوذات المغلقة على

الرأس، والوجه.. العصى قصيرة مستديرة لم أتبين نوعها على هذه المسافة.. حول الكتلة الأساسية حلقة خارجية من العسكر يحملون البنادق الأتوماتيكية، ثبتت فيها السناكى فلمع سلاحها الأبيض فى الشمس.. وفى الخلف مدرعتان تطل منهما ماسورة قصيرة.. وسيارتان كبيرتان يرتفع منهما شىء كالابرة الطويلة.. اللاسلكى.. والمدفع.. ترى هل هى مظاهرة تهديد، أم استعداد للقتل..؟ لا أحد يستطيع أن يعرف الآن.. سيخفون خططهم حتى آخر لحظة..

هبطنا من جديد إلى العنبر.. قال لى المندوب.. «الأستاذ «خليل» كان يمر قبل أن تعودا بدقائق».. ما الذى جاء به إلى هنا؟.. على أية حال حتى لو كنت موجودا لما استطعنا أن نتحدث. أصبحنا الآن وكأن كل منا فى معسكر.. لا بد أن أمر على باقى الأقسام حتى أتفقد الموقف.. لا أتوقع أية مشاكل الآن فما زلنا فى البداية.. عدونا الرئيسى هو الوقت.. فالوقت عندما يطول، يزحف الوهن، والشك.. أعددنا كل شىء.. الطعام، والمياه، وحتى برامج الترفيه.. أعددنا كل شىء للحصار، ولكنهم ربما استخدموا الغازات لاخلاء المصنع.. المهم أن نتفادى أى نوع من الاشتباك.. فإذا تحول الاعتصام إلى معركة ربما افلتت المسائل من تحت سيطرتنا. وإذا خف الاتحاد إلى مساعدتنا فى الوقت المناسب ربما أنقذنا الموقف.. لا نستطيع أن نواجه عنف الدولة وحدنا.. هذه مسألة أكيدة ناقشناها.. أخشى ما أخشاه أن يتردد الاتحاد فى آخر لحظة.. منذ مدة طويلة وهو واقع تحت تأثير السلطة.. أغلب عناصره نجحت نتيجة التدخل السافر من قبل الإجهزة الإدارية.. فى الأشهر الأخيرة تزايد السخط.. الأسعار تقفز بجنون، والزيادات فى الأجور هزيلة. يتحكمون فى الوضع بالحصار المضروب حول أبسط الحريات..

أرفع رأسى عن الكتاب.. أرى الوجوه بعضها يبتسم فى اطمئنان، ويظهر الهدوء، وبعضها يبدو عليها الاضطراب.. أشعر بتيار مشحون يبرق فى العيون، أو يظهر فى حركة اليد، أو فى نبرة عصبية تتخلل الصوت، أو ملامح تبدو

مشدودة فى الضوء المنحدر من النوافذ العالية.. بعض النساء يبدين أكثر ثباتا من الرجال، ربما لأن أزواجهن يعملون، أو لأنهن لم يتعرضن لتجربة الاضراب من قبل..

توجهت إلى الحجرة التى حددناها لعقد اجتماعات اللجنة.. هناك وجدت «حسن عيد» و «على الشرقاوى» منتظران.. وبعد قليل جاء الباقون.. نعرف أن بيننا اثنان من عملاء الإدارة والأمن.. لذلك قررنا ألا نناقش كل الموضوعات فى وجودهما.. هناك أشياء حيوية يجب أن يظل سرها محفوظا مثل الخطط البديلة، ووسائل الاتصال بالاتحاد، وفيما بيننا، خصوصا إذا قبض على أحد منا.. فاكتفينا بمراجعة الترتيبات الخاصة بتوزيع الطعام من المطبخ، وبرامج الترفيه، وأعمال فرق الحراسة واطفاء الحريق..

عدت إلى مكانى فى العنبر.. جلسنا فى حلقة على الأرض، وأخذنا نتبادل أطراف الحديث.. كان التوجيه المتفق عليه هو ألا نمس موضوع الاضراب إلا إذا حدث تطور جديد يستوجب المناقشة، والرجوع إلى العاملين.. سار الكلام بيننا بشكل طبيعى.. كل واحد منا يحكى عن نفسه ما شاء من الذكريات.. وسيلة للتقرب بين إناس يظلون متجاورين سنين طويلة دون أن يعرفوا عن بعضهم سوى القليل.. وبينما نحن منهمكين فى الحديث، ظهر أحد رجال وحدة الأمن فى فتحة الباب.. يرتدى قميصا مخططا، «وبنطلون جينز».. وقف يشاهد ما يدور، وعندما لمحنى أنظر اليه، اقترب من الحلقة الجالسة على الأرض وقال بصوت عال:

«الرئيس يريدك فى الإدارة يا «سعيد»..»

تجاهلته، وظللت جالسا حيث أنا أتابع إحدى الفتيات وهى تحكى كيف نزحت أسرتها من قريتهم فى «المنوفية» إلى «شبين الكوم».. ثم من «شبين» إلى القاهرة».. وقف مترددا ثم أعاد الكرة بصوت خفضه قليلا، فتلفت اليه، وقلت..

«أولا من المفروض أن تحيى الناس الموجودين.. ثانيا أن تستأذنهم قبل أن تقطع عليهم الحديث.. ثالثا عندما تخاطبنى لا تقول لى يا «سعيد».. هذا إذا أردت أن أذهب معك للقاء الرئيس»..

حملق فى بغيظ، فانصرفت عنه إلى الآخرين، وقلت:

«يا «نجوى».. أكملى ما كنت تحكينه لنا..»

رأيت الراحة فى الملامح ونوعا ما من الهدوء.. لا بد أن الموقف مطمئن حتى أتعامل مع الرجل هكذا.. سمعته يتنحنح ويقول:

«السلام عليكم.. أستسمحكم دقيقة»

«توقفت «نجوى» عن الكلام.. التفتت اليه وأجبت:

«عليكم السلام، ورحمة الله وبركاته.. تفضل اجلس..»

قال:

«لا شكرا.. يا أستاذ «سعيد.. الرئيس يريدك فى المكتب..»

قمت.. أشرت إلى مندوب العنبر فقام بدوره.. انتحينا جانبا وهمست فى أذنه..

«يا «أحمد».. إذا لم أعد بعد ساعتين على أكثر تقدير، أبعث بهذه الورقة إلى «مصطفى رمضان».. لا تترك أنت مكانك هنا..»

رمقنى بنظرة سريعة قلقة ثم قال:

«حاضر..»

أشرت إلى رجل الأمن، سرنا حتى باب العنبر.. هبطنا الدرجات، واجتزنا الحوش الصامت الخالى من الناس.. رأيت قرص الشمس يميل نحو الجدار العالى..

عند كل زاوية من المبنى الكبير فرقة حراسة من ثلاث.. واحد منهم يقف والاثنان الآخران يفترشان الأرض.. دخلنا من الباب الخلفى للإدارة.. صعدنا السلم، وسرنا حتى باب حجرة الرئيس.. رأيت رجلا يقف على بعد خطوات.. لم يلتفت الينا عندما اقتربنا كأنه سارح فى شىء.. لمحت الشعر الطويل، وبنطالا من القطيفة داكن اللون.. يشبه الشبان الذين يتسكعون على أبواب بيوت الليل.. مخبر من الأجيال الحديثة.. نقرت على الباب وفتحته دون أن أنتظر صوتا يرد.. جمع صغير من الرجال استغرقوا فى الحديث.. توقفوا عندما دخلت.. الرئيس يجلس على الكنبة، وإلى جواره رجل يرتدى قيصا مزركشا وبنطالا.. تبدو قامته طويلة.. حليق الوجه، وعلى عينيه نظارة سوداء أضفت على ملامحه برودا قاسيا.. صوت داخلى يهمس.. ضابط السلام الاجتماعى من منطقة «حلوان» فى الغالب، أو ربما من الوزارة.. كانا يواجهان رجلا آخر سقط بجسمه الضئيل فى المقعد الكبير.. الرأس أصلع ما عدا شعيرات قليلة سوداء حول الأذنين.. الوجه أبيض يلفت النظر بملامحه المريضة تبدو كأنها تعانى من ألم دائم.. وعلى الفم الغليظ شارب رفيع كأنه مرسوم بالكحل.. يرتدى بذة صيفية لونها بنى داكن.. وعلى بعد قليل كأنه انتحى جانبا من باب الأدب جلس المدير الإدارى فى هندامة الأنيق.. العيون تفحصنى.. تدور حولى بطريقة ظاهرة، أو مستترة.. تستوعب التفاصيل بصراحة، أو من طرف خفى.. حتى العيون التى تعرفنى تنظر الىّ كأننى حيوان من نوع جديد تراه لأول مرة.. فأنا رمز للقوى الناهضة التى تهدد السلطة والمغانم.. وهذه القوى تثير الفضول وتحتاج إلى دراسة.. وقفت صامتا أنتظر.. قال الرئيس:

«يا «سعيد».. أعرفك بالسيد «لطفى السبع» نائب وزير شئون الأمن القومى.. مشيرا إلى الرجل ذى الوجه الأبيض الجالس على المقعد.. والعقيد «عادل مشهور» مدير إدارة السلام الاجتماعى «بحلوان».. ربما تعرفه من

قبل..؟»

«لا.. لم أتشرف بعد..»

ساد الصمت كأنهم لم يتوقعوا هذا الرد.. ألقى الرئيس ناحيتى بتقطيبة سريعة..

««سعيد أبو كرم».. رئيس اللجنة النقابية بالشركة.. توقف لحظة، ثم أكمل..

«نريد أن نناقش معك موضوع الاضراب..»

انتظرت حتى يستمر فى كلامه.. لم يطلب منى أحد أن أجلس.. بالطبع.. يجب ألا أغضب.. أن أركز على المهم.. ربما يكون الوقوف أفضل.. أطل عليهم من أعلى..

«سيادة نائب وزير شئون الأمن القومى جاء بنفسه للتحقق من الموقف، وليفهم وجهة نظر العاملين فى الشركة.. يريد أن يعرف أولا لماذا لجأتم هكذا مرة واحدة للاضراب دون سابق انذار، ودون أن تناقشوا الموضوع مع الجهات المختصة فى الشركة..؟»

وقفت لحظة أفكر، ثم بصوت يرتعش قليلا من الانفعال قلت:

«من المعروف أن موضوع تحويل جزء من القطاع العام إلى شركات استثمار مسار خلاف منذ زمن بين عدد كبير من الهيئات وكبار الرأسماليين فى الدولة، والسلطة الممثلة لهم.. وقد أدان الاتحاد العام للعاملين الصناعيين والزراعيين هذا الاتجاه فى مؤتمره الأخير.. كما أدانه عدد كبير من رجال البنوك والصناعة، وهاجمه مؤتمر الاقتصاديين.. ورغم أنه يهدد مصالح الشعب، وعلى الأخص العمال، ويهدد كيان الصناعة نفسها فما زالت تبذل محاولات للسير فى هذا الإتجاه..»

أحسست أننى تكلمت كأننى ألقى خطبة.. لا بد أن أعود إلى حالتى العادية

بسرعة.. يجلسون فى صمت.. أرى شفتى نائب وزير شئون الأمن القومى تتلويان فى ازدراء.. لا يعجبه هذا الكلام خصوصا حينما يصدر من عامل مثلى مفروض أن يقف أمام الآلة مغمض العينين، صامت.. ولدت لكى أعمل، واحتقر فى نفس الوقت..

«أنا لم أطلب منك خطبة طويلة عن الأوضاع فى البلد.. أنا أناقشك عن أمور تتعلق بالشركة وحدها..»

يبدو أنهم اتفقوا أن يدير هو المناقشة وحده.. فهو يعرفنى، واحتمال الزلل بالنسبة اليه أقل..

«فيما يتعلق بالشركة تعلم أننا ناقشنا هذا الموضوع عدة مرات خلال السنة الماضية، وقدمنا لك ثلاث مذكرات.. لقد قابلتك أنا شخصيا هنا فى المكتب، ووعدتنى خيرا.. قلت لن تصيب الشركة أية أضرار بينما الواقع هو أنه فور عقد الاتفاق مع «مؤسسة لاروشيل» سيتم الاستغناء عن مائتين من العمال، وربما أكثر من ذلك فيما بعد..»

«ولكنك لم تقل لى أنكم قررتم القيام باضراب..»

أنظر اليه باندهاش.. هذا الرجل يفاجئنى أحيانا بغبائه.. أم أنه يتغابى..؟

«تقصد أننا فاجأناك بالميعاد، أليس كذلك..؟»

عيناه تتذبذبان فى حيرة.. إذن لم ينبه الجهات الرسمية إلى أن هناك احتمال حدوث اضراب.. أصبح فى مأزق، وكشفت أنا الأمر.. خشى الظن بأنه لا يملك ناصية الأمور، ولا يستطيع السيطرة على العاملين فى الشركة.. أنه يعلم منذ مدة أننا نفكر فى الاضراب.. أراد أن يأخذنا، ويأخذهم على غرة.. أن يعقد الاتفاق مع «مؤسسة لاروشيل»، ويفرض على شركائه الجدد أن يواجهوا معه سخط العاملين.. أن يكتسب بهذه الوسيلة مساندة أعلى الجهات.. ولكن العقد لم

يوقع عليه بعد.. وربما حدث تراجع من «مؤسسة لاروشيل» فى آخر لحظة.. أو أتبعت سياسة الانتظار لفرصة أخرى تكون فيها الظروف أهدأ..

ألمح الوجه الأبيض يطل منه الحقد.. هذا الجسم الضئيل المنكمش فى المقعد يحمل قلب جلاد.. شىء فى أعماق الاحساس ينبئنى بذلك.. قشعريرة سريعة تهبط إلى الاحشاء.. أريد أن أترك هذه الحجرة، وانطلق.. على المائدة دورق من الليمون.. أمد يدى وأصب لنفسى كوبا ابتلعته فى رشفات بطيئة.. أرى الوجوه تتطلع الىّ فى اندهاش.. المدير الإدارى يبدو عليه وكأنه سيغمى عليه.. ماذا يستطيعون..؟ الوضع تعدى نطاق هذه المسائل الثانوية، والمفاجأة شلتهم وجعلتهم عاجزين عن رد الفعل.. نقل الضابط الجالس فى ركن «الكنبة» قدميه على الأرض، ومال إلى الأمام..

«يا «سعيد».. أنتم بالطبع درستم مختلف جوانب الموضوع..؟»

أصمت حتى أرى ماذا سيقول، ولكنه ينتظر..

«بالطبع»..

«وتعرف أن الموقف فيه عدة احتمالات..» يتوقف لحظة كأنه يترك لى فرصة حتى أعلق.. «الاحتمال الأول أن ينجح الاضراب، فتنالون مطالبكم.. والاحتمال الثانى أن تصلوا مع الإدارة إلى حل وسط.. تنازلات من ناحيتكم، وتنازلات من ناحيتها.. وهنا سيلعب موضوع المفاوضات دوره.. أما الاحتمال الثالث فهو تدخل السلطة بكل الوسائل التى تملكها، وهى كما تعلم ليست قليلة، لفض الاضراب، وما يترتب على ذلك من نتائج تمس مستقبل العاملين، ومستقبل قادة الاضراب بالذات..»

هذا الرجل ليس بسيطا.. يعرض المسائل بوضوح، ودون استعجال.. يسألنى «أليس ما قلته صحيحا..؟»

«صحيح»

«أريد أن أضيف فكرة واحدة فقط، ربما لا توافقنى عليها، ولكنى أعتقد أنها سليمة تماما..» مرة أخرى يتوقف.. يريد أن يمتحن أى نوع من الناس أكون.. هل أستعجل الأمور أو أهتز «هذه الفكرة تقول أننا إذا أنتقلنا من أرض النظريات العامة إلى الواقع الصلب، لا يوجد سوى احتمال واحد..»

ما زلت أصمت.. فيسأل..

«ألا تريد أن تعرفه؟..»

«نعم أريد..»

«هو الثالث»..

«ولماذا الثالث فقط..؟»

«لأن اضرابكم هذا ليس ضد إدارة الشركة وحدها، وإنما ضد كل سياسة الحكومة.. ولذلك كان أملى ألا أفاجأ به هكذا فى آخر لحظة، وكأننى لا أعلم ما يدور فى المنطقة التى أتولى مسئولية الأمن فيها.. أن تبلغ جهات الاختصاص منذ البداية.. منذ أن كان مجرد مشروع طائر فى خيال العقول..»

يلقى بسهامه مؤقتا فى إتجاه آخر.. ولكن نحن العاملين سنظل العدو الرئيسى.. بعد ذلك، إذا لزم الأمر ربما سووا حساباتهم الداخلية.. يحملق ناحيتى من خلف النظارة السوداء، ويستطرد..

«لذلك ستواجهون ما لم يخطر على بال.. يا «سعيد».. أنت ممن يعرفون جيدا أن أية سياسة لها عدة أركان رئيسية، إذا انهار أحدها، انهار كل البنيان.. لم يتجرأ أحد قبلكم أن يلجأ إلى الاضراب لمقاومة سياسات الاستثمار.. فإذا تركناكم تفعلون، ما الذى يمكن أن نتوقعه بعد الآن..؟ لذلك لا يوجد سوى احتمال واحد..

السحق.. وبكل الوسائل..»

كلمة السحق ترن فى الحجرة كالطلقة المكتومة.. ما زلت أقف بينهم صامتا، واستمع.. لم يقل لى حتى الآن ماذا يريد منى.. إذا صبرت سأعرفه بعد حين..

«لذلك إذا كنت فعلا تفكر فى مصلحة العاملين.. فى الأسر، والأطفال.. وكذلك فى القيادات.. بل فى نفسك أنت بالذات.. ستعود اليهم وتقول.. «لا بد من انهاء الاضراب..» فكر جيدا يا «سعيد» فيما يمكن أن يحدث.. لا تسير فى هذا الطريق معصوب العينين.. إن دماء الضحايا ستؤرقك فى الليل»..

أحس كأن دوامة هائلة تمتصنى إلى أسفل.. لا أرى سوى دائرة من الوجوه تلتف حولى.. نظراتها سوداء، وملامحها الشاحبة تسخر منى.. أسند يدى على ظهر المقعد.. أشعر بساقى تميلان من تحتى، وبرغبة جامحة فى الجلوس.. أشد عضلاتى، وأصارع الوهن الذى يزحف على.. حاربنا خطوة بعد خطوة حتى أقنعناهم بالاضراب. كدنا أن نناقشهم واحدا واحدا فى العنابر، والبيوت، فى الأحواش، والمقاهى، والمطاعم.. أرهقنا من الدخان، والشاى، وسهر الليالى.. السلاح الوحيد الباقى، قبل أن ينقض علينا طوفان التراجع.. قبل أن ينقسم الجسم الواحد الى عشرات الشظايا.. كيف أصعد الى هذه الحجرة رجلا قائدا، وأعود اليهم زاحفا على بطنى، ضائع..؟ كيف أقنعهم اليوم بعكس ما ظللت أقوله حتى آخر لحظة.. ولماذا..؟ كنا نعرف منذ البداية طبيعة المعركة.. كل المسألة هى أن هذا الرجل يجسد أمامى بكلماته كل النتائج المنتظرة.. عندما أطل من النافذة أرى العسكر والبنادق، والمدافع، وأتصور الدماء الحمراء، تسيل فوق أرض العنابر.. أسمع صوت الصراخ، وأزيز الطلقات، وبكاء الأرامل.. أفكر فيما فكرت فيه مئات المرات بإحساس مضاعف.. فاذا تصورت الهزيمة منذ الآن.. اذا تخليت المذابح، ضاع كل شئ.. لابد أن أعيد السيطرة على أفكارى.. أن أهدأ.. أن أعود كما كنت رجلا مناضلا حسب حسابه وقرر أن يقاتل.. لو كانت

التضحيات مطلوبة منى وحدى هل كانت المسائل ستصبح أسهل أم أصعب..؟

«مستحيل.. لا تضيعوا وقتكم فى محاولة لاقناعى بذلك.. لقد فكرنا جيدا قبل أن نقدم على هذه الخطوة، وقدرنا المكاسب، والخسائر.. نحن نكره العنف، والمجازر.. خلقنا للعمل، والسلام، والتضامن.. نستخدم أسلحة مشروعة فى مواجهة القمع، ووسائل التعذيب، والضرب، والقتل التى تستوردونها من الخارج.. سنظل نرفع شعارات الصراع الديموقراطى..»

الوجه الأبيض المريض، أصبح أكثر بياضا.. لم أرى فى حياتى حقدا مركزا الى هذه الدرجة فى نظرة العينين، واعوجاج الملامح.. ينطق الكلمات ببطء هادئ فترن فى الصمت كالمطرقة..

«اذن ترفض التعاون معنا لتفادى معركة ستكونون أنتم فيها أول الضحايا..»

«اذا كان التعاون يعنى الاستسلام فأهلا بالمعارك.. الأفضل للانسان أن يضرب وهو يقاتل، بدلا من أن يضرب وهو يزحف على بطنه، ويتوسل للمعتدى..»

أسمع صوت شئ معدنى يقع على الأرض.. فتاحة الورق سقطت من بين أصابع الضابط.. العضلة الرفيعة فى عنقى تنبض بنبضات سريعة متتالية.. يمد يده ويلتقطها من الأرض.. يمسك بها من القبضة.. أرى طرفها المعدنى يبرق فى الشمس كأنها موجهة الى صدرى.. يقوم من جلسته ببطء ويتجه نحو الباب.. يختفى لحظات فى الخارج ثم يعود ومن خلفه ضابط يرتدى بذته البيضاء ويشير الى بأصبعه دون أن ينطق.. رأيت القيود الحديدية تلمع.. ابتسمت..

قال الضابط..

«مد يديك»

أحس بالصلب الرفيع يغلق كحد السكين على المعصم الأول ثم الثانى «تك».. «تك». يقودنى خارج الحجرة.. نهبط الى مدخل الادارة، ونخرج الى الحوش.. سيارة «بوكس» تنتظر.. بدأوا بى ترى هل سيأخذوننا واحدا، واحدا.. ربما انتظروا أثر غيابى على الآخرين.. السيارة تخرج من البوابة.. عيون الحراس تطل على بمزيج من الفضول والاشفاق.. لا أحد يحيينى.. جيوش العسكر تثقل الجو، وتكتم الأنفاس.. السيارة تسرع فوق الطريق.. أرى الأسفلت الأسود وراءنا، والأشجار شحبت أوراقها من الدخان والغازات تطلقها المصانع.. كل شئ أخضر فى بلادنا يفنى.. توقفت السيارة فجأة.. قفز أحد العسكر من فوق الحاجز فتبعته.. المبنى الأبيض وأكشاك الحراسة.. فى الخارج ثلاثة سيارات ضخمة تحمل قوات الشرطة.. وعلى بعد قليل مطعم.. خلف الزجاج ألمح أقراص الطعمية، والباذنجان المقلى، والبيض.. أشعر بالجوع.. قرص الشمس الأحمر معلق فى السماء يتأهب للسقوط.. نشق طريقنا بين الناس.. لا أحد يلتفت الينا.. منظر مألوف.. أقف أمام أمين الشرطة يتحدث مع زميله، ويكتب فى سجل الأحوال اليومى.. يهبطون بى الى جوف المبنى.. باب أخضر سميك فى جزئه الأعلى ثقب مستدير، وعلى سطحه رسومات وأسماء محفورة فى خطوط متعرجة.. أغلق خلفى.. صوت المزلاج الحديدى ينزلق، وخطوات تبتعد، وضوء أصفر باهت اللون يضئ الجدران المتسخة، وجردل الماء، ووعاء للبراز والبول.. وقفت لحظة أتأمل المكان، واستنشق رائحة الرطوبة والعطن، ثم خلعت حذائى وجلست مقرفصا على البرش..

الوقت ينقضى ببطء السلحفاة.. لا أدرى كم من الزمن يمر، فأنا مقطوع الصلة عما يدور خارج الباب.. الساعة التى كانت معى أخذوها فى الأمانات، هى، والمحفظة، والمفاتيح، وكل ما كان معى من نقود.. أحيا على الماء وثلاثة أرغفة من الخبز الجاف يسلمونها الى كل صباح.. أعجز عن تتبع متى يجئ الليل، ومتى يبدأ النهار، فالزنزانة التى وضعونى فيها مضاءة دائما بالمصباح.. يصل اليها

الهواء العطن من كوة سوداء فى السقف.. ظللت راقدا على البرش تنتابنى فى بعض اللحظات حالة أقرب الى الغيبوبة منها الى النوم.. تتوالى فيها الصور المزعجة كالوطاويط تطير فى نصف الضوء.. الى أن جاءت تلك اللحظة التى اخترقنى فيها صراخ الحديد الصدئ من خلف الباب.. أفقت على نفسى ببطء لأجد حذاء الحارس الضخم الأسود يتراءى لى من بين الجفون.. فتحت عينى وسمعته يقول:

«قم واتبعنى»

ارتديت الجورب والحذاء، وأدخلت القميص فى البنطال.. ألقيت ببعض الماء من الجردل على وجهى، وتحسست الشعر النابت حول الذقن.. خرجت من الباب وراءه، وصعدنا الدرجات.. أحسست بنفسى أصعد من جوف الأرض الى ضوء النهار، ووقفت أمام أمين الشرطة الذى استقبلنى يوم أن جئت الى هذا المكان.. كان يتحدث الى أحد الرجال يرتدى جلبابا أسمر ويلف رأسه بشال.. تركنى أقف أمامه مايقرب من عشرة دقائق ثم التفت الى وقال:

«استلم جاحاتك.. ادارة السلام الاجتماعى ارسلت الينا اشارة باخلاء سبيلك فى الحال»

خرجت من باب المبنى.. على الرصيف فى الخارج لمحت الشعر الأشيب والوجه المتغضن لرئيس الاتحاد.. تقدم نحوى بخطوات سريعة، وأحاطنى بالأحضان، ثم قال:

«مبروك يا «سعيد» على الافراج.. يفحصنى باهتمام.. «نحلت كثيرا يأخى.. ما الذى جرى؟»

«الله يبارك فيك.. أخبرنى أولا.. فى أى يوم نكون؟»

«الجمعة ٢ أكتوبر..» ينظر الى باندهاش..

«أخذوا منى الساعة، ووضعونى فى زنزانة لا توجد فيها نافذة، وتضاء ليل نهار بمصباح من الكهرباء.. فبعد أن مر يوم أصبحت عاجزا عن تتبع الوقت..»

«والأكل..؟ أرى أنك فقدت وزنا كثيرا..؟»

«ثلاثة أرغفة من الخبز الجاف.. وجردل مياه»

«لكننا كنا نرسل اليك طعاما يكفى ثلاث وجبات فى اليوم..»

«لم يصلنى قط..»

يبصق على الأرض ويقول

«أولاد الكلب..!!»

سألت فى لهفة..

«لم تقل لى شيئا عن الاضراب..»

ابتسم فى سرور ظاهر وكادت عيناه أن تختفيا فى ثنايا التجاعيد..

«انتصار يا زميلى، انتصار .. «شركة لاروشيل» ابرقت الى رئيس مجلس الادارة تخبره أنها قررت سحب العرض الذى سبق أن تقدمت به.. ولكن..»

«لكن ماذا؟..»

«صدر قرار بفصل أربعة منكم.. أنت، و«مصطفى رمضان».. و «على الشرقاوى».. و «حسن عيد..»»

أخذت نفسا عميقا.. أبطأت خطواتى فوق الرصيف، وضغطت على ذراعه بشئ من الغل..

«اذن.. تمكنوا من معرفة ما حرصنا على اخفائه..»

«نعم..»

«يجب ألا نترك هذه المسألة تمر..يجب أن نصل الى الأسباب.. فى كل مرة

نعجز عن حماية أنفسنا من ضربات البوليس.. »

« ليس دائما.. »

« فى أغلب الأوقات.. ما علينا.. ليس هذا وقت التفكير فى البوليس.. »

الاضراب حقق أهدافه، وأنا فى منتهى السعادة بهذه النتيجة.. ولكن قبل أن نكمل الحديث، أين نحن متجهان.. لابد أن آكل والا مت من الجوع.. أسبوع على الخبز والمياه..!! »

« لنذهب الى منزلنا.. « علية » أعدت لك وجبة شهية احتفالا بالانتصار والافراج عنك.. فما رأيك..؟ »

« موافق طبعا.. سبعة أيام بلياليها، وأنا وحدى.. لم أتعود هذا الصمت.. احتاج الى الكلام بنفس القدر الذى احتاج به الى الطعام.. هيا بنا نسرع.. الجوع يقطع فى مصارينى.. »

« آه.. نسيت أن أقول لك خبرا آخر.. »

« ماذا.. »

« « خليل منصور خليل ».. يقولون أنه هرب من المصنع خلال فترة الاضراب.. تغيب منذ يوم ٢٥ سبتمبر، ولم يعد حتى الآن.. »

« غريبة!! »

اجتزنا الشارع العريض وخطونا فوق الرصيف فى ظل الشجر.. غريبة.. مالذى جعله يتغيب عن العمل فيلفت الأنظار اليه.. أسبوع واحد فقط، وكم من الاشياء حدثت.. أصبحت بلا عمل من جديد.. ترى ماذا يخبئه لى المستقبل..؟

* * *

أتجول فى شوارع المدينة وسط الناس.. الأضواء الملونة تحاصرنى من كل جانب باعلانات تعرض خدماتها.. ورجل يهمس فى أذنى بالانجليزية: «هل تريد استبدال دولارات..؟ فى الجيب اليمين خطاب الفصل، وفى الجيب اليسار ثلاثة جنيهات.. مر اسبوع وانا كالتائه.. أخيرا قررت ان اذهب الى الشركة.. امشى على الطريق باحساس العائد من عالم آخر.. الجو صاف، وفى الحقول الجاموس يمضغ اعواد الذرة الخضراء.. لا أثر للجيوش التى كانت تحيط بالمصنع، ولكن المنطقة كلها تقطعها الدوريات فى حركة دائبة لاتتوقف، وسيارات اللاسلكى، والأمن تحرس المنافذ.. عندما دخلت من الباب اوقفنى احد المخبرين.. طلب منى البطاقة، وسار معى حتى مدخل الادارة.. وبينما اجتاز الحوش لمحت عددا من الرجال يرتدون ملابس مدنية، ويقفون حول ابواب العنابر.. صعدت الى مكتب الرئيس فى الدور الاول، ودخلت على السكرتيرة.. وجدتها جالسة تحملق فى الفراغ، وتقضم بأسنانها فى قطعة من «الشكولاته».. قلت :

«صباح الخير.. ارى أن كل شئ عاد كما كان..»

تلفتت حولها كأنها تخشى من آذان مختبئة فى الجدران..

«الاضراب انتهى، ولله الحمد».

«انتهى كيف..؟»

تصمت، وتنظر حولها مرة اخرى.. أكاد اضحك من استدارة العينين، والفم،

والأنف.. كالعروسة المصابة بالذعر.. ولكنى اكتم الرغبة فى الضحك

«مؤسسة لاروشيل» انسحبت.. تراجعت عن الاتفاق»

احملق فيها غير مصدق.. هكذا ببساطة تحل المشكلات!! وفجأة اخذتنى نوبة من الضحك.. أحسست بها تنظر الى فى هلع فبذلت جهدا الى أن توقفت.. قلت..

«أريد ان اقابل الرئيس....»

أخذت تبحث عن شئ فوق المكتب، ودون أن ترفع نظراتها الى قالت..

«الرئيس امر بألا أدخل عليه أحدا.. اذهب الى الاستاذ «مختار» فهو ينتظرك.»

تركتها دون أن أسال لماذا.. المسائل عندى سيان... سرت حتى مكتب المدير الإدارى.. دخلت من الباب دون أن احييه، وجلست.. أحد موظفى الادارة يعرض عليه اوراقا.. يطيل المناقشة والفحص.. رجل دقيق، دقة رباط العنق، وأساور القميص، والشعر الأسود رسم فى خطوطه المتساوية أسنان المشط.. دقة الرجل النزية الجاد فى عمله، يخفى خلف التأشيرات المدروسة، والاجراءات حقيقته.. كالذقن، والسبحة، وصلاة التروايح قد تخفى الفساد.. ككل الطقوس والمظاهر ابتدعها الانسان ليخفى جوهر الاشياء.

انتظر فى صبر.. اعرف انه يطيل انتظارى عن قصد.. منذ أن عين فى الشركة كنت اضع بينى وبينه مسافة.. نوع من الناس لا اطيقه.. تربى فى أحضان الاجهزة التى تعتبر ان كل ما يتعلق بالانسان مباح.. وتسعى الى الاطلاع على ادق التفاصيل فى حياته الخاصة.. لذلك عين مديرا اداريا.. فالإدارة فى عرف الحكام هى كيف تحولهم الى ادوات، وتستخدمهم فى اغراضك الخاصة... انا وهو كالزيت، والماء. فطبيعة الأفكار، والأشياء التى ارتبطت بها تجعله بالضرورة يعتبرنى فى المعسكر المضاد..

خرج الموظف بتلك المشية التى تجمع بين الزحف الصامت الى الخلف، والتردد،

والانحناء، كأنه لايعرف ماذا يفعل بالضبط.. هل ينسحب من حيث جاء ام يبقى.. لم تصدر عن الرجل اى اشارة تدل على مايريد.. فربما انسحب بينما يريد منه ان يبقى.. وربما بقى بينما يريد منه أن ينسحب.. ثم القرب من الرؤساء يجلب الخير تماما كالقرب من الله.. والسلطة منذ قديم الزمان هى ظل الاله على الارض.. تملك قدرات غير محدودة.. تحرم، وتمنح، وتعاقب، وتكافئ.. ومن يتمرد على السلطة، يتهمه الحكام بانه يتمرد على الله.. أنه خارج عن الطاعة، معاد لقيم المجتمع..

مد يده الى التليفون.. ادركت انه سيستمر فى تجاهل وجودى اذا لم اتصرف بسرعة، فأخرجت الخطاب من جيبى، ودفعت به فوق المكتب..

«ماهذا؟»

أمسك به بين اطراف اصابعه كمن يخشى أن تصيبه عدوى، واخذ يقرأ فيه ببطء، كأنه لم يسبق له أن رآه.. بعد أن انتهى نحاه جانبا وقال:

«اظن الموضوع واضح.. ماذ تريد..؟»

«لا.. ليس واضحا.. أنا لن اناقشك فى الجوهر.. اعرف جيدا أنك لاتملك فيه شيئا.. وانك منفذ لأوامر صدرت اليك.. ولكنى ارى ان الاجراء من الناحية الشكلية غير قانونى..»

«كيف..؟»

«لقد أرسلت خطابا مسجلا بعلم وصول للحصول على اجازة.. ثم خطاب آخر اطلب فيه مدها..»

«حصل...»

«لماذا اصدرتم اذن قرارا بفصلى..؟.

يبتسم.. شفتاه تنفتحان بحرص كأنه يحسب المسافة التى تفصل بينهما..

«رئيس مجلس الادارة لم يوافق على منحك اجازة فى الظروف الدقيقة التى كانت قائمة فى الفترة الأخيرة... فمن واجب الذين يشغلون وظائف رئاسية فى الشركة الا يتغيبوا فى حالات الطوارئ.».

صمتت لحظة.. مسألة مدبرة اذن.. كان هذا واضحا منذ البداية..

«ولكن قبل الفصل أليس من المفروض ان يصلنى انذار..؟»

يبتسم من جديد، ابتسامة عريضة هذه المرة.. سعيد بما حدث.. اتخيله وهو يقرأ خطاب الفصل مرة، ومرتين ثم يوقع عليه بحركة مسرحية من القلم...

«ارسلنا اليك خطابا مسجلا بعلم وصول بعد اليوم الثامن من غيابك»

«لم أكن فى البيت...»

«وما شأننا نحن بذلك؟ هل من المفروض أن نتتبع تحركاتك...؟»

«ولكن الاترى معى انه اجراء شاذ، لا يتبع عادة حتى مع العاملين فى أدنى الدرجات.. لابد ان هناك سببا آخر..»

«هذا شئ انت اعلم به.. ولكنى سمعت أن الرئيس شخصيا لم يعد يريدك فى الشركة.. قيل انك على صلة بلجنة الاضراب.. وانك افضيت اليهم ببعض الأسرار...» تبدو عليه علامات الانشراح.. يلوح بيده ويقول.. «تشرب فنجان قهوة؟»

قلت: «اشكرك..» قمت من جلستى.. أخذت الخطاب من فوق مكتبه، ثم استدرت، وخرجت.. توجهت الى ادارة الابحاث.. عندما دخلت الى حجرة السكرتيرة بدا على وجهها الارتباك. تسلمت منها الاوراق الخاصة بخلو الطرف، والمفاتيح.. افرغت ادراج مكتبى من كل الاوراق والملفات، وطلبت منها ان تحتفظ

بها حتى يعين من سيخلفنى فى العمل.. ترفع الى عينيها وتهز رأسها فى صمت.. وضعت الكتب الخاصة فى حقيبة يد اخرجتها من الدولاب، هى وبعض شرائط الموسيقى المسجلة.. شددت على يدها.. أخذت تبكى فأحسست بالضيق.. لماذا الدموع؟.. لا يربطنى بهذا المكان اى شئ.. او ربما تتابع الأحداث السريع لم يترك لى فرصة لأفيق.. كأنى مشلول الاحساس.. ربت على كتفها وقلت:

«لا تبك.. فانا لست نادما على ترك العمل.. اعطيت لهذا المكان الكثير، ولكنه لم يعطنى.. ألمهم هو بعض الناس الذين سأتركهم مثلك.. ومثل..» «سعيد ابو كرم»

«سعيد؟!»

«نعم.. اراك تندهشين...»

«لا، لست مندهشة.. ألم تسمع ماذا حدث؟»

«سمعت أن الاضراب انتهى، وأن «مؤسسة لاروشيل» تراجعت عن عقد الاتفاق...»

«هذا جانب.. ولكن الى جانب ذلك، صدر قرار بفصل بعض الناس...»

«غيرى انا..؟»

«غير حضرتك» «سعيد أبو كوم» و «مصطفى رمضان» و «على الشرقاوى» و «حسن عيد»..»

أخذت نفسا عميقا.. اذن وصلتهم كل التفاصيل عن قيادة الاضراب، واتصالى بهم، والمذكرة.. ماذا بقى..؟ ياللحماية العظيمة.. للقدرة الفائقة على اخفاء الأسرار.. مرة اخرى اخطأت... اعطيت ثقتى لأناس ليسوا اهلا للثقة.. الاضراب نجح لظروف مختلفة.. جزء منها تقدير سليم للموقف، وجزء لعبت فيه الصدفة..

فصلوا الرأس عن الجسم كما قال الرجل.. سينمو من جديد، ولكن متى؟ ربما بسرعة، وربما ببطء.. سأعود الى قواعدى السابقة، هائم على وجهى عاطل.. ما الذى استفدته من كل هذا..؟ مالذى استفدته من كل معركة خضتها...؟

خطواتى فوق الرصيف لها رنين أجوف.. لا مكان لى فى هذا البلد. كل ما ألمسه ينتهى الى الفشل.. «سعيد» والآخرون لن يذرعوا الشوارع وحدهم.. سيلتف حولهم الاصدقاء، والأهل.. ذلك التضامن التلقائى الذى يفرزه الفقر، والصراع اليومى من اجل البقاء، والحياة فى الازقة، والحوارى، والمصانع.. اما أنا فسرعان ما ستتمزق بقايا العلاقات.. زيارة او اثنتان فى البداية ثم بعدهما صحراء النسيان.. تتراءى امام عينى تجارب عشتها من قبل.. سنين الحياة خلف الجدران.. الاسرة التى لم ارها، والاصدقاء.. «وتهانى راشد». ما أن صدر الحكم حتى تبخرت.. انا احيا فى بيت يحسدنى عليه الكثيرون رغم تواضعه.. الطلاء الابيض، والزهور، والمرسم على السطح.. ولكن أين الجذور التى تجعلنى ثابتا فوق الارض...؟ وأين الأجسام الدافئة التى تلتف حولى، وتقينى من البرد..؟ هل اخترت أن أكون وحدى وسط الخضم...؟ أحيانا يبدو لى اننى مسئول عن هذا الوضع... ولكن منذ ادركت ان الحياة لاتستقيم دون العطاء بحثت عن الناس.. فاكتشفت أن السياسة بعيدة عن الانسان أغلب الوقت.

الدخان الأسود يصعد فى السماء الباهتة.. واوارق الشجر تجف على الأسفلت الساخن.. الفروع تمد أصابعها المعروقة كأنها تستجدى المطر.. وغراب يطل على الشارع.. يفحصنى فى مكر... يتتبع خطواتى، يحرك رأسه مع وقعها الاجوف.. وصلت الى البيت.. وجدت «امينة» فى حجرة النوم، تطعم الفم الصغير من ثديها الممتلئ. عيناه تنظران اليها باطمئنان قلق.. كأنهما جسم واحد ملتصق، وأنا كالغريب اشاهد هذا الانسجام الصامت... فيزداد شعورى باننى كالذرة تبحث عن محورها الضائع.. اتحرك فى دائرة خارجية لا تصل الى الجوهر.. ادور على هامش

الحياة.. فحتى فى هذه العلاقة الحميمة بين الام، وطفلها مازلت كالمشاهد.. تخلع ملابسه وتمر على جسمه الاحمر بأسفنجة مشبعة بماء معطر. تلفه فى ثوب نظيف، ثم تضعه على ظهره فوق السرير.. اطل عليه، فيحملق فى وجهى، ثم يشهق، ويشرع فى بكاء صارخ يملأ السكون، فاهرب الى المطبخ... انتظرها حتى تفرغ.. فقد أصبح هو محط الاهتمام الأول، وعلى أنا أن أنتظر...

جاءت الى بعد ان سكت، ونام، فاطمأنت.. ملامحها مازالت تنم عن تعب الولادة والمرض.. أربت على رأسها، ووجهها.. زاد اتساع العينين كالمنافذ الصافية أطل منهما على روحها الشجاعة.. أحس بالندم.. تبتسم.. نتناول طعام الغذاء أعدته فى الصباح.. أغصب نفسى على الأكل حتى أرضيها.. تسألنى عما فعلت، فأحكى لها.. أتفادى التفاصيل التى ربما آلمتها.. تعودنا ألا نخفى الأشياء، ولكنى أشفق عليها فى هذه الفترة.. الولادة، والمرض، والطفل، وزوج أصبح عاطلا..

آوينا الى الفراش مبكرا.. «عصام» طفل هادئ ينام الليل كله دون أن يتحرك.. كتلة صغيرة من اللحم لا أكثر.. عقلى يتحسس الصلة بينى وبينه ولكنه يعجز.. أنظر اليه فى بعض الأحيان، وأتعجب.. هذا الكائن الذى لايفكر، ولاينطق يقول عنه الناس انه ابنى.. شهادة الميلاد التى استخرجناها منذ ايام كتبوا عليها.. «عصام خليل منصور خليل».. «فأمينة» حملته، وحمته فى بطنها تسعة أشهر، ثم ولدته.. وخمسة مرات فى اليوم تترك له ثديها ليمتصه.. أما أنا فعندما أدور حوله، أو أرفعه، او أغير لفته ينتابنى شعور المتطفل.. كأننى أتدخل فى علاقة ليست من حقى.. كأننى غريب عن طفلى.. أشعر فى هذه الليلة أننى متعب، مفرغ من الداخل، منسحق.. لا أملك فى هذه الدنيا شيئا استطيع ان أتاكد منه.. لا عمل، ولا انتاج، ،لا ابن، ولا حتى حب «أمينة».. فكل شئ أملكه، ولا أملكه.. كل شئ أستطيع أن افقده.. عقلى العاجز عن

التفكير كالرحايا تطحن الحصى.. يزدحم بالشذارت، والشظايا، والصور المجزأة.. لاشئ فيها يكتمل.. يتمرد على.. يترك جسمى، وينطلق كالحصان الجامح.. اعدو وراءه فأجده يسبقنى دائما.. وأظل فريسة لهذا الخيال المرهق حتى ارى الفجر يطل كاللص الشاحب من فتحة فى الشيش، فأيأس من اللحاق به.. أتركه يتركنى.. وعندئذ يسقط جسمى فجأة فى نوم عميق..

فى اليوم التالى قررت «أمينة» أن تخرج مع «عصام» فى نزهة مبكرة.. اقترحت على ان اصحبها ولكنى آثرت البقاء فى البيت بحجة البدء فى الجزء الثانى من الدراسة التى نشر جزؤها الأول.. شجعتنى بحماس، وقالت انها أحسن وسيلة حتى أنشغل بشئ مفيد.. فما الداعى الى الانتظار؟ العمل هو الشئ الوحيد الذى يوفر للنفس استقرارها، ويعطى للانسان احساسا بقيمته.. سرت معها مسافة قصيرة على الطريق ثم عدت... دخلت الى المطبخ، وغسلت الأطباق، والفناجين.. وضعت الطعام الذى كانت قد اعدته على الموقد، ثم قمت بكنس البيت، وتنظيفه.. صنعت فنجانا من القهوة لنفسى، ووضعته على المكتب.. أخرجت رزمة من الورق الأبيض، ورتبت بعض المراجع التى سأقرأ فيها حسب أهميتها.. اخذت رشفتين من القهوة، وفتحت أحد الكتب.. وفى هذه اللحظة بالتحديد رن جرس التليفون:

عرفت صوتها على الفور.. قالت:

«لماذا لم تتصل بى.؟ أنا غاضبة منك.. وانشغلت عليك..»

خفق قلبى.. هذه المرأة الجذابة التى تملك كل ماتبغيه قلقة على..

«آسف.. حالت بعض الظروف دون أن أتصل بك..»

«أية ظروف؟!.. مالك؟.. أشعر أن صوتك ليس كالمعتاد.. كأنك مشغول البال.. أوحتى حزين..»

لا أظن أن صوتى يكشف عن حالتى بهذه السهولة.. ومع ذلك أحست..

«لاشئ.. مسألة بسيطة.. سأقص عليك ما حدث عندما نلتقى..»

«اذن سنلتقى..!»

«طبعا.. هل كنت تشكين فى هذا..؟»

«فى الفترة الأخيرة عندما لم تتصل بى ظننت فى لحظة أنك ربما تريد ألا نلتقى من جديد..»

«لا.. بالعكس.. أنا أحب أن أراك دائما.. ولا أقول هذا من باب المجاملة.. بل هى الحقيقة..»

«هذه المرة لا أصدقك.. لو كنت قد تذكرتنى، لرفعت سماعة التليفون، لتسأل عنى.. ولكنك لم تفعل.. أنا التى فكرت فيك..»

أحس بالسعادة، والخجل فى نفس الوقت.. فعلا نسيتها فى الأيام الأخيرة.. ولكن الظروف كانت قاسية.. الاضراب.. ومرض «أمينة»، والولادة ثم فصلى من العمل.. كل هذا فى مدة لم تزد عن عدة أسابيع.. ولكن ما أن سمعت صوتها حتى استولت على رغبة طاغية فى أن أراها..

«نسيت بالفعل.. ولكن لى العذر فى ذلك..»

تصمت.. أخشى أن أكون قد جرحت شعورها.. أتأهب لتوضيح الموضوع عندما سمعتهاتقول:

«اذن كان احساسى سليما.. هناك شئ يحول دون استمرار هذه العلاقة.. لماذا لا تصل بالحقيقة حتى نهايتها؟.. أنا أحب الوضوح.. أنت رجل صاحب التزامات.. تحيا فى مصر.. وأنا امرأة أمريكية.. اليوم هنا.. وغدا هناك... فالصداقة الناشئة بيننا لاتستحق فى نظرك أن تعرض نفسك للتساؤلات.. أليس

هذا ماتفكر فيه..؟»

«على الاطلاق.. لا أخفى عليك أنه خطرت فى بالى مثل هذه الاعتبارات بعد لقائنا الأخير، وأنا عائد من عندك.. بالتحديد عندما رأيت البواب يرمقنى، وأنا أنصرف من العمارة.. ولكنى قررت أن الأهم عندى هو أن أراك..»

سمعتها تضحك.. السماعة تهتز بموسيقى منغمة، ومشرقة فى نفس الوقت..

«البواب؟!.. وما شأن البواب بنا..؟»

«أنت لاتعرفين.. البوابون عندنا كثيرون منهم جواسيس..»

تصمت فجاة.. انتظر حتى تعلق ولكن الصمت يستمر.. قلت..

«الو.. أتسمعيننى..؟»

ردت بصوت هادئ، اختفى منه الاشراق..

«نعم.. سمعتك..»

«مالك..؟ هل أخطأت فى شئ..؟»

«لا.. لم تخطئ.. مثل هذه الأشياء تفسد السعادة..»

«آسف.. طلبت منى ألا أخفى شيئا.. وأيا كان الأمر يا«روث» فأنا أريد أن أراك، فهل هذا ممكن..؟»

تصمت كأنها تفكر.. أو ربما تعاقبنى بالصمت..

«ممكن بالطبع.. لو كان الأمر غير ذلك لما اتصلت بك..»

«متى..؟»

«اليوم ان أردت بعد الساعة السابعة سأكون فى البيت..»

«ألا يمكن أن نلتقى فى مكان آخر..؟»

«لماذا..؟»

«من باب التغيير»

«اين تقترح..؟»

«كازينو الجزيرة..»

«لا مانع لدى.. كيف نذهب..؟»

«ليس عندى سيارة.. هل نلتقى هناك..؟»

«لا أفضل أن نلتقى فى البيت ثم ننزل سويا.. لاأحب المواعيد فى الأماكن العامة.. قد تتأخر أنت، أو أتأخر أنا لأسباب قهرية..»

«اذن سأمر عليك فى البيت حوالى الساعة السابعة والنصف..»

«فى انتظارك..»

أسمع صوت كالزن الخافت ثم نقرتين سريعتين تلاهما صمت.. أقطب جبينى لحظة.. هذا الصوت.. أعدت السماعة الى مكانها ببطء.. تتكرر لحظات من الماضى كأننى أحياها من جديد.. أحملها معى كالأشباح ترسبت فى نفسى.. هززت كتفى فى استسلام.. ما الذى سيحدث لى أكثر مما جرى..؟ فتحت الكتاب، وبدأت أقرأ..

كان هلال رفيع يطل علينا عندما خرجنا من باب العمارة.. وقف البواب، وهرول ناحيتنا عندما رآها.. لابد أنها تدفع بسخاء.. أصابعها حول ذراعى تقودنى نحو السيارة.. وجدت نفسى أجلس الى جوارها.. ننساب فى الليل بحركة ناعمة، طيارة.. موسيقى المذياع تغزونى بأمواج غامضة.. أحس بوجودها الطاغى، بعطرها الهادئ يدغدغ أعصابى، بشعرها يشتعل فى أضواء الشارع..

بدفئها الأنثوى الى جوارى.. حياتى الأخرى تتوارى.. عقلى مرتاح، وجسمى مستسلم للمقعد الوثير.. أصابعها البيضاء تلتف حول عجلة القيادة وقدمها تضغط على دواسة البنزين.. يحملنا الشبح القوى الى مكان بعيد.. أنا وهى وحدنا نستعجل اللحظة القادمة.. نستعجل اللقاء، والوصول، والمصير.. أهرب معها من الصراع.. القى السلاح، وأقرر انهاء المعركة..

الأضواء الملونة تتلألأ فى النيل.. أسمع صوت المياه تصطدم بالشاطئ.. أرى عينيها أمامى غامضة، والتقط فيهما البريق.. يدى تبحث عن يدها بلهفة الحرمان الطويل.. أنظر فى وجهها، وارتشف من خطوطه الجميلة.. أسمع صوتها يتردد فى الليل..

«لم تقل لى ما الذى أخرك عنى طوال الأسابيع الماضية..؟»

أفكر قبل أن أجيب.. كيف أمزق هذا الجو الساحر بقصة ما حدث فى الفترة الأخيرة، وكيف أصارحها بكل التفاصيل.. بأننى فصلت وأصبحت عاطلا؟.. أشعر بالخجل، والضيق..

«هل تريدين فعلا أن تعودى بنا الى واقع الحياة السخيف..؟»

«ولماذا تصف الحياة بأنها سخيفة..؟ أنا بصراحة أريد أن أعرف عنك ما تحاول أن تخفيه..»

أضحك، وأربت على رأسها بحنان.. فتتطلع الى بوجهها الشاب كأنها فتاتى الصغيرة..

«أنا لا أخفى عنك شيئا.. لم نلتق حتى الآن سوى مرتين، وهذه هى الثالثة، ومع ذلك تكلمنا فى كثير من الأشياء.. أنظرى هذا الهلال.. أنه معلق بين الأشجار بخيوط رفيعة..»

«أنت انسان غريب.. يبدو لى انك تجتاز الحياة، وفى كل لحظة تمتص الأحاسيس.. فيك جنوح قوى الى الفن.. ألم تعبر عن نفسك أبدا بالكتابة، أو الرسم أو بأى طريقة..؟»

«حاولت عندما كنت صبيا أن أتعلم العزف على الكمان.. ولكن أبى وقف فى طريقى.. كان يأمل أن أرثه فى الاشراف على الأبقار، والخرفان، والمزارع.. حاول بكل طريقة أن يجعلنى ابنا صالحا للاسرة الثرية.. ولكنه فشل.. كرهت الأرض، وحسابات المحاصيل.. كنت أحب الجلوس تحت الشجر، أتأمل حقول البرسيم تتموج فى الريح، وأشاهد المياه تندفع من «الهاويس»، أو تصب فى القنوات السمراء، وتروى الخطوط المحروثة.. كنت أحس أن وضعى كمالك يفسد علاقتى بالفلاحين، يتزلفون الى، ويمكرون على، وينطقون كلمات الاطراء والتحية، ولكنهم فى أعماقهم يكرهوننى.. فأنا ابن مالك الأرض، مالك الضياع والفدادين، والمتحكم فى قوتهم اليومى.. أنا ابن «البيت الكبير»..

أحس أنها تنسحب فى الظلام، كأن روحها تهرب منى.. كأن جدارا خفيا يرتفع بيننا فى صمت..

«أحيانا لا أفهمك.. أنت خيالى، لذلك تصطدم بالواقع، وتعانى.. الحياة صراع.. والبقاء للأصلح والأقوى.. أنا لم أولد غنية.. ولولا أنى امرأة قوية لظللت مدفونة فى الحوارى، أعانى من البؤس، والبرد تحت السماء الرمادية.. واتجرع مرارة الحياة فى محل لبيع الملابس، أو فى مصنع لصنع الدراجات البخارية.. فقد عملت بالفعل بائعة فى محل وعاملة فى مصنع.. وأنا أحاول أن أنسى هذه الأيام.. لماذا لانعود الى ما كنت ستحكيه عن سبب هروبك من لقائى فى الفترة الأخيرة..؟»

تمد الى يدها، وتبتسم.. أبحث فى كفها عن دفء ضاع منى..

«اذا كنت مصرة، فالذنب ذنبك».. سادت لحظة صمت طويلة.. أحس بأننى

كالواقف على الشاطئ يتردد قبل أن يلقى بنفسه فى المياه العميقة..

«الموضوع باختصار هو أننى فصلت من عملى منذ شهر تقريبا..»

تبدو عليها علامات المفاجأة الشديدة.. ملامحها تتبدل.. اقرأ فيها مزيجا من التساؤل، وعدم التصديق..

«أنت تمزح بالطبع؟!»

«امزح..! لست من هواة المزاح السخيف..»

تنظر الى بشئ من العتاب، ثم تبحث عن يدى من جديد.. أصابعى قطع من الخشب لاتلين.. أحس فى لمستها بالعاطفة، فأسلم لها يدى تفعل بها ماتريد..

«أنا آسفة.. لم أكن اتوقع ما قلته لى.. انها مفاجئة..» تصمت وتتأملنى كأنها تحاول أن تتبين ما أفكر فيه، أو تبحث عن كلمات مناسبة تقولها لى.. تسأل

«وكيف حدث هذا..؟»

هل أحكى لها؟.. ولم لا..؟لا يوجد من يهتم بى الى هذه الدرجة سواها.. أنا كالمجروح يبحث عن طبيب يداويه.. تذكرت «أمينة».. انصرفت عنى فى الأيام الأخيرة.. ربما الحمل، والطفل.. وقبلهما المعرض.. ولكن كيف يعن لى أن أتركها فى هذا الوقت بالذات لأقضى الساعات مع هذه المرأة الغريبة أجلس معها على شاطئ النيل.. أمسك بيدها، وأتحدث معها عن أخص الاشياء بالنسبة الى.. «أمينة» حاولت أن تشجعنى بطريقتها الخاصة.. «لا تهتم كثيرا بما حدث.. مازلت أنا أعمل، وعن قريب ستجد وظيفة أخرى.. لاتضيع وقتك فى هذه الفترة.. لابد أن تنشغل بشئ، وتطرد الأفكار الكئيبة.. الدراسة التى لم تبدأها بعد..» ألتمس لها الأعذار.. أعباؤها كثيرة ولكن ما أحتاج اليه الآن ليس هو النصائح.. كلامها عن الدراسة يذكرنى بالفشل.. وعندما أشارت الى عملها تألمت

للمقارنة بينى وبينها.. ربما لست على حق فى هذه الأحاسيس فعملها انقاذ لنا فى هذه الظروف.. ثم أين ايمانى بالمساواة.. ألسنا نساند بعضنا.. ولكنى شعرت أنها تمس كبريائى، فأصابنى حزن عميق.. أعمق من كل الأحزان التى أصابتنى من قبل.. عندما خرجت من بوابة السجن كنت حزينا، ولكن ليس بهذا القدر.. كانت هناك مبررات للوضع الذى وجدت نفسى فيه.. الغياب الطويل، وحياة لابد أن أبدأها من جديد.. حينما أخذت أفكر فيما سأفعله هانت المسائل على.. كنت أنظر الى المستقبل وأفكر فيه.. سأخوض تجربة جديدة أتفادى فيها الأخطاء السابقة.. سأرتب أولويات الحياة، وأعطى وقتا للدراسة والكتابة.. لعب الخيال بعقلى ووجدانى، وعشت فى الفرص والمشاريع.. ولكن الآن أواجه حطام الآمال.. لست فى احتياج الى النصائح والتوجيهات بل الى الصداقة التى تعطى.. الى الحب..

أسمعها تقول:

«سرحت بعيدا..»

كدت أن أنسى وجودها، ولكنها لم تضق بذلك.. تركت عقلى يرحل فى حرية.. لم تقل لى أذهب، ولم تقل لى قف.. ولكن صمتها يقول.. لاتنس انى موجودة، وانك تستطيع أن تعتمد على.. لست منشغلة عنك، ومشكلتك عندى أهم من كل شئ.. عيناها مفعمتان بأشياء كثيرة.. ولكن عندما أبحث فيهما عن الشفقة، لا أجدها، فأشعربالارتياح.. أنا لا أريد الشفقة، بل الحب.. ترى هل تستطيع أن تهبنى اياه..؟ هذه المرأة التى جاءت الى من خلف المحيط.. هل تريد فعلا أن تعطينى؟.. أم تريد فقط أن تأخذ منى؟.. وما الذى تستطيع أن تأخذه من رجل عاطل، فاشل مثلى..؟ إنها تملك كل شىء.. العلم والمال، وشقة على النيل، ورجالا لا ينتظرون منها سوى اشارة.. ومن يعرف ربما لها زوج، أو عشيق.. لم يخطرعلى بالى أن أسالها من قبل.. أحس بشعرة من الغيرة.. حقا أنا انسان غريب.. هل هذا وقت مناسب لمثل هذه الأفكار..؟.. مازالت تنظر الى،

كأنها تقول: «أنا هنا أمامك بلا دروع.. أقدم لا تخف.. أعرف جيدا كيف أداوى الجروح..»

«نعم سرحت بعيدا.. سرحت فى كثير من الأشياء.. فى أن حياتى سارت فى دائرة كبيرة، ثم عادت الى نقطة البداية.. فى الصداقة، والحب.. فى «أمينة» زوجتى.. وشعورى نحوها.. فى معنى الوفاء.. وفيك أنت يا «روث»..»

أرى وجهها يصعد اليه الدم.. فى العينين بريق.. كالتلميذة عندما تحب.. عندما تبدو هكذا أحس بنفسى منجذبا اليها.. أهو السن أمام الشباب..؟ أهو شعورى بالسعادة التى تفيض منها عندما أتحدث عنها..؟ أهو هذا المزيج الرائع من السذاجة، والحماس؟.. أم هو كل هذه الأشياء..؟ يحدثنى صوت خفى... اذا طالت بكما العلاقة ستصبح أسيرا لهذه المرأة الفاتنة..

«ولكنك لم تقل لى حتى الآن ما الذى أدى الى الفصل.. أم تفضل عدم التحدث فى الموضوع أكثر من هذا؟»

«لا.. طالما فتحته معك لا مانع من مصارحتك بكل التفاصيل.. فصلت بسبب اضراب العاملين.. دخلت الشركة فى مفاوضات مع مؤسسة فرنسية للأدوية والكيماويات اسمها «لاروشيل» لاشراكها فى رأس المال.. وكانت من ضمن الشروط تغيير أنماط الانتاج، والاستغناء عن عدد كبير من العمال.. وعندما علم الناس بهذا أعلنوا الاضراب..»

«وما علاقتك بكل هذا..؟» تنظر الى وتمتص ما أقول فى تركيز جاد..

«اتهمنى رئيس مجلس الادارة بأننى تشاورت فى الأمر مع اللجنة النقابية، وأعطيتها نسخة من الدراسة الخاصة بمشروع الاتفاق التى أعددتها بناء على طلبه..»

«وهل هذا صحيح..؟»

سرح ذهنى من جديد.. نوع من التحفظ ينتابنى عندما تكثر الأسئلة.. غريزة قديمة غرسها الاضطهاد.. ولكن ما الذى سأقوله أكثر مما هو معروف..؟

«نعم صحيح..»

تصمت لحظة.. أرى أنفها يرتعش وخصلة من الشعر تتحرك فى النسيم..

«ولكنى كنت أظن أنك فصمت علاقتك باليسار، وانك تقتصر على كتابة بعض الدراسات..؟»

أشعر بشئ من الضيق.. لماذا تهتم.. انها أمريكية.. وفى بلادنا هذه الأيام اعداد من الرجال والنساء زحفوا على كل المجالات.. شبكة تعمل فى ذكاء.. ترى هل هى منهم..؟ كيف يعرف الانسان.. مسألة تكاد تكون مستحيلة.. ولكن هذا الشك يفسد كل الأشياء حتى علاقات الصداقة مع الذين لا صلة لهم بهذا النشاط.. أحس بالهلال معلق فوق رؤوسنا كالمقصلة فى السماء.. وجهها هادئ الملامح.. توقفت حركته الحية واعتراه جمود التمثال..

«ماهو اليسار..؟ كل من يضرب عن العمل، أو يعارض، أو يحتج، أو يخرج عن اطار تفرضه السلطة بالقوانين الارهابية، وتكنولوجية الأمن تستورد من أصدقائنا الأمريكان..؟»

تحس بالحدة فى الكلمات، فتتراجع قليلا الى الخلف.. ترمقنى بنظرات هادئة، وتلوذ بالصمت.. نبقى نحن الاثنان دون حراك.. أبتلع كوب البيرة، وألوح بيدى فى الهواء فيقترب منا «الجرسون» ويقول:

«نعم؟..»

«زجاجة أخرى من البيرة لوسمحت..»

أمد ساقى فوق الحشيش الأخضر، واتتبع زورقا شراعيا يجتاز النيل وترتفع

منه صرخات وضحكات مجموعة من السواح، فتمزق السكون بصوت أجش.. سحر اللحظات الجميلة لايدوم.. تتبخر كل الأشياء.. أتأرجح هذه الأيام بين الموال، وموسيقى «الديسكو كلاب..» الهواء يحمل الينا صوت امرأة تغنى بالانجليزية «أحضانك كانت ساخنة ليلة الأمس..»

ألتفت اليها وأسأل:

مارأيك فى أن ننصرف..؟»

تهز رأسها بلا مبالاة كأن المسألة عندها سيان.. أدفع السحاب ونصعد السلالم.. تقول بصوت هامس..

«أتريد أن تقود السيارة حتى البيت..؟»

احساسها بى غير عادى كانها تعرف أن جسمى يطلب أن يندمج فى شئ حتى يزول عنه التوتر.. أو ربما تريد هى أن تلقى عن كاهلها مهمة قيادة السيارة.. مدت يدها الى فلمحت كرة أرضية تضىء، ومفتاحا واحدا.. أطراف أصابعنا تتلامس فى برود.. أضع المفتاح فى الثقب.. ينفتح بابى، والباب المقابل. فأحس أننا دخلنا فى نفس اللحظة الى عالم آخر.. يدها كالفراشة البيضاء فى نصف الظلام تشير إلى أجزاء «التابلوه».. استنشق عطرها يتسلل الى كالمخدر البطئ، ويختلط فى جسمى ببقايا الكحول.. ذراعها العارية تلمسنى بين الحين والحين.. أشعر بسحرها يزحف على من جديد.. المحرك يدور بقوته الهادئة، والشبح الفضى ينهب الطريق دون جهد.. أرى أنفها المرفوع فى تحدى، والشفتين الممتلئتين قليلا، والذقن، ومنحنى العنق.. أقاوم الرغبة تصعد من أعماقى، وأركز عينى على الشريط الأسود يمتد لا معا بين المصابيح.. تقترب السيارة ببطء من الرصيف.. أوقف المحرك، وأهم بالخروج أسمع صوتها الناعم العميق..

«أصعد معى يا«خليل»..»..

هناك فى الضاحية «أمينة» والطفل الوليد، وأشياء أخرى كثيرة تدعونى الى أن أتركها تصعد وحدها، وأستقل القطار الأخير.. أجلس صامتا دون حركة..

«أرجوك.. يجب ألا نفترق هكذا..»

وقفت على الرصيف.. مدت يدها وأخذت منى المفتاح..

«انتظرنى لحظة.. سأضع السيارة فى مكان المبيت..»

المصعد يضوى بالألوان الحمراء، والخضراء.. أحس بها قريبة منى.. ترفع وجهها الى وتنظر فى عينى.. الباب من الخشب الثمين، وفيه عين سحرية تقودنى الى الداخل.. أعبر الممر الطويل كاللص يتصور الكنز الثمين عند آخر السرداب.. قلبى يخفق بخيال يتحسس طريقه اليها.. أضاءت الأنوار فى حجرة المعيشة وقالت:

«استرح على «الكنبة» قليلا، واخلع حذائك.. الارهاق يصيب الانسان فى الرأس، والقلب، والظهر، والقدمين.. فهى المواضع الأربعة فى الجسم المعرضة للضغط المستمر..»

تجلس أمامى وتنتظر.. خلعت حذائى كمن يخلع آخر تحفظاته، ويلقى بها من نافذة عالية.. التوتر يتسلل من جسمى، يخرج من كل المسام.. يستولى على شعور بالراحة.. تنظر الى بحنان ساخر كأننى طفل .. تسأل:

«كأس من الوسكى أم دورق من الليمون..؟»

تلقى برأسها الى الخلف وتطلق ضحكة طويلة.. ضحكة سعادة بالحياة، وثقة فيها.. ضحكة امتنان لما ستحمله الأيام، واقدام على ما فيها.. ضحكة استمتاع كامل باللحظة.. ضحكة الانسان الذى لم يعد أى جزء فيه أسيرا.. أحس ناحيتها بالاعجاب، ونوع من الغيرة.. تفك الرباط من حول شعرها وتترك جداوله

الكثيفة.. تلقى به الى الوراء كأنها تتخلص من كل الأثقال.. حركة مميزة تذكرنى بالمهرة الأصيلة تقترب منى.. تجئ الى خفيفة.. أربت على رأسها بيدى، وأنبض بشحنة عميقة.. تميل بجسمها الى الوراء وتلقى الى بنظرة غريبة.. نظرة فيها شوق الأنثى الجريحة.. أصابعها تلمس جفونى، وعينى، وشفتى، وذقنى بحنان مختزن كاللهب.. بعصى سحرية كالمغناطيس.. تجذب الى السطح كل المكامن البعيدة.. تفتح المسام والشرايين وتبث الحياة فى الاركان الراكدة الدفينة.. فأحس فجأة أن جسمى يعيش بكل جزء فيه.. أفك أزرار الثياب برعشة المقدم على أجمل لحظات الحياة، على أعظم اكتشاف فى الوجود.. أرى جسمها العارى يرقد أمامى.. أنظر اليه باندهاش، بعدم تصديق كأننى لاأتصور أن يقدم نفسه هكذا الى.. أتتبع ملامحه بيدى تسير مع الخطوط.. ألمح فى عينيها نظرة فيها تساؤل وخوف.. ماذا ستصنع بى؟.. أبحث عن شفتيها، فتقبلنى.. أحس فيهما بالعطاء والاحجام.. جزء من نفسها لى، وجزء لها وحدها تحرص عليه.. كمن تخشى أن تعطى نفسها كاملة لمن لايعرف قيمة ماتعطيه.. فما زالت عيناها تقولان.. اذا أعطيتك نفسى ماذا ستصنع بى..؟ أصابعى تلمسها فى حنان جرئ.. نهدها الواثق من شبابه، واستدارة البطن، والظلال الأنثوية.. فمها يبحث عنى الآن، يتلهف للقاء، يمتصنى الى مكان بعيد نلتقى فيه وحدنا.. أغلق عينى فأشعر أننى أطير.. شعرها الكستنائى كاللهيب الغامض، كالعرف فى الريح.. تلقى برأسها الى الوراء، وتتخلص من كل الأحمال الثقيلة.. كالمهرة الأصيلة، تقترب منى، وتجئ الى خفيفة.. أربت على رأسها.. ننطلق فوق الطريق بجسم واحد كأننا نمتطى الريح، أو أمواج المحيط.. على يسارنا الأشجار المائلة تلمس شريان الألوان السائلة، وعلى يميننا الحقول الممتدة حتى رؤى العين.. نمرق فى اتجاه الشمس.. قرص أحمر يصعد، ويهبط، ويميل، ويشتعل فينا.. نبحث، ونبحث بكل ما فينا من حنان مختزن، عن عطاء كامل نذوب فيه.. نكتشف عالما فى أعماقنا كأننا

عرفنا بعضنا منذ زمن بعيد.. نهتدى إلى الأسرار بالرغبة الجامحة، والحس العميق. نفترق، ونلتقى فى كل لحظة بيسر غريب، فتنمو فينا بؤرة اللذة، كالدوامة تبدأ صغيرة ثم تتسع، وتتسع حتى تستولى على كل الأجزاء.. تسحبنا فى سرداب، وترتفع بنا إلى قمة عالية.. فتتلاشى من حولنا كل الأشياء لتبقى هى دون سواها.. ثم تسقط كالشلال إلى قاع النسيان، وتحول الوجود إلى فناء..

احاطتنى بذراعيها وقبلتنى.. تنظر إلى فى اندهاش.. أقرأ فى عينيها سعادة مشرقة، وامتنان.. تقبلنى مرة أخرى وتقول «أشكرك..» أحس بجسمها الدافىء يرقد إلى جوارى.. ألف ذراعى حول خصرها، وأغلق أصابعى المتشابكة كالغارق يتعلق بجذع شجرة حمله النهر اليه.. احتوى ردفيها، واحتويها كالأم تلتف حول جنينها.. صدرها يعلو ويهبط بحركة بطيئة.. أنظر إلى عينيها المغلقتين، ووجهها البرىء.. هذه المرأة أيقظت فىّ أشياء لم أعرف أنها موجودة.. كأننى كنت أحيا بأجزاء مشلولة.. لأول مرة يشعر جسمى بكامل وجوده.. بكل الخلايا تنبض.. بقدرات كامنة، ورغبات ظلت مدفونة.. أتأمل وجهها الخالى من المساحيق. الفم الجميل، والشفاه الممتلئة قليلا.. والبشرة الصافية، والرموش الطويلة.. أتعجب كيف تنام فى استسلام بين ذراعى كأننا كنا ننام هكذا منذ بدء الخليقة..

ظللت مستيقظا مدة طويلة.. ثم انزلقت إلى عالم اللاوعى على سحابة كانت تنتظرنى لتحملنى بعيدا.. أفقت فى الصباح على الشمس تسقط علينا من النافذة المفتوحة.. التفتت إلى جوارى.. تنام عارية.. أمواج بيضاء، ونعومة ترتفع، وتهبط بحركة بسيطة، وهالة الشعر تحترق بنار عميقة.. أنفها المتجه إلى أعلى يقول «أنت تعجبنى»، وظل الأبط غامضا مثيرا.. أدور بعينى حول الحجرة.. يستولى على شعور بالرغبة الأليفة، كأننى عدت إلى بيتى بعد غيبة طويلة.. الخشب الداكن الوثير، والألوان، والكريستال، والمصابيح.. وعلى الجدار صورة فلاح يتوضأ فى الترعة.. وجهه تحيطه الظلال، ومن خلف ظهره تغرب

الشمس.. عالم الأمس بعيد، والوجوه فيه ضائعة وسط الغيوم تبث فىّ إحساس الكاره للقتال، الهارب منه..

أنظر اليها من جديد.. تشع حولها الدفء كالطفل ينام فى السرير.. تغط فى نوم عميق خالية البال، تاركة نفسها لراحة الجسم، والعقل فى اطمئنان.. أضع كفى على ظهرها.. تتململ ثم تفتح عينيها.. أغرق عينى فى عينيها لحظة طويلة، فأردك أنها ليست هنا، وإنما فى مكان ما من العالم الواسع.. أو ربما فى ركن خفى.. أنا بالنسبة اليها غير موجود.. أنا خارج الحدود.. أقف على الباب ملغيا، مطرودا.. أشعر بالأسى.. أبحث بيدى عنها عسى أن تعود.. تنظر الى فى شرود كأنها، ترانى.. عيناها غشيتهما طبقة جليد، أو حديد، أو حجر.. كالتمثال الأعمى.. جميل، ولكنه صب فى الجمود.. فى اللا احساس.. وفجأة يرتفع الستار وتبتسم الى بسعادة.. تضع ذراعها حولى، وتقرب جسمها الىّ فأشعر بحركة صدرها وبطنها على.. تقبلنى، وتقول:

«صباح الخير.. كم أنا سعيدة بوجهك أفتح عليه عينى.. أنظر للشمس كيف تسقط علينا.. أحب بشرتك الخمرية فيها صحة، وجمال ليس كهذا البياض المريض.. تشير إلى نفسها..

أضحك فى سرور.. «أراك أجمل منى بكثير»

«الإنسان لا يرى نفسه، بل يراها من خلال الآخرين..»

تحتضننى، وتقول: «ماذا سنفعل اليوم..؟»

««أمينة» تنتظرنى فى البيت».. نظراتى تتوه.. «لا بد أنها قلقة على.. «كان يجب أن أتصل بها، ولكنى تهربت من مواجهتها فى التليفون».. أرفع يدى بحركة لا ارادية كأننى لا أعرف ماذا أفعل. «أنا محتار»..

ترد بسرعة.. «إذن ابق معى.. استرح أنت هنا، وسأعد الافطار.. «جعفر»

فى اجازة لحسن الحظ»..

««جعفر..؟» آه الخادم..».

«ليس خادما بالضبط.. إنه متعلم.. يدق على الآلة الكاتبة، ويطبخ وينظف الشقة، ويقود السيارة عندما أريد..»

«رجل عنده كفاءات كثيرة.. ليس من السهل العثور على شخص مثله.. لا بد أنه يوفر عليك وقتا ثمينا.. أنت محظوظة.. ربما لو كان عندى مساعد مثله لأمكننى انجاز بعض الأشياء.. أو ربما أبحث عن الحجج... والخطأ الحقيقى فى..»

«لماذا تقلل من قيمتك؟»

«أى قيمة لرجل لا يريده المجتمع الذى يعيش فيه..؟»

«قيمته هو الأصيلة، وقدراته، وشخصيته..»

«وما فائدة كل ذلك ان كان لا يستفيد منها أحد..؟»

«فليستغلها هو..»

«ليس هذا بالسهولة التى تتصورينها.. فالإنسان يجب أن يعثر على لقمة العيش أولا..»

تنظر الى بثبات فيه شىء من الحزن.. ثم تضحك، وتقول:

«طالما انك تحدثت عن لقمة العيش، فأنا كالعادة أحس بالجوع.. ماذا تريد للافطار..؟»

«أمصرة أنت على الأفطار الآن..؟»

«لا يمكن أن أنتظر الساعة قاربت على العاشرة.. ماذا تريد أن تفعل إذن..؟ أن نرتدى ملابسنا، ونجلس على الشرفة.. الجو رائع اليوم، وستجوع بسرعة.. ما

رأيك فى أن نذهب إلى حمام السباحة، ونقضى جزءا من اليوم هناك؟.. أنا سعيدة، وبى رغبة شديدة الى الاستمتاع..»

أنظر اليها فى صمت، ثم أسألها..

«أتعرفين ماذا أريد؟»

تحملق فى بنصف ابتسامة، وتقطب جبينها قليلا..

«أريد أن نصبح أنت وأنا شيئا واحدا كما كنا بالأمس..»

تهمس..

«وأنا كذلك.. انتظرنى قليلا.. سأعود اليك..»

غابت لحظات فى الداخل، وعادت ترتدى جلبابا خفيفا.. أرى جسمها يتحرك داخله كالأمواج البطيئة.. ترقد إلى جوارى، ثم تنساب إلى ذراعى بحركة أكاد لا أشعر بها.. تضع كفها الساخن على وتلمسنى، فأشعر بتيار يصعد، ويهبط كالشحنة الكهربية.. وبقوام هلامى فيه قوة خارقة.. تحتوينى بفمها، وجسمها، وساقيها.. لا تنتظرنى هذه المرة.. تلقى جانبا بالأستار والسدود، والحواجز الأنثوية.. لا تتردد فى تسليم نفسها الى، ولا تحجب عنى أى جزء من أجزائها الظاهرة أو الخفية.. تعشقنى كما لا تعشق إلا المرأة التى اطمأنت نهائيا.. تعرف أنها بين يد أمينة، وأصابع فيها لمسة، فنية.. يصعد تيار الحب من داخلها كالنبع الساخن المضغوط بين طبقات الأرض الصخرية.. فألقى جانبا بالأستار، والحواجز والسدود الذكرية.. لا أتردد فى تسليم نفسى اليها.. كل جزء فى جسمى يتجاوب مع كل جزء فيها، وأهبها كل أجزائى الظاهرة والخفية.. أعشقها كما لا يعشق إلا الرجل الذى أطمأن نهائيا.. أعرف أننى بين أيد أمينة، وأصابع فيها لمسة فنية، ويصعد تيار الحب من داخلى كالنبع الساخن المضغوط بين طبقات الأرض الصخرية..

نرقد على السرير، ونمد أجسامنا عليه بذلك التعب اللذيذ الذى يأتى بعد أن يعطى الإنسان كل ما فيه.. تهمس فى أذنى..

«أحبك.. لم أعرف فى حياتى مثل هذه اللذة الجنسية.. عرفت كيف تلمس المرأة والإنسانة فى.. أحبك، ولن أضر بك أبدا..»

«وما الذى يجعلك تقولين هذا..؟ هل حدث أن فكرت فى الإضرار بى؟»

تغيب فجأة فى هذا العالم البعيد الذى لا أصل اليه. تغلق الباب الحديدى على.. لا تترك بصيصا من النور ينفذ منه الى.. يبدو عليها الحزن، والارهاق، وشىء كالخوف الغامض، كالانشغال بالمخاطر الخفية.. ثم تعود الى كالطفلة النقية..

«لا.. أبدا.. خواطر تحلق فى ذهنى.. أشياء غير منطقية.. كلما أتاحت لى الحياة، سعادة حقيقية، أو انتصار، أو حققت شيئا. أتوجس من اللحظة القادمة، كأن السموات تغضب عندما يسعد الإنسان.. شعور بعدم الاطمئنان يطاردنى ليل نهار..»

«وهل أنت غير مطمئنة الآن؟»

«لا على العكس.. أنا مطمئنة اليك تماما.. أحس بالراحة بين يديك.. لا أخشى الغدر أو العدوان.. عندما نمت فى أحضانك عدت إلى أيام الطفولة.. أنام على صدر أمى فأحس أن الدنيا أمان..»

«أنا أحس نحوك أيضا بالراحة، والامتنان.. لم تحجبى نفسك عنى.. ولكن فى بعض الأوقات أتوجس أنا أيضا خيفة..»

«متى..؟»

«عندما أحس بك وقد انتقلت فجأة بعيدا عنى.. إلى مكان ما فى العالم

الخارجى، أو العالم الداخلى الخاص بك.. فأشعر أنك غبت عنى، وأنك لن تعودى.. أن امرأة أخرى هى التى توجد إلى جوارى.. عندئذ أتساءل: أى امرأة أنت؟ هل تلك التى أراها أمامى، ألمسها، وأعشقها، وأتبادل الأفكار والأحاسيس معها..؟ أم امرأة أخرى لا أعرفها.. أين «روث هاريسون» الحقيقية..؟»

تنظر الى بشىء كالفزع، كأننى اكتشف ما تحاول أن تخفيه.. تضع يدها على ذراعى وتقول:

««خليل».. أرجوك.. أنت تحس بى أكثر من اللازم.. فى كل إنسان ركن مظلم أو حدث، أو عقدة من الماضى، يتخلص منها بالتدريج.. ولكن الحب لا يعنى غزو الإنسان، والاستيلاء عليه.. هناك أجزاء تبقى خاصة به، ملكه وحده، لأنها تتعلق بالآخرين.. أو حتى به وحده.. وهو غير قادر على تجاوزها، أو البوح بها، ربما لأنه يخجل منها، أو يخشى على الآخرين.. أريد فقط أن تثق فى، أن تتيقن كما قلت لك منذ لحظات أننى لن أفعل أبدا ما يمكن أن يضر بك.. فأنت إنسان عزيز على، ولن أنساك.. ما كنت أتصور أن يقترب اثنان من بعضهما مثل ما تقاربنا فى هذه المدة القصيرة.. أصبحت أحملك «تحت جلدى» كما يقال عندنا..»

أقبلها على عينيها، وجبهتها، وأنفها المتمرد.. أمسح بيدى على شعرها وألمس بأصبعى حلمة النهد، فينكمش، ثم ينتصب فى احمرار الورد..

«كف عن هذا، وإلا ظللنا نعشق بعضنا طوال اليوم..»

«وما العيب فى ذلك؟»

تضحك

«فعلا، ما العيب..؟ ولكنى عندى بعض الأعمال التى أريد أن أنجزها.. وأنت أليس عندك شىء..؟»

أحس بقلبى تعتصره أصابع الحزن، وبالكآبة تزحف علىّ..

«لا.. ليس عندى شىء..»

تنظر إلى بحنان.. تمسح على رأسى بيدها..

«يا حبيبى».. تصمت لحظة ثم تقول..» عندى فكرة ستستهويك.. سأعد طعام الإفطار، وبعد ذلك نذهب إلى حمام السباحة..»

«أنا فعلا جعت.. ولكن بعد الافطار لا بد أن أنصرف.. «أمينة» ستقلق على.. لم أبلغها أننى سأبيت فى الخارج.. وفى هذه الظروف ستظن أن شيئا ما ربما حدث لى.. أشعر أننى أخطأت فى ذلك خطأ جسيما..»

عيناها العسليتان فيهما دفء..

«فعلا.. كان المفروض أن تتصل بها تليفونيا..»

«أمتزوجة أنت؟»

«نعم..» تصمت..

«وأين زوجك..؟»

«فى الولايات المتحدة..» تصمت مرة أخرى..

«ولكن ليس عندك أطفال..»

«كيف عرفت..؟»

«من حلمة النهد..»

تضحك..

«يبدو أنك رجل خبير بالنساء..»

«لا.. بالعكس.. علاقاتى بهن ظلت محدودة..»

ترفع جسمها من السرير، وترتكز على مرفقها.. أرى وجهها يميل على.. تضع شفتيها على فمى وتتركها لحظة طويلة.. أحس بروحى تغيب..

«هه.. سأقوم، وإلا لما قمت حتى المساء».. أرى جسمها العارى من الخلف.. الردفين المستديرتين، والخصر، والظهر المنساب فى قوة، ورقة، والشعر الطويل ينلدسل عليه..

تعود بعد قليل.. شعرها، ووجهها، وجسمها مبللة بالمياه.. تقبلنى فأحس بطراوة الأنهر فى الجبال، ورائحة الطبيعة، والماء..

نجلس على مائدة الافطارالمستديرة.. تناولت حماما باردا، وارتديت ثيابى، والحذاء.. أما هى فتمشى على قدمين عاريتين، وتلف جسمها فى الجلباب.. شهيتنا نحن الاثنان مفتوحة للأكل.. نشرب الشاى، ونلتهم طبقا من البيض المقلى بالزبد، وشرائح من الخبز المقدد. الشمس صعدت فوق العمارات.. السماء نقية زرقاء لا تشوبها تلك الغيوم المعتادة فى جو القاهرة، والنيل كالعجوز يبرق بملايين التجاعيد الصغيرة، وينساب هادئا، مطمئنا بين الضفاف.. قلت:

«والآن.. لا بد أن أنصرف..»

«قبل أن تنصرف يا «خليل» أريد أن أسألك..»

أنتظر حتى تكمل كلامها..

«أنا لا أريد أن أتدخل فى شئونك، ولكن إذا افترضنا أننى أستطيع أن أساعدك فى مسألة العمل، فهل لديك مانع..؟»

يفاجئنى السؤال.. أشعر بالضيق.. كنت أفضل أن تبقى علاقتنا كما هى.. ألا تتدخل فى حياتى.. ولكن ربما يكون هذا مستحيلا، كيف يمكن الفصل بين

حياتى، وبينى..؟ موضوع العمل هذا.. أريد أن أتعامل معها على قدم المساواة، فإذا ساعدتنى سأصبح مدينا لها.. ولكن لماذا لا أتركها لتعرض ما تفكر فيه..؟ سأفهم منها أشياء جديدة عن حياتها هنا، وعلاقاتها، وماذا تفعل، وما تريد.. ثم ربما قدمت اقتراحا مفيدا.. أنا فى أشد الحاجة إلى من يساعدنى.. هذا ما يضايقنى فى عرضها بالتحديد.. أنه يجعلنى أحس بالفارق بينها وبينى.. هى فى قمة المجتمع، وأنا فى الحضيض.. لن أخسر شيئا على كل حال.. أستطيع أن أرفض مساعدتها، إذا لم يرقنى ما ستعرضه على.. ولكن إذا رفضت منذ الآن ستغلق بيننا أبواب التفاهم فى نواح كثيرة..

تظل صامته حتى أرد.. تتركنى أسرح كما أريد.. عيناى تتبعان مياه النيل.. رغم كل الصراع الدائر منذ عشرات السنين ما زال أمثالى مطاردين..

«لا مانع لدى من حيث المبدأ.. فيكف يرفض عاطل مثلى المساعدة؟»

لم تعجبها نغمة السخرية.. أرى التقطيبة الصغيرة فوق الحاجبين، وجدية النظرة فى العينين..

«أنا لا أريد أن أتدخل.. فاذا طلبت منى أن أترك الموضوع سأتركه.. ولا أريد أن أعطيك نصائح، فأنت لست فى حاجة اليها.. ولكنى لا أستطيع أن أراك تعانى، وأقف معقودة اللسان، مكتوفة اليدين.. المرارة لن تحل شيئا، وأنت لديك أسباب كثيرة للضيق.. ولكن ربما تكون بعضها وهمية..»

«وهمية!؟.. الظروف التى نعيشها الآن ليست وهمية.. أنها واقع حى.. وأنتم تلعبون فيها دورا أساسيا..»

«نحن من..؟»

«أنتم الأمريكان..»

تصمت لحظة كأنها تصارع نفسها لتحتفظ بالهدوء..

«أولا أنا حريصة ألا نتناقش فى السياسة لأننا سنختلف.. ولكن ما أريد أن أقوله هو أن الشعب والحكومة فى كل بلد مسئول عن شئونه.. فلا تبحث عن شماعة لتعلق عليها قصوركم.. ثانيا الحكومة الأمريكية مكونة من بشر.. والبشر يصيبون، ويخطئون.. نحن نحاول أن نساعدكم، ولكن ربما لم نوفق فى الأساليب..»

أنظر اليها فى غضب.. هل تتغابى..؟ حاصلة على مؤهلات علمية، وتبحث فى مشاكل التنمية الخاصة بالعالم الثالث، ثم تقول هذا الكلام الساذج..

«ليست شماعة.. فى السنين الأخيرة أصبحنا فى كنف الأستعمار الجديد.. وأمريكا هى المحرك الرئيسى فى كل السياسات الحالية.. والحديث عن النيات، والأخطاء البشرية حجج لا تقدمها حتى الدوائر الحاكمة فى أمريكا.. أنها تدافع بصراحة عن مصالحها فى إسرائيل، ومصر، ومنطقة الخليج العربى..»

الجو بيننا تكهرب.. أرى سطح عينيها كالغطاء المعدنى، بارد، قاتل.. ما الذى جرى؟.. صراع الأفكار والمصالح عندما يحتدم.. وصراع بينى وبينها.. هى فى قمة المجتمع وأنا فى القاع.. ما الذى جعل العلاقة بيننا تقوى هكذا..؟ ما الذى يجعلها فى لحظة على شفا الانفجار؟.. أبذل جهدا حتى أسيطر على نفسى.. أسمعها تقول:

«يا «خليل».. دعنا من هذه المناقشة السقيمة.. ستفسد علينا الأشياء.. أنا أفكر الآن فيما هو أهم، ولا أريد أن نختلف أو نغضب..»

أطل من النافذة على النهر الهادىء.. لها حق.. المسائل لن تحل بمناقشة بيننا.. فلاعطيها فرصة حتى توضح ما يدور فى ذهنها.. أظل صامتا، فتعيد الكرة.

«يا «خليل» ماذا قلت؟..»

أحب الطريقة التى تنطق بها اسمى.. فيها شىء مثير، وفيها حنان حقيقى.. لا أستطيع أن أصارع على كل الجبهات

«أنا مستعد لسماع ما تقترحينه..»

«يجب أن تقول لى الأول ماذا تريد.. هل تريد أن تعمل فى القطاع العام.. أم فى القطاع الخاص.. أم فى شركة أمريكية..؟»

رنت كلمة شركة أمريكية فى أذنى.. قررت أن أتغاضى عنها.. هل تستطيع هى أن تساعدنى فى أى مجال اختاره.. سألقى باقتراح يروق لى، وفى نفس الوقت يبين مدى اتصالاتها..

«أفضل وضع عندى هو أن أعود إلى وظيفتى فى «شركة طيبة للأدوية..»

تحملق فى وجهى بشىء من الاستغراب، والضيق..

«ولماذا الاصرار على هذه الوظيفة بالذات..؟»

«تناسبنى لعديد من الأسباب.. قريبة من البيت.. فى مجال أفهم فيه أكثر من غيره.. وربما فى أعماقى أريد أن أرد على هذه الحقارة التى عوملت بها من قبل الكثيرين.. وأن أعود رغم أنفهم إلى المكان الذى يحق لى..»

«ولكن ربما يكون هذا الاختيار صعب المنال..»

«طالما انك قادرة على مساعدتى فى أغلب المجالات، فيبدو لى أنك صاحبة نفوذ»

مرة أخرى تنظر الىّ فى ضيق.. أشعر أنها تبذل جهدا كبيرا للتغلب على التوتر الذى ما زال مسيطرا فى الحديث.. ربما عندها الاحساس أنها لم تكن حريصة بالقدر الكافى.. تدور فى ذهنى تساؤلات كثيرة.. تتبخر عندما تقترب ونبث بعضنا العواطف.. وتتجمع كالسحب الداكنة كلما أثيرت الأشياء التى تجعلنا

«لست صاحبة نفوذ كبير.. كل المسألة أننى أحاول أن أهتدى إلى ما يرضيك.. لذلك سألتك عن المجالات المختلفة.. ولكن هذا لا يعنى اطلاقا أننى أستطيع أن ألبى رغباتك بالتحديد.. لى بعض العلاقات، والأصدقاء بحكم عملى العلمى.. ولى روابط وثيقة مع عدد من الجهات.. ولكن قبل أن أتناقش مع أحد لا بد أن أكون واضحة حول ما تريد..»

أشعر بالاعياء الشديد، والتوتر.. هذه المناقشة لا أعرف لماذا أثارت فى نفسى مشاعر كثيرة.. أكره فكرة تداخلها فى هذه المواضيع.. فى أعماقى أمل دفين أن تنجح، وأمل أن يصيبها الفشل.. عندما أنظر اليها تبدو جميلة، ولكنه جمال الملكة يرنو اليها التابعين..

«وإذا ساعدتنى ماذا يكون الثمن..؟»

تطلق غضبها يخترق ما أقامته حول نفسها من هدوء عنيد.. أرى عينيها تشتعلان، وجسمها ينتفض تحت الثوب الرفيع..

«لم أكن أتصور أنك تختزن المرارة لتطلقها على أقرب الناس اليك.. أنا لا أحتاج منك شيئا.. ولم أتعود أن أطلب مقابلا من شخص مثلك اعتبره صديقا.. أنا لا أفهم كل هذا الغل الذى أظهرته منذ أن اقترحت عليك أمرا يبدو بسيطا.. إذا كنت ستكرهنى لأننى أساعدك.. إذا كنت لا تحتمل أن تتعامل مع الحياة بطريقة ليست فيها تعقيد.. إذا كان التعاون الإنسانى العادى سيسمم الجو بيننا، فإنس الموضوع تماما.. أنا مستعدة لأن أسحبه.. ولكنه ليس من العدل أن تنتهز كونى حريصة عليك، وعلى مشاعرك لتؤلمنى بهذا الأسلوب السخيف..»

تملكنى شعور بالندم.. لماذا أنفعل بهذه الطريقة؟ ليست هذه حالتى العادية.. ربما تكون ظروف الفترة الماضية.. فى أعماقى شعور بالإهانة منذ أن تسلمت

خطاب الفصل، وذهبت إلى مكتب المدير الإدارى.. كان يجب ألا أذهب اليه.. ربما أبحث عن مبررات.. تصرفاتى مع «روث» حقيرة، ومع «أمينة» أكثر حقارة. ما الذى جرى لى؟ إن لم أتمالك نفسى ستكون العواقب وخيمة.. لم يمض على فصلى شهر، وأصبحت فى هذه الحالة السيئة.. فاذا ما استمر الوضع الحالى مدة طويلة، إلى أين ستنتهى بى الأمور..؟

أظل صامتا دون أن أجيب... أخيرا رفعت عينى إلى وجهها.. وجدتها مطرقة إلى الأرض كأن حملا ثقيلا حط عليها..

«يا «روث» فلنناقش هذا الموضوع فيما بعد.. حالتى الآن ليست طبيعية، ولا أريد أن أسبب لك ضيقا، أو أن أستمر فى مشاحنات من هذا القبيل.. أنا آسف على ما جرى.. ويستحسن أن أنصرف الآن، وعن قريب سأتصل بك..»

قمت من جلستى.. أوصلتنى حتى الباب.. قبل أن أخرج مددت لها يدى.. أصابعها فيها تحفظ.. استدرت، وخرجت من الباب.. سمعته يغلق خلفى بصوت حاد، كأنه يقول لى: لا داعى لأن تطرقنى من جديد..

عندما عدت إلى البيت لم أجد «أمينة» ولا «عصام».. أصابنى القلق.. ترى أين هى؟ ربما ضاقت من الانتظار فخرجت معه فى الهواء الطلق، أو انشغلت على وذهبت لتبحث عنى فى الأماكن التى تعودت أن أرتادها، أو عند الأصدقاء.. أو ربما قررت أن تنفصل عنى.. أصابنى شعور من الفزع لهذه الفكرة وزاد التأنيب الذى تملكنى منذ الصباح.. لا أظن أنها ستتصرف بهذه الطريقة خصوصا الآن.. كل ما حدث هو أننى تغيبت عن البيت ليلة واحدة دون أن أتصل بها.. ولكنى لم أفعل هذا أبدا منذ أن أصبحنا زوجين، بل منذ أن تدعمت بيننا العلاقة قبل الزواج.. كنت حريصا دائما على ابلاغها بكل خطواتى حتى لا أسبب لها أى انزعاج.. شعورى بالاثم هو الذى يضخم المسائل، ويجعلنى أفكر فى مثل هذه

الاحتمالات، ولكن ربما علمت أين قضيت الليلة.. أحس بالفزع يعود، ويشل تفكيرى.. لا.. هذا مستحيل.. لا بد من ايقاف تخيلاتى المريضة.. ستجىء بعد قليل، واكتشف أنها كانت فى نزهة مع «عصام».. أجلس على الكنبة فى الصالة، أبث فى نفسى الأطمئنان.. ولكن فى الأعماق ينمو القلق من جديد.. ماذا سأقول لها عندما تحضر؟ ليس من السهل أن أكذب عليها، وأنا لا أجيد التمثيل.. فى المرات السابقة كان أسهل على أن أختلق المعاذير... لم تكن علاقتى «بروث» قد وصلت إلى ما وصلت اليه الآن.. ولو أنى حتى فى ذلك الوقت كنت أحس بتأنيب الضمير.. حقيقة ربما أخفيتها عن نفسى، أو تعمدت ألا أواجهها بشكل صريح.. منذ اللحظة الأولى كنت على استعداد لخوض التجربة المثيرة.. رغم المظهر الخارجى، لم يكن امتناعى عن الاتصال بها سوى وسيلة لمعرفة مدى حرصها على استمرار العلاقة الناشئة.. انتابنى شعور غامض لا يسهل تحديده.. هذه المرأة حريصة على أن تتدعم أواصر العلاقة الجديدة.. كنت سعيدا بهذا الشعور لأسباب كثيرة.. حياتى السابقة حرمتنى طويلا من التجارب الأنثوية.. السنين تمر والشيب يجرى فى شعرى الأسود بمكوك الزمن.. احساسى بأننى أريد أن أعوض ما فات قبل أن يولى الشباب.. وهذه المرأة بالذات تعيدنى إلى بيئتى القديمة، والتى ما زلت أحن اليها أحيانا.. النظرة للجمال، وسحر الأشياء لا تنفصل عن نشأة الإنسان.. ولكن ربما يكون السبب الرئيسى هو الاحباط الذى أعانى منه، والذى اشتدت وطأته مع الأحداث الأخيرة.. فعندما اهتمت بى «روث» شعرت أنها تنتزعنى من بئر سحيق، وترفعنى معها.. لم يهتم بى أحد بهذه الطريقة.. لا الأصدقاء القدامى، ولا «سعيد».. ولا حتى «أمينة».. فأمينة أقرب الناس إلى.. إذا سرت معها بنفس خطواتها الطموحة تبقى العلاقات بيننا سوية.. ولكن إذا تخلفت أنا أدارت ظهرها، وانصرفت إلى الآفاق البعيدة.. أمر طبيعى إلى حد كبير.. ولكنه يعيدالىّ الذكريات الأليمة..

فى الأيام الأخيرة أصبحت تتحمل وحدها أعباء ثقيلة.. ولا أ ستطيع أن أطلب منها أكثر مما تعطيه.. ومع ذلك تولد عندى مزيج معقد من الادراك لوضعها والكبرياء الذى أخفيه.. هكذا بالتدريج.. ترتفع بيننا الجدران، نقف أمامها عاجزين.. شىء كالقدر الصامت، كالمصير يصيبنا بالبكم والصمم..

أتجول من حجرة إلى حجرة.. أشعر بالمنزل الخالى فتسيطر على الكآبة.. ماذا سأقول لها عندما تعود..؟ لن أستطيع أن أكذب عليها.. ما قيمة العلاقة التى بيننا أن تحولت إلى زيف.. إلى هروب من الصدق والنور.. إلى التوغل فى الأركان العفنة.. إلى كلمات جوفاء، وقبل خائنة.. لا بد أن أصارحها بالحقيقة.. ولكن كيف أقوى على ذلك..؟ هذه المرأة التى أخلصت لى، وأخلصت لها.. كيف أكذب عليها..؟ فما أفظع الكذب.. ولكن كيف أطعنها فى هذا الوقت بالذات؟.. كيف أجلس أمامها وأقول فى هدوء.. «بالأمس كنت فى أحضان امرأة أخرى.. وأنا أشعر نحوها بعاطفة قوية..» وهل يستطيع الرجل أن يحب امرأتين..؟ وهل تستطيع المرأة أن تحب رجلين..؟ من يستطيع أن يجيب على هذا التساؤل..؟ من يستطيع أن يتقبل المشاركة فى الحب؟.. فالحب دون سواه لا يقبل الازدواج.. أنه أحادى الطبع.. فالحب ملكية مطلقة أليس كذلك..؟ أنا لا أستطيع أن أحارب تاريخا يمتد آلاف السنين.. منذ أن ظهرت ملكية المالك للأرض، والسيد للعبد، والرجل للمرأة... أنا لا أستطيع أن أجرح شعورها، أن أطعنها فى القلب.. أسهل على مئات المرات أن أطعنها سرا حتى لا تشعر.. أن أطعنها من الخلف.. أنا لن أغير الكون، ولا سنة الحياة التى ما زلنا نؤمن بها حتى الآن.. أنا رجل حساس.. أنا جبان.. أنا رجل إنسان.. سأقف أمامها إذن وأكذب دون أن يطرف لى جفن..

* * *

أحسست بيد تمر على رأسى برفق.. فتحت عينى ووجدت «خليل» يميل على.. ملامحه زادت فيها الغضون فى الأيام الأخيرة، وخيوط الشيب تزحف بسرعة.. الأنف تضخم فى الوجه النحيل.. خطر فى بالى فجأة أنه يقترب من الخمسين.. هذه أول مرة أتنبه فيها إلى سنه.. فرغم الظروف التى مرت عليه كان يبدو شابا، لم يخلف فيه الزمن سوى أثارا قليلة.. لاحظ عينى تتأملان وجهه فابتسم الىّ وقال:

«صباح الخير.. فيما تفكرين..؟»

سكتت.. ما زالت بقايا النوم تثقل على، وتحول دون أن أفكر بسرعة..

«لا شيء.. كنت أحاول أن ألم اشتات عقلى تبعثرت فى ظلام الليل..»

«وهل عثرت عليها..؟»

«ليس بعد، ولكنى أجمعها بالتدريج..»

ضحك..

«فكرت فى أن أغادر البيت دون أن أوقظك، ولكنى خشيت أن تقلقى على، خصوصا فى هذه الظروف.. أريد أن أصل إلى الشركة مبكرا.. الاضراب سيبدأ اليوم فى ساعة لم تعلن بعد.. ماذا ستفعلين اليوم..؟»

قلبى يسقط، ثم يقفز فوق الضربات.. كلمة اضراب هذه تثير فى خيالى منظر جيوش من الشرطة يزحفون، ويضربون دون رحمة فى أجسام الناس.. أرى الأطراف المكسورة، والجروح يسيل منها الدم، فارتعش.. ذكريات المظاهرة الوحيدة التى شاهدتها عن قرب.. كنت أيامها تلميذة فى مدرسة «السنية» للبنات.. خرجنا فى موكب.. أوقفنا حركة الترام، والسيارات.. عندما وصلنا إلى ميدان «لاظوغلى» التقينا بآلاف الطلبة، والطالبات جاءوا من الجامعة فى «الجيزة»، ومن كلية الطب.. التقت الجموع أمام مجلس الأمة.. السماء فوقنا زرقاء، والجو جميل.. وأنا سعيدة بهذه التجربة.. البنات يغنون الأناشيد، والشبان يهتفون للحرية، والوطن، والاستقلال.. أيدينا متشابكة، وأقدامنا على الأرض تطير كالحمام. وفى قلوبنا بهجة الاحساس بالقوة، والاتحاد.. ثم فجأة لمحت فى الشوارع الجانبية جموعا من الشرطة كالأنهر السوداء.. تدفقوا من كل ناحية، وحاصروا الشباب فى الميدان، ثم انهالوا عليهم بالعصى الطويلة.. إلى وقتنا هذا استيقظ من الأحلام، واسمع صوت ارتطام العصى بالأجسام، وصرخات الاستغاثة ترتفع فى الجو.. ينهمر العرق من كل المسام، وأبكى.. أسمعه يقول فى هدوء..

لا تنزعجى.. أنا بعيد عن العنابر.. وإذا حدث شىء أعتقد أنهم سيتفادون الإدارة، والموظفين الكبار.. هدفهم الأساسى سيكون العمال..»

««وسعيد؟»»

يصمت لحظة ثم ينطق الكلمات كأن عقله يسرح..

«سيكون كعادته فى قلب المعركة..»

يربت على رأسى، ويقبلنى..

«لا بد أن أسرع، وإلا تأخرت.. لا أعرف متى أعود بالضبط.. أحس بالقلق لا بسبب الاضراب فحسب، ولكن من أجلك.. يبدو لى أن ميعاد الولادة اقترب..»

«أنا لا أشعر بشىء حتى الآن.. إذا دعت الحاجة سأطلب من جارتنا «محاسن» أن تبقى معى هنا.. أنها أم لأربعة أطفال، ويمكن الاعتماد عليها..»

يضع يده على كتفى.. تبدو على وجهه الحيرة..

«لولا الاضراب لتغيبت عن العمل.. أنا لا أحب أن أتركك وحدك، وأنت فى هذه الحالة..»

«اذهب أنت.. ليس من المقبول أن تتغيب فى مثل هذا اليوم.. ربما قالوا أنك تتهرب.. أنا أعرف كيف أتصرف، فلا تقلقى على..»

أسمع صوت الباب الخارجى يغلق.. أتصوره يمشى بخطوته السريعة تحت الشمس.. أراه من الخلف.. الظهر المحنى قليلا، والذراعين يحركهما بطريقة مميزة.. أحس بنفسى قريبة منه اليوم.. ربما الاحساس بالخطر، واهتمامه بى، والحنان الذى تبثه إلىّ لمسات أصابعه..

قمت من السرير، وتوجهت إلى الحمام.. غسلت أسنانى بالفرشاة.. ملأت الحمام بالماء الساخن وأفرغت فيه كيسا من الأملاح المعطرة.. رأسى ما زالت ثقيلة، وفى ظهرى ألم ممض يغزونى كالموجات.. أتحرك بصعوبة كأن عضلاتى مرهقة، عاجزة عن الانقباض.. عندما أضع يدى على بطنى أشعر تحتها بشىء كالتقلصات، فتصبح كالكرة الصلبة.. جففت جسمى بمنشفة حمام، وارتديت قميصا واسعا، وجلبابا، ثم توجهت إلى المطبخ، وأشعلت الموقد.. وبينما أهم لأخذ البراد من الرف انتابتنى نوبة كالسكين ينغرس فى جسمى من الخلف.. صرخت من الألم المفاجىء، وجلست.. بعد مدة قصيرة أطفأت الموقد. وعدت إلى حجرة النوم.. لا أشعر برغبة فى الأكل.. رقدت على ظهرى فوق السرير، ورفعت ساقى حتى أرى عضلات البطن.. شعرت بالألم يفقد حدته، ويتحول إلى بؤرة عريضة تتسع كأن ظهرى أصابه التهاب.. أخذت أضغط عليه بيدى.. سمعت أنينا خافتا

فأدركت أنه صادر منى.. الارهاق يزحف علىّ مثل الغاز الثقيل.. أحاول أن أحرك ذراعى أو ساقى فأعجز، ويستولى على شعور بالأعياء الشديد.. أمشى على شفا هوة عميقة، وأصارع حتى لا أقع فيها. أتأرجح فى منتصف الطريق بين اليقظة والنوم.. وفجأة أحس بنفسى تنكمش من الذعر، وينطفىء عقلى كالمصباح الذى انقطع عنه تيار الكهرباء..

أفقت على جسمى يعود اليه الاحساس، جزءا بعد جزء.. عقلى يصعد من الهاوية، ويسعى إلى النور.. وظهرى ينبض بداء دفين، يمد أصابعه بين ثنايا الأنسجة كالسكاكين، تلف حول جسمى من الخلف وتستقر فى السرة، أو فى أسفل البطن.. أضع يدى على الجزء الأمامى المنتفخ فأحس بتقلصات عميقة تنمو بالتدريج، وتصل إلى قمة الألم ثم ترتخى، كأمواج البحر تعلو، وتنخفض.. شىء يضغط فى الاحشاء، ويهبط إلى أسفل الحوض، ثم يرتد.. أفتح عينى.. الشيش المرفوع يسقط منه ضوء النهار على السرير.. فى ركن الحجرة حذاء انقلب على جنبه، وسلة من الخوص الملون وضعت فيها ملابس الغسيل.. أرهف أذنى.. لا أسمع صوتا فيستولى على احساس بالوحدة، والخوف.. الدولاب المفتوح يحول دون أن أرى نفسى فى المرآة.. الساعة فى معصمى تشير إلى الثانية والربع.. لا بد أننى سقطت فى النوم.. ترى هل اليوم الجمعة أم السبت؟ السبت.. ذهب «خليل» إلى العمل فى الصباح.. أتذكر الآن.. الاضراب.. والبوليس.. فجأة يشتد الألم، يحيطنى كالحزام.. يضرب فى السرة، وفى أسفل البطن كالسيف.. أصرخ بأعلى صوتى كأننى أريد أن أسمع الجيران.. ماذا سأفعل إذا لم يسمعنى أحد..؟ أحاول القيام من رقدتى فأعجز.. سأموت هنا وحدى.. أنا والطفل.. الطفل ربما سيولد الآن.. لا بد أن أقوم.. لا بد أن أهتدى إلى واحدة من الجارات.. «محاسن».. أين ذهبت؟ آه نسيت.. عندما عدت من المطبخ كنت أفكر فى الذهاب اليها، ثم رقدت على السرير، ونمت من الأعياء.. كنت فى حالة غريبة،

كالمشلولة.. ولكن الآن جاءتنى قوة جديدة.. الطفل يجب أن يولد، يجب أن يعيش.. ها أنذا أستطيع أن أحرك ساقى.. يلتف حول جسمى حزام الألم من جديد.. ألهث.. وأستسلم.. سأنتظر حتى تمر حدة النوبة ثم أقوم إلى الباب، وأنادى عليها.. لو رفعت صوتى عاليا ربما سمعتنى، أو تنبه إلى واحد من أولادها.. ولكنهم فى المدرسة.. أو ربما عادوا فالساعة قاربت على الثالثة والربع.. راح الألم. الآن أستطيع أن أقوم.

أسمع صوت مفتاح يدور فى الباب.. ترى من الذى دخل.. يغمرنى شعور بالارتياح.. لم أعد وحدى.. ولكن ما هذا الصمت.. أفتح عينى وألتفت.. «خليل» يقف أمامى ويسأل فى قلق.. «ما بك؟»

«آلام تنتشر من ظهرى، وتلف حول جسمى كالحزام..»

يقطب جبينه ويقول:

«لا بد أنه الطلق. لحسن الحظ انصرفت مبكرا.. أين «محاسن»..أنظر اليه فى اعياء صامت، فيستطرد..

«سأبحث عن سيارة أجرة، وأحملك فورا إلى المستشفى.. لا تقلقى.. سأعود بسرعة..»

أراه ينطلق من الحجرة.. لا أشعر الآن بشىء سوى الألم، كأننى كتلة مترابطة متداخلة من العذاب.. أخرج لسانى من بين شفتى، وأتذوق ملوحة العرق يسيل على وجهى.. أبحث عن منديل إلى جوارى.. إذا كنا سنذهب إلى المستشفى لا بد أن آخذ معي حقيبة فيها ملابسى، والثياب التى أعددتها للطفل. ولكنى لا أقوى على الحركة.. سانتظر حتى يعود «خليل» ويساعدنى..

لماذا تأخر.. طوق من الحديد الساخن يلف حول جسمى، ينغلق، يعتصرنى، يخنقنى.. ترى هل يتحمل الجنين كل هذا الضغط..؟ أغلق عينى، وأفتحهما..

فأفاجأ «بخليل» يقف أمامى..

«هيا بنا.. السيارة تنتظر.. هل أعددت ما ستحتاجين اليه؟»

«لا سأعده الآن.. ساعدنى.. أنا متعبة للغاية..» أسمع صوتى يئن، وأرى عينيه تطلان على بفزع، فأحاول الابتسام.. يمد الى يده، ويضع ذراعه حول خصرى ثم يرفعنى.. أضع قدمى فى الصندل، وأرفع جسمى على ساقى كأنى أحمل جبلا.. أتوجه إلى الحقيبة الموضوعة على منضدة صغيرة، وأفتحها.. أضع فيها الملابس وبعض الاحتياجات الأخرى.. أخلع الجلباب الذى أرتديه وأستبدله بآخر قماشه سميك حتى يستر جسمى.. أرى عينيه تنظران إلى بطنى العارية.. ترى هل ما زال يرى أنى جميلة؟.. أم الحمل غير رأيه..؟ أتساءل أحيانا لماذا يقترن بكل هذا القبح، والألم.. أم أن البعد عن الأرض والطبيعة شوهت نظرتنا للحياة..أشعر بالسيخ المدبب ينغرس فى ظهرى من جديد، فانسى ما كنت أفكر فيه..

أرى الأشجار، وعواميد الكهرباء تتتابع فى رتابة.. أعد عليها الدقائق والثوانى.. هذا الألم الفظيع سيقتلنى.. لن أصل إلى المستشفى قبل أن يقضى على.. أحس بالبلولة بين فخدى.. ترى ما الذى جرى.. «محاسن» قالت لى: «إذا انتابك احساس بالبلولة بين الفخدين فأعرفى أن «القرن طش»..، وأنك أصبحت على شفا الولادة..» إذا لم نصل بسرعة سألد طفلى فى السيارة.. ستكون بداية غريبة لحياته.. لا أظن أن أحدا ولد من قبل فى سيارة للأجرة.. أنظر إلى «خليل».. أرى ملامحه الشاحبة.. يحملق فى الطريق، ويمسح عرقه بالمنديل.. وبين الحين والحين يلتفت الى بقلق كلما صدرت عنى صرخة مكتومة..

بعد ذلك لم أشعر إلا بشذرات مما يدور حولى.. أتذكر المصعد، ووجه ممرضة سمراء ترتدى طاقية بيضاء.. وسريرا رقدت عليه، وطبيبا تتدلى السماعة من

عنقه.. لونها الأسود يذكرنى بالحداد فينقبض قلبى.. لم أتنبه إلا عندما سمعت الممرضة تقول:

«مبروك.. ولد.. ألا تريدين أن تنظرى اليه؟..»

فتحت عينى.. وجه صغير أحمر، وشعر أسود.. وتقطيبة غريبة كأنه متألم من خروجه إلى الدنيا.. نظرت فى وجهه مليا حتى أتعرف على ملامحه جيدا.. أخشى أن يضعوه مع عشرات الأطفال الآخرين.. ربما تسلمت طفلا آخر ليس هو ابنى.. يرفع جفونه وينظر الى بعينين واسعتين تشبهان عينى.. أتردد لحظة ثم أضعه بين ذراعيها.. أفكر فى الطفل الذى ولدته، ولكنى لا أشعر بالفرحة.. ينتابنى فقط احساس بالرضى، كمن استطاع أن ينهى مهمته الصعبة، ومن حقه أن يرتاح.. أسند رأسى للوسادة وأسلم نفسى لسبات عميق..

عدنا إلى البيت بعد أن ولد «عصام» بأسبوعين تقريبا.. فقد أصبت بحمى النفاس، وارتفعت درجة حرارتى فوق الأربعين فى بعض الليالى، واضطررت إلى تناول عدد كبير من الأقراص، والحقن.. غرسوا فى وريدى أبرة طويلة، وأعطونى كمية من السوائل كوسيلة للعلاج والتغذية.. أبعدوا عنى «عصام» فى هذه الفترة فتضخمت ثدياى، واضطروا لامتصاص اللبن منهما بالمنفاخ حتى لا تجفان.. حاصرتنى الأحلام المزعجة.. أرى أمى وهى ترقد على السرير وتمد ذراعها للحقن الوريدية.. كنت صغيرة إذ ذاك، ولم أعرف شيئا عن الداء الذى قضى عليها.. ولكنى لسبب ما شعرت أنها ستفارقنى.. بعد أن أجلس معها بعض الوقت أختفى فى ركن الحديقة خلف شجرة الجوافة، وأبكى.. ولكن عندما تحسنت حالتى تركتنى الأحلام، وبالتدريج عاد إلى جسمى ذلك العنفوان الذى تعودت عليه.. وأخيرا صرح لى الأطباء بالعودة إلى البيت.

فتح «خليل» الباب.. كنت أحمل «عصام» بين ذراعى.. خطوت فوق العتبة

بشعور من الارتياح.. أفلتت من الموت المحقق.. أو على الأقل من احتمالات التشويه.. بطنى عادت كما كانت مشدودة، وساقى تحملاننى فوق الأرض بثبات.. أدور بعينى على الأثاث البسيط بسعادة.. المنضدة التى نأكل عليها فى المطبخ، ومكتب «خليل»، والرفوف تحمل الكتب.. وضعت «عصام» فوق السرير، وصعدت إلى المرسم.. أصابعى تلمس الألوان، والفرش، والتيل المشدود على البراويز كأنها تلمس الجواهر الثمينة.. هذا هو عالمى الحقيقى.. الرسم، والبيت، و «خليل».. والآن «عصام».. أنطق اسمه وابتسم لنفسى..

ولكن لم يكن مقدرا أن تستمر هذه السعادة طويلا.. بعد يومين أو ثلاث من وصولنا دق جرس الباب.. كنت على السطح أقوم بتنظيف المرسم.. ذهب «خليل» ليفتحه.. سمعته يتحدث مع القادم، ثم أغلق الباب، وساد الصمت، فقلت لنفسى لا بد أنه صبى المكوجى، أو بائع الخبز.. عندما هبطت إلى الصالة وجدت «خليل» جالسا على المقعد.. وجهه ينطق بأنه تلقى أنباءً سيئة.. جلست على الكنبة أنتظر، ولكنه ظل سارحا، لا يلتفت الى.. فسألته..

«من الذى دق جرس الباب؟»

مد يده إلى بورقة كان قد وضعها إلى جواره.. فتحتها، وقرأت السطور القليلة المكتوبة على الآلة الكاتبة.. لم أتنبه أول الأمر إلى فحواها، كأن شيئا فى عقلى يحول دون استيعاب ما فيها.. قرأتها مرة ثانية، فأدركت أنها خطاب بالفصل من وظيفته كرئيس لإدارة الأبحاث لأنه تغيب أكثر من أسبوعين بدون إذن سابق.. أحسست بالدماء تغلى فى عروقى، وبالأشياء تغيم أمامى.. قلت..

«ناس منحطون بلا أخلاق.. لا تعطى لهذا الموضوع أى اهتمام.. الحق بجانبك وستعود إلى وظيفتك رغم أنفهم.. وإذا لم تعد فالأمر سيان.. سندبر أمرنا، حتى تبحث عن عمل آخر..»

قمت، وجلست على المقعد إلى جواره.. أسندت رأسى على كتفه وحضنته، كأننى أريد أن أعطيه شحنة من عندى.. ظل صامتا، ثم التفت الى..

«الموضوع أعقد مما تظنين يا «أمينة».. لا بد أنهم علموا بدورى فى الاضراب، وانتهزوا فرصة غيابى حتى يصدروا هذا القرار بالفصل..»

«ولكنك أرسلت خطابين مسجلين تطلب فيهما إجازة رسمية..»

«منح الإجازة سلطة تقديرية للرئيس.. هو الذى يقرر متى تمنح حسب احتياجات العمل.. وهذا يسمح له بأن يرفض الإجازة بأى حجة تروق له.. وبذلك أكون قد تغيبت بالفعل أكثر من خمسة عشر يوما، وبدون اذن..»

أحملق فيه كالمدهوشة.. أهكذا ببساطة تتم أخطر الأمور.. وتصبح قاعدة منطقية خاصة بتنظيم العمل وسيلة انتقام..؟ ربما يبالغ فى الموضوع.. تجاربه الماضية جعلته شكاكا أكثر من اللازم.. ومع ذلك هذا القرار بالفصل الذى سقط علينا كالصاروخ لا يمكن أن يعنى سوى رغبة فى التخلص منه.. اذن تحليله للمسألة سليم.. يعرف أن معركة المصالح ضارية.. ويعرف كيف يمكن أن يستخدم القانونَ لالغاء أهم الحقوق..

أنظر اليه من طرف خفى.. شاهدت منذ أن عرفته ذلك الصراع الدائم الذى يخوضه حتى يحافظ على ذاته.. لم ينجح فى كل الأوقات، ولكنه يحاول.. هذه المرة أشعر بتغيير أساسى.. ليس لدى دليل أستند اليه سوى احساسى به.. يجلس فى مقعده كالمهزوم.. كأن شيئا عميقا انكسر فيه، ولم يعد قادرا على رد الضربات الموجهة اليه.. جسمه منكمش غارق فى المقعد، لا حركة فيه سوى رعشة الأصابع، وذبذبة العينين تنتقلان من مكان إلى مكان، كأنهما تبحثان عن موضع تستقران فيه..

أحاول أن أخرجه مما هو فيه.. اقترحت عليه أن يصعد معى إلى المرسم

ليساعدنى فى ترتيبه.. ينقاد الى فى استسلام.. لا يبدى مقاومة، ولا يبدى حماسا.. يفعل الأشياء بايحاء خارجى كأنه مسلوب الارادة.. أثرثر معه ولكنه لا يستجيب.. يرد بكلمة أو أثنتين ثم يعود إلى صمته المعتاد.. قلبى يعتصرنى عندما أنظر اليه، والخوف ينمو فى أعماقى بالتدريج.. بدأ منذ اللحظة التى هبطت فيها من المرسم، ولمحته جالسا على المقعد فى سكون.. ظننت لأول وهلة أنه مريض.. توقفت على السلم قليلا أتفرس فيه.. فى الجسم المنكمش، والوجه النحيل، والعينين الزائغتين من شبح داخلى.. جاءتنى صورة فى ذهنى حاولت دون جدوى أن أنحيها.. صورة من الماضى البعيد.. «الإسكندرية» فى شهر أكتوبر بعد أن هجرها المصطافون.. أجلس على الشاطىء فى بداية النهار.. أرفع وجهى تعبث به نسمات الصباح، وأطيل النظر فى البحر الأزرق الممتد.. فجأة رأيت رجلا يغرق فى هدوء.. يطفو بجسمه على السطح لحظات ثم يختفى فى الأعماق.. لا يحرك ذراعا فى الهواء، ولا يطلق الصرخات، وإنما يترك نفسه فى استسلام كأنه يبحث عن الموت، أو يعجز عن المقاومة من فرط الأعياء.. أحملق فيه.. أرى عينيه المفتوحتين فى يأس تنظران الى دون أن يستغيث.. كأنه يقول: «لا تتدخلى».. جسمى يظل ملتصقا بالأرض مسمرا فيه، أحس به عاجزا عن الحركة، مشلولا.. كأن ما أصابه، أصابنى، أو كأن خيوطا سحرية تربطنى به.. الحياة كلها تتجمع فى هذه اللحظة تمتد سنين.. لحظة واحدة أدرك أنها لن تفارقنى أبدا.. ستبقى معى لأحملها فى اليقظة والنوم.. أشاهد جسمه يعلو ويهبط فى هدوء، إلى أن توارى فى ثوان عن النظرات.. أدركت أنه مات، فتحررت فجأة من شىء كان يربطنى به، وهو لا يزال على قيد الحياة.. قمت، وبآخر سرعة انطلقت أجرى فوق الرمال، وأصرخ فى جنون إلى أن تنبه الى أحد رجال الانقاذ..

فى قلبى احساس أقاومه بكل ما فى من حب... الرجل الذى أراه أمامى يسقط فى بئر عميق.. يفصم الخيوط التى تربطنى به.. فى لحظة اضطراب

شديدة خطر لى أنه ربما انتحر. أصابنى الفزع.. ولكن بعد قليل عاد الى الهدوء، فأدركت أنه ليس من ذلك النوع الذى ينتحر.. فيه شىء من الضعف، وأحيانا من الجبن، ولكن فيه أيضا وميض العظمة، والجبروت..

ولكن بعد أن اقتربت منه تبخر كل ما كنت أفكر فيه.. فالخيال يلعب فى حياتى دورا خطيرا.. ويمنعنى أحيانا من التعامل مع الأحداث بطريقة عادية.. والرجل الجالس أمامى يعانى من مشكلة أساسية.. دورى الآن هو أن أساعده، وأن أخفف عليه.. حاولت ذلك طوال اليوم، وجزءا كبيرا من الليل وطوال الفترة التى تلت وصول خطاب الفصل اليه.. فعلت كل ما فى استطاعتى حتى تسير أمور البيت فى يسر.. أرعى «عصام»، وأعد الطعام، وأبادله الحديث.. ولكنى شعرت أنه يأبى أن يمسك باليد الممدودة اليه..

بعد ثلاثة أو أربعة أيام ذهب إلى الشركة.. عاد منها متوتر الأعصاب.. عرفت منه أن استنتاجاته كانت سليمة، وأنهم أصدروا قرار الفصل بعد أن تيقنوا من صلته بلجنة الاضراب، وتسليمه نسخة من المذكرة اليها.. كما اتضح أنهم استوفوا كل الإجراءات الشكلية بما فيها ارسال خطاب على عنواننا بعد ثمانية أيام من الغياب ينذرونه فيه بضرورة الحضور إلى العمل.. حاولت أن أرفع من معنوياته.. أن أقنعه بأنه سيهتدى إلى عمل آخر دون صعوبة، ربما يكون أفضل من ذلك الذى كان فيه.. أننا نستطيع أن نعيش على الراتب الذى أتقاضاه إلى أن يجد العمل الجديد.. وأن الأهم أن يشغل نفسه بشىء حتى لا يشعر بالفراغ.. اقترحت عليه أن يستأنف الدراسة عن الحركة النقابية فى مصر.. وضعت «عصام» بين ذراعيه، وأخذت أثرثر، وأحكى له عن الأيام التى قضيتها فى المدرسة الداخلية.. ولكنى شعرت أن كل محاولاتى تبوء بالفشل، وأن كل ما يريده هو أن أتركه ينزوى فى ركن هادىء وحده.. بعد أن تناولنا طعام الغذاء، انسحبت إلى حجرة النوم، وتركته فى الصالة.. سمعت صوت زن بعيد فأدركت أنه وضع الثياب

المتسخة فى الغسالة.. رقدت على السرير وبعد قليل سقطت فى النوم.. عندما استيقظت وجدته وقد علق الملابس على المنشر فى الحديقة، وغادر البيت..

هكذا سارت بنا الحياة فى جو ينبىء بأن السعادة التى كنت أظن أنها تقف على أرض ثابتة أصبحت مهددة بالزوال.. مرت الأيام، وفكرت أنه من الأفضل أن أعود إلى العمل.. فبقاؤنا سويا فى البيت ساعات طويلة دون عمل واضح مضر لنا نحن الاثنين، ويسبب التوتر، والاحتكاك بيننا.. أخذت أضيق بجلسته المستمرة فى حجرة المعيشة، أو فى الصالة، يقرأ أحيانا، وفى أغلب الوقت يشاهد التليفزيون، أو يحملق فى الفراغ.. وهنا ثارت مشكلة «عصام».. كان من الطبعيى أن يتولى هو رعايته فى الساعات التى سأتغيب فيها عن البيت.. ولكن عندما أخبرته باقتراحى، ثار، وتساءل عن ضرورة انهائى لإجازة الوضع، والتنازل عن حق من حقوقى.. ولما كنت حريصة على ألا أجرح شعوره، لم أذكر الأسباب الحقيقية وقلت له أننى أخذت أحس بالقلق نتيجة ظروفنا الصعبة.. لا أعرف إن كنت قد أصبت فيما قلته.. كنت أسعى لعمل كل ما يمكننى لأريحه.. ولكن عندما أفكر فى تلك الفترة يبدو لى أحيانا أن تصرفاتى لم تكن سليمة، وأننى ربما ساعدت دون أن أدرى فى دفعه إلى تدعيم علاقاته بغيرى.. أحسست بالمسائل تختلط على، وبصعوبة شديدة فى اختيار الطريق الذى يسهل الحياة علينا.. كلما زادت الأزمة التى سيطرت عليه، أحسست بالأمور تفلت من بين يدى.. وهكذا تحولت الحياة فى هذه الفترة إلى نوع من العذاب اليومى..

رغم كل المتاعب تحملت.. قلت لنفسى إنه يمر بظروف قاسية ولا بد أن أقف إلى جانبه مهما كانت المتاعب التى أعانيها. أن أية مقارنة بينى وبينه توضح أن وضعه أسوأ منى بكثير.. إنه بلا عمل.. والعمل بالنسبة للرجل كالهواء لا يستطيع أن يحيا بدونه.. أما أنا فأيامى مملوءة بأشياء كثيرة.. العمل، والفن، وأخيرا «عصام».. أنظر إلى عينيه المفتوحتين تحملقان ناحيتى فأشعر بالأمل.. وعندما

يرضع من ثديى، وأرى يديه الصغيرتين تتشبثان به، يستولى على اطمئنان عميق، كأن الدنيا تبتسم الى من جديد.. وكأن أهم شىء هو هذا التيار من اللبن الذى أعطيه للكائن الصغير.. كنت أحس أننى مسنودة بأشياء كثيرة وأن من واجبى أن أساعد «خليل» على اجتياز هذه الأزمة.. وكانت عندى ثقة مطلقة بأنه سيجتازها، وأن العلاقة التى بيننا سنخرج منها سليمة.. ربما فى ذلك الوقت كنت لا أزال ساذجة، تنقصنى الخبرة، والقدرة على تخيل ما ستنكشف عنه الأيام.. وكان لى العذر فى ذلك.. فمهما كانت المظاهر الخاصة، والعامة التى أحاطت بحياتنا، وأفسدتها، كان من المستحيل، مهما أوتيت من خيال أن أتوقع ما كانت تخبئه لنا الحياة..

مع ذلك ظلت مشاعرى العميقة تحدثنى من طرف خفى أن شيئا ما غامض المعالم يهدد العلاقة القائمة بيننا.. إحساس غريب أطرده باصرار كلما اقحم نفسه على.. فى بعض اللحظات يحاصرنى كالشبح المظلم.. يمد أصابعه الطويلة الى فأتخبط كالفريسة فى فخ الصياد.. أقيم الاستحكامات المنيعة حول نفسى بمختلف الوسائل، ولكنه يتسلل الى.. يلفنى باليأس، وتظلم الدنيا فى عينى... أقاوم بكل ما لدى من ارادة حتى أحتفظ بالحب الذى بنيناه سويا.. ومع ذلك بدا لى مع الأيام أنه يفلت بالتدريج من بين يدى إلى أن جاءت تلك الليلة التى بات فيها «خليل» خارج البيت..

ظللت انتظره إلى ساعة متأخرة من الليل.. لم تكن لدى رغبة فى القراءة، أو الرسم، فناديت على «محاسن» لتسهر معى.. فهى مسلية، لا تكف عن سرد الحكايات، ولديها قدرة فائقة على تقليد تصرفات الرجال.. لا أتوقف عن الضحك عندما تكون معى.. تجعلنى أشعر أن الحياة بسيطة، لا تستحق هذا العناء.. وأننا نبالغ فى أهمية ما نفعله، فنفسد على أنفسنا كثيرا من اللحظات..

بعد أن تركتنى آويت إلى الفراش، وحاولت أن أنام، دون جدوى.. قلقى

يزداد، فليس من عادته أن يبيت فى الخارج.. لا أتذكر أنه فعلها أكثر من ثلاث أو أربع مرات، وفى كل مرة كان يخبرنى بذلك.. ترى ما الذى حدث؟.. أنه ليس فى حالته الطبيعية هذه الأيام.. تقفز إلى ذهنى مختلف التصورات.. ربما دهمته سيارة، وهو يسير فى الشارع سارحا،أو أحس بتعب مفاجىء.. فقد شكا منذ أسبوع من الام فى الصدر.. عيناى مفتوحتان فى الظلام وأذنى متيقظتان لأقل الأصوات.. وهكذا مرت الساعات وأنا أنتظر.. كلما مرت سيارة فى الشارع أستعد لسماع دوران المفتاح فى الباب، ثم يلفنى الصمت الموحش من جديد، ويزحف إلى قلبى اليأس.. أطمئن نفسى عليه.. لا داعى لهذه المخاوف.. أنه رجل ناضج مر بأصعب التجارب فى حياته.. عقلى يسرح فى أيام مضت.. ذكريات السجن كان يحكيها أحيانا.. خطر ببالى فجأة أنه ربما قبض عليه..

مرت الساعات بطيئة تحمل معها كل الذكريات الأليمة، وتغرقنى فى الحزن.. رأيت أشعة الشمس تتسرب من ثقب فى أعلى النافذة فقمت.. توجهت إلى المطبخ وأعددت كوبا من الشاى ثم عدت.. وجدت «عصام» يحرك قدميه.. عندما رآنى أميل عليه ابتسم.. فتحت النافذة.. مساحة من الزرقة الصافية، ودفء الشمس، وعصفور يقفز فوق السور، ويحرك جناحيه.. عيناه تنظران الى كأنه يقول: «لِمَ الحزن؟.. الشمس ما زالت تضىء الكون، والأشجار ما زالت تهمس للريح.. وبعد قليل سيرضع «عصام» من لبن الثدى.. سينمو مع الأيام، ويقوى، ويمنحك الرقة، والحب.. وغدا تعودين إلى العمل، إلى الزميلات، والزملاء، والتهانى، والقبل..» أحسست بالضوء يغمرنى، وبالظلال تنقشع..

كنت أعد مائدة الغداء عندما دار المفتاح فى الباب.. دخل إلى الصالة ثم حجرة النوم، وبعد قليل سمعته يفتح الصنبور فى الحمام.. لماذا لم يبحث عنى؟ كأنه يتفادى اللقاء.. وأنا أيضا لم أتوجه اليه وأسأله أين كان.. أغلق باب الحمام، وغاب.. مر بعض الوقت، وخرج.. أخيرا دلف من باب المطبخ حليق الذقن..

يرتدى قميصا نظيفا، وبنطلونا قال:

«صباح الخير، يا «أمينة».. كيف الحال..؟»

«لا بأس.. وأنت؟»

توجه إلى الموقد، ورفع غطاء الأناء الموضوع على النار..

«ماذا سنأكل اليوم؟»

نظرت اليه بثبات..

«قبل أن تسأل عن الطعام أليس من الأوفق أن تخبرنى أين كنت؟»

«عند أحد الأصدقاء..»

«من؟»

«لا تعرفينه.. اسمه «مصطفى القشاش..»

«ولماذا لم تخبرنى أنك ستبيت بالخارج..؟

«لم أكن أنوى المبيت عنده.. ولكنى تأخرت فاقترح على أن أبقى حتى الصباح.. ليس عنده تليفون.. هبطت إلى الشارع فوجدت كل الحوانيت فى الحى مغلقة..»

«وهكذا وجدت كل إمكانيات الاتصال موصدة فى وجهك..»

يرفع رأسه وينظر الى كأنه سيرد بعنف.. ولكنه سكت ثم رفع كتفيه بحركة لا مبالاة.. لن أتركه يفلت بهذه السهولة.. لقد قضيت الليلة كلها فى حالة رعب.. ما الذى جرى له حتى يفقد الاحساس إلى هذه الدرجة..؟

«ألم يخطر على بالك أننى سأقلق عليك..؟»

تبدو عليه علامات الارتباك..

«وما الذى كنت أستطيع أن أفعله؟»

«تأخذ سيارة أجرة وتعود بدلا من المبيت عنده.. ثم ما الذى أخرك حتى الآن..؟ لماذا انتظرت حتى ميعاد الغذاء لتعود..؟»

«وأدفع جنيها ونصف أو جنيهين حتى أعود؟!»

«طبعا مشاعرى فى نظرك لا تساوى هذا المبلغ الكبير.. ترى كم تساوى فى رأيك؟ خمسين قرشا، أم خمسة وعشرين..؟»

«أوه.. لماذا تتحدثين الى هكذا؟.. أنا لا أريد الاسترسال فى الموضوع..»

ترددت.. ما الفائدة من الاستمرار.. من الواضح أنه أعد قصته فى الطريق، ولن يتنازل عنها قيد أنملة.. أنه يكذب على.. ولكن أين كان؟ لا يوجد بيننا ما يمكن أن يخفيه سوى شىء واحد.. امرأة.. امرأة؟.. فى هذه الظروف؟.. الرجل كائن غريب.. ربما يبحث عن النسيان.. قرأت مثل هذه الأشياء فى الروايات.. مع ذلك لا أستطيع أن أتصوره فى هذا الوضع.. ولكن أى نوع من المرأة تلك التى يذهب اليها؟.. وأى نوع من العلاقة توجد بينهما.. لو صحت شكوكى لن أبقى معه دقيقة واحدة بعد الآن.. ولكن كيف أتركه وهو فى هذا الحال..؟ وهل أبقى معه من باب الشفقة.. الشفقة لا تدوم.. أنا ما زلت أحبه.. ترى من هى هذه المرأة، وما شكلها.. لماذا لا يقول لى الحقيقة بدلا من هذا الكذب؟ ولكن إذا علمت الحقيقة، ورأيتها مجسدة هل أتحمل أن نبقى سويا.. أن يلمسنى، ويقبلنى، ويستيقظ إلى جوارى فى الصباح..؟ هل أستطيع أن أنظر فى عينيه، وأن أتبادل معه الكلام حول مائدة الافطار..؟ ربما يكون من الأسهل على أن أعيش بهذه الفكرة المجردة.. ولكن لماذا أتحمل مثل هذا الوضع؟ من أجل من ، أو ماذا؟.. من أجله..؟ أنه لا يستحق التضحية.. والحب.. لن يدوم بهذه

الطريقة.. أنا أستطيع أن أستغنى عنه فى لحظة، فلماذا هذا العذاب.. لماذا؟..

تناولنا الطعام فى صمت.. لم أسأله بعد ذلك.. تركته فى حاله.. ولكن منذ ذلك الوقت لمست أن الهوة بيننا تتسع، أنها لم تعد من قبيل الأوهام، أو التصورات، أو الشىء المؤقت الذى يمكن تجاوزه.. ربما كان من الممكن أن نصلح ما بيننا، ولكنه لم يحاول.. أما أنا فقد أحسست بالجرح، بالاهانة، قررت أن أتركه وشأنه إلى أن تتضح الأمور، وأن أعود إلى العمل فورا حتى انشغل.. فاتفقت مع «محاسن» أن ترعى «عصام» أثناء غيابى فى المصنع.. رتبت المسائل بحيث يتغذى باللبن الصناعى فى الصباح، ثم أرضعه من لبنى عندما أعود.. لحسن الحظ كان قوى البنية، ينمو بسرعة.. وبعد مدة قصيرة أخذ يلتهم اللحمة المفرومة، والحساء، والبيض المسلوق..

أبلغت «خليل» بقرارى فلم يعلق بشىء... فى طريق العودة من العمل كنت أمر على «محاسن»، وأحمل «عصام» إلى البيت، فأجده فى انتظارى.. كان قد بدأ يكتب من جديد.. يبحث فى المراجع، ويدون فى الورق أثناء النهار.. وفى الليل يجلس على مقعده، ويقرأ، وفى بعض الأحيان نشاهد برنامجا على التليفزيون.. أحيانا يخرج فى المساء، ويعود بعد منتصف الليل.. يتصرف بهدوء، ولا تحدث بيننا أية مشاكل.. بدا فى الظاهر أن حياتنا عادت إلى ما كانت عليه.. ومع ذلك رغم المظاهر كانت المسافة تتسع بيننا باستمرار.. لم تحدث خلافات،أو احتداد، وكان يسايرنى فى أغلب الأمور دون اعتراض.. ولكن الروح التى تميزت بها علاقتنا منذ أول يوم أخذت تزول.. فى لحظات قليلة كانت تصيبها انتفاضة، كأن الجمرة الراقدة فى الأعماق تشتعل من جديد، ويتحرك الحب فينا فنشعر بالقرب.. يأخذنى بين أحضانه، ويقبلنى.. يبحث كل منا فى الآخر عن الرغبة القديمة لعلها تعود.. نتلمس بعضنا فى الظلام كالعمى.. وفى ليلة سطع فيها القمر، وأضاء رؤوس النخيل، والشجر، أحسست بأصابعه تهتدى إلى

سرى المكنون.. تثير مواضع اللذة، وتطفىء مواضع الحزن.. أخذته بين ذراعى واحتويته بكل ما أملك من حنان، وعنف.. استدرجته إلى أغوارى لعله يتوه.. فقد كنت أعلم جيدا أن أوتارنا المشدودة لن نعزف عليها بعد اليوم..

مرت الليلة، وجاء الصباح.. عندما ينظر الى يبتسم فى حزن.. كأننا نتبادل رسالة وداع صامتة لا تحتاج إلى كلمات.. تسير بيننا الحياة كأننا نساق.. كالقشتين على ظهر موجة.. نؤتى الحركات المطلوبة.. نأكل، ونتنفس، ونتبادل الحديث، ونخرج، ونعود.. وننتظر شيئا ما، لا نعرف ما هو بالضبط. ولكننا ننتظره..

عدت فى ذلك اليوم متأخرة.. كانت ساعة المحطة تشير إلى الرابعة.. إحدى البنات فى قسم التصميم تشاجرت مع زميل لها، فمكثنا هناك بعض الوقت، لنصلح بينهما الأمور.. الاعصاب هذه الأيام تفلت بسهولة.. مشاكل الحياة، والغلاء ينطلق فى جنون.. أحمل «عصام» بين ذراعى، وامشى بصعوبة... سأتركه يستغرق مع «خليل» فى اللعب، وأتناول حماما ساخنا يزيل عنى التعب.. أسندت «عصام» على كتفى، وفتحت الباب.. النوافذ مغلقة والبيت يغط فى السكون.. أضأت النور الكهربائى، ولمحت على المنضدة فى الصالة ورقة مكتوبة بخط اليد..

«أمينة»

«خرجت الساعة الثالثة إلا ربعا لأمر يتعلق بالعمل.. عندى موعد ربما انتهيت منه بسرعة، لكنه قد يأخذ بعض الوقت.. وصلك خطاب من «زينب» وضعته إلى جوارالسرير.. تحياتى إلى الأستاذ «عصام»،..

وقبلاتى اليك..

«خليل»

أمسكت بالورقة وقرأتها مرة أخرى.. شيء ينبئنى أن هذه السطور البسيطة تحمل فى طياتها أكثر مما تقول، وأن فترة الانتقال التى كنا نعيشها أوشكت أن تزول.. لو كان «سعيد» معنا لأمكننى أن أناقشه فى الأمور.. غاب منذ أيام الإضراب، وانقطع عنا.. ترى ما الذى حدث بعد أن فصل، وما الذى يمنعه من الحضور..؟ أصبحت وحدى تماما.. «خليل» موجود، ولكن التبادل بيننا مقصور على المسائل اليومية.. لم أكن أتصور فى يوم من الأيام أننا سنصبح غريبين يعيشان فى بيت واحد.. هل هى الظروف التى دفعتنا إلى هذا، أم أننا مسئولان؟.

وضعت «عصام» فى سريره.. استطيع أن أتركه الساعات الطويلة دون أن أقلق عليه.. حتى إذا استيقظ يظل محملقا فى السقف، ويحرك قدميه ويديه.. عندما أطل عليه، يبتسم، ويضع أصبعه فى فمه كأنه مكسوف، فأضحك عليه.. وإذا ضحكت فى وجهه بدا عليه السرور.. لا يبكى إلا إذا جاع أو أحس بالبلولة.. تركته وهو يغمض جفونه وتوجهت إلى المطبخ.. أكلت قليلا من الخضار والأرز، وغسلت الأطباق ثم جلست على «الكنبة».. لا بد أننى سقطت فى نوم عميق.. لما افقت لنفسى كانت الدنيا ظلام.. قمت من «الكنبة» وتوجهت إلى حجرة النوم.. أضأت المصباح، فوجدت «عصام» يرقد فى السرير، وعيناه مفتوحتان.. عندما رآنى أخذ يحرك أطرافه بعنف كأنه يستعرض قدراته.. رفعته من السرير، وغيرت ثيابه ثم أعطيته قليلا من الحساء الدافىء، وبيضة مسلوقة.. أحمله على حجرى، وأطعمه بملعقة فضية صغيرة، فيقدم على الأكل بشهية.. وضعته على السرير، ورقدت إلى جواره، وبعد مدة قصيرة سقطت فى النوم من جديد.. عندما استيقظت كانت الشمس تطل من الأفق وتضىء زجاج النافذة بضوئها القرمزى.. نظرت إلى جوارى فوجدت «عصام» يرفع قدما فى الشمس ويتأمل حركتها.. أدركت أن «خليل» لم يعد. فأحسست بالوحدة والحزن،

ولكن بعد قليل انشغلت بترتيبات اليوم الجديد.

كان من حقى أن أنصرف من العمل فى الساعة الواحدة كل يوم للرضاعة ولكن نظرا لكثرة أعباء العمل، وإحساسى أن «محاسن» تعطى لطفلى رعاية ممتازة كنت أبقى حتى الثالثة بعد الظهر.. ولكن فى ذلك اليوم شعرت برغبة ملحة فى ترك المصنع، والسير على قدمى فى الهواء الطلق.. الشتاء يقترب بسرعة، والجو صاف.. و«حلوان» ما زالت فيها مسحة من الجمال، خصوصا على ضفاف النيل.. سأمشى ببطء، وأترك عقلى يسرح.. كثيرا ما كنت أفعل ذلك عندما أريد أن أفكر فى إحدى الصور التى أرسمها.. أبحث عن مكان خال فيه خضرة، ومياه، وأترك أفكارى تنطلق فى كل الاتجاهات.. تومض، وتنطفىء كالشهب فى السماء..

دلفت من باب المصنع، وسرت فى الشارع. مررت أمام «شركة طيبة للأدوية» فعادت إلىَّ الذكريات.. طردتها من ذهنى.. لا أريد أن أفكر فى حياتى الآن.. كفى استغراق فى الأشياء المضعفة.. أحس بالقلق، برغبة فى الرسم.. لم أمسك بالفرشاة منذ شهور. ربما يكون هذا هو سر تعاستى.. أو على الأقل من بين الأسباب المهمة.. إذا استغرقت فى عمل جديد سأنسى «خليل» ونزواته.. يجب ألا أحيد عن الطريق الذى وضعته لنفسى.. الرجال يجيئون ويذهبون، ولكن الإنتاج والخلق باق.. سأبدأ فى عمل جديد.. هذا ما يجب أن أصمم عليه.. سأعود كما كنت «أمينة» القوية.. خطواتى تكاد لا تمس الأرض، وأفكارى تطير.. أرفع وجهى للشمس، وأفتح ذراعى، واستنشق النسيم.. الحياة جميلة، وإلى جوارى ينساب النيل.. سطحه خال من التجاعيد رغم المشوار الطويل.. من أواسط إفريقيا البعيدة يخترق الجبال، والوديان، والمستنقعات، والصحارى، ويأتى إلينا بمياهه العذبة فنزرع القطن، والأذرة. والبرسيم.. يشق طريقه الشاق بصبر طويل هو سر كل عمل عظيم. أرفع ذراعى واستنشق الهواء المنعش يأتينى من فوق

صدره العريض.. على الشاطىء الأخر أرى النخيل، والمداخن الرفيعة، والأفران تصنع الطوب الأحمر من الطين، وجزيرة خضراء كالزمردة فى الأرض السمراء.. بلد فقير وعظيم.. بلد يجردونه الآن من كل الأشياء حتى التراث.. حتى التاريخ..

أسرع الخطوة فوق الرصيف.. جسمى يطلب الحركة، يطلب الريح.. بطنى الآن كالطبلة المتينة وساقى نبضها قوى عميق.. سيارة تتوقف عند المنحنى ويهبط منها اثنان.. أقول لنفسى.. عاشقان يتنزهان فى الجو الجميل.. تجلس هى على السور المصنوع من الحجر.. شعرها الكستنائى يطير فى الشمس كاللهب المضىء.. ترتدى قميصا رفيعا و«بنطلون جينز».. امرأة فيها جمال وتبدو فى سن الثلاثين.. يقف إلى جانها، ويرفع وجهه إليها.. أرى ظهره.. كتفان فيهما انحناء خفيف، والرأس المستديرة فيها صلع بسيط.. هو..!!.. مستحيل!! هو.. لا يمكن أن أخطئه.. يتطلع إليها فى إعجاب.. ساقى تتوقفان عن السير لحظة.. تنظر إلىّ من فوق رأسه.. أرى عينيها.. عسليتين فيهما ثبات.. أجنبية.. عقلى يتحول إلى شظايا، وشتات.. ماذا أفعل؟.. هل أواجهه أمام هذه المرأة فى العلن؟.. أنهال عليهما بالضرب..؟ أفضحهما بأعلى صوت.. أحاصرهما كالفئران الواقعة فى مصيدة.. يستولى على الغضب. أنه ككل الرجال فيه خسة.. أراها تنظر إلى بثبات.. إذا لم أسرع بالابتعاد عنهما سيتنبهان إلىّ.. لا .. لا داعى لهذه المواجهة القبيحة.. الموضوع انتهى.. وأصبح كل شىء واضحا.. ليس عيبا أن يهزم الإنسان، فالحياة هكذا.. لست أنا المهزومة، ولكن هو.. «خليل» المناضل السابق.. صاحب النظريات والمبادىء.. أشعر بجسمى يغلى، برغبة فى الانتقام.. سأطرده عندما يعود إلى البيت.. كان يجب أن أواجههما على الفور.. ألا أترك الفرصة تمر.. ولكن ما الفائدة؟.. لن يتغير شىء.. لن يرجع الزمن إلى الوراء.. لا أرضى أن أقف أمام امرأة كهذه، كأننا نتنافس عليه.. فليذهبان إلى الجحيم.. هو وهى، وكل الذين لا يعرفون أن قيمة الحياة فى علاقة تدوم، وتحمى من غدر الحياة.

الآن لم أعد أراهما.. ساقى تميلان تحتى.. أبحث عن مقعد أجلس عليه.. لا مقاعد بالطبع.. أرخص شىء فى بلادنا الإنسان.. كل شىء موجود بالثمن.. بالنقود.. بالدولارات.. حتى الحب.. عندها سيارة كبيرة تشترى بها الرجال.. أنه كالمغفل الولهان، ينظر إليها كأنه يتطلع إلى ملاك.

الساعة الثالثة والنصف.. لا بد أن أعود بسرعة.. «عصام» سأستقل القطار من محطة «حلوان». يجب أن أدخل من شارع جانبى حتى لا ألتقى بهما ثانيا.. قلبى ثقيل، حزين.. ماذا تساوى الحياة عندما تتحول الأحلام إلى قش تذروه الرياح. .عندما تتحول الأشياء الثمينة إلى عفن.

أسند «عصام» على ذراع واحدة، وأمد الأخرى بالمفتاح.. أدلف من الباب.. منذ الآن سنكون وحدنا أنا وهو.. الحجر خالية، والبيت ساكن.. يرقد على ظهره، ويفتح عينيه فى تساؤل كأنه يدرك ما بى.. أنظر إليه.. جسمه صغير، وعقله ما زال يتحسس ما يدور حوله.. وضعت فيه بذرة قوية ستنمو.. ينظر إلىّ ويقول.. لا تحزنى.. فأنا معك.. سأملأ عليك الدنيا.. سأسليك فى ساعات الوحدة، وأدفئك فى ليالى السقيع.. أضع الملعقة فى فمه.. ينظر إلى، فأهدأ.. هذا هو ابنه.. يجب ألا يدفع ثمن نزاوات أبيه.. أفكر فى الأمور.. أدرك أن الرجل الذى ارتبطت به لم يكن بكل هذا السوء.. علمتنى الحياة أن الإنسان نسيج مترابط من الأشياء، يتأرجح ميزانه أحيانا حسب الظروف.. أبحث له عن الأعذار.. لماذا؟ هل لأننى ما زلت أحبه؟ ربما.. ولكن مع الأيام لا بد أن اقتلع حبه من الجذور.. سيموت وحده دون مجهود.. فلست من الذين يتعلقون بالأوهام.. خيالية إلى أبعد الحدود، واقعية ثابتة فى الأرض كالذين يحرثون الخطوط، ويصلحون الجسور.. نعم لم يكن بكل هذا السوء، ففى الأعماق ما زالت الجمرة مدفونة.. ترى هل ماتت، أم ما زالت موجودة؟ لسبب ما عجز عن تخطى الأزمة التى يعانيها.. ربما لا أعرف كيف أعطيه ما يحتاج إليه؟ إحساس ينتابنى أحيانا

أنني لست نوع المرأة التي ترضيه.. يحب النساء اللاتى يأتين من الوسط الذى نشأ فيه.. البشرة البيضاء، والشعر الناعم المسترسل، وقوام يتأرجح فوق الكعوب.. أما أنا فجاذبيتى من نوع آخر.. فى العيون الواسعة الجريئة، والعقل اليقظ، والجسم القوى يعطى نفسه بكل ما فيه، أو يمتنع.. أحيانا يزحف على شعور بالندم، وبالنقص، يفقد اننى الثقة فى النفس.. فإن كان يحبنى لماذا يبحث عن امرأة مثل هذه..؟.. العيب ليس فى وإنما فيه.. خلقت أكره الضعف، ولا أجيد التعامل مع الضعيف.. أكره النفاق، وطلاء الشفاه، والكحل.. خلقتنى الطبيعة كالعاصفة متمردة.. جمالى فى الوجه المفتوح، وإشراق العيون، والشعر يرفض الخضوع.. ساقى فيهما قوة الشجرة، تحمل فروعها عالية.. وبطنى تأخذ، وتعطى فى شبق عميق.. أنا خلقت لكى أكون امرأة حرة، لا يتحكم أحد فيها.. لكى ارسم بفرشاتى خطوطا لا تخضع لأنماط مسبقة.. فإن أرادنى هكذا فلا مانع لدى... وإذا أراد غيرى فليذهب حيث يريد.. هناك شىء أبعد من مجرد أزمة يمر فيها منذ سنين.. هناك طباع تأصلت يحن إليها.. هناك هروب من المواجهة، وأدبار من الفشل. وإلا لاستنفر القوى الكامنة فيه، ووقف.. فعلت كل ما أستطيعه من أجله.. ولكنه أراد أن يغرق.. فليبق هو وحده الغريق.. سأتركه، وأذهب أنا حيث أريد..

* * *

أصبحت كل الأشياء غريبة بالنسبة إلىّ.. تتحرك بحركة خاصة فيها بطء، وتحيطها غيوم أحس بها، ولا أراها.. كالسحابة، كشبورة الصباح تبددها أشعات الشمس، ولكن آثارها تبقى.. أحيا على هامش الحياة، وأشاهد ما يدور من حولى فى انفصال.. أتتبع هذه الحركة البطيئة المحاطة بالغيوم كأنها لا تعنينى.. حتى أقرب الناس إلى «أمينة» و«عصام» ينتميان إلى عالم غير العالم الذى أنتمى إليه.. أنا فوق كوكب وحيد أطل منه على الأجسام، والأجرام الأخرى من مسافة بعيدة.. أحس أحيانا أنها جميلة، ولكن فى أغلب الوقت أتعامل معها دون انفعال.. أنسحبت إلى منطقة هلامية فى الوجود.. أتنفس، وأشرب، وآكل، وارتدى ثيابى، وأخلعها، واستيقظ فى الصباح، وفى الليل أسقط فى النوم، كأنه لا يوجد سواى فى الكون.. فأنا قلب مفعم بالآلام، مستغرق فى الحزن..

فى أحد الأيام كنت وحدى فى البيت.. «أمينة» ذهبت إلى المصنع، و«عصام» عند جارتنا «محاسن».. أجلس فى المقعد أمام النافذة المفتوحة.. أرى مساحة من السماء مغطاة بسحابة كثيفة، وفرع شجرة يمد أصابعه العارية، الممدودة فى الفراغ، ويهتز بصوت خشبى جاف.. نظرت إلى جسمى، وساقى، ويدى فانتابنى إحساس مفاجىء بأننى أذوب، أنكمش، أضمحل.. أنى أسير بخطا وئيدة نحو حافة الموت.. نحو هوة عميقة إذا سقطت فيها لن أعود.. فاستولى على الخوف.. قمت

من جلستى، وأخذت انتقل من حجرة إلى حجرة.. أصعد إلى المرسم، وأدور بعينى على الفرش، والألوان، ولوحة فيها طبيعة صامتة.. سكين طويل يقطع فى الألوان، ويذبح القلم.. شعورى نحوها شعور مزدوج.. فهى تجسيد لعمق الفن فى اليد التى رسمتها: وهى تثير عندى الإحساس بأننى ما زلت أتخبط فى الفشل.. أتأملها من كل الزوايا ثم انسحب مسرعا.. أكاد أختنق.. أتوجه إلى بيت «محاسن»، وأدق جرس الباب. أضع «عصام» فى عربته الصغيرة، وأدفع بها أمامى فوق الطريق.. أرى عينيه، يطل منهما سؤال، وعلى شفتيه مشروع ابتسام كأنه يتحسس طريقه إلىّ.. ما زلت غائبا عنه فيحل العتاب مكان السؤال.. أمشى وأمشى فوق الطريق.. أشعر بالإرهاق المريح.. بعقلى كأنه تخفف من أثقال الجسم.. أترك «عصام» عند «محاسن»، وأعود إلى البيت.. أخرج أوراقى من الدرج، وأخط عليها بعض الكلمات.. قلمى يتعثر فى البداية ثم يجرى فوق المساحات البيضاء بسرعة.. هكذا بالتدريج استأنف تجربة قديمة.. ولكن عندما أقرأ ما كتبت يبدو مجرد شكل بلا جوهر.. أنا شخص يبحث عن النسيان.. عن أشياء تسحب انتباهى بعيدا عما يؤرقنى.. لا تختفى صورة «روث» عن ذهنى إلا نادرا.. أراها تجلس أمامى وتتحدث.. وأراها بين أحضانى.. أنها كطوق النجاة ألقوا بها إلىّ فى البحر المضطرب.. أتعلق بها فينتابنى الضيق من شعورى بالاحتياج إليها.. إلى الحيوية المتدفقة فى الصوت، والنظرات، والجسم الأنثوى..

ما زلت ممتنعا عن الاتصال بها.. ربما بسبب الخوف من هذه العلاقة التى ولدت منذ أول لحظة ماردة.. أو شعور بالاحتياج إليها أرفضه.. أو الكبرياء لا يقبل البحث عن سند لنفسه.. أو خشية ظنها أننى حريص على يد العون التى مدتها إلىّ.. وفى الأعماق أحلم بلحظة اللقاء القادمة..

لم يكن من السهل أن أتحمل الظروف المحيطة بى.. البطالة قاسية، تهدم معنوياتى.. أرى «أمينة» تخرج فى الصباح فأدور بعينى على الحجر الخالية..

أغسل الأوانى، والأطباق، وأقوم ببعض الأعباء المنزلية، ثم أجلس على المكتب.. فى أغلب الأيام أعجز تماما عن العمل فأسقط فى حالة من اليأس المدمر.. وفى أيام أخرى يزحف القلم فوق الورق بإصرار لا يكل.. ولكن بالتدريج أخذت أتكيف مع وضعى الجديد. لولا اتصالها بى ربما تمكنت من تخطى أزمتى، والانتقال إلى مرحلة جديدة فى الحياة... كنت قد انقطعت تماما للبحث مستفيدا من إمكانيات التركيز والوقت.. انفصمت صلاتى بالآخرين.. لا يسألون عنى، ولا أسأل عنهم.. الوحيد الذى تذكرنى كان «سعيد».. حضر فى صباح أحد الأيام.. سمعت المفتاح يدور فى الباب، فانزعجت.. ظننت أن «أمينة» عادت مبكرة لسبب طارىء.،.. قمت من مكتبى والتفت.. وجدته واقفا فى الباب.. لما رآنى ابتسم ففرحت.. كان بطبعه نحيل الجسم، ولكنى لاحظت أنه فى الفترة الأخيرة فقد بقايا الشحم فى جسمه، وأصبح جلده مشدودا فوق العضلات، والعظام.. ومع ذلك ظل محتفظا بجمال التمثال المنحوت.. أحاطنى بالأحضان فضغطت على جسمه القوى بذراعى، وسالت من عينى الدموع..

جلسنا على «الكنبة» وتبادلنا الأخبار.. حكيت له كل ما حدث، ولكنى لم أشر بالطبع إلى علاقتى مع «روث».. وقص هو على بدوره التطورات التى كنت أجهلها.. قال لى إنه اكتشف فيما بعد أن «إدارة السلام الاجتماعى» فى «حلوان» كانت قد وضعت عليه مراقبة منظمة.. استخدموا السيارات، والدراجات العادية، والبخارية، والمشاة.. يتركونه فى بعض الفترات حتى لا يتنبه إلى رجالها.. يستخدمون اللاسلكى ليلتقطوه من أماكن مختلفة.. هكذا تمكنوا من جمع المعلومات عن أعضاء اللجنة المصغرة.. ولكنهم لم يتمكنوا من معرفة ميعاد الإضراب، أو تسجيل المناقشات.. أما معلوماتهم عن تسليمى نسخة من المذكرة التى كتبتها إلى اللجنة النقابية فكانت مجرد استنتاج.

لم ينقطع الحديث بيننا إلى أن عادت «أمينة» من عملها.. بدت عليها الفرحة

عندما رأته جالسا معى.. أعطتنى «عصام» بسرعة.. شدت على يده بحرارة وقبلته... أما هو فقد ولع بطفلنا منذ أول لحظة.. أخذ يحمله من مكان إلى مكان، ويهمس إليه، ويلعب معه.. الأصوات التى يتبادلانها كمناجاة زوج من الحمام فى صباح مشرق..

تناولنا طعام الغذاء سويا.. شرح لنا أنه مضطر للسفر إلى «أسوان» حتى يحصل على عمل جديد، فقد نضبت موارده.. عاش فى بيت رئيس اتحاد الصناعات الدوائية والكيماوية ما يزيد عن شهرين ونصف، ولكنه رغم البحث المستمر أخفق فى الحصول على عمل.. «وضعونى فى القائمة السوداء» يضحك.. «بسبب لونى، ونشاطى».. أصبح منبوذا من كل شركات المنطقة، وهو لا يريد أن يتركها إلا إذا أضطر لذلك.. له علاقات قديمة وواسعة النطاق فيها، يشعر أنه يجب الاحتفاظ بها، والاستفادة منها فى العمل النقابى.. ينظر إلى الأرض فى خجل.. فى الفترة الأخيرة نشأت بينه وبين «علية» ابنة رئيس الاتحاد علاقة وثيقة.. تناقشا فى فكرة الزواج، ولكنها مؤجلة إلى أن يحصل على عمل فيتوفر لهما دخل كاف.. تسأله «أمينة» بخبث: «ماذا تقصد بالعلاقة الوثيقة يا «سعيد»؟ فيزداد وجهه سمرة من الدم المندفع إليه..

بات معنا ليلة واحدة، وغادر المنزل فى الصباح الباكر.. كان قد قرر السفر إلى «أسوان» فى المساء.. شىء فى أعماقى يقول لى أننا سنفترق لمدة طويلة.. شددت على يده بقوة.. تتبعته يسير فى الشارع مسرعا بخطوته اللينة المرتاحة.. كلما رأيته هكذا خطر فى بالى.. «كالليث الأسود».. عند المنحنى استدار، ولوح إلىّ.. الشمس تمد أصابعها الدافئة على الكون المشرق.. وقفت فى الحديقة بقلب مثقل وعينين لا تريان الجمال المستيقظ..

منذ تلك اللحظة أصبحت كالزورق الذى قُطعت آخر الحبال التى تربطه بالشاطئ.. إحساس بخفة الريشة فيه حرية.. بالتخلص من أعباء الماضى،

والتزاماته الظاهرة أو الخفية.. «فسعيد» رمز الضمير المناضل تركنى وذهب.. كل الأشياء تجردنى من أسلحتى.. تزيل العقبات من أمامى.. تجعلنى مهيأ لطريق سهل يمتد أمامى.. للصوت الذى سيجيئنى مرة أخرى ويدعونى للعودة إلى جواره.. وهكذا عندما تردد الجرس بقوة فى تلك الأمسية الهادئة كان كل شىء معد للطريق الذى سرت عليه.. سمعت أصواتا مختلطة أحاطت عقلى بظلال ثم صوتها برنينه العميق يسطع كالضوء..

««خليل».. أنا «روث».. أحدثك من «باريس»..»

««باريس؟!»..»

«نعم.. سافرت لمدة يومين.. غدا سأعود.. لى طلب عندك..؟»..

«ما هو..؟»..

«أرجو أن تنتظرنى فى المطار.. أيضايقك هذا؟»..

«لا.. أبدا.. ولكن لماذا؟»..

«لأننى سأكون سعيدة إذا عدت، ووجدتك فى انتظارى.. أليس هذا سببا كافيا..؟».

«طبعا.. وأنا سأكون سعيدا برؤيتك.. متى ستصلين بالضبط..؟»..

«لقد رتبت الأمور بحيث أسهل عليك المجىء.. «جعفر» سينتظرك بالسيارة عند «محطة دار السلام» الساعة الواحدة بعد الظهر باكر.. طيارتى ستصل الساعة الثانية إلا الربع.. «اير فرانس رقم ٤٩٢»..

«سأكون فى انتظارك..»..

««خليل»»..

«نعم»..

«أنا مشتاقة جدا لرؤيتك.. سأفكر فيك أثناء العودة..».

«وأنا كذلك»..

«إلى اللقاء..».

أعدت سماعة التليفون إلى مكانها.. لحسن الحظ «أمينة» ذهبت إلى «محاسن» لتساعدها فى تصميم بعض الملابس، وقصها.. أسندت رأسى إلى ظهر المقعد، وسرحت.. هذه المرأة تثير خيالى إلى أبعد الحدود.. تحدثنى من «باريس» وتطلب منى أن أنتظرها فى المطار.. لا تتقيد بأنماط السلوك العادى.. تتصرف بانطلاق، واثقة فى نفسها.. ما الذى وجدته فى حتى تسعى إلى بهذا الإصرار..؟ تعيد إلىّ الإحساس بأننى لست شخصا عاديا، فيتبدد الحزن الذى يثقل قلبى.. أتصورها فى الطائرة تضع ساقا فوق ساق تقرأ فى مجلة، وتشرب فنجانا من القهوة.. شعرها على المقعد الملون يبرق فى الضوء.. رجل يجلس إلى جوارها يفتح معها موضوعا.. أحس بالغيرة.. قلبى يدق كأننى ذاهب الآن لاستقبالها.. أحيا فى لحظات اللقاء.. لن يأتينى النوم بسهولة.. أقوم من جلستى، وأذرع الحجرة بخطوات بطيئة.. يستولى على القلق.. ربما تأخرت، وقررت البقاء مدة أخرى فى «باريس».. كل القرارات سهلة بالنسبة إليها.. أما أنا فأظل محصورا فى عالمى المحدود.. فى ضاحية تغط فى النوم منذ التاسعة مساءً.. أكاد أسمع صوت الشخير فى البيوت.. أحيا فى ثلاث حجرات بينما «القاهرة» مدينة تمتد كالعملاق.. أضواؤها تتلألأ فى الليل وتعبرها الكبارى العلوية. اخترق الحدود من خلال الكتب، والأفكار، وذكريات المعارك القديمة.. ولكن فى النهاية أحس أن إرادتى تظل مغلولة، وأن قلة من البشر يتحكمون وحدهم فى مصائر الأمور.. لن استطيع أن أقرأ، وأكتب الليلة.. وجهها يتراءى أمامى، ويستولى علىّ..

أشعر بجسمى ينفض الخمول، ويفيق.. اقترب من «عصام» على أطراف أصابعى.. يا لبراءة الطفل النائم!!.. ليت الإنسان يستطيع أن يعود إلى أيام مضت.. أخلع ثيابى، وآوى إلى الفراش.. أظل راقدا على ظهرى أحملق فى الظلام بمئات الجفون المفتوحة..

لا أعرف كيف مرت الساعات الطويلة إلى أن جاء الميعاد.. أشعر بمزيج من التأجج، والاضطراب، وبعينى «أمينة» تفحصاننى ونحن نتناول الإفطار.. أبذل جهدا حتى يبدو مظهرى عاديا.. جلست على المكتب أدون بعض الملاحظات، ولكن عقلى كان يسرح دون توقف.. أصنع فناجين من القهوة، والشاى.. أشرب نصفها وأترك الباقى.. لما اقتربت الساعة من الواحدة بعد الظهر دلفت من باب البيت ، وسرت بخطوات بطيئة فى اتجاه المحطة.. وجدت السيارة تنتظرنى.. جسمها الفضى يلمع فى الشمس.. «جعفر» يجلس فى مقعد القيادة ويستمع إلى الأخبار.. يرتدى سترة أنيقة زرقاء، وقبعة من نفس اللون.

عندما رآنى اقترب أغلق الراديو.. خرج من السيارة، وفتح الباب، ثم حيانى، فرددت التحية.. فكرت أن أجلس إلى جواره ولكنى غيرت رأيى.. أريد أن أبقى وحدى حتى لا أضطر إلى الكلام.. أطل من النافذة على العمارات تصعد وسط الحقول.. على الضفة الأخرى من النيل، ألمح الأهرامات الثلاث وسط الغيوم.. تمرق السيارة فوق الكوبرى العلوى يقودنا إلى شارع «مصطفى سالم».. من أعلى أطل على التلال، والرمال، والأحياء تزدحم بالناس، وترتفع منها رائحة الجلود.. فاصل عريض بينى، وبين الجموع.. فترات مرت بحياتى أحسست فيها نحوهم بنوع من القرب.. كنت اخترق الحوارى وأدلف إلى الحجرات الصغيرة المظلمة تحت الربع.. والآن انفصلت عنهم فى الأفكار، والأحاسيس.. من وقت لآخر تصطدم عيناى بطفل مريض، أو امرأة عجوز تنحنى تحت حمل ثقيل، فأعود إلى الذكريات القديمة.. على الجبل ترتفع قباب «القلعة الصخرية» العتيدة، حبلى بالاثم

والزنازين.. مآذنها الرفيعة ترتفع فى السماء.. توحى بالقسوة، والجمال بينما نمرق وسط التلال.. الشريط الأسود يتلوى كالثعبان، وعلى يمينى المدافن، والمقابر حيث يسكن الأحياء.. مدينة تنمو كالعملاق، تبتلع الإنسان، تسحقه تحت الحجر، والعجلات.. أشعر بالضعف، والخوف.. ماذا يستطيعه الإنسان فى مواجهة الجبروت.. أحيانا يبدو لى كالجدار المتين، وأحيانا كالسور الضعيف الهش.. ماذا يستطيع الفرد فى مواجهة القهر.. الملايين وحدها هى القادرة على دحر الطغيان.. ولكن متى تنتظم، ومتى تثور.. كل يوم يمر يأتى بالهزائم، ويقوى الأخطبوط.. معركة قد تستغرق العمر كله، وتنتزع أغلى التضحيات.. نمر أمام أرض المعارض.. وسط الرايات علم «إسرائيل» يرفرف قبل أن ينتهى الجلاء عن سيناء، قبل أن يقيم «العائدون» دولة فلسطين.. وأنت يا «خليل» تسند جسمك على المقعد الوثير، وتنسى ما فات.. شبكة الصياد محكمة تحاصر الأسماك. تعبت من مقاومة تيارات البحر، والأمواج. «مصر الجديدة». والشوارع العريضة، والقصور، والفيلات. ثروات لا يستطيع عقلى أن يحيط بها، فأنا ما زلت أسكن فى ثلاث حجرات.. طريق للمطار واسع ممتد، ولوح للإعلانات. أصبحنا فى عهد الحريات.. حرية السفر، والاستمتاع، والهجرة، والشراء.. المطلوب أن يوجد معك نقود فى البنك.. عملة أجنبية أن أمكن. انتهى عهد الحرمان، وجاء الرخاء.. كل ما هو مطلوب أن يكون معك دفتر شيكات.. على الجانبين المصابيح الصفراء.. ميادين، وطرقات، وحواجز أمن المطار.. تصدر السيارة همسا منتظما ثم تركن إلى السكون التام.. «جعفر» يفتح الباب.. أخرج قدمى اليمين، وأهبط على الأسفلت.. أشق طريقى بين الحواجز الحديدية، والعسكر والناس.. أحملق فى اللوحة.. الطيارة «إير فرانس ٤٩٢» هبطت على أرض المطار منذ عشرة دقائق.. أقف عند نهاية الممر، وانتظر.. يدفع المسافرون أمامهم بعربة اليد تحمل صناديق الورق المقوى.. أجهزة تسجيل، وخلاطات، وتليفزيونات وأفران.. البترول يجرى

كالذهب السائل.. يجتاز المحيطات، ينشر الرخاء، ويلقى ببعض الفتات للأفواه الجائعة.. دولارات، وفساد، وسواح من الأجانب والعرب. هل أصبحت جزءا من هذه اللعبة المعقدة.. انتظرها عند نهاية الممر بعيون قلقة.. أراها تتقدم من بعيد بخطوتها اللينة النشطة.. الثياب الأنيقة، والحقائب جلدها أملس، ولونها نبيذى.. تشق طريقها بسرعة، وتبحث وسط المنتظرين بنظرات سريعة... تبدو على وجهها علامات الانهماك، والجدية كأن أشياء كثيرة تنتظرها.. أقف متواريا بين الناس، فلا ترانى.. تدفع أمامها بالعربة غير عابئة بسائق يسألها عن وجهتها.. تستمر كأنها لم تسمعه.. اقترب منها وأقول: ««روث» أين أنت ذاهبة؟».. ترفع يديها عن مقبض العربة، وتلتفت إلىّ.. استنشق رائحة عطرها، وأرى ملامحها تشرق فى لحظة.

««خليل».. إذن جئت.. كم أنا سعيدة.. مالك؟.. لماذا تقف هكذا بعيدا..؟ ألن تقبلنى؟».

أقبل وجهها على الجانبين.. تقترب منى لحظة، ثم تبتعد عنى، وتتأملنى بعينين تفيضان بالضحك..

«ما هذه القبل الرسمية؟.. يبدو أن الخجل ما زال يسيطر عليك.. لا بد أن أنتظر إذن حتى نصل إلى البيت»..

أضحك.. ينتابنى خاطر سريع.. تطلبنى للقائها فى المطار، ولا تهتم إذا رآنى أحد الذين يعرفونها، أو يعرفونى، وأنا أقبلها..

«نعم.. مع أمثالى، لا بد من الصبر.. ألا يهمك إذا رآنا أحد من معارفك؟»..

تنظر إلى بشىء من الاندهاش كأنها فوجئت..

«مالى، وما للناس.. أنا حرة..»..

أدفع بالعربة أمامنا.. أرى السيارة تقترب فى هدوء.. يهبط منها «جعفر» ويقول..

«الحمد لله على السلامة، يا ست «روث..»» فترد بلكنتها الأجنبية..

«الله يسلمك يا «جعفر».. كيف الحال..؟»..

«كل شىء على ما يرام يا ست «روث».. هل توجد حقائب أخرى غير هذه..؟»..

«لا..»..

أدور حول السيارة، وآخذ مكانى إلى جوارها.. تمسك بيدى.. أشعر بشىء كالشحنة المكبوتة.. تنظر إلىّ وتبتسم.. أحس بعينى «جعفر» فى المرآة.. تمسح بكفها على يدى.. أظل صامتا فتقول:

«لماذا أنت صامت؟ لا يبدو عليك أنك سعيد برؤيتى».. تسحب يدها كأنها قررت أن تنصرف عنى..

«لا.. أنت تخطئين الظن.. منذ أن تحدثت معى من «باريس»، وأنا أنتظر لحظة لقائنا.. كل ما فى الأمر أننى لم أتعود أن أظهر عواطفى أمام الآخرين.. أرجو ألا تغضبى..»

تقترب منى وتقول:

«طوال المدة السابقة، وأنت فى ذهنى.. كنت مشغولة عليك..»..

«أنا على ما يرام.. بدأت فى الجزء الثانى من الدراسة..»..

وهل هذا كاف لكى يملأ وقتك، ويسعدك؟»..

«ربما ليس كافيا.. ولكنه المتاح الآن..»..

«لا.. ليس هو وحده المتاح.. هناك أشياء كثيرة..».

«ماهى..؟»..

تضغط على ذراعى بأصابعها كأنها تؤجل الحوار..

«سنتكلم فى البيت..»..

«ألست متعبة..؟».

«لا.. بالعكس.. كانت الرحلة مريحة.. وعندى رغبة فى أن نتحدث طويلا..»..

تلتفت إلى السائق وتسأله:

«هل يوجد طعام فى البيت يا «جعفر»..»..

«نعم يا ست.. أعددت وجبة خفيفة، وتركتها فى «الثلاجة»..»..

«حسنا..»..

السيارة تنهب الطريق.. «جعفر» يقودها بهدوء ومهارة، كأن الشارع خال من المطبات، والإنحناءات، ومواكب السيارات، والمارة. كالحلم.. السيارة المسرعة، و«روث»، وجلستى هذه إلى جوارها.. ما الذى يحدث لى بالضبط. ولماذا ارتبطت بى هكذا..؟ يلح علىّ السؤال.. هل من المعقول أن تمثل علىّ..؟ ولأى سبب..؟ لا يمكن أن تكون العواطف التى تبديها ناحيتى مجرد تمثيل.. أنا متأكد من هذا.. تغزونى لحظات من الشك.. عندئذ أقول لنفسى: «أنت تحول رغباتك إلى واقع، وتحيا فى الأحلام».. الحب.. لم أفكر من قبل فى استخدام هذه الكلمة لوصف ما يوجد بيننا.. نعم. هو الحب.. من ناحيتى على الأقل، وربما من ناحيتها.. سأسألها اليوم.. أريد أن تكون المسائل واضحة.. قلبى يدق.. احتاج إليها.. ولكن ما أحتاج إليه أكثر هو حبها.. سأكون أسعد إنسان فى الوجود..

أمد يدى إليها.. تميل ناحيتى.. أشعر بشفتيها على وجهى.. لمسة سريعة فيها حنان.. تستند برأسها على المقعد، وتنظر إلى بعينين ملؤهما الحب.. أشعر بالنبض يقفز.

حمل «جعفر» الحقائب، وصعدنا نحن الاثنان إلى الشقة.. جلست على الكنبة أتطلع إليها.. أشعر أنها سعيدة بالعودة إلى البيت.. ترتدى ثوبا طويلا يلف حول جسمها، ويخفى خطوطه ويظهرها.. تركتنى بعض الوقت، وطلبت من «جعفر» أن يعد لنا شايا، وبعض الفطائر.. جلست أنتظرها تاركا نفسى للراحة، والتوقعات.. عادت ترتدى جلبابا واسعا منسوجا بالقصب.. ربطت شعرها بشريط أزرق وتركته ينسدل على ظهرها. شربنا الشاى، وأكلنا من الفطائر.. رفعت قدميها فوق الكنبة، واستدارت إلى قائلة..

«الآن أنا ملكك وحدك.. أحك..»..

ابتسمت

«أشك فى أنك يمكن أن تكونى ملكا لأحد..»..

ضحكت..

«هذا صحيح، وغير صحيح فى آن واحد.. أحيانا أشعر برغبة فى أن أترك نفسى.. أن أتخفف من الأعباء، والمسئوليات، وارتكن على شخص مثلك، اطمئن إليه..»..

«رغبة تنتابنا جميعا فى فترات معينة.. ولكن حسبما أعرف، لك زوج يشاركك الحياة..»..

تصمت لحظة، وتسرح..

«لى زوج.. ولكن كل منا يحيا منفصلا عن الآخر.. لا تدير الحديث

ناحيتى.. سألتك عما فعلته فى الأسابيع الماضية..»..

«لا شيء يذكر سوى ما قلته لك عن البحث..».

«والعمل..؟»..

«لا جديد..»..

«لماذا لم تتصل بى..؟»..

ترددت.. هل أتحدث بصراحة أم لا؟.. سأرفع الأقنعة، وأوضح لها ما يدور فى نفسى ببساطة..

«لعدة أسباب. أصبحت أتساءل إلى أين ستقودنا هذه العلاقة.. فكلما أدركت أن عواطفى نحوك تنمو استولى على التردد.. ومع ذلك حتى الآن لم أقاوم.. على العكس سعيت لتدعيم هذه العلاقة.. ربما انقطاعى عن لقائك فى بعض الأحيان يعبر عن التأرجح فى موقفى.. أنا رجل عاطل لا مورد لى.. وأنت فى وضع يختلف تماما.. ثرية.. صاحبة إمكانيات، وعلاقات.. لا تحتاجين إلىّ فى شىء.. فالعلاقة بيننا ليست متكافئة..»..

تفكر فيما أقول.. تحملق أمامها، وجهها يكسوه الحزن..

«الاحتياج فى الحياة له جوانب كثيرة.. أنا أحتاج إليك أكثر مما تظن».. فى صوتها بحة خفيفة كالكسر.. «أنت لا تستطيع أن تعرف ما بداخلى.. أترك لى أنا تحديد موقفى منك، فهذا من شأنى وحدى.. بالطبع أنت حر فى أن تحدد موقفك منى.. ولكن من ناحيتى أريد أن تستمر هذه الصداقة.. لا داعى لأن تقف بيننا الحواجز.. المسألة ليست كبرياء، أو فارق فى الوضع المادى.. أو عوامل أخرى..المسألة هى جوهر العلاقة التى توجد بيننا.. أليس هذا هو رأيك أيضا..؟»..

ظللت صامتا أقلب فى ذهنى ما تقوله..

«هذا أسهل الحلول..»..

«وما العيب فى الحلول السهلة.. ما الضرر فى أن يسعى الإنسان إلى السعادة..؟.. هل لا بد من تعقيد الأمور، والبحث عن أسباب للتعاسة؟ لا أفهم أن نكون ضحايا لنوع من الشعور بالذنب..»..

«مع ذلك فوضعى حساس يا «روث»..» ترددت لحظة.. «فأنا أحبك..»..

«وأنا أحبك أيضا يا «خليل»»..

قلبى يتمدد تحت الضلوع، يكاد ينفجر.. أحس بها فجأة بين ذراعى.. أقبل شعرها، وعينيها، وفمها المفتوح.. أسند رأسى على كتفها، وأشعر كأنى رسيت على الشاطئ..

ترقد على «الكنبة» إلى جوارى، وتتطلع إلىّ كمن اكتشف شيئا رائعا لأول مرة، فيكاد لا يصدق.. تغرق نفسها بين ذراعى.. تولى ظهرها للماضى. تسعى إلى النسيان بعنف.. تقبل عينى وتغلق جفونى بشفتيها.. يديها تبحثان عنى فألتقى بهما واستسلم.. أهمس فى أذنها: «أنا لك دون سواك» أسمعها ترد على بصوت مكسور «حبيبى».. تأخذنى بين أحضانها فأتوه.. أحس أن جسمها جسمى.. أعشقها كأننى أعشق نفسى.. أنا وهى بساط فى الريح، طائر فى السماء.. نصعد إلى قمة أعلى من كل القمم، ونشد أوتار الجسم إلى آخر المدى.. نقهر الحزن، والألم وندرك المعنى الحاد الحقيقى للذة..

ننام كالأطفال.. كمن غسل جسمه من كل آثام.. أفتح عينى بعد زمن يبدو طويلا كالدهر.. أراها تحملق فى السقف.. الأنف المدبب، والفم المفتوح قليلا يستقبل الحياة.. أتطلع إليها فى صمت.. أفحص ملامحها الجميلة فى إعجاب.. تحس بعينى كالفراشات فتلتفت إلىّ..

«استيقظت؟»..

«نعم..»..

أقرأ السعادة فى عينيها، والشبق..

«لم أدرك أبدا أن الحب يمكن أن يكون هكذا.. الآن لم أعد أخاف من الموت..»..

«لماذا؟».

«أحسست فجأة أنه لم يعد تنقضى شىء.. فقد عشت أجمل اللحظات.. ولم يبق ما أتوق إليه..»..

«إنها نشوة اللحظة سرعان ما تنقضى لتأتى بعدها الحياة الحقيقية وتجرف معها هذا الإحساس..»..

«ربما.. ولكن هذا شعورى فى هذه اللحظة أعبر عنه بصدق..».

أقبلها، وأقوم من رقدتى.. تسأل فى قلق..

«أين أنت ذاهب؟»..

«إلى الحمام..».

تمسك بيدى وتقول..

«لا تغيب..»..

أعود إليها بعد قليل.. إحساس كمن خرج من تحت السحاب إلى سماء مفتوحة.. أقف عند الباب، وأتأملها.. لا تحس بخطواتى فوق البساط.. أجلس إلى جوارها، فتلتفت إلىّ.. تنطق الكلمات كأنها تتحدث من مكان بعيد لم تغادره.

««خليل».. أريد أن أفتح معك موضوع طرقناه من قبل بسرعة.. ولكن قبل أن أبدأ أوعدنى أنك ستستمع إلىّ فى هدوء..». تمر لحظة قبل أن أرد عليها..

«أعدك..»..

«أنا أحبك، وأعرف أنك تمر بفترة صعبة.. ومع ذلك تفرض على أن أبقى مكتوفة اليدين..»..

أسألها بتحفظ..

«ماذا تقصدين..؟»..

تنظر إلى فى تردد..

«لا أريد أن يحدث بيننا خلاف مرة أخرى.. أنا أستطيع أن أساعدك فى الحصول على عمل جديد، أو العودة إلى وظيفتك الأصلية.. فما العيب فى أن تقبل هذه المساعدة من امرأة تحبك..؟»..

أحاول أن أتحكم فى الأفكار تتحرك بسرعة.. جزء من عقلى يقبل، وجزء يرفض.. أتأرجح بين المشاعر.. كلامها منطقى، ولا أشك فى صدقه.. ومع ذلك جانب منى يتقهقر أمامه.. كأن قبول المساعدة معناه الوقوع فى الأسر.. سأكون مدينا لها بما فعلته. عندما تشاجرت معها فى المرة السابقة سألتها فى غضب «ما ثمن هذه المساعدة؟».. هذا السؤال التلقائى لم يأت بالصدفة.. لم أكن قد فكرت إذ ذاك فى كل الزوايا.. كنت أعبر فقط عن إحساس غريزى.. عقلى يعود إلى قصص الطفولة.. إلى الساحرة تغزل نسيجا من حرير ناعم، جميل، كشعرها الكستنائى.. أحيانا أحب نعومة جسمها وأحيانا أخشاها.. أشياء غامضة تتحرك فى أعماقى.. انجذابى إليها قوى.. يثير فى نفسى الكوامن، ويطلق رغبات الحياة.. أشعر معها فى لحظة أننى سأضيع فيسيطر على الفزع.. فإذا قبلت عونها ربما أضيف لى قيد جديد. جزء منى يقبل على النهر المندفع.. وجزء منى يقبع

على الشاطئ.. أسألها فى حذر..

«كيف..؟»..

ترد بصبر..

«قلت لك فى المرة السابقة.. عن طريق التوسط عند أحد الذين أعرفهم..»..

«وهل يمكن أن أعرف من الذى ستتحدثين إليه فى الموضوع..؟»..

«إذا حصلت على موافقتك المبدأية لا مانع من تعريفك باسمه..»..

لا تترك حافزا دون استخدامه.. حتى الفضول.. لم لا..؟ طالما أنها تحاول إقناعى.. لا بد أن أحسم الآن.. التأجيل مرة أخرى سيفسد الجو بيننا..

«موافق..»..

تحتضننى فى سرور.. على وجهها تشرق ملامح الطفولة.. تسند وجهها على يدى وتقول:

«لن تندم على ثقتك فى.. مهما كانت الأمور، لن أضر بك أبدا..»..

هذه الجملة تعود كالجرس المنذر.. «لن أضر بك أبدا..».. لماذا ترددها..؟

«من الذى ستطلبين منه أن يتدخل فى الأمر..؟»..

«رئيس مجلس ممثلى الجماهير»..

وضعت رأسى على ظهر «الكنبة»، وأخذت نفسا عميقا.. فعلا لها اتصالات فى المستويات العليا.. ترى من أين..؟

«ومن أين عرفته..؟»..

تضحك فى مرح..

«أرجو ألا تتصرف ككل الرجال، وتحول الموضوع إلى تحقيق بدافع الغيرة..».

ذكية.. تصطاد أكثر من عصفور بحجر.. تميل برأسها إلى الوراء فأرى نهدها يرتفع..

«ليست مسألة غيرة..»..

«فضول إذن..؟»..

«إن أردت..».

«سأشبع فضولك.. عرفته عن طريق زوجى.. زار «القاهرة» فى وفد لرجال الأعمال الأمريكان..»..

«وتوثقت العلاقة بينكم إلى هذا الحد..؟»..

«ساعدنا عدة مرات فى إتمام بعض الاتفاقات التجارية..».

«هكذا تسير الأمور..!»..

«ما الذى يدهشك فى هذا.. عالم التجارة والمال يدار بهذه الطريقة.. الوساطة جزء طبيعى فيه..»..

«فعلا.. لماذا اندهش؟ أمثالى يعيشون فى عالم الخيال..».

«طالما أنك تصل إلى ما تريد، لن يضيرك تدخله فى شىء..».

«الغاية تبرر الوسيلة.. والعبرة بالنهاية..»..

تنظر إلى باهتمام كأنى ظاهرة غريبة..

«عليك أن تعبر الحدود إلى عالم الواقع.. أهذه أول مرة تكتشف فيها هذه الحقيقة..؟».

«لا.. أعرفها منذ زمن بعيد.. ولكنى لم أمارسها..»..

«لم تمارسها أبدا..؟»..

أنظر فى وجهها.. الجفون تضيق.. فتوحى إلىّ بالقسوة، بالتدبير.. ربما أتصور ما ليس موجودا.. انتقل فى هذه الأيام من حالة إلى حالة. نفسى مضطربة، وحكمى على الأشياء لم يعد موزونا.. كل الوجوه يمكن أن تلمح فيها الطيبة أو الشر حسب الظروف.. أبرر لنفسى ما أراه.. شىء فى أعماقى لا يجعلنى مرتاح.. أسمعها تتنفس إلى جوارى.. تقول فى صوت هادىء محكوم النبرات:

«سأتصل به غدا.. ولكن ما الذى تريده.. عملا جديدا.. أم العودة إلى عملك السابق..؟

أريد منها فى الواقع أن تساعدنى على العودة إلى العمل.. وأريد فى نفس الوقت أن أمتحن قدراتها..

«أفضل العودة إلى «شركة طيبة»»..

«أنت مصر إذن على اختيار الأصعب..».

«فلنجرب هذا أولا.. الطريقة التى فصلت بها كانت شاذة.. أريد أن يرد اعتبارى. أن ألقنهم درسا..»..

تنبهت إلى أننى أستأسد دون أن أفعل شيئا.. فأنا معتمد على جهود ستبذلها هى.. أحسست بالخجل، وبأننى أهبط. تربت على رأسى، وتسرح.. كلماتى الأخيرة ربما أثارت فيها ذكريات مضت.. عندما يصدم الإنسان تثار أحزانه.. أصبحت حساسا أكثر من اللازم.. الأفضل أن أنصرف.. دلفت إلى حجرة النوم.. ارتديت ملابسى وخرجت.. لما رأتنى هتفت..

««خليل».. أين أنت ذاهب..؟»..

«لا بد أن أعود إلى المنزل..»..

«لم أحك لك عن «باريس».. ولا عما فعلته فى الأيام الأخيرة..»

«مرة أخرى يا «روث».. لن أستطيع أن أبقى..»..

«ليس من حقى أن أضغط عليك ولكنى شعرت بحزن مفاجىء»..

«لماذا ؟..»

«لا أعرف السبب.. لم أفكر فيه بالقدر الكافى..» قامت.. تلقى بشعرها إلى الخلف كالمهرة.. حركة تمرد تلازمها كلما قررت شيئا.. أصبحت أعرفها الآن أكثر عن ذى قبل.. تمسك بيدى، وتضعها على بطنها العارية.. «لو كان لى منك طفل!..» تصمت لحظة ثم ترمقنى بنظرة طويلة.. «كيف حال «عصام» الصغير.. أهو وسيم مثلك؟» تضحك فتختفى بقايا الحزن فى لحظة.. «سأتصل بك باكر صباحا.. ربما تكون عندى أخبار تهمك..»..

«بهذه السرعة..؟»..

«أنت لا تدرك يا «خليل» عمق المشاعر التى أكنها لك.. لو كانت الظروف مختلفة..» تتوقف..

أقربها منى وأضع ذراعى حول خصرها.. احتضنها لحظة طويلة ثم أبعدها فى رفق..

«تصبحين على خير يا «روث».. لا تنس أننى أحبك..».

«لن أنسى.. لن أنسى..».

يبتلعنى المصعد، ويسقط.. أخرج إلى الشارع.. البرد أخذ يشتد فى الليالى

الأخيرة.. أرفع ياقة السترة، وأسرع الخطوة.. أشعر بغربة عميقة مع نفسى.. ما الذى جرى؟ كأننى أصبحت شخصا أخر.. فى مدة لا تزيد عن شهرين انقلبت حياتى رأسا على عقب..

فى اليوم التالى كنت أجلس فى الحديقة قرب الظهر عندما شاهدت السيارة الفضية تزحف ببطء فى الشارع.. تتوقف بين لحظة وأخرى أمام البيوت كأن سائقها يفحص الأرقام، ثم تستأنف سيرها.. اقتربت من سور منزلنا.. لمحت «جعفر» خلف عجلة القيادة.. أوقف السيارة، وهبط منها.. قمت من مقعدى وتوجهت إليه.. يحمل فى يده مظروفا أبيضا.. قال..

«صباح الخير يا أستاذ «خليل».. معى رسالة لك..».

فتحت المظروف وقرأت باللغة الإنجليزية:

«حبيبى «خليل»..».

حاولت منذ أكثر من ساعتين أن أتصل بك.. فكرت أنك ربما خرجت من البيت، ثم أدركت أنه احتمال بعيد.. خشيت أن يكون الخط معطلا.. عندى أخبار هامة لك، ولم أطق الانتظار.. أرجو أن نلتقى قرب استراحة «حلوان» فى الساعة الواحدة والنصف.. إذا أردت يمكنك أن تركب السيارة مع «جعفر» ليحملك إلىّ حيث أنا موجودة.. ثم نذهب إلى الاستراحة سويا..

قبلاتى..

«روث»

قلبى يدق دقات سريعة متتالية.. لا بد أن الأخبار خاصة بالعمل.. ولكن ربما أكون مخطئا فى هذا الاستنتاج.. لو كانت المسألة تتعلق بالعمل لكتبت لى عما حدث فى هذه الورقة، بدلا من الانتظار.. ربما تريد أن تبلغنى التطورات

بنفسها.. على أى حال لا يبدو أنها تحمل إلىّ أنباءً سيئة.. أخذت أقلب الأمر فى ذهنى بينما ارتدى ملابسى... أطل من النافذة.. «جعفر» يدخن سيجارة، وينتظر.. غريب هذا الرجل.. لا ينطق أكثر من كلمتين أو ثلاثة ثم يصمت.. لم أقابل فى حياتى شخصا مقلا فى الكلام إلى هذه الدرجة.. يتجول فى بيت «روث» ولا يحس به أحد. ملامحه جامدة، لا يبدو عليه الرضا، ولا الغضب.. أتأمله فى بعض الأحيان بنوع من الخوف.. كالآلة المتقنة الصنع تقوم بوظائفها فى صمت.. يدخن بحركات هادئة منتظمة.. يده تقترب، وتبتعد عن شفتيه على فترات متقاربة، وشفتاه تنفثان الدخان فى خيوط، ودوائر كأنه يلعب.. أحس أحيانا أنه يراقبنى.. لو كره هذا لرجل أحدا لما تركه يفلت من بين يديه.. أشعر بقشعريرة صغيرة فى العامود الفقرى..

أخذت مكانى فى المقعد الخلفى.. يعطينى شعورا بأنه لا يرحب بجلوس الراكبين إلى جواره، وأنا على الأخص.. يفضل أن يبقى وحده.. أرى رأسه وعنقه من الخلف.. خطا مستقيما يكاد لا يتغير،و يميل قليلا عند بعض المنحنيات.. عيناه تريانني بوضوح فى المرآة المثبتة فوق رأسه.. عندما يتحدث مع «روث» أحس أن بينهما لغة خاصة.. يعطيان الإيحاء بأن كل الأشياء تسير وفقا لترتيب مسبق.. ذراعها اليمنى الصامتة.. أشعر أنه يعرف عنها الكثير..

وصلت السيارة فى لمح البصر إلى فندق «شيراتون».. يستأذن منى موضحا أنه سيبلغ السيدة «روث» بوصولى.. يصعد السلم.. حركاته خالية من الجهد، ولكنها تتسم بالدقة والسرعة.. كأن فى جسمه طاقة مختزنة لا تنفد.. كالقط المتوحش.. بعد قليل ألمح «روث» تهبط الدرجات مسرعة.. تفتح الباب الأمامى وتقول:

««خليل».. يالفظاعة هذه التليفونات.. كدت أن أيأس من الاتصال بك ولذلك أسرعت بإرسال السيارة قبل أن تخرج.. انتقل إلى جوارى.. سنترك

«جعفر» هنا.. لك وحشة رغم أننا كنا سويا منذ ساعات.. أين تريد أن تذهب..؟»..

أشعر، أنها سعيدة، ومضطربة.. تتحدث إلىّ بلهفة أطراف أصابعها على يدى ساخنة..

«لماذا لا نقف على النيل فى مكان قريب من «حلوان»؟.. وإذا أردنا يمكننا أن ننتقل إلى الاستراحة..»..

السيارة تنطلق كالسهم.. تقودها بسرعة غير عادية.. كأنها تستعجل وصولنا إلى مكان بعيد عن الناس.. لا تزال منفعلة.. احمرار خفيف فى وجنتيها، وبريق فى العينين.. والأنف الصغير أصابته رعشة.. أوقفت السيارة قبل الاستراحة، وهبطنا.. أمسكت بيدى وقادتنى حتى الجدار المنخفض المبنى من الطوب الأبيض.. رفعت نفسها وجلست مولية ظهرها إلى النهر. أشعر بأصابعها تذوب فى كفى كأنها تبحث عن مدخل.. ترفرف كالعصفور بنشوة غريبة سيطرت عليها.. أحس بالمرأة المنتصرة..

««خليل».. مبروك..غدا تعود إلى المصنع..»»..

أحملق فيها بمزيج من الدهشة.. والإعجاب..

«هكذا بين يوم وليلة.. أما زلنا فى عصر المعجزات..؟!»..

تضحك بسعادة.. ضحكة طويلة مسترسلة تحملها الرياح فوق سطح المياه، وحقول الأرز.. أرى النساء يرفعن عيونهن، ويرهفن السمع للرنين يتردد فى السماء، أضع يدى فوق ساقها، وأتلمس النبض العميق.. تتوارى حياتى السابقة خلف ظهرى وتسقط فى هوة بعيدة.. لا أرى أمامى سواها، تطل على من أعلى.. أنظر إلى وجهها بانبهار كأن الحياة كلها تركزت فيه..

* * *



الجزء الرابع



الزمن يجرى بسرعة مذهلة.. رقيب غامض يقص شريط الحياة فتتوالى الأحداث.. كمن يركب قطارا مات فيه السائق.. أرى الأشجار، وعواميد الكهرباء، والبيوت، والكبارى، والشوارع تمر فى لمح البصر، وأحس إحساسا دفينا بأن النهاية تقترب.. أعجز عن تصور المستقبل، وأهرب من تذكر الماضى.. هكذا أستطيع أن أحيا فى الحاضر.. كل شىء يتم الآن كأنه جزء من حلم غامض.. أنا كالمريض يحقن وريده يوميا بمخدر قوى، فيظل الألم بعيدا فى الأعماق.. يعجز عن تصور النهاية ولكنه يراها تقترب.. أنا إنسان بلا مستقبل أو ماض.. يستولى على شعور بالحرية المطلقة، شعور لم أعرف مثله من قبل.. فليس لى ماض يجب أن يعمل حسابه.. وليس لى مستقبل أسعى إلى تحديده بشكل أو بآخر.. أنا على ظهر سفينة فى رحلة حول العالم.. استمتع بكل لحظة: أرقص، وأحب، واستكشف، واقرأ، وألبى كل رغباتى.. أنا إنسان يحيا فقط للحاضر.

ذهبت فى اليوم التالى إلى الشركة.. فى السماء سحابة يدفعها الريح أمامه كالأرنب الأبيض، وفوق الرصيف صبى صغير يمسح بفرشاته على سطح الحذاء الأسود.. أنا كالبحار الذى ترك بلاده شابا وعاد إليها رجلا ناضجا، يرى الأشياء بعيون تغيرت.. أنا لست نفس الشخص الذى كان يسير كل صباح من البيت إلى المصنع.. شىء داخلى أنكسر إلى الأبد، والانتصار الذى حققته أحس أنه أجوف..

الزهور فى نافذة البيت المنتصب عند المفرق ما زالت ترويها الفتاة ذات الوجه الأسمر. والفرن المفتوح عند ناصية الشارع ما زال يطلق رائحة الخبز الطازج. ولكن عيناى تمران على المناظر كالذى يحس أنه تأخر.. فاته القطار. ولم يعد أمامه سوى أن ينتظر..

استقبلنى الرئيس كالأخ العزيز العائد من الحرب.. أنه رهن إشارتى فى كل ما أريده، ولن يتأخر فى تلبية أى طلب أو رغبة.. إزاء هذا النفاق كرهته أكثر.. عندما رن تليفونه انتهزت الفرصة لأنسحب.. صعدت إلى مكتبى فى الدور الأعلى.. أشعر بنظرات الفضول، بالترحاب المبالغ فى حرارته، بالهمس، والتساؤل، وفى بعض الأحيان بالخوف يطل من بين الجفون، ثم يختفى فى لحظة.. طوال النهار لم ينقطع سيل المهنئين، يأتون الواحد تلو الآخر فى طابور ذكرنى بالمعزين يتوافدون على صوان فى جامع «عمر مكرم».. ولكننى بعد قليل اكتشفت أن هناك إشاعة سبقتنى.. إشاعة تقول أننى من العملاء الذين استخدموا للكشف عن القيادة العمالية فى المصنع.. وأن عملية الفصل لم تشملنى سوى للتغطية على الدور الخسيس الذى قمت به بدليل أننى أعدت إلى عملى بعد انتهاء الإضراب بمدة قصيرة.. أما الباقون فقد نفذ فيهم قرار الفصل دون رجعة.

هكذا وجدت نفسى متهما بأننى عميل لأجهزة السلام الاجتماعى. والتخابر.. فوجئت بهذا الوضع الذى لم أكن أتوقعه.. وبعد قليل فوجئت بما هو أكثر.. فقد اتضح أن هذه الأجهزة نفسها هى التى تغذى الإشاعة بكل الوسائل.. وهدفها فى ذلك مزدوج.. فمن ناحية أرادت أن تعزلنى عن كل العاملين فى المصنع.. ومن ناحية أخرى ظنت أن هذه الحملة ربما تكون القشة الأخيرة التى تقصم ظهرى..

عدت فى ذلك اليوم بعد ميعاد الانصراف.. خطواتى ترن على الرصيف بصدى أجوف.. كل شىء فى الحياة يتحول إلى رماد، إلى إحساس بالهزيمة، والإحباط.. إلى مرارة تتراكم فى الحلق.. وجدت «أمينة» تجلس على الكنبة فى

انتظارى.. فتحت الباب فوجدتها أمامى. لا أعرف لماذا أدركت على الفور أنها اكتشفت علاقتى «بروث».. شىء فى وجهها الهادئ، الصارم.. وفى النظرات يطل منها يأس غاضب.. أما أنا فسيطر على شعور من يسوقه القدر إلى حتفه، وهو مستسلم، معتصر، عاجز، مرهق إلى درجة لا يستطيع معها أن يحرك يدا، أو يعترض، أو حتى يغضب.. جلست صامتا أستمع إليها وهى تحكى عما رأته.. وفى هذه الأثناء سرح عقلى.. أخذت أتأمل حذائى المتسخ بالتراب، وأشعة الشمس تزحف فوق البلاط.. لاحظت أن شعر «أمينة» أصبح أطول مما كان، وأنها أحاطت عينيها بالكحل، فبدت لى امرأة أخرى غير تلك التى عرفتها. فلما نطقت كلمة «ننفصل» بدا لى الأمر عاديا.. ذهنى يقول.. «كلمة ننفصل هذه لا تعنى شيئا فنحن لم نرتبط أصلا»..

أتذكر بعد ذلك عينى «عصام» تتبعاننى وأنا ألقى ببعض الملابس فى حقيبة السفر.. ثم وقفت فوق عتبة المدخل أطل على الشارع الخالى من الناس، وعلى كلب ضال يرنو ناحيتى لحظة ثم ينصرف.. قالت «أمينة» شيئا، فأحسست بيدى تمتد بالمفتاح، وتلمس أصابعها الباردة.. بعد ذلك أفقت على نفسى أجلس على مقعد من الخشب فى القطار وهو يتجه إلى وسط البلد.

المائدة المستديرة رصت فوقها الأدوات الفضية تبرق فى الشمس.. مددت ساقى فوق البساط، وتثاءبت ثم أغلقت عينى.. أحسست بشخص يقترب منى فالتفتت.. وقف «جعفر» قريبا منى ينتظر.. قلت:

«صباح الخير يا «جعفر».. أين جرائد اليوم..» يتجه بخطوته السريعة الهادئة إلى منضدة التليفون، ويعود بها..

«هل أعد الإفطار الآن..؟»..

«نعم.. قهوة باللبن، وخبز مقدد، وقشدة، ومربى، وعصير برتقال لنا نحن

الاثنين..».

اكتشفت بعد لحظة أنه اختفى.. لا أحس به أبدا عندما يحضر أو ينسحب.. يتحرك كالشبح.. أشعر ببرودة مفاجئة، فاحكم العباءة فوق جسمى.. أطل من النافذة المفتوحة على النيل.. فيه زرقة الشتاء، وشمسها الذائبة فى المياه.. أسمع صوتها وهى تتحدث قرب باب المطبخ ثم تظهر.. تملأ الحجرة بوجودها المشرق فتختفى كل الأشياء من حولها، وتبق هى وحدها.. وهبت نفسها إلى بذلك السخاء الذى لا تعرف سره إلا المرأة العاشقة.. بكل العطاء الذى يعجز الرجل عنه، حتى إذا أحب من الأعماق.. فمن تعود أن يأخذ دائما يصعب عليه العطاء.. أحس نحوها بامتنان عميق.. أكشف لها عن حبى الكبير. عن لحمى العارى الجريح.. أعود كما كنت منذ سنين فتى قليل الحيلة، يتلمس طريقه إليها بأصابع مرتعشة، ساذجة، رقيقة.. كل الشكوك، كل التحفظات، كل الألاعيب المعتادة بين الرجل والمرأة نلقى بها جانبا... نستمتع بالسعادة النادرة التى تأتى للإنسان عندما يحيا فى علاقة يتخفف فيها من كل الأسلحة، من الشر، ومن الزيف.. يستخرج من تحت الرماد نفسه البدائية الطاهرة..

مرت الأيام بعد عودتى إلى الشركة ثقيلة، بطيئة.. بالتدريج ينمو اليقين بأننى لن أستطيع الاستمرار فى هذا العمل.. لم أعد أطيق الجدار الذى أقاموه حولى، ولا الاتهام الصامت ألمحه فى العيون الزائغة، ولا الإشاعات تنام فى بعض الأيام ثم تستيقظ.. لم يعد شىء يربطنى بها. «سعيد» اختفى.. سافر إلى «أسوان» بعد أن زارنا فى البيت، ولم أسمع عنه شيئا منذ ذلك الوقت.. وعلى كل حال فلست راغبا الآن فى لقائه.. «أمينة» ما زالت تعمل فى مصنعها السابق.. أخشى فى بعض الأيام أن نلتقى فى الطريق.. ترى أن حدث هذا كيف أتصرف..؟ قربها منى يسبب لى الضيق، ويجعلنى أرغب فى ترك المنطقة كلها.. ولكن كيف أخرج من المصيدة التى نصبتها لنفسى.. «روث» تدخلت مرة

لتعيدنى إلى وظيفتى، ولا أستطيع أن أطلب منها أن تبحث لى عن مكان جديد يناسبنى خصوصا وأن الفترة التى مرت منذ عودتى كانت قصيرة.. ربما نبع هذا الرفض للظروف المحيطة بى فى الشركة من إحساسى الدفين بأنها قادرة على مساعدتى فى الحصول على عمل آخر، وأنها مستعدة للقيام بأى شىء من أجلى.. هل هذا يجعلنى لا احتمل ما أنا فيه؟ سأتحول بالتدريج إلى شخص ينتهز الفرص، ويستغل الحب الذى نشأ بينه، وبين امرأة ليصل إلى ما يريد.. ضاع منى كل ما كنت أعتز به، ولم يبق سوى الهيكل الخارجى.. أصبحت أعيش فى شقتها كأى رجل متطفل، فهى المالكة الفعلية لكل ما تحتوى عليه.. أحيانا أحس فى نظرات «جعفر» أنه يحتقرنى.. أصبحت كالأوتار الحريرية تهتز لكل نسمة.. لولا الرقة التى تعاملنى بها «روث»، وقدرتها الفائقة على التصرف، لما سيطر الهدوء على علاقتنا.. ولما استطاعت أن تهبنى هذه السعادة رغم كل الظروف الخاصة بى.. أتقبل المساعدات التى تقدمها لأننى أشعر بمدى الحب الذى تحمله لى.. لا أحس بأى تعقيدات فى طريقة التعامل بيننا، ولا بأى صورة من صور التفرقة بسبب الوضع الذى وجدت فيه.. تعرف كيف ترعى مشاعرى دون مبالغة، والعلاقات بيننا بسيطة، واضحة.. تسألنى : «لو كان الوضع معكوسا هل كنت ستتخلى عنى، وهل كنت سترفض أن تعتبر كل ما تملكه ملكا لى أيضا؟..» منطق لا أستطيع أن أرده.. ومع ذلك لم اتخلص تماما من الشعور بأنه يوجد فارق بينى كرجل وبينها كامرأة.. أشياء ورثناها من المجتمع، وضغوط يمارسها علينا باستمرار.. كيف أتغاضى عن إحساسى «بجعفر» يتحرك كالقط فى أرجاء الشقة، ويلقى ناحيتى بنظراته الصامتة؟

قررت ألا أفتح الموضوع.. ولكننى لم أكن قد وضعت فى الحسبان ما حدث فى العلاقة التى نشأت بينى وبين «روث».. فرغم المدة القصيرة التى مرت منذ بدءها تقاربنا بسرعة.. أشعر فى كثير من الأحيان أننى أنا هى، وهى أنا.. نتبادل

المراكز بسهولة، كأنها نفذت إلى أعماقى، وسكنت فيها.. فأصبحت تتنفس برئتى، وتنبض بقلبى، وتفكر بالوجدان والعقل اللذين أفكر بهما.. ولدى نفس الشعور إزاءها.. كأنى أصبحت أحيا فى أغوارها.. فاتضح مع الأيام أن كل منا لا يستطيع أن يخفى على الآخر ما يحس به.. نحن عازفان يضربان لحنا واحدا فيتشابك النغم، ويتكامل.. أشعر بالراحة فى وجودها، راحة الحيوية المتدفقة، والأحاسيس، التى نتبادلها..

هكذا أصبحت جزءا من حياتى.. إذا ما غابت أحس بالنقص.. عندما نفترق أثناء النهار ننتظر لقاءنا بشوق.. فإذا ما عدت قبلها، لا يستقر بى الحال إلا عندما تعود. أسمع المفتاح فى الباب فيدق قلبى.. أرى وجهها المبتسم فأقوم إليها كأنها غابت فى بلاد بعيدة.. ربما الإحساس بأننى فقدت كل شىء فى حياتى، وأنه لم يبق لى إلا هى، زاد من شوقى.. ومع الوقت أدركت بشىء من الدهشة أن المشاعر التى تكنها لى من نفس النوع.. كأن حياتها الماضية مرت جرداء، قاسية، وكنت أنا أول تجربة حب لها قيمة عندها.. لم يكن لدى دليل على ذلك، ولكن إقبالها على، وهذا التأجج النادر فى علاقاتها بى جعلانى أحس أن تعلقها بى ليس أمرا عاديا.. وكأننا كنا نسير فى الصحراء، نبحث عن نبع للمياه النقية، فالتقينا..

كانت علاقة جميلة.. لا نمل بعضنا أبدا.. أسرع إلى البيت فور انتهاء العمل، فأجدها تنتظرنى.. تقضى جزءا كبيرا من الوقت فى قراءة الكتب والوثائق التى تحصل عليها أثناء النهار، وفى كتابة الملخصات.. وأحيانا تستمع إلى بعض تسجيلات للذين أجرت معهم الأحاديث، فاستمع معها.. استفدت الكثير من طريقتها فى العمل، وتناقشنا طويلا فى مختلف الموضوعات.. ترى الأشياء بعين جديدة أجنبية، وببصيرة نقدية تجعلنى أراجع أشياء قبلتها حتى الآن كحقائق ثابتة.. وهذا الجو من التبادل الخصب جعلنى أعود إلى البحث بحماس مضاعف..

ظلت السياسة وحدها مثار الخلافات القليلة التى تقع بيننا ، ولذلك آثرنا أغلب الوقت ألا نخوض فيها.

فتحت هى الموضوع، ونحن نستعد للنوم.. أرقد على ظهرى فى السرير وانتظرها.. أرى شعرها كالشعلة الغامضة فى الضوء الخافت.. أتتبع خطوط جسمها وهى تتحرك، وأحيا لحظات التوقع قبل أن تتسلل إلى ذراعى.. أشعر بجسمها على قبل أن يلمسنى. سمعتها تقول:

««خليل».. هناك ما يفسد عليك الحياة.. تقاومه بكل ما لديك، ولكنه موجود.. يؤرقك، ويسبب لك الضيق.. أنا أحس بك فى كل لحظة، فلا تحاول أن تخفى الحقيقة»..

أخذتنى على غرة، فصمتت لأفكر فيما عسى أن أرد به عليها.. قررت أن أكشف لها ما يدور فى ذهنى، بصراحة..

«وجودى فى الشركة أصبح لا يحتمل.. لن أستطيع الاستمرار..» يبدو عليها الاندهاش لحظة.. تقترب منى، وتجلس على حافة السرير..

«لماذا؟.. ما الذى جرى..؟ لم تقل لى شيئا عن هذا الموضوع من قبل..».

«منذ أن عدت وأنا محاط بجو شاذ للغاية.. مزيج من التزلف، والنفاق، والريبة.. أصبحت أكره مقابلة الناس.. أغلق على نفسى الحجرة، واتفادى الخروج منها، أو الاتصال بأحد..».

«التزلف، والنفاق لأنهم يحسون أنك عدت إلى الشركة بتدخل من السلطات العليا.. لماذا تهتم بهذا؟.. الشخص الذى يتعامل معك بهذه الطريقة لا يستحق إلا الاحتقار..»..

«لا أحب لنفسى أن أكون فى هذا الوضع.. ولكن ليس هذا أهم ما فى

الموضوع.. الأغلبية الساحقة تعاملنى على أنى عميل. لإدارة السلام الاجتماعى.. جاسوس.. ».

أصاب وجهها شحوب غريب لم أره من قبل كأن الدماء هربت منه فجأة.. أحس بشىء كالفزع يستولى عليها، كأنها تهرب، تفلت من بين يدى.. ترحل إلى ذلك المكان البعيد الذى رأيتها ترحل إليه من قبل.. إلى ركن غامض فى نفسها.. عيناها لا تطلان إلى الخارج، بل تحملقان نحو الداخل.. فى سر غامض تراه هى وحدها.. سطحهما يتحول إلى طبقة جامدة خالية من الإحساس.. يستولى علىّ شعور بالغربة إزاءها، كأنها فى لحظة أصبحت شخصا آخر.. أقول لنفسى هذه المرأة فيها لغز لا أعرفه.. أنها ثلاثة نساء فى امرأة واحدة.. الشابة.. والمرأة المحبة.. وهذه المرأة الثالثة الغامضة، تعود بالتدريج من المكان الذى رحلت إليه.. تذوب البقعة المتجمدة فى العينين، وتنتشر فيهما نظرة لم أرها من قبل.. كنظرة الأم إلى طفل طعنها فجأة بسكين حاد..

«ربما تتصور أشياءً ليست لها وجود.. »..

«لا.. أنا متأكد.. الإشاعات لا تكف عن تناول هذا الموضوع من مختلف الزوايا.. وفى كل يوم يقدم تفسير جديد يسرى بين العاملين كالنار فى الهشيم. كلما قابلت واحدا منهم وأنا أسير فى مبنى الإدارة، أو العنابر، أو أجتاز الحوش أرى التساؤل فى العينين. يقولون مرة أنه تربطنى علاقة قرابة مع أحد كبار الموظفين فى وزارة شئون الأمن القومى.. ومرة أننى أحد عملاء إدارة السلام الاجتماعى منذ زمن بعيد، وأننى وشيت بزملائى فى قضية سابقة، ولذلك أخرجت من السجن قبل أن تنقضى مدة العقوبة التى حكم بها علىّ.. ومرة أننى وافقت على العمل مع هذه الإدارة كثمن للتعيين فى الشركة.. ومرة أننى ارتبطت بها بعد تعيينى خضوعا لتهديدات وجهت إلىّ.. حملة منظمة تغذيها وحدة الأمن العام فى الشركة بإيعاز من أعلى حتى يبقى الاتهام حيا. كيف يمكن أن أعيش

فى هذا الجو الذى يفسد على حياتى كل يوم؟»..

يبدو عليها الاضطراب.. أرى الغضون فى وجهها لأول مرة.. تضع يدها على كتفى، وتضغط كأنها تواسينى.. أشعر أنها تتألم من أجلى. الملامح مفككة كأنها فقدت التوازن النفسى الذى يميزها.. أقبل أصابع يدها..

«لم أكن أريد أن أسبب لك ألما، أو ضيقا.. سألتنى، وأنا لا أستطيع أن أقول لك غير الحقيقة.. ولكنى أحس فى بعض الأوقات أن هناك أشياءً تخفينها أنت علىّ..»..

تصمت.. أحس أن هذه المرأة الجميلة الشابة تحمل فى أعماقها جحيمها الخاص.. أراها الآن دون استحكامات، كأن كل ما أقامته حول نفسها من سياج انهار تاركا قلبها وأحشاءها مكشوفة.. أربت على خدها بحنان، وأهمس..

«يا روث.. لا تخافى أبدا.. أنا هنا إلى جوارك. أعتذر عن إثارتى هذا الموضوع.. لم أكن أتصور أنه سيؤثر فيك إلى هذا الحد.. فلننكف عن هذا الحديث»..

تترك نفسها بين أحضانى كالطفل الحزين.. نصمت لحظة طويلة.. أقبل أصابعها العصبية الطويلة. تعود بالتدريج إلى حالتها الطبيعية.. تلتفت إلىّ، وينسكب الدفء من عينيها..

«لا تنزعج يا حبيبى.. أنا حساسة لبعض الأشياء.. وعندما تتعلق المسألة بك يصعب علىّ احتمالها.. ولكن لنترك كل هذا جانبا.. أنا أدرك الآن أن استمرارك فى هذه الشركة مستحيل.. لا بد من البحث عن عمل آخر.. ولكن هذه المرة نريد أن نفكر جيدا حتى نستريح.. لا داعى للقرارات المتسرعة التى تنقلك من سيىء إلى أسوأ.. لدى فكرة أريد أن أعرضها عليك..»..

«ما هى؟»..

«لماذا لا تبتعد عن المؤسسات المصرية.. فطالما أنك تعمل معها ستطاردك أشياء تتعلق بالماضى.. الآن فتحت المجالات للتعاون مع الجهات الأجنبية.. وهنا يسهل علىّ أن أهتدى إلى عمل يناسبك..»..

أشعر بالحيرة.. العمل مع المؤسسات الأجنبية.. فكرة لا أستريح إليها.. ولكن لماذا.. ؟ فى هذه الفترة بالذات أصبحنا مرتعا للمصالح الغربية.. ولكنى محتاج إلى العمل.. ومحتاج إلى المال.. إلى السفر، والتنقل، ورؤية العالم، بدلا من هذا الانغلاق.. لديهم إمكانيات سأستفيد منها.. أما هنا فى مصر، سأبقى كما أنا مطارد.. محاصر كالفريسة المجروحة العاجزة عن الخروج من الخية.. لماذا لا أسمع إذن ما ستقترحه على.. ربما تهتدى إلى نوع من العمل يصلح لى..

«ما اقتراحك بالتحديد..؟»..

«زوجى يعمل وكيلا لبعض الشركات الكبرى فى عمليات تصدير الأدوية.. ولديك خبرة فى هذا المجال، فلماذا لاتتعاون معه؟»..

أنظر إليها فى اندهاش.. آخذ نفسا عميقا.. كيف أعمل مع زوجها؟ وما الذى جرى لها حتى تقدم مثل هذا الاقتراح..؟

«زوجك..؟»..

تضحك فى مرح..

«أوه.. أنت ما زلت فى الأعماق شرقى.. ما الذى يضيرك فى هذا..؟»..

«ليست المسألة شرقى أو غربى.. كيف أعمل مع زوجك بينما تقوم هذه العلاقة الحميمة بيننا..؟»..

«هل أنت معترض على العمل.. أم على العلاقة؟»..

أصمت.. أدرك ما ترمى إليه.. تكشف التناقض فى موقفى..

«إذا كنت ترى أن العلاقة خاطئة، فهى تظل هكذا بصرف النظر عن العمل..».

«ولكن كيف أواجهه، وأعمل معه، وتنشأ بيننا رابطة بينما أنت وأنا ننام فى أحضان بعضنا»..

«وما المشكل فى هذا إذا ثبت أنه ليس له اعتراض على هذا الوضع؟»..

«ليس لديه اعتراض؟! أتسخرين منى يا «روث».. أم أنك جادة؟.. كيف يعلم بعلاقتنا..؟»..

أحسست بشىء قريب من الذعر.. ما الذى جرى لها؟ لم أر هذا الجانب منها من قبل .. أنظر إلى وجهها فأكتشف أن البسمة اختفت.. ملامحها أصبحت جامدة، مشدودة كأنها رأت أمامها شخصا تكرهه.. أشعر بالاضطراب.. بأن شيئا فى الجو فاسد..

«لا تخش على نفسك» تقولها بشىء من الازدراء، فأحس بروح من العداوة ضدها.. صوتها الآن فيه مرارة، وإصرار.. كأنها قررت أن تخوض المستنقع.. أن تفتح الخراج ليفرغ نفسه من كل ما فيه..

«أنا لم أقل له شيئا عن علاقتنا.. ولكن منذ سنين أتفقنا على أسلوب فى الحياة، ربما لا تستطيع أن تفهمه.. كل منا له حياته الخاصة رغم أننا زوجان.. أنا أتصرف بملء إرادتى، ولا أسأله عن حياته الخاصة، وهو كذلك..»..

«ولكن لماذا إذن تبقون على العلاقة الزوجية بينكما..؟».

«هذه قصة طويلة لا أريد أن أحكيها الآن.. ربما يجىء الوقت فيما بعد..»..

أحس بالشك القاتل ينفذ إلى.. تريد أن تظل زوجته، وأن تستمتع بى.. أنا

مجرد أداة.. كل الأشياء تنهار، وتظلم الحياة.. العفن يزحف إلى كل العلاقات.. منطق المجتمع الفاسد.. وأنا أيضا ما الفارق بينى وبينها.. أدرت ظهرى للماضى وتخليت عن «أمينة» و«عصام».. أنام هنا فى أحضان امرأة أمريكية.. تيار الفساد تسلل إلىّ، وجرفنى معه.. ضميرى يستيقظ الآن مع الغيرة.. هل هى مخلصة فى حبها لى.. ؟ الآن أتذكر «أمينة».. معها لم تكن تصيبنى الشكوك.. إنسانة فيها وفاء، واستقامة..

«أنك تشك فى أليس كذلك؟ هكذا تكون الأمور.. المرأة يشك فيها دائما.. أنا لم أتدخل أبد فى علاقتك «بأمينة» .. عندما حدث الانفصال بينكما عشنا سويا.. لم أخف شيئا.. قلت للناس على الملأ.. ها هو الرجل الذى أحبه، أفتح له قلبى، وذراعى، وبيتى.. لم أقل لك اختفى فى شقتك البعيدة وآتى إلىّ فى ظلام الليل، وأهبط قبل الفجر.. قلت لنفسى... سأبحث عما يسعدك، ويسعدنى.. عما تحتاج إليه.. فكرت فيك أولا، وبعد ذلك فى نفسى.. والآن تلعب فى أعماقك الغيرة.. مما.. من رجل آخر أنام معه فى السرير؟.. أم ماذا..؟ ولكنك أثبتت أنك لا تفهم شيئا.. لا تفهم أننى أحبك بكل كيانى.. أنى منذ عرفتك لم أنظر إلى رجل ثانى.. أننى إن كنت قد صعدت من الحضيض.. فإن أجمل ما حدث فى حياتى هو هذه العلاقة الحميمة التى نمت بيننا... هذه العلاقة التى جعلتنى أعود كما كنت عندما ولدتنى أمى البائسة..»..

قلبى مفعم بالندم.. أمد إليها يدى فلا تراها.. تجلس كالصنم.. كمن أصابه حزن عميق إلى درجة أنه لم يعد يشعر به.. بعد قليل أشعر بها تعود إلىّ.. تربت على يدى كأنى فتى صغير تواسيه..

«إذا أردت، أستطيع أن أرتب لك موضوع العمل فى ظرف أسبوعين.. سأرسل إليه خطابا فى «باريس».. وإذا رد بالإيجاب يمكننا أن نسافر إليه سويا.. فما رأيك؟»..

أحملق فيها.. تحسم الأمور ببساطة تذهلنى.. تصرف من عودتها الحياة أن تمتلك مصيرها.. الإمكانيات والذهن المفتوح يعطيانها الحرية.. لا تبقى مكتوفة اليدين، عاجزة أمام المشاكل.. نتاج مجتمع آخر، ونتاج التربية.. هذه المرأة ستأخذنى بعيدا معها.. سأكسر معها القيودَ، وأخرج من القمقم.. أشعر بالسعادة تغمرنى.. سأركب الطيارة، وأصعد عاليا.. سأتنزه معها على ضفاف «السين»، وأبتاع الكتب والزهور، والأغانى العصرية.. سآكل البط البرى والكرز، وأشرب الشمبانيا.. وسنقضى أياما بطولها نتبادل حبنا.

أنظر إليها بإعجاب.. عيناى تقولان نعم.. نعم يا «روث».. سأذهب معك أن أردت إلى آخر الدنيا.. وجهها يعود أمامى كما كان.. وجه المرأة الفتاة المحبة.. تدلف إلى الفراش، وتلتصق بى.. أسمعها تقول بصوت فيه بحة..

««خليل».. أرجوك.. خذنى بين ذراعيك.. أعطنى حبك الآن بسرعة..»..

عشرة أيام قضيناها فى «باريس» سويا.. قابلنا «المستر هاريسون» أربع مرات.. كان يستأجر شقة فى «الفوبور سانت هونوريه».. رجل طويل القامة، شديد الوسامة.. أسنانه البيضاء تبرق فى ابتسامة لا تفارقه إلا نادرا.. الأنف المستقيم، والشفتان، والأذنان كلها مرسومة بعناية.. لا تميل إلى الكبر، ولا إلى الصغر.. كأن حجمها تحدد بدقة قبل الولادة.. ملابسه الأنيقة من ذلك النوع الذى يفضله من تعود ركوب الخيل، والرياضة.. وفيها ذلك القدر اللازم من الإهمال الذى يوحى بالأصالة.. يسجل مواعيده فى مفكرة جلدية بقلم رفيع من الفضة.. وفى كل لقاء يصطحب معه إحدى موظفات الشركة، أحس رغم فارق السن أنها صورته الأنثوية.. تلتقط ما يرمى إليه بمجرد حركة بسيطة من اليد، أو طرفة جفن، أو إيماءة غير محسوسة من الرأس.. دعانا على العشاء فى مطعم صغير يطل على كنيسة «نوتردام».. عندما دخلنا هرول إليه «الميتردوتيل»، ودار بينهما نقاش طويل فى أنواع الطعام والأنبذة التى يقترحها علينا.. بين الحين

والحين يلتفت إلينا ويسألنا رأينا، فترد عليه «روث» فى اختصار بارد.. أما أنا فظللت صامتا أغلب الوقت، أشاهد طقوسا غريبة علىّ، وأدور بعينى على الموائد، وملامح الرواد، تظهر وتختفى فى ضوء الشموع.. يوجه أغلب كلامه إلىّ، ويدير الحديث بحيث أضطر إلى الرد عليه.. أحس بعينيه تتجهان إلىّ فى لحظات معينة عندما يلقى بسؤال مفاجىء.. أسلوبه مهذب.. يحكى ذكرياته عن البلاد التى سافر إليها فأدرك أنه خبير فى التعامل مع مختلف أنواع الناس.. بعد العشاء أصطحبنا إلى أحد النوادى الليلية.. تابعته يراقص «روث» فى نصف الظلام. حركاتهما سريعة ناعمة فيها انطلاق.. أنه كالحصان الملىء بالحيوية.. أما أنا فقصير القامة بالنسبة إليه.. أرتدى عيونات سميكة، وسترة تم إصلاحها أخيرا عند أحد الترزية.. أحسست بالحسرة.. فأنا رغم نشأتى الأصلية انتمى إلى عالم آخر.. لا أستطيع أن أجارى هذه الحياة العصرية.. عدنا إلى الفندق الصغير فى «سان جرمان لى بريه»، وأغلقنا باب الحجرة، ارتمت «روث» فى أحضانى وقالت «أخيرا وحدنا».. فعادت إلى ثقتى بنفسى.. وضعت ذراعيها حولى ورفعت وجهها فى شوق إلىّ، وكأننى أغلى إنسان لديها..

سهرنا فى تلك الليلة نتحدث.. كأننا انتقلنا إلى نقطة بعيدة، منعزلة، ولم نعد نشعر بما يجرى حولنا.. أيقنت أن ما تقوله إلىّ، لم تبح به أبدا لأحد سواى.. أرى وجهها الجميل فى الضوء الخافت، وقد كسته حمرة الانفعال.. وأرى عينيها تنظران إلىّ، وتتوالى فيهما المشاعر المتباينة كلما تذكرت شيئا عن الماضى.. تحدثت عن طفولتها.. عن أب ثرى التقى بأمها المكسيكية على باخرة نهرية.. يستمتع بإجازة قصيرة تحمله بعيدا عن توتر الحياة اليومية.. أما هى فامرأة فاتنة فى سن الرابعة والعشرين هاجرت من بلادها حيث كادت تبتلعها المواخير، والنوادى الليلية.. وصلت إلى ولاية «ويسكونسين» فى طريقها إلى مدن الشمال الصناعية.. لم يكن سنه فى ذلك الوقت قد تعدى الثلاثين.. العينان الزرقاوتان

فيهما شباب برىء يوحى بالثقة، والشعر الأشقر أمواجه تدعو إليه اليد الحانية.. يهبط من جناحه الخاص فى الطبقة العلوية، وتصعد هى من المستويات الدنيا فى قاع الباخرة.. يلتقيان فى دفء الشمس تثير أصابعها الذهبية تيارات عميقة فى الأجسام الفتية.. وفى ضوء القمر يضفى غموضه السحرى على الوجوه، والنظرات، والرغبات الحسية.. عند نهاية الرحلة أخذها معه إلى «نيويورك».. عاشت فى بيته سنة كاملة دون أن يتزوجها.. فى يوم من أيام الخريف اقترح عليها أن يذهبا بالسيارة إلى مشارف المدينة ليقضيا بعض الأيام فى فندق صغير على شاطئ نهر «الهادسون».. كانت إذ ذاك حاملا فى شهرها السادس.. بعد أن وصلا بقليل قال إنه يريد أن يخرج فى نزهة قصيرة إلى أن تستريح.. ترك الفندق فى ذلك اليوم قرب الظهيرة ولم يعد.. ظنت أنه أصيب فى حادث، وكادت أن تصاب بانهيار عصبى، لولا صاحبة الفندق.. سيدة من «بورتوريكو» معتدة بنفسها قوية، أحاطتها بالرعاية.. لم تجرؤ على تبليغ البوليس بسبب جنسيتها المكسيكية.. فالمعاملة التى يلقاها المهاجرات أمثالها سيئة للغاية.. ذهبت تبحث عنه فى مسكنه بضاحية «مانهاتن» فلم تعثر عليه.. أدركت أن العلاقة بينهما انتهت.. عرضت عليها صاحبة الفندق أن تبقى معها.. تسكن. وتأكل، وتتقاضى أجرا زهيدا مقابل العمل الذى ستقوم به.. فاعتبرت أن حظها من السماء، وقبلت.. «وهناك فى الفندق ولدت أنا «روث أرتاجا جونزاليس»، وهو الاسم الذى وهبته إلىّ أمى.. أما أبى فلم أره حتى يومنا هذا.. ولم يخطر فى بالى أن أبحث عنه..» عيناها يصيبهما اتساع غريب.. مساحتان عسليتان زال منهما الإحساس.. مجرد فتحتين تطلان على العالم بنظرة فيها خوف.. وشىء آخر لا أعرف كيف أصفه..

«انتقلنا بعد سنة من الفندق إلى إحدى أحياء «نيويورك» حيث يتجمع المهاجرون من «أمريكا اللاتينية».. أمى تعمل فى كنس الشوارع، أو غسل

ملابس الأسر، أو كخادمة تقوم بالتنظيف فى المطاعم، والبارات.. عرفت كل المهن المنحطة ما عدا مهنة المومس.. وهكذا نشأت أنا منذ البداية، أعرف ما تعنيه الحياة بالنسبة إلى طفلة لقيطة مهاجرة فى مدينة «نيويورك».. رفعت عن عينى منذ الأيام الأولى كل الأستار لأرى الواقع كما هو، لأنفذ إلى حقيقة القهر الذى يمارس ضد امرأة ترقد عند أسفل السلم الاجتماعى.. لذلك منذ سن مبكرة أدركت أنا أظافرى لا بد أن تظل مسنونة.. أن الحياة بالنسبة إلىّ هى أولا أن يكون لدى مال كاف حتى لا أعتمد على أحد.. أننى لا بد أن أواجه الرجال والمجتمع بدروع لا تنفذ إليها ثغرة حتى إذا كانت فى حجم الأبرة..

ربما يكون كل هذا هو سر ارتباطى بك.. أحسست أن أصابعك معى ستظل لمساتها رقيقة.. أنك لا تريد أن تتسلط علىّ، ولا تطمع فى شىء معين سوى السعادة والحب نبنيهما سويا.. أنك مثلى.. مكسور الجناح فى الداخل، حزين.. تدرك أن العطاء هو سر العاطفة الحقيقية.. وربما بسبب نشأتى أيضا.. فأنا أقرب من بعض النواحى إلى المجتمعات الشرقية.. أن وجدت الرجل الذى يفهمنى ربما أستطعت أن أتبادل معه أشياءً افتقدناها فى بلادنا الغربية.. فالحياة عندنا مرتبطة فقط بالمال، والآلة، والأشياء المادية..»..

فى الفجر نامت بين ذراعى.. طفلة ضائعة فى حوارى «نيويورك» الجانبية.. ظللت مفتوح العينين أنظر إليها، وأمر بيدى على رأسها.. تشعر بلمسة الحنان فتدفن رأسها فى صدرى تبحث عن مكان تنزوى إليه بعيدا عن الأخطار المحدقة بها.. بين الحين والحين تتحرك شفتاها بكلمات غامضة كأنها ما زالت تواصل الحديث الذى بدأناه بعد أن عدنا..

رأيت الشمس تطل من بين المبانى، وأوراق الشجر ترتعش بألوان الخريف فقمت.. ذهبت إلى الحمام. حلقت ذقنى، واغتسلت تحت رذاذ الدش الساخن.. دلفت من الباب فوجدتها راقدة على ظهرها، رأسها مرفوعة على الوسادة، وعيناها

متجهتان ناحيتى.. عندما رأتنى ابتسمت.. وجهها فيه شفافية،والشفتان يجرى فيهما الدم الأحمر.. تقبل رأسى المبللة، وأنفى وفمى.. تخلع قميصها بحركة سريعة وتتسلل إلىّ كالشعلة النقية.. أقبل أمواجها المرتعشة البيضاء.. أنفذ بكيانى إلى عالمها الخاص، إلى النقطة الهلامية حيث بؤرة السعادة، والمتعة، والشقاء.. نفنى عند موجة الانفجار.. نبكى من نشوة الوصول إلى لحظة تقنا إليها منذ بداية الوجود.

كل يوم فى الصباح نهبط على السلالم الضيقة، ونتجه إلى حجرة الطعام.. أربعة موائد للإفطار تجمع حولها الشبان والشابات.. فى الوجوه إشراق وابتسامة تقول «نحن نعرف أنكما عاشقان.. نتمنى لكما أطيب الأشياء فى الحياة».. يتحدثون معنا، ويضحكون، ويحكون الحكايات.. على المائدة القهوة السمراء، والزبد،و«الكرواسون» ودائرة من الوجوه الضاحكة.. فأعود كما كنت يوما.. شابا حالما نقى الفؤاد، يخطو خطواته الأولى فى الحياة.

نتنزه فى الحدائق، والميادين تحت أشجار الخريف.. وفى الشوارع العريضة، وعلى ضفاف السين.. نسمع أنغام الموسيقى، وأغانى الشباب.. نجلس معهم على مقاعد الخيزران.. نشرب النبيذ الأحمر يسرى بالنشوة فى الشريان.. ونأكل القواقع، والأسماك، والكسكسى، والباذنجان.. نرقص فى الصالات المزدحمة كأنه لا يوجد سوانا.. ولكننا فى نفس الوقت نلتقط كل همسة، كل نظرة، كل رعشة بقدرة مضاعفة على الإحساس.. نجتاز الحياة بقلبين فيها حب لأعقد الكائنات، وأبسطها.. للناس، والطبيعة، والجماد.. ونحلم سويا بكل الأحلام المذبوحة فى الحياة..

قبل أن نغادر المدينة فى طريق العودة اتفقت مع «المستر هاريسون». على كل شىء.. تم تعيينى وكيلا للشركة التى يملك هو أغلب أسهمها. وأصبحت مسئولا عن التسويق فى البلدان العربية.. مرتبى ستة وثلاثون ألف دولار فى السنة،

خلاف السيارة والسائق، وإعانة للسكن إذا ارتفع إيجاره عن ثلثمائة دولار فى الشهر.. أحس وهو يناقش هذا البند بمسحة من السخرية على وجهه تختفى بسرعة.. إذا زادت المبيعات السنوية عن اثنين مليون دولارا فى السنة تصرف لى مكافأة سنوية متدرجة حسب مقدار الزيادة.. العقد مدته ثلاث سنوات، ولكن السنة الأولى تعتبر فترة اختبار يحق لى، وللشركة فى نهايتها اعتبار العقد لاغ.. والعقد يجدد كل ثلاث سنوات من تلقاء نفسه إلا إذا طلب أحد الطرفين إلغاءه قبل نهايته بمدة لا تقل عن ثلاثة شهور.. مهمتى الأساسية ترويج خمسين مستحضرا من إنتاج أربع شركات أمريكية فى الأسواق العربية «بمختلف الوسائل»، وفى هذا السبيل سيوضع تحت يدى ثلثمائة ألف من الدولارات لفتح مكتب، وعشرة آلاف دولار سنويا «للإكراميات»... أما ما يزيد عن هذا فلا بد من الاتفاق عليه مع «المستر هاريسون» شخصيا.

لم أدرك فى البداية مدى التغير الذى حدث فى حياتى نتيجة هذا العمل الجديد. ولم أع معنى المبالغ التى سأتقاضاها، أو أتعامل فيها.. كانت بالنسبة إلى مجرد أرقام، وكان لا بد أن أمارس عملى الجديد حتى أتنبه إلى هذه الأشياء.. ولكن منذ اللحظة الأولى أحسست بالانطلاق.. بأننى أملك ناصية الأمور أكثر من أى وقت مضى، وأتمتع بحرية لم أشعر بها فى الماضى، وبالمساواة الفعلية بينى وبين «روث».. ولكن شابت هذه الأحاسيس بعض عناصر الموقف.. فكان من الصعب أن أنسى كيف حصلت على هذه الفرص.. وأنه لولا «روث» لما تحقق شىء منها.. أن زوجها هو الذى يدفع لى الأجر.. استولى على فى بعض الأوقات شعور كان يحيطنى بسحابة من التوتر، والشك.. فقد أدركت أنه منذ الآن ستكون كل المسائل محسوبة، ومحكومة لن تشوبها شعرة من الفوضى، أو التلقائية، أو العواطف العادية التى تسمح بالتجاوز عن بعض الأشياء.. لحظة أن أمضينا العقد نظرت فى عينى «مستر هاريسون» فومض خاطر سريع فى ذهنى، وهو أن كل

هذا السخاء مدروس، وأن الرجل سيحاول أن يضع يديه الكبيرتين حول عنقى ليعتصر منى كل قطرة من الجهد.. سألت نفسى.. «ترى هل تدرك «روث» هذه الحقيقة؟..» فأيقنت أنها ليست غائبة عن ذهنها.. كل المسألة أنها تعتقد أن وجودها إلى جانبى سيمنحنى نوعا من الحماية.. عندما رأيتهما سويا أدركت لماذا كان من المستحيل أن تستمر فى علاقتها به وتساءلت فى نفسى عما دفعها إلى قبول الزواج منه..

هكذا اختلطت السعادة التى عشتها خلال الأيام العشر بساعات قليلة عانيت فيها من مشاعر، وخواطر متناقضة تركت فى نفسى بعض الاضطراب، وأفسدت على جزءا من فرحتى بالموقف.. ولكنها جعلتنى اقترب من «روث»، وأفهمها بشكل أعمق. بدا لى واضحا أنها لا تستسيغ النظرة إلى الحياة التى يتميز بها «المستر هاريسون»، وأن المال ليس عندها سوى وسيلة للتخلص من العوز، وفرصة للتمتع باستقلالها.. فأحببتها أكثر.. كنا نقضى أغلب الوقت وحدنا، ما عدا المرات التى التقينا فيها «بالمستر هاريسون»، وما عدا بضعة ساعات ذهبت هى أثناءها إليه وحدها. فجلست أنا فى حديقة «لوكسمبورج» أنتظرها، واستمتع بمنظر الطيور البيضاء تسبح بهدوء على سطح المياه الممتدة حول النافورات.. لم أشعر بالضيق عندما قالت إنها ستذهب إليه لتسوية بعض المسائل.. فالأيام جعلتنى أفهم أنها امرأة تختار بإرادتها، وأن لا شىء يجبرها على الاستمرار فى علاقتها بى سوى العاطفة الحقيقية.. كان حبنا يعيش أحسن ساعاته.. عندما أكون معها يضيع كل التوتر الذى ما زال يصيبنى عندما أتذكر النظرات التى كان يلقى بها «المستر هاريسون» ناحيتى من فوق مائدة الطعام، أو منضدة الاجتماعات فى مكتبه.. نظرات باردة تنفذ إلى كأنه صياد يوزن لحم الفريسة قبل أن يطلق بندقيته.. أشعر أن الابتسامات التى تومض على وجهه بسهولة، والكلمات المهذبة، وحتى الملامح المرسومة بدقة ليست سوى لوازم المهنة.. وأن

الجاذبية التى يحاول أن يشعها على كل الذين يتعاملون معه مكرسة لهدف واحد.. أن يستخرج من كل رجل أو امرأة أكبر قدر من المنفعة لنفسه.

أما «روث» وأنا فقد حاولنا أن ننسى كل هذا.. لم يكن صعبا علينا إذ ذاك فقد مرت بنا أجمل لحظات الحياة.. كنا نحيا حالة من الذوبان لا تتحقق إلا نادرا، حيث يفقد الإنسان إحساسه بالذات، ويمتص تماما فى الآخر.. الأيام تجرى بسرعة البرق.. تبدو طويلة من زحمة الأحداث، وتوالى التطورات، واللحظات المليئة بالحب.. وتبدو قصيرة، تنفرط كحبات الخرز عندما يتمزق العقد.. نعد الساعات الباقية فنتنهد، ونشعر بالحزن.. ولكن سرعان ما ننسى وننطلق كالطفلين اكتشفا الفردوس.. إلى أن جاء ذلك اليوم الذى طالما حاولنا أن ننفيه بعيدا خارج حدود الوعى.. استقيظنا فى الصباح الباكر، وأعددنا الحقائب فى صمت.. هبطنا إلى حجرة الطعام، فوجدناها خالية من الناس.. لا أحد سوى زوجة صاحب الفندق العجوز.. تقف خلف جهاز القهوة تفتح صنبور البخار، وتطل علينا بعينيها الصغيرتين.. ابتلعنا نصف فنجان من القهوة باللبن، وقطعة من الخبز ثم عدنا إلى حجرتنا.. تلتقى عيوننا من حين لآخر فى صمت.. أو تدور حول الأثاث، تودع السرير، والمدفأة، وزجاجة نبيذ فارغة وضعناها فى الركن.. لن نفترق، ومع ذلك يسيطر علينا شعور بأن هنا فى هذا المكان، أمان، وحماية للسعادة، وحب.. أما هناك، فرغم الشقة الفاخرة، والسيارة، والنقود فنحن محاطان بالمخاطر، والغيوم.. وضعنا الحقائب فى المصعد، وهبطنا إلى البهو.. دفعت الحساب للشاب الودود يقرأ فى كتاب للتاريخ، ويرد على التليفون.. نظراته الهادئة تقول.. «لكل الأشياء نهاية.. وداعا»..

سيارة الأجرة تخترق الشوارع، والميادين.. نرى الكبارى تتتابع فوق نهر «السين»، والأشجار العملاقة، وسوق الزهور.. وطابور من السيارات يزحف فوق الطريق الطويل ببطء.. على الجانبين المصانع الضخمة، والمبانى، والحقول..

إعلانات وسهام، وأرقام، وأنوار خضراء، وحمراء، ورصيف، وعربات تدفع باليد، ومصاعد، وصالة ضخمة، وفتيات مبتسمات، وصوت الميكرفون، ولوحة الطيارات، وممرات من زجاج، ومقاعد فى صفوف، ونفق أخير تخترقه ينتظر عند آخره شاب حليق الذقن يفحص البطاقة، ويشير إلينا بالدخول.. جسم الطائرة الطويل. والألوان. ودولاب نضع فيه حقائب اليد، وزجاجتين من نبيذ «الإلزاس»، ومقعدان نجلس عليهما، وحزامان حول الخصر.. ويدان متشابكتان تتعلق كل منهما بالأخرى كأنهما تبحثان عن الحماية من خوف غامض يصعد فى الصدر، كلما صعد الطائر العملاق فى الفضاء العريض، واتجه بمنقاره المدبب صوب مدينة «القاهرة».

أجلس إلى جوار النافذة العريضة وأطل على النيل.. مائدة الإفطار تبرق أدواته الفضية فى الشمس. ومن مسافة قريبة يأتينى صوت «روث» نقى، عميق، كماء السلسبيل.. على صينية البريد خطاب ليس عليه طابع.. ترك فى الصندوق.. أفحص الخط، غريب علىّ، لم أره من قبل.. أفض المظروف بسكين رفيع مقبضه من «البرونز».. أسحب الورقة البيضاء الوحيدة وأقرأ.. أعيده إلى الظرف، ثم أضع الظرف فى جيبى.. أسند رأسى على المقعد وأغلق جفونى.. أسمع ساعة الحائط تسجل الثوانى بوقعها المنتظم يخترق الصمت.. تك.. تك.. تك... تك.. تك.. أعد الدقات.. كالخطوات.. تقترب..

* * *

عندما علمت بفصلى من العمل، أنا وزملائى الثلاث «مصطفى رمضان» و«على الشرقاوى» و«حسن عيد» شعرت بالضيق، والغيظ.. فقد أدركت على الفور أن السلطات تمكنت مرة أخرى من كشف أسرارنا.. وحين أنبأنى رئيس الاتحاد بهذا الخبر صعدت إلى ذهنى صورة «خليل منصور خليل» يجلس على مقعد فى الاجتماع الأخير الذى عقدناه فى المقهى.. تذكرت وجهه الشاحب، وصمته، وومض فى ذهنى خاطر سريع سرعان ما طردته.. هل هو الذى أبلغ السلطات عن الاجتماع..؟ أنه فى الفترة الأخيرة لم يكن فى حالته العادية.. تتجاذبه أطراف الصراع فيكاد يتمزق... فيما بعد أخبرنى رئيس الاتحاد أنه تغيب عن العمل طوال فترة الاضراب، وبعدها، فكادت شكوكى أن تتأكد.. أحاطنى هو و«أمينة» بصداقة متينة، وعواطف لم تتح لى من قبل رغم الفارق فى البيئة والوسط بيننا.. غمرنى شعور باليأس وأظلمت الدنيا.. وقد زاد من شعورى هذا ما حدث لزملائى الثلاث.. فقد اضطروا إلى ترك «حلوان» بعد أن أصيبت محاولاتهم للحصول على عمل فى المنطقة بالفشل.. هكذا تفرقت الأواصر التى قامت بيننا بحكم وجودنا سويا فى المصنع.. وسرعان ما غاب كل منا عن الآخر، ولم يبق سوى ذكرى المعارك، والصداقة..

لذلك استولى على شعور حقيقى بالسعادة عندما قال لى رئيس الاتحاد فى

صباح أحد الأيام أن «خليل منصور خليل» فصل هو أيضا من المصنع.. فرغم أننى حزنت عليه بسبب المشكلة التى سيواجهها، كانت السعادة هى الأقوى.. فقد أدركت أن ظنونى بالنسبة إليه كانت خاطئة..

كنت فى ذلك الوقت أقيم فى منزل رئيس الاتحاد.. فبعد أن أفرج عنى أصر على أن أبقى معه وقال: «ليس لك مكان آخر يمكنك أن تذهب إليه..» أحاطنى هو وابنته بتلك الرعاية البسيطة التى جعلتنى أشعر بالراحة.. كان من الطبيعى أن تتدعم العلاقات بينهما وبينى.. وأن نقترب بسرعة.. ففيما عدا الساعات التى قضيتها بحثا عن عمل حرصت على أن أظل فى المنزل أغلب الوقت حتى أقوم بالأعمال التى تخفف عنهما.. هكذا تعددت أشكال التبادل الذهنى والوجدانى بيننا نحن الثلاث.. كنت أقترب فى ذلك الوقت من سن الخامسة والثلاثين.. تخطر فى بالى أحيانا فكرة الزواج من امرأة عاملة تشاركنى الحياة، فأنساها فى زحمة الأحداث.. كان عملى فى المصنع بالنهار وانشغالى بالنشاط النقابى بقية الوقت يجعلانى ممتصا تماما، لا أفيق إلا فى لحظات قليلة، ولا أجد الوقت لاحيا بشكل طبيعى أو أرفه عن نفسى. وأقيم علاقات الصداقة، وأتعرف على الفتيات اللائى يعملن معى فى الشركة.. كانت علاقتى بهن رسمية يحكمها العمل.. عندما تعرفت على «خليل» و «أمينة» أدركت أنه يمكن أن تقوم علاقات بين الرجل والمرأة تختلف عن تلك التى عودتنى بيئتى عليها.. أحسست أننى لم أعد أرغب فى الزواج بالطريقة التقليدية.. أريد أن أعرف زوجتى جيدا، وأن تعرفنى حتى نبنى حياتنا على المشاركة، والتفاهم الحقيقى..

عندما أعود إلى تلك الأيام وأتذكر كيف فصلت من المصنع، أدرك أننى فقدت شيئا لأعوضن بما هو أثمن.. فقد أدت اقامتى عند «محمد السرجاوى» رئيس الاتحاد إلى أن تعرفت بابنته «علية»..

كانت فتاة غريبة الأطوار بالنسبة الى.. فقد نشأت فى «أسوان» وتشبعت

بكثير من العادات التى تتشبث بها الأسر هناك.. صحيح أن علاقتى «بخليل» و «أمينة» غيرت فى بعض الأشياء.. ولكن هذا التغير لم يصل حتى الأعماق وظل نوعا من الاقتناع العقلى فحسب.. عندما أحاول ممارسته فى الحياة اليومية أجد نفسى وقد عدت إلى ردود الفعل القديمة، والعادات المتأصلة فى تكوينى.. ولذلك كثيرا ما كنا، «علية» وأنا نتصادم.. كانت عنيدة لا يمكن اثناؤها عن شىء إلا إذا اقتنعت.. ومع ذلك أحسسنا أنا وهى أن بيننا أرضا مشتركة.. إنسانة بسيطة فيها كرم وعطاء.. لم تتح لها الحياة أن تجوب الآفاق الواسعة، أو أن تنهل من منابع الثقافة، ولكنها مع ذلك شديدة الذكاء تمتص المعرفة بسرعة غريبة.. أصبحنا نتناقش فى كثير من الأمور، واكتشفت أنها تنتهز كل الفرص لشراء كتاب، أو الذهاب إلى بعض المحاضرات. والندوات، والأفلام.. ولكن عملها فى «أبى زعبل» كان يجعلها تعود فى وقت متأخر للغاية.. ولما أثرت الموضوع مع أبيها قال أن موقفه الصامد فى الاتحاد أغلق أمامها كثيرا من فرص العمل فى «حلوان».. كانت تخرج من المنزل عند الفجر، فاستيقظ معها.. نشرب الشاى سويا، ونتحدث، وتتفق معى على الأشياء التى يجب أن أقوم بها فى البيت قبل عودتها فى المساء.. أراها تخرج من الباب.. عودها قوى، منتصب، ووجهها المبتسم فيه شقاوة.. انتظرها آخر النهار فى صبر نافذ..

هكذا قويت بيننا العلاقة، ونمت العواطف.. لاحظت أنها تتغيب فى بعض الأمسيات.. فلما سألتها قالت أنها منضمة إلى جمعية لنساء «حلوان».. كنت أقدر فى أبيها ثقته الكاملة فيها، وأدركت أنها لن تقبل منى سوى نفس المستوى فى التعامل.. لذلك لم أسألها أكثر من هذا.. وفى ليلة من ليالى رمضان بينما كان أبوها غائبا فى احدى الاجتماعات، أخذنا نتحدث بصراحة عن المشاعر التى يحملها كل منا للآخر.. قلت لها أننى أحبها، وأريد أن أتزوجها.. أنى فى البداية كنت مترددا فى فتح الموضوع ولكنى أدركت أنها هى وأبوها سيتصرفان معى

بصراحة إذا ما عرضت عليهما ما يدور فى خاطرى.. رأيى ألا يتم الزواج إلا بعد أن أعثر على عمل، وبيت نستطيع أن نستقر فيه.. ظلت تستمع الى فى صمت، ثم عندما انتهيت مدت الى يدها فى بساطة وقالت: «أنا أحبك أيضا يا «سعيد»، وأوافق على أن نتزوج.. سننتظر حتى تعثر على عمل.. أما فيما يتعلق بالمسكن فلابد أن نبقى مع أبى.. من الذى سيرعاه إذا تركناه؟.. ليست له زوجة، ولا أخت، ولا أية أمراة يمكن أن ترعاه، ويرعاها.. وهو لا يفكر فى الزواج مرة ثانية.. كان متعلقا بأمى إلى أبعد الحدود.. وعندما ماتت كرس نفسه لتربيتى، ورفض أن يتزوج حتى لا أعانى من أية مشاكل.. مرت الأيام، وكبرت أنا، وأصبحت أعمل ولكن كانت السنون قد فاتت، ولم يعد من السهل له أن يجد من تستطيع أن تشاركه حياته، فصرف النظر تماما عن هذا الموضوع».. تنظر إلى بوجه كساه الجد وتقول : «فكيف أتخلى عنه الآن؟» أضغط على يدها فتصمت، وتستطرد: «شىء آخر أريد أن أقوله لك.. سنصبح زوجين فلابد أن نتصارح.. أنا عضو فى الحزب الاشتراكى..».

لأول وهلة أحسست بقلبى ينقبض.. ربما بسبب الخوف عليها.. وربما بسبب آخر.. فانضمامها إلى هذا الحزب معناه أن جزءا من حياتها يخرج عن نطاقى.. دار فى نفسى صراع أطاح بالراحة التى كنت قد أحسست بها فى علاقتنا، وساد بيننا نوع من التوتر الصامت.. عندما تتلاقى نظراتنا الآن أقرأ فى عينيها تساؤل.. أخرج من البيت فى بعض الأيام لأتفاداها، واجلس وحدى على المقهى لأفكر فى الأمر.. مر أسبوع وأنا فى حالة من القلق لم أعان مثلها من قبل.. فخبرتى فى هذه المسائل تكاد تكون معدومة.. لا أتذكر أنه نشأت بينى وبين فتاة أية علاقة.. كنت إذا ما حاصرنى التوتر أذهب حيث يذهب بعض العمال، وأبحث عن امرأة تقضى معى بعض الوقت فى حجرتها مقابل أجر.. تذكرت.. «خليل» و«أمينة» والعلاقة القائمة بينهما.. قلت لنفسى.. الحياة الزوجية أخذ وعطاء،

ومن يريد شيئا ذا قيمة لابد أن يدفع الثمن.. و «علية» إنسانة تستحق أن أضحى من أجلها.. ولكن أشياء فى داخلى تقبل هذه الحقيقة، وأشياء ترفضها، فيظل الصراع دائرا فى أعماقى.. أخيرا حسمت الأمر.. لقد ضقت بالوحدة، ولا أريد أن انتظر أكثر من ذلك.. أننا نحب بعضنا ويجب أن نتزوج.. سنهتدى إلى الحلول المشتركة من خلال الحياة الزوجية.. ولكن فى جزء خفى من نفسى كنت آمل أنها فى النهاية ستخضع لارادتى، ونكتفى بالعمل فى المصنع.. هكذا بدت لى المسائل.. ففى هذه الفترة بالذات لم أكن قد عرفت حقيقة «علية محمد السرجاوى».

اتفقنا على كل الأشياء، على الأقل فى الظاهر.. فطرت من الفرح.. تحدثت مع أبيها عما دار بيننا فقال: يابنى نحن نتشرف».. شد على يدى وظهرت عند أركان الجفون الملتهبة دمعة صغيرة سرعان ما اختفت.. احتفلنا فى تلك الليلة.. ذهبنا إلى السيدة، وأكلنا كبابا، وكفتة، ومهلبية، وشربنا الشاى الأخضر ثم عدنا بعد منتصف الليل وجلسنا نتحدث حتى تردد آذان الفجر، وقام الرجل يصلى.. دخلت «علية» إلى حجرتها، وافترشت أنا «الكنبة» فى الصالة كما تعودت أن أفعل.. فاليوم يوم الجمعة، وهكذا نستطيع أن ننام حتى يقترب موعد الافطار..

أحسست أن اقامتى معهما مدة أطول من ذلك فيها صعوبة، وعنت لأسرة امكانياتها محدودة.. فقررت أن أسافر إلى «أسوان»، أزور أهلى واتزود ببعض الأشياء أحمل جزءا منها للأسرة التى استضافتنى واحتفظ بالباقى لنفسى.. أثناء الزيارة سأفاتح أمى العجوز فى موضوع الزواج، خصوصا أنها كانت تريد أن اختار زوجة لى من بين الأقارب.. فى نفس الوقت يمكننى أن أتصل بابن عمى «حمدان» فى مسألة العمل.. فقد علمت أن أخاه قرر أن يقيم «ورشة» لإصلاح السيارات فى منطقة «حلوان»، فقلت لنفسى ربما أمكننى أن أعمل معه..

هكذا خططت للسفرية إلى «أسوان» بحيث تحقق عدة أغراض.. وفى عشية

اليوم الذى تحدد للسفر ذهبت لزيارة «خليل» فى بيته.. بدا لى وأنا أمشى على الطريق أن زمنا طويلا مضى منذ أن التقينا فى المرة السابقة.. عندما أنظر إلى الوراء أشعر أن الفترة الماضية كانت مفعمة بأشياء كثيرة.. وأن «خليل» ظل طوال الوقت خيطا أساسيا فى نسيجها.. ففى كل اللحظات الحرجة كنت أتذكره.. أحداث الاضراب بالذات جعلته حيا فى مخيلتى.. أثارت التساؤلات، والذكريات الحلوة والمرة.. ومشروع الزواج من «علية» جعلنى أفكر فى العلاقة القائمة بينه وبين «أمينة».. كانا إلى حد كبير النموذج الذى أردت أن أهتدى به..

عندما وجدانى واقفا فى فتحة الباب الخارجى بدت عليهما علامات الفرحة وانقضا على.. أحاطنى «خليل» بالأحضان، وتركت «أمينة» الطفل الذى كانت تحمله بين يديها، وقبلتنى على الخدين.. أحسست بنفسى محاطا بالدفء والاهتمام اللذين عودانى عليهما.. انطلقنا نتحدث عن كل الأشياء دون تسلسل.. نقفز من موضوع إلى موضوع.. نضحك، ونحكى بتلك الحرارة التى لا يعرفها سوى الذين يحبون بعضهم حبا حقيقيا ثم تفرق بينهم ظروف الحياة.. استولى على ولع شديد بابنهما الوليد «عصام».. طفل جميل يطل على العالم بثقة.. أخذت أدور به بين الحجرات، وأرفعه فى الهواء بين ذراعى، فألمح «أمينة» تنظر إليه باعجاب.. جلسنا حول مائدة الطعام فى المطبخ.. الضاحية تغط فى نوم عميق.. ومن خلال النوافذ المفتوحة يتسرب إلينا نسيم الحقول.. نتبادل الأفكار والكلمات تطير فى الهواء كالفراشات الملونة.. العالم ينام من حولنا، ونحن كالآلهة عقولنا مستيقظة، وأجسامنا نابضة بالحياة.. وصفت لهما حياتى مع «محمد السرجاوى» وابنته.. كيف أقضى أيامى، والكتب التى قرأتها.. فاندفع «خليل» بحماس يناقش فى بعض النقاط التى أثرتها.. بالتدريج أخذت أعرج على «علية» وعلاقتى بها.. وصفتها لهما، فلمحت «أمينة» تنظر الى بعينين فيهما ود، وسخرية.. انتابنى ارتباك خفيف، وهربت منى الكلمات.. وضعت يدها على

ذراعى.. وسألتنى ان كنت أفكر فى الزواج.. عندئذ فاضت الكلمات، وتتابعت الجمل فى سهولة.. كنت كالمحمول على جناحين من الأمل.. أحكى لصديقى عن كل الأشياء التى فكرت فيها.. عن المستقبل، والعمل، والبيت.. وكيف أن «علية» فتاة رائعة أبت أن تتخلى عن أبيها.. أننا اتفقنا على الإقامة معه حتى نرعاه.. وكيف تأثر هو عندما علم بما اتفقنا عليه.. لم أخف عنهما شيئا.. نام «عصام» فجلسنا فى حجرة المعيشة نكمل الأحاديث التى بدأناها أثناء الغذاء.. كانت هناك مسألة لازالت تشغلنى هى مسألة ارتباط «علية» بالحزب الاشتراكى، ولكنى ظللت مترددا فى عرضها عليهما.. فكيف ابيح لنفسى مناقشة ما يخصها هى دون الرجوع إليها؟ دار فى نفسى صراع جعلنى اضطرب من جديد.. عينا «أمنية» تحملقان فى كأنها تنتظر شيئا.. اطيل الحديث عن الدروس المستفادة من الاضراب، وكيف نجحنا لأن القرار نفسه، وأغلب الترتيبات كانت نتاج تفكير كل العاملين.. فقد أعددنا له سلسلة من الاجتماعات المصغرة تركت لكل واحد منهم الفرصة كاملة لابداء الرأى.. ربما يكون العيب الوحيد هو فشلنا فى حماية العناصر التى لعبت دورا مهما فى التخطيط للاضراب.. عندما وصلنا إلى هذه النقطة لمحت وجه «خليل» فادركت أنه طوال الوقت كان يحاول أن يخفى حالته الحقيقية.. ولكن فى تلك اللحظة سقط القناع من على وجهه فادركت اننى أطل على نفس تكاد تكون محطمة.. هالنى ما رأيته، وأصابنى ضيق شديد.. فقد يظن أننى السبب فيما جرى.. ألم أكن أنا الذى شجعته على استئناف النشاط، والارتباط بنا؟ ولكنه رجل ناضج يأخذ قراراته بنفسه فكيف أعتبر مسئولا عنه؟ لا داعى لأن أحمل نفسى فوق طاقتها.. معارك الحياة هكذا، فيها المكسب، وفيها الخسارة.. مع ذلك انتابنى شعور بالذنب.. فأحيانا يقدم الإنسان على أشياء من باب الخجل من الآخرين، والرغبة فى ألا يشوه صورته عندهم.. وقد أكون أنا بحكم الصداقة، قد لعبت دورا فى اقناعه بأتخاذ بعض المواقف.. ربما أكون فى

اندفاعى للمعركة التى خضناها، ورغبتى فى الاستفادة من كل العناصر قد تغاضيت عن قدراته الحقيقية، ومدى استعداده لتحمل تضحيات جديدة.. ولكن هذا هو منطق الصراع.. يترك ضحاياه فى كل الخطوات.. وإن كان يصعب على الإنسان أن يمس أقرب الناس إليه بالضرر.. و «خليل» له بالنسبة الى وضع خاص.. عينا «أمينة» تستقران على وجهى فى نظرة طويلة كأنها تدرك ما يدور فى خاطرى.. أسمع صوتها الهادىء يسألنى لماذا أتفادى الحديث عن الموضوع الذى جئت من أجله.. أنظر إليها فى اندهاش وأقول لنفسى أن هذه المرأة يستحيل أن يخفى عنها الإنسان أعماقه.. لابد أنها ترى «خليل» أمامها كالكتاب المفتوح.. أتردد لحظة أخرى ثم أقرر أن أفتح الموضوع، فلن أجد أفضل منها يسدينى النصح.. فطرحت كل ما يدور بخلدى عن النشاط الذى تقوم به «علية» وعن ارتباطاتها السياسية.. لم احتفظ بشىء لنفسى.. ظلت «أمينة» صامتة تستمع الى فى اهتمام.. أما «خليل» فقد ظهرت عليه علامات الحيرة، كأنه يفكر بعمق، ويقلب المسألة، على كل الجوانب، ويزنها بدقة خوفا من أن يبدى رأيا غير مدروس.. لاحظت أن عينيه استقرت نظراتهما على وجه «أمينة» كأنه يبحث عن السند، أورد الفعل لما سيقوله :

«بصراحة أجد صعوبة فى الإجابة على تساؤلاتك.. فأنا فى وضع قد يبدو متناقضا.. أنصح الآخرين بما لا أفعله أنا.. ومع ذلك سأفصح لك عما يدور فى ذهنى بالضبط.. فمن ناحية لو طرح على أن أنضم إلى الحزب الاشتراكى الآن لما وافقت.. ولكنها مسألة شخصية مرتبطة بوضعى الخاص.. فيجب أن أقدر نفسى حق قدرها، أن أفهم ما أستطيع أن أفعله، وما أعجز عنه.. وذلك حتى لا أحمل نفسى، أو غيرى أى نوع من العنت.. وهذا لا يعنى أن دورى انتهى.. أو على الأقل هذا ما أحاول أحيانا أن أقنع نفسى به.. أما بالنسبة الى «علية» فأنا معجب بموقفها.. أولا لأنها امرأة.. ونحن أحوج ما نكون إلى ممثلى نصف المجتمع

يتصدرون الصفوف، ويدخلون المعركة.. وثانيا لأن المرأة يمكنها أن تضيف الكثير فى الفكر الاشتراكى، وتغير فيه.. يمكنها أن تقدم وجهة نظر جديدة للحياة والمجتمع.. ما رايك أنت يا «أمينة» ؟».

أثناء كلامه ظلت عيناها تحملقان فى الفراغ وكأنها غير مهتمة بما يقول.. احسست لحظة أن بينهما شيئا.. فجوة ما.. وانها تشعر نحوه بالضيق.. التفتت الى وقالت:

«أعتقد أن من حقها أن تختار الحياة التى ترضيها.. فلا أرى أين المشكلة ولماذا تطرحها أنت يا «سعيد».. أنا شخصيا لا يوجد فى الحياة ما يهمنى أكثر من الرسم.. فتصور لو أن الرجل الذى أراد أن يتزوجنى ذهب إلى أصدقائه ليسألهم رأيهم فى هذه المسألة..».

تخلل صوتى رنة احتجاج «لكن هناك اختلاف بين الحالتين.. لا توجد خطورة فى الرسم..».

تنظر الى كأننى طفل ضال.. «الخطورة أنواع يا «سعيد» والفنان معرض لأشياء كثيرة. ولكن بصرف النظر عن هذا الجانب، إذا طبقت هذا المقياس على «علية» لماذا لا تطبقه على نفسك.. أنت مفصول من العمل بسبب نشاطك النقابى.. وكان من الممكن أن يطلق عليك الرصاص لو أن الاضراب ووجه بالعنف.. أم أنك تريد أن تقول أن ما هو مباح للرجل ليس مباحا للمرأة، وأنه يجب أن يظل وصيا على كل ما تفعل..؟ أنا لا أعرف «علية» ولم أرها أبدا.. ولكن يبدو لى من وصفك لها، ومن اهتماماتها أنها فتاة لها شخصية.. فإذا كنت تريد أن تتزوجها يجب أن تعاملها فعلا على هذا الأساس.. وإلا الأفضل أن تبحث عن فتاة إمعة..».

سادت لحظة صمت.. أفكر فيما قالته، وأقدم حججى الأخيرة.

«أنا لا أعترض على عملها فى المصنع، ولا على شخصيتها المستقلة. أنا أخشى فقط من هذه النقطة بالذات»..

«طبعا لا تعترض على عملها لأنكما محتاجان إلى نقودها.. مسألة مصلحة.. الاستقلال إنما فى الحدود التى تضعها أنت وفقا لمصلحتك.. مثل الحرية فى حدود القانون.. والقانون يضعه الحاكم وفقا لمصلحته ومصالح الطبقة التى ينتمى إليها.. كل الفارق بين الرجال، والحكام هى أن الحدود عندهم تتفاوت.. تضيق أو تتسع.. ولكنهم دائما ما يعتبرون أن من حقهم وضع الحدود..».. أشعر فى صوتها برنة غضب.

«الحدود مفروضة علينا فى كثير من الأحيان بحكم الظروف»..

«يجب أن نحاول كسرها، وإلا لما تغير شىء.. ولا ولد الجديد. أنت نقابى.. تحاول دائما كسر القيود فيما يتعلق بحقوق وواجبات العاملين، حتى تتسع باستمرار وتتخطى الحدود المفروضة من الفئات المستفيدة.. ولكن عندما تتعلق المسألة بالمرأة يتغير المنطق لأنك تصبح أنت فى وضع الفئات المستفيدة.. أنت السيد الذى لا يريد للعبد أن يتحرر حتى يستمر فى ممارسة استغلاله وسلطانه.. الرجل مهما تقدم تظل ثوريته محدودة، لأنها لا تتسع للنصف الآخر من المجتمع.».

ظللت صامتا.. عاجزا عن الرد.. سأتذكر هذه المناقشة طوال العمر..

«أمينة» تجلس منتصبة فى مقعدها.. فى كل المسائل رأيها قاطع كالسيف.. أما «خليل» فأحس أن جزءا منه معنا، والجزء الآخر غائب.. يبدو عليه الارهاق الشديد كأنه مستنزف.. كان يجب أن أسأله عن حاله، وأن أهتم به أكثر من هذا.. مسألة «علية» شغلتنى عنه.. لابد أن ألتقى به مرة خارج البيت.. ربما تحدث معى بصراحة أكبر.. يخجل من «أمينة» أحيانا. إنها قوية لا تلين، فيتفادى الظهور أمامها بمظهر الضعيف.. ربما لعبت دورا فى اقناعه بالتعاون مع اللجنة

النقابية، وأحس كأننا ورطناه نحن الأثنان. هناك لحظات يبدو لى فيها أنه يضيق بنا ويعتبرنا مسئولين عما حدث له.. شىء فى نظرات العينين، أو فى كلمة يلقى بها عن غير قصد. نظرت إلى ساعتى. لابد أن أقوم إذا أردت أن استعد للسفر.. أنظر إلى «أمينة» وابتسم...

«سأفكر فيما قلته.. ربما تكونى على حق.. ولكن الوضع مع ذلك يبدو لى غريبا. كيف تكون هى منضمة إلى الحزب، وأنا لا..؟».

خليل ينظر الى ويضحك.. مازال قادرا على الضحك من القلب فى بعض اللحظات..

«ليس من المحتم أن تحتكر كل الصفات يا صديقى.. وإذا كنت مصرا فالطريق واضح..».

أقطب جبينى.. ينظر الى ويتنهد كأنه حزين على شىء فى نفسه.

أوصلانى حتى باب الحديقة. عند المنحنى الذى يقود إلى المحطة توقفت، واستدرت.. مازالا واقفين. يضع ذراعه حول كتفيها.. رفعت يدى فى الهواء فرأيتهما يلوحان الى.. أسرعت الخطا. لم يبق أمامى وقت طويل لإنهاء كل الترتيبات.. احس بغصة فى الحلق، كأننا نفترق لمدة طويلة.. أو كأننى لن أراهما بعد الآن.. انطلقت مسرعا فوق الرصيف أهرب من الخاطر..

كنت قد قررت أن أبقى فى بلدنا «برج الحمام» مدة أقصاها ثلاثة أسابيع.. ولكن حرارة الاستقبال جعلتنى أعيش أياما من الراحة العميقة، وشعورا بأيام الطفولة البريئة يزحف على ويلفنى بالأمان.. أنام الظهيرة فى ظل النخيل.. أتطلع إليه يميل، وتتهامس رؤوسه فى الريح.. السماء عميقة زرقاء تجتازه أسراب الحمام، والسحب البيضاء.. أشرب اللبن الحليب فى أوان من الفخار، وآكل الفطير تصنعه أمى فى الفرن خلف الدار.. استنشق رائحة الحطب يرتفع فى جو الصباح،

واستمتع بالحديث الهادىء، وكركرة مياه «الجوزة» فى الامسيات.. النيل المنعش يجرى بين الضفاف الخضراء تحددها الرمال من كل جانب.. الأيام البعيدة تعود وتضفى على حياتى أبعادا لم أرها من قبل. كأنى أطل على الماضى لأول مرة من ربوة عالية. فاكتشف المعالم الرئيسية، والتضاريس، بل وتفاصيل الأشياء تتغير مع الظلال، وموقع الشمس.. مع الهلال المعلق فى الليل، والقمر المسافر يسكب ضوءه فى الصمت.. أفحص حياتى بمنظار مكبر فأرى الأشياء من زوايا مختلفة، واربط بينها برباط جديد.. أمشى الساعات الطويلة وحدى، وتتدفق الصور فى ذهنى كالجدول البطىء.. أرى عيون النساء تستقر على وجهى من طرف خفى، وأتحدث طويلا مع رجل عجوز، أو صبى صغير.. أترك نفسى تنساب مع أصوات الأرغول والناى.. الجلباب الأبيض يرفرف حول جسمى فيتسلل إليه الهواء.. والبلح الأحمر كالأصابع الناعمة أدغدغها بالأسنان..

هكذا وجدت نفسى أؤجل السفر.. انتهيت من كل الأشياء.. من الحديث عن الزواج، والاتفاق على العمل فى «ورشة» السيارات فتحها قريبى فى «حلوان».. زرت كل العائلات، وسمعت الأخبار، ونقلت إليهم تفاصيل حياتى فى العاصمة.. مررت على ناظر المدرسة ، والبقال الذى أصبح يبيع المستوردات.. كنت أحس أننى مقدم على مرحلة جديدة فى الحياة، وأن هذه الزيارة تمهيد لها، وإعداد.. كأننى احتاج إلى هضم ما فات قبل أن أخطو الخطوة القادمة.. إلى إطالة مدة الانتظار لأستمتع بها قبل أن ترتبط حياتى بالزواج.. بعثت إلى «علية» بعدة خطابات اطمئنها على حالى، وأحكى لها ما يجرى فى القرية.. أحسست فى ردودها أنها مثلى تمعن النظر فيما هو آت.. أنها مطمئنة تماما إلى العلاقة التى نشأت بيننا، ولا ترى داع للاستعجال.. أحسست بجسمى وعقلى عاجزين عن الافلات من سحر الحياة الهادئة، والذكريات.. أعرف أن الرحيل أمر لا مناص منه.. فى المساء أقرر السفر، ثم أو أجله فى الصباح.. إلى أن جاءت الساعة التى وقفت فيها على

باب الدار ارتدى القميص والسروال.. الجحشة تحرك رأسها، وأقدامها، وذيلها القصير فى عصبية لتطرد الذباب.. وسلتان كبيرتان من البوص الأصفر تتدليان من ظهرها على كل جانب..

عدت إلى «حلوان».. فى قلبى حزن الرحيل، وسعادة العودة، وسرعان ما ذابت هذه الفترة وسط أحداث الحياة.. انتظمت فى عمل الورشة، وتزوجنا أنا و«علية» آخر خميس فى شهر يناير.. الجو برده قارص، ولكن الشمس تلقى بدفئها على الكون والناس.. خرجنا من عند المأذون، وعدنا إلى البيت مع بعض الأقارب لنحتفل بالزفاف.. أصبحنا ننام فى حجرة واحدة تحت اللحاف الجديد.. وأخذت أدرك بالتدريج ما تعنيه الحياة مع امرأة يحبها الإنسان، ويثق فيها..

مرت الأيام سريعة.. أعمل فى الورشة طوال النهار حتى الثامنة مساءً.. عندما تتزاحم السيارات المعطلة فى الميدان الصغير، أجد نفسى مضطرا للبقاء ساعة أو ساعتين بعد موعد الانصراف المعتاد.. كان هذا العمل المستمر الشاق يستنفذ جهدى، ويحول دون أن أعطى للعمل النقابى الجهد الذى كنت أعطيه فى الماضى.. أخذ ضيقى بهذا الوضع يتزايد إلى درجة كرهت معها العمل فى الورشة، رغم العلاقة الوطيدة بينى وبين، قريبى.. كان رجلا شهما من النوع الذى يراعى ضميره فى كل ما يفعله.. يؤمن إيمانا عميقا ولا يستخدم الدين غطاءً للطمع.. فلما أحس بما أعانيه فاتحنى فى الأمر.. قال أنه مازال فى فترة التأسيس، والمكاسب التى يحققها محدودة.. ولكن إذا ما استقرت به الأمور، وأصبح يحقق دخلا منتظما يكفيه، يمكننى أن أدخل معه كشريك.. وعندئذ يتوسع فى العمالة ولو قليلا، ونقسم بيننا نحن الاثنان مهمة تنظيم العمل، ومراقبة التنفيذ.. هكذا سأجد وقتا استطيع أن أعطيه للعمل النقابى.. بعد أن تم هذا الاتفاق أحسست بسعادة كبيرة، وعاد الى الأمل فى أن أستأنف طريقة الحياة التى ترضينى..

فى هذه الفترة بالذات كانت الحياة مقسمة بين الورشة والبيت.. عندما أعود

فى المساء أجد نفسى مرهقا للغاية.. نتناول طعام العشاء، وأقرأ قليلا، أو أشاهد برنامجا فى التليفزيون ثم نأوى إلى الفراش استعدادا لليوم الجديد.. كانت «علية» تكرس ليلة واحدة فى الأسبوع لنشاطها الحزبى.. ولكن بالتدريج أخذت تغيب عن البيت ساعات طويلة، وتعطى لهذا النشاط ثلاثة ليال أسبوعيا مما سبب لى ضيقا شديدا.. وفى احدى الامسيات حدث بيننا نزاع عنيف، وساد التوتر عدة أسابيع.. انتابتنى حيرة شديدة، فقد رفضت «علية» رفضا باتا أى اقتراح من شأنه التقليل من الجهد الذى تبذله.. بل أكثر من ذلك أخذت تدعو إلى بيتنا عددا من النساء اللاتى يقترب سنهن من سنها.. يجلسن فى غرفة النوم ساعتين أو ثلاث إلى أن ينتهى النقاش.. فاضطر إلى الانتظار فى الصالة، إلى أن تنصرفن جميعا.. عندما أسألها عما تفعلن تقول بحماس أنهن بصدد تكوين اتحاد للنساء، وهن يدرسن الخطوات الأولية.. تناقشنى فى بعض التفاصيل، وتأخذ رأيى فأرد عليها باقتضاب، وأسأل عن العشاء.. أو سروالى الجديد.. تضاعف احساسى بالظلم والضيق لأنها تهملنى وتقضى الساعات مع هؤلاء النساء.. فكرت فى اللجوء إلى حماى.. وفى ليلة من ليالى الصيف الحارة، ونحن نجلس على المقهى القريب من البيت فاتحته فى الموضوع.. ظل صامتا يستمع الى دون أن يعلق بشىء.. عندما انتهيت أخذ يرمقنى بعينيه الصغيرتين، ويبتسم فشعرت بالغيظ.. أنا أتحدث إليه فى موضوع جاد كهذا، وهو يبتسم.. ولكن سرعان ما أختفت الابتسامة ونظر الى بجد :

«أتريد رأيى بالفعل؟».

قلت :

«طبعا».

«وأن لم يعجبك.. ماذا ستفعل..؟».

«سأصرف النظر عنه، وأفعل ما أعتقد أنه سليم..».

فابتسم من جديد..

«وإذا كنت تعرف ما هو سليم، لماذا تسألنى..؟.

أحسست بالحيرة.. كيف أرد عليه؟.. يهيأ الى أننى على حق فى اعتراضى على سلوك «علية».. ولكننى لست متاكدا تماما.. أخشى أن يؤدى هذا الخلاف إلى تفاقم الأوضاع بيننا.

سمعته يقول :

«يا بنى.. فى مثل هذه المسائل على كل منا أن يحل مشكلته.. ولكن أمامك حلولا ثلاث.. إما أن تقبل ما تفعله «علية»، وتكيف علاقتك بها على هذا الأساس.. وإما أن تجبرها هى على تغيير أسلوب حياتها... وإما أن تنفصلا.. هل لديك حلول أخرى..؟.

صمتت قليلا ثم قلت :

«لا.. بالطبع.. لا توجد احتمالات أخرى».

«دعنى إذن أحدثك عن كل حل من هذه الحلول.. ولنبدأ بأسوأها.. الانفصال.. هل أنت مستعد للانفصال عنها إذا استمرت فى نشاطها؟».

لم أصمت هذه المرة.. رددت على الفور..

«لا.. فكرت فى هذا الاحتمال ورفضته.. أنها امرأة ممتازة، وأنا أحبها.. ولكنها تضحى بحياتنا الزوجية من أجل نشاطها.. فلماذا لا تقلل منه..؟».

«تقلل.. أو تكثر.. لماذا تطلب منها هى التضحية..؟ أنت تعمل ساعات طويلة فى الورشة.. ولم تقل لك شيئا..».

«أنا مجبر.. لابد أن نعيش..».

«وهى ليست مجبرة.. ولكنها تعمل شيئا له قيمة أكبر من عملك أنت فى الورشة.. أليست احدى مآسى الحياة أننا فى أغلب الوقت مجبرون على الأشياء بصرف النظر عن قيمتها..؟».

«وما الشىء القيم الذى تفعله..؟».

«تنظيم النساء.. وتنظيم النساء مهم، أليس كذلك؟.. كتنظيم الرجال... وأنت سيد العارفين.. أم أن رأيك أن نكتفى بتنظيم الرجال فقط من أجل خاطر الرجال أمثالك؟ عندما كنت فى المصنع جئت الى عدة مرات لتشكو من صعوبة تنظيم النساء، وضمهن إلى النشاط النقابى، ولتناقشنى فى وسائل تحقيقه.. ولتقنعنى بضرورة بذل جهود خاصة فى هذا المجال خصوصا فى مصانع الدواء حيث يشكلن الأغلبية.. أم نسيت كل هذا الآن..؟».

«وهل ننتقل إلى الاحتمالات الأخرى..؟».

«الاحتمال الثانى هو أن تجبرها على التخلى ولو جزئيا، عما تفعل، بالاقناع، أو بالقوة..».

«حاولت الاقناع، وفشلت..».

«إذن لم يبق إلا القوة.. وصدقنى إذا حاولت القوة ستصاب لا بالفشل العادى، وإنما بهزيمة ساحقة.. غيرك حاول أيضا، وأنا منهم، عندما كنت أصغر سنا، وأكثر رعونة..».

«إذن لا توجد احتمالات..».

«لا.. لماذا تتغاضى عن الاحتمال الثالث، وهو أن تتغير أنت.. أم أن المسألة تتعلق بكبريائك؟.. لماذا لا تهتم بما تفعله هى، وتتعلم منه، وتساعدها على قدر

الإمكان؟.. فتدخل فى مجالات لم تطرقها من قبل، وفى عالم أنت جاهل به حتى الآن.. وتثرى حياتكما الزوجية بتوسيع آفاقها، وتعميق المشاركة الموجودة بينكما.. أم أن الحياة الزوجية عندك هى الأكل، والجماع، والثرثرة فى أوقات الفراغ؟».

هذا الرجل العجوز يستغل وضعه لكى يهزأ بى، ويدافع عن ابنته.. أنه لا يرى المسألة من زوايتى.. يستغل المساعدات التى قدمها الى، وكونى مازلت أقيم عندهما فى البيت.. أخطأت عندما وافقت على هذا الوضع.. كان الأفضل أن أصر على اقامتنا فى سكن مستقل.. رفعت رأسى فوجدته يرمقنى بنظرة ثابتة من العينين الصغيرتين..

«على آية حال يابنى ربما تعتقد أننى أنحاز «لعلية..» ومع ذلك فأنا فى هذه المشكلة بالذات منحاز إليك.. فأنا أعتقد مهما بدا الأمر لك، أنك ستكون المستفيد الأول إذا ما عرفت أن تتعامل مع هذا الموضوع بحكمة من يرى أبعد من قدميه..».

عدت إلى البيت فى تلك الليلة، وقد استولت على حالة من الاضطراب، والحيرة.. وجدت «علية» نائمة فى الفراش.. فتحت عينيها عندما أضأت المصباح الصغير حتى أخلع ملابسى.. شعرها منكوش، وجفونها مثقلة بالنوم، والتعب.. قالت:

«سعيد.. أين كنت؟».

«مع أبيك فى المقهى..».

صمت.. أمسكت بيدى بين أصابعها.. فوجئت بها تقبلها فى حنان، ثم تنقلب على جانبها، وتسقط على الفور فى نوم عميق..

أذهب إلى العمل يوميا، وأقضى الساعات الطويلة فى الورشة، ثم أعود..

ذهنى لا يكف عن التفكير فى المناقشة التى دارت بينى، وبين الرجل العجوز.. تتردد كلماته فى أذنى عشرات المرات كأنه مازال جالسا معى على المقهى.. منطقه يبدو معقولا فى بعض الأوقات، ولكن شيئا فى داخلى يأبى التسليم.. شىء كالكبرياء المجروح، أو الرفض المرتبط بغضب غامض لا أعرف مصدره، أو الشعور بأننى فى معركة لا أريد أن أهزم فيها، وإلا كانت النتائج وخيمة.. أحس أن الاستمرار فى الخلاف الذى نشأ بينى وبين «علية» سيسمم حياتنا الزوجية.. عقلى يشرد هنا وهناك ثم يعود إلى نفس الموضوع من جديد.. وفجأة تذكرت الحديث الذى دار فى بيت «خليل»، قبل سفرى إلى «أسوان».. لماذا لا أمر عليهما؟ ترى ماذا يفعلان هذه الأيام؟.

هكذا وجدت نفسى فى الليلة التالية أهبط فى «محطة دار السلام».. عندما وصلت إلى أول الشارع لمحت منزلهما من بعيد.. الأضواء كلها تبرق، ومن النوافذ أسمع أصداء الموسيقى، وصوت أقدام كثيرة تحتك بالأرض.. اقتربت من الباب فزاد الصخب المنبعث من الداخل كأن الحاضرين يجرون نوعا من السباق.. الضحكات ترن عالية، وتختلط بأصوات الكبار والأطفال.. ضغطت على الجرس مرتين فلم يرد أحد.. أعدت الكرة دون أن أرفع أصبعى عن الزر.. سمعت صوت «أمينة» يتردد فوق الضجيج.. «محاسن.. محاسن.. من فضلك.. الجرس يدق.. أنظرى من بالخارج..» فتح الباب بعد لحظة فرأيت امرأة فى مقتبل العمر، ممتلئة الجسم، تنظر الى من عينيها الواسعتين وتسأل :

«من تريد..؟».

«الأستاذ «خليل منصور خليل»».

بدا عليها الارتباك، ثم استقرت ملامحها كأنها وجدت الحل..

«الأستاذ «خليل» ليس موجودا.. هل تريد أن أنادى زوجته السيدة

« أمينة ».. من أنت؟..».

«أنا اسمى «سعيد أبو كرم».. من أصدقاء الأسرة..».

غابت فى الداخل مدة بدت لى طويلة... أتطلع بفضول من فتحة الباب.. البيت كله مزدان بالأوراق الملونة، ومن السقف تتدلى أعلام صغيرة، كتب عليها «عيد سعيد».. أسمع موسيقى راقصة سريعة الايقاع تأتى من حجرة المعيشة، وصوت أقدام تجرى فوق الأرض، ومقاعد تنتقل، وأصوات أطفال تصرخ أحيانا، ثم تنقلب فجأة إلى ضحك.. أخيرا ظهرت « أمينة » ترتدى ثوبا بسيطا ألوانه زاهية، وتضع عقدا من الفل الأبيض حول عنقها.. وجهها يكسوه الاحمرار، وفى عينيها بريق.. هتفت :

««سعيد».. أهلا بك».. تمد إلى يديها وتقبلنى بحرارة على وجنتى.. «أين كنت طوال هذه المدة؟».. أنا سعيدة لأنك جئت اليوم.. عيد ميلاد «عصام» الأول..» تسحبنى من يدى إلى الداخل «بعض الأصدقاء والصديقات ومعهم أطفالهم..».

أجد نفسى فى حجرة المعيشة محاطا بالابتسامات.. الأثاث رفع عنها، ولا توجد سوى مائدة طويلة عند الجدار البعيد، وضعت عليها المرطبات، وصوان الحلويات، والأطباق الفارغة، وأدوات الأكل، ووقف إلى جوارها عدد من الرجال والنساء يأكلون، ويتحدثون.. النوافذ مفتوحة على الحديقة الخلفية، لمحت فيها أجساما صغيرة تجرى هنا، وهناك، وكرة حمراء كبيرة تتبادلها الأيدى، وتطير فوق الرؤوس فى الهواء فترتفع الأصوات الرنانة والضحكات.. تقدمت حتى النافذة المفتوحة، فرأيت «عصام» يجلس فى مقعد منخفض، ويلوح بيديه، ويتابع ما يدور بعينين جادتين.. أحسست بأصابع تلمس ذراعى.. استدرت فوجدت « أمينة » تحمل طبقا وضعت عليه بعض المأكولات.. قدمته الى وابتسمت..

«ماذا تريد أن تشرب..؟ عصير مانجو، أم جوافة، أم برتقال..؟.

«برتقال من فضلك..».

عادت الى تحمل كوبا من البرتقال المثلج.. قلت :

«أين «خليل»..؟».

وجمت ملامحها لحظة، وصمتت.. ثم فى صوت انخفض قليلا :

«ليس هنا الآن..».

«أين هو إذن؟».

تنظر الى كأنها تريد منى أن أغير الموضوع.. أتطلع حولى إلى الرجال والنساء.. بعضهم أخذ ينظر إلينا بشىء من الفضول.. بشرتى السمراء ربما لفتت الأنظار، أو وقفتنا بجوار النافذة نتحدث بعيدا عن الناس..

سمعتها تقول :

«هل أنت مستعجل يا «سعيد»؟.. لابد أن أهتم بالضيوف، وأعد الطعام للأطفال، فلم يأكلوا بعد.. لماذا لا تمكث حتى ينصرفوا فنتمكن من الحديث فى هدوء..؟».

هززت رأسى موافقا، فانصرفت.. رأيتها بعد قليل، هى والمرأة التى فتحت لى الباب يعدان أطباقا من الحلويات، ويملآن الأكواب بالعصير.. خرجت إلى الحديقة، وتقدمت بخطوات حريصة حتى أتفادى الأطفال، ينطلقون كالقذائف فى الساحة المحدودة.. اقتربت من «عصام» فرفع رأسه إلى وابتسم.. وضعت منديلى على الأرض.. جلست إلى جواره أتحدث إليه.. ينظر الى فى تساؤل، ويستمع كأنه يفهم ما أقول..

كانت الساعة قد قاربت على التاسعة والنصف عندما انسحب آخر الضيوف..

فارقت «أمينة» على «الكنبة» وقالت:

«يوم مرهق، ولكنه جميل.. سأطمئن على «عصام»، وأعود..» اختفت فى حجرة النوم لحظة، ثم خرجت وأطفأت الأنوار فى الحديقة، والمطبخ، وحجرة المعيشة، وأغلقت شيش النوافذ.. وقفت أمامى.

«أتريد قدحا من القهوة..؟».

«لا، أشكرك.. أنت متعبة للغاية.. ربما من الأفضل أن أنسحب أنا أيضا، وأعود فى يوم آخر..».

«لا.. أبدا.. كنت متعبة من الوقوف طوال النهار، وخدمة الضيوف.. ولكنى الآن استطيع أن أجلس، واستمتع بالهدوء».. تجلس، وتبتسم ناحيتى.. «أرأيت كيف كبر «عصام»؟..».

«نعم.. طفل رائع.. جلست إلى جواره فى الحديقة ما يزيد عن الساعة.. ظل يتابع ما يدور.. ويبتسم، ويضحك، ويلوح بيديه.. ومن حين لآخر ينظر الى كأنه يقول: «أرأيت كيف استطيع أن أسلى نفسى دون أن احتاج إلى أحد..؟».

تبدو على ملامحها علامات الرضى والسرور.. تظل صامتة كأنها تسترجع اليوم.. ثم تلتفت الى..

«وأنت.. يا «سعيد».. ما أخبارك..؟».

«لا بأس.. ولكن طمئنينى أولا.. أين «خليل»؟».

«لم يعد يقيم فى البيت..».

انظر إليها فى اندهاش.. فتستطرد..

«حدث خلاف بيننا يا «سعيد».. وانفصلنا.. بل اتفقنا على الطلاق»..

«انفصلتما؟!.. أكاد لا أصدق ما تقولين.. أنت و «خليل» قررتما الطلاق؟!.

«نعم..».

أصمت، وأحملق فى وجهها.. شىء من الحزن.. وهدوء، وتصميم.. كأنها ألقت وراء ظهرها بما فات، وتتطلع الآن إلى شىء جديد.. كمن حسم أمرا بعد صراع طويل..

«وإذا سألتك السبب هل ستعتبرين ذلك تطفلا منى..؟».

«لا، أبدا يا «سعيد».. فأنت صديقنا نحن الأثنين..».

«أحك اذن يا «أمينة».. رأسى تدور، ولن تستقر إلا إذا فهمت الموضوع.. ولكنى لا أريد أن أسبب لك ألما.. فإذا فضلت أن نتحدث عن شىء آخر..».

تقاطعنى.

«لماذا..؟.. أنا لا أهرب من مواجهة ما حدث.. انفصلنا أنا و «خليل» لأنه يعشق امرأة أخرى.. كنت أشعر بتغير فيه منذ مدة ولكنى لم أكن متأكدة.. ثم أخيرا رأيتهما سويا، وسألته.. فلم ينف ارتباطه بها..».

««خليل».. يعشق امرأة أخرى.. وما الذى حدث للحب الذى كان بينكما..؟».

تصمت كأنها تغالب شيئا يصعد داخلها، وتريد أن تحول دون هذا الصعود.. لحظة طويلة من الألم، من الغيوم.. ثم يطل عليه وجهها من جديد يكسر الجمود.. صوتها يرتعش قليلا.. لا أعرف إن كان من الغضب، أو الحزن، أو القنوت..

«حبنا نحن.. لا أعرف يا «سعيد».. أقول لنفسى أحيانا إنه لم يكن له وجود منذ البداية.. من ناحيته على الأقل.. ثم عندما أفكر من جديد يقول لى عقلى

وقلبى.. لا.. يجب ألا أهدم كل شىء.. أنه موجود.. ربما يستطيع الرجل أن يعشق امرأتين.. وربما تكون المرأة مثله قادرة على ازدواجية الحب.. عقلى يقول لى لست الإنسانة الوحيدة فى العالم التى تستحق حبه.. ولا هو الرجل الوحيد الذى يستحق حبى... ولكن قلبى لا يطاوعنى فى هذه الأحاسيس.. مازلت أحبه.. والحب غريب.. لا يخضع دائما للمنطق، والمقاييس..».

أتطلع إليها كالمشدوه.. لم أسمع أحدا يقول ما تقوله هى الآن.. ولا خطر فى بالى تفكير من هذا النوع.. جئت إليهما باحثا عن حل لمشكلتى، والآن تتعقد الأمور إلى درجة أننى أحس بالأرض وكأنها تنفتح من تحت قدمى، وتكشف عن هوة ربما وقعت فيها..

«ولكن أنت يا «أمينة» هكذا بغير «خليل».. وبغير زوج..؟».

تنظر الى بدورها كأننى كائن غريب.

«كيف أعيش بغير «خليل»؟ «كيف أحيا بلا زوج؟!. وهل تظن أن حياتى هى رجل وكفى؟.. مازلت أتنفس، وأستنشق الهواء.. مازال جسمى يتحرك، وعقلى يعمل.. مازلت أرى شروق الشمس، وزرقة السماء.. مازلت أصعد إلى مرسمى واستغرق.. لم أمت بعد يا «سعيد».. مازلت أعيش.. مازلت أحب «خليل»، ولكن حبى لا يقف عند حدوده.. أحب «عصام» أيضا وأرعاه.. وأحب الأصدقاء.. وربما غدا أحببت رجلا آخر.. أنا أتألم بالطبع، وأشعر بالحزن.. ولكنى استمتع بالحياة، وأقهر الحزن..».

ملامحها تنبض بشىء كالنور.. كالألم المشرق.. كالأمل يصارع الجرح.. تصمت لحظة طويلة.. تتأمل شيئا منزويا فى ركن الحجرة، ثم تلتفت الى، وتبتسم.. فأرى «أمينة» كما كانت دائما «أمينة»..

«لم تأت إلى هنا يا صديقى لنستغرق فى الحديث عن مشاكل الأسرة.. المسألة

بالنسبة الى حسمت، ولا يوجد ما يمكن أن أضيفه إلى ما قلته.. عندما تمر السنين سأعود إليها، وأتذكر أياما حلوة، وأنس الأيام المرة.. ولكن المرارة مازالت معى الآن تفسد الرؤية أحيانا، وتشوه الأشياء».. تقوم إلى الحجرة الداخلية كأنها سمعت حركة ما، ثم تعود.. «ظننت أن «عصام» استيقظ.. قل لى يا «سعيد» ما أخبارك أنت..؟».

أحس بالخجل.. ما الذى يمكن أن أحكيه.. أشعر أن مشاكلى أنا أصبحت صغيرة.. أن هذه المرأة القوية، الجميلة تبدد الغمامة التى أحاطت بى.. كل شىء يبدو واضحا، بسيطا.. لم يعد لدى ما أسألها عنه أو أريده.. لابد أن أعود الآن بأقصى سرعة.. أن أصعد إلى حجرتنا الصغيرة.. أن آخذ «علية» بين ذراعى.. أن أعتذر عما فات، وأرعاها، وأحميها.. فربما أدركت لأول مرة ما يعنيه الحب الحقيقى..

«أنا يا «أمينة» بخير.. كل شىء على ما يرام بعد أن تحدثت إليك.. فى يوم من الأيام سأوضح لك لماذا قلت هذا الكلام.. مشكلة خاصة جئت لأعرضها عليك.. فدون أن تشعرى قدمت لى العون الذى كنت فى حاجة إليه.. العون الذى لا يمكن أن يقدمه غيرك.. لأنك إنسانة عظيمة، ووفية..

عيناها فيهما دموع، وكذلك عينى.. أمسك بيديها بين يدى.. تصطحبنى حتى الباب.. أخرج إلى الشارع.. أرى قوامها المسحوب فى ضوء الكهرباء.. أسرع الخطوة على الطريق.. عند المنحنى أستدير، فتلوح الى..

* * *

فتحت الورقة المطوية من جديد، وقرأتها..

«عزيزى «خليل»»

«ربما تفاجأ بهذه السطور القليلة، تصلك بعد أن فرقت بيننا الظروف سنين طويلة.. ولكن هناك موضوع يهمك أريد أن نتبادل الرأى فيه.. أرجو أن تتصل بى فور استلامك هذه الرسالة.. فأى تأخير ربما ترتبت عليه نتائج وخيمة.. أفضل أن تتصل بى فى المكتب.. ورقم تليفونى المباشر ٢٩٩٧٣١.. أنا موجود من الساعة الثامنة صباحا حتى الرابعة بعد الظهر.. ومن الثامنة حتى العاشرة مساء..

تحياتى وإلى اللقاء..»

«يحيى السعدنى..»

أقلب الورقة فى يدى وأسرح.. أشعر بقلبى يدق تحت الضلوع.. «يحيى السعدنى».. لم أره منذ أكثر من عشرين سنة.. تخرجت أنا فى كلية العلوم قسم الكيمياء.. أما هو فحصل على ليسانس الآداب قسم اجتماع.. ولكن جمعت بيننا اهتمامات خارج نطاق الدراسة.. التقينا أول مرة فى مجلس اتحاد الطلاب، وبسرعة نشأت بيننا علاقة متينة.. كان يحب الموسيقى والتمثيل.. يضرب على العود

بمهارة، ويلتقط الألحان بالسمع.. ينجح فى الامتحانات بسهولة اعتمادا على ذاكرة لا تخيب.. كنا كالتوأمين لا نفترق.. نتطور سويا فى أغلب الخطوات.. بدأت اهتماماتنا السياسية منذ أيام الجامعة، وانضممنا إلى الحزب الاشتراكى فى نفس الفترة.. ولكن فيما بعد فرق بيننا مسار الحياة.. فمنذ اليوم الذى قبض على فيه لم أره بعد.. سمعت أنه سافر إلى أمريكا.. حصل على الماجستير ثم الدكتوراة فى علم الاجتماع، وتخصص فى البحث الجنائى.. وعندما عاد أصبح من الخبراء المعدودين على الأصابع فى هذا الفرع.. يقدم خدمات استشارية إلى مختلف الجهات.. كما أصبحت له علاقات قوية بمنظمات الأمم المتحدة، والمعاهد الدولية وبأعلى المستويات فى وزارة شئون الأمن القومى، وإدارة السلام الاجتماعى، ووزارة العدل والقيم، والأخلاق.. خلال الفترة التى قضاها فى «جامعة هارفارد» تزوج فتاة من مدينة «بوسطون» تخصصت فى استخدام العقول الالكترونية لأغراض البحث.. انتظرها حتى انتهت من دراستها، وعاد بها إلى مصر، فأصبحا يعملان سويا فى كثير من المجالات..

ترى ما الذى دفعه إلى كتابة هذه الرسالة.. لابد أنه أمر مهم حتى يتخطى فاصل السنين الطويلة، والصمت. والمسار المختلف الذى أخطته لنفسه.. من المحتمل أنه تغير كثيرا منذ تلك الأيام البعيدة، ونسى ما كان يدافع عنه.. وأنا أيضا لم أعد نفس الشخص الذى تبنى الأفكار الجديدة بحماس.. الحياة.. هل كان أحد منا يستشف ما يخبئه المستقبل لنا..؟.. ربما احتفظ بشىء من روح الأيام الأولى.. لا أظن.. على أية حال يبدو من لهجة الخطاب أنها مسألة مهمة.. «أرجو أن تتصل بى فور استلامك هذه الرسالة، فأى تأخير ربما تترتب عليه نتائج وخيمة».. نتائج وخيمة لمن؟.. لم يقل.. ربما لا يتعلق الموضوع بى شخصيا، وإنما يتعلق بآخرين.. ولكننى لابد أن أكون طرفا فيه.. أو ربما أراد أن يشعرنى بأهميته دون أن يسبب لى ازعاجا كبيرا.. كان يمكن أن يقول: «فأى تأخير ربما

ترتب عليه نتائج وخيمة لك..» ثم لماذا يفضل أن أتصل به فى المكتب..؟ هل يتفادى ابراز العلاقة الشخصية التى كانت قائمة بيننا، ويؤكد الطابع الرسمى للاتصال حتى ينفى أى اعتراف بالصداقة القديمة؟ فاللقاء عنده فى البيت ربما يضعنا إلى حد ما على قدم المساواة.. أما فى المكتب فالوضع يختلف.. يقال أنه يرأس الآن وحدة مهمتها تخطيط ومتابعة نشاط الإدارة العامة للسلام الاجتماعى، وأنه عين مستشارا بدرجة وزير.. ما الذى يمكن أن يدفع رجلا مثله إلى الاتصال بى.. ينمو القلق فى داخلى كالسحابة الداكنة.. أنا دائما هكذا أحيا على الحدود بين الطمأنينة والخوف.. فالغد بالنسبة الى محاط بالغموض.. ولكن فيما يتعلق «بيحيى السعدنى» من المفروض أن أطمئن.. فهو لن ينسى أننى أنقذته فى يوم ما من كارثة محققة.. قبل أن يلقى على القبض ببضعة شهور، ذهبت إلى منزل أحد زملائى فى الحزب.. كان يسكن فى الدور الثالث لعمارة تطل على شارع صغير. مسدود.. عندما دخلت فى الشارع فوجئت بعدد من المخبرين يقفون عند المدخل، ومعهم زميلى الذى كنت سأزوره موضوعا فى القيود.. على الجانب الآخر من الشارع «بوكس» رمادى اللون. وضابط شاب، واثنان من رجال الشرطة ينتظران.. كان من المستحيل أن أتراجع، وإلا لفتت الى الأنظار.. أتذكر عينى زميلى تمران على وجهى لحظة سريعة كأنه لا يعرفنى.. لحظة فيها تجاهل، وانذاز سريع. وخوف، وحب.. دلفت من الباب، وصعدت حتى الدور الثانى.. ضغطت على الجرس، ففتح الباب.. وجوه شاحبة، وعيون سوداء فيها ذبذبة الاضطراب.. سألت عن شخص وهمى فقالت أصغرهن: « لا أحد بهذا الاسم يسكن هنا..» اعتذرت عن ازعاجى لهن، هبطت الدرجات فى هدوء.. وقفت لحظة عند الباب، وأشعلت سيجارة كأنى لم ألحظ ما يدور، ثم استأنفت السير بخطا تتزايد سرعتها.. وعندما ابتعدت تماما أخذت أجرى فى الشارع متجها ناحية المحطة كأنى أخشى على موعد القطار أن يفوت.. عندئذ تذكرت «يحيى

السعدنى» وجهاز الطباعة الذى يحتفظ به فى «البدرون».. فانطلقت كالسهم أشق طريقى وسط الزحام غير ملتفت إلى احتجاجات المارة، غير مدرك ما يقولون.. وجدته فى البيت.. وضعنا الجهاز فى صندوق من الورق المقوى، ومعه بعض المطبوعات، ثم انطلقنا إلى الشارع من جديد.. ذهبنا إلى موقف سيارات الأجرة، وفى الطريق اتفقنا أننى سأحمل الصندوق إلى العزبة، وأدفنه فى حوش صغير خلف الحظيرة.. أراد أن يصطحبنى إلى أن ننتهى من الموضوع، ولكنى أثنيته عن هذه الفكرة.. ركبت السيارة وحدى، وتركته يعود إلى البيت.. عندما التقينا فى «مقهى السلام» بعد هذا الحادث بأربعة أيام، أبلغنى أنهم حضروا إلى منزله فى الفجر، وفتشوا كل ركن فيه.. ضحكنا إلى أن سالت دموعنا، وذهبنا نتنزه فى الحقول.. فى ذلك اليوم كان معه العود.. جلسنا على جسر الترعة تحت شجرة التوت.. أخرجه من كيسه المصنوع من الجلد، وأخذ يعزف عليه، ويغنى بصوت يتدفق بالحب.. ترك الرجال المحاريث والفئوس، وجلسوا القرفصاء فى نصف دائرة.. وعلى بعد قليل وقف جمع صغير من الفتيات.. السماء زرقاء، والعيون السوداء متأملة، وصوت «يحيى» ينساب كالمياه فى الترعة عندما بفتح «الهاويس».

عدنا عندما غربت الشمس.. شد على يدى قبل أن نفترق وقال : «لن أنسى ما فعلته من أجلى.. لن أنسى..».

أطوى الخطاب، وأضعه فى جيبى.. الساعة قاربت العاشرة والنصف.. «روث» ذهبت لترتدى ملابسها.. سنتناول طعام الغذاء فى مطعم على طريق «سقارة».. نستمتع بالجو الصافى، ونطل على الأهرامات الثلاث.. رفعت السماعة، وأدرت الرقم ٢٩٩٧٣١.. الجرس يدق عدة مرات ثم أسمع صوتا يأتينى من مسافة تبدو قريبة.. صوت جاد نبراته لا تنم عن شىء..

«أهلا وسهلا.. أستاذ «خليل».. كنت فى انتظار مكالمتك.. طبعا يمكن أن

نلتقى.. باكر الساعة الرابعة بعد الظهر.. هنا فى المكتب.. سأكون قد انتهيت من العمل، ونستطيع أن نتحدث وحدنا فى الموضوع الذى أريدك من أجله.. حضرتك تدخل من الباب الذى يطل على شارع «حامد الرافعى» «سأترك خبرا مع الحراس حتى يقودك أحدهم إلى مكتبى مباشرة..».

ذهبت فى اليوم التالى حسب الاتفاق.. كل شىء فى مكتبه حديث.. التليفونات الملونة تسجل، وتعمل بالذاكرة.. ودائرة التليفزيون المغلقة.. والنوافذ.. والأبواب المنزلقة.. والأضواء موزعة بحيث تضيىء الأركان وتريح العيون.. وخلف المكتب العريض لوحة بامتداد الجدار تحمل أرقاما، وجداول، وبرامج عمل زمنية عليها رموز وحروف مختلفة.. عندما دخلت كان يجلس فى مقعد من الجلد الأزرق، يقرأ فى كتاب. وإلى جواره آلة تسجيل صغيرة.. وضع الكتاب على المنضدة، وقام يرحب بى.. رأسه أصلع ما عدا بضعة شعيرات فى المنطقة الممتدة حول الأذن، وفوق الجزء الخلفى من العنق.. حركاته فيها ثقل كأنها مخططة ومحكومة سلفا.. يرتدى عوينات إطارها من الصلب الرفيع.. تطل عيناه من خلفها بنظرة ثابتة فاحصة.. قوامه الطويل ترهل فى الجزء الأسفل، فأشعر أن الردفين، والبطن يملآن المقعد الذى يجلس فيه.. أبحث عن الصديق القديم فلا أجده رغم الملامح التى تذكرنى بأيام الصبا.. صوته فقط مازالت فيه رنة من الدفء تخترق الجو البارد الذى يحيط نفسه به.. وخصوصا عندما يتحدث عن ذكريات، وأيام مضت، فيهيأ الى أننى ألمح شيئا كاللهب الصغير يتحرك فى الطبقات الخلفية من مقلة العين..

ضغط على جرس إلى جواره فانفتح باب جانبى فى صمت، وظهر شاب يرتدى قميصا أبيضا، ورباطا للعنق أزرق يتدلى من الياقة المفتوحة.. قال :

«حسام.. أرجوك.. أبعث إلينا بكوبين من عصير المانجو الهندى، وقدحين من القهوة.. آه.. فاتنى أن أعرفكما ببعض.. الأستاذ «خليل منصور خليل» رجل

أعمال، وصديق الصبا.. والأستاذ «حسام الدين رأفت».. بدونه ما كنت استطيع أن أعمل شيئا..» الوجه تقاطيعه مهذبة، ذكية.. ونظرة العينين تلتقط الأشياء دون انفعال.. شاب عصرى، ناهض فيه مسحة أجنبية كالذين يعملون فى البنوك والشركات الدولية.. «رجل أعمال».. هكذا قدمنى.. إذن يعرف عنى تطوراتى الأخيرة.. طبيعى.. خبير فى البحث الجنائى.. ورئيس وحدة التخطيط والمتابعة فى إدارة السلام الاجتماعى.. قصد أن يلفت نظرى إلى أنه يعرف..

شربنا العصير والقهوة.. ألقى نظرة خاطفة فى اتجاه الساعة الصامتة المعلقة على الجدار.. ثم قال:

«الآن لندخل فى الموضوع.. أظنك تعرف السيدة «روث هاريسون»؟» يرمقنى بنظرة حادة من خلف العوينات.. كدت أنتفض فى المقعد عندما نطق اسمها.. بذلت جهدا حتى لا يظهر شىء على وجهى.. فكرت لأول وهلة أن أنكر معرفتى بها، ثم أدركت سخافة هذا التصرف.. لا بد أنه يعرف كل شىء .. سنرى ماذا يريد بالضبط.

«نعم.. أعرفها جيدا.. ولكن لماذا تسألنى..؟».

«أصبر صديقى ولا تتعجل الأمور.. وحتى تشعر بالراحة دعنى أقول لك منذ البداية أن غرضى من هذا اللقاء هو أن أسدى لك خدمة مقابل ما فعلته من أجلى منذ سنين.. أم أنك نسيت..؟».

«لا.. لم أنس.. ولم أنس اليوم الذى قضيناه بعد ذلك على الجسر..».

يبتسم كأننى ذكرته بأيام الطفولة الساذجة، والطيش..

«يبدو أنك يا «خليل» ما زلت شخصا رومانسيا.. على كل حال كل منا ينظر إلى الحياة من زاويته.. أما أنا فشغلتنى أشياء مهمة إلى درجة أننى لا أجد حتى الوقت للتفكير فى الماضى.. لنعد إلى ما كنا نتحدث عنه.. أنت تعرف

«روث هاريسون» وعلاقتك بها وثيقة.. وثيقة جدا».. يلقى إلىّ بنظرة سريعة فيها سخرية، ثم يضيف.. «أليس كذلك؟».

«نعم»..

«وقبل أن تتورط فى مثل هذه العلاقة أسألت نفسك من يمكن أن تكون «روث هاريسون» هذه..؟»..

«الحقيقة.. لا..».

«شخص فى مثل خبرتك.. ؟! لا بد أن الحب أعمى بالفعل..»..

أشعر بالضيق.. هذا الرجل سخيف.. يسمح لنفسه بأن يهزأ بى.. سألقنه درسا إن استمر على هذا المنوال.. ولكن الأفضل أن أنتظر حتى أعرف ما الذى يريد أن يصل إليه..

«لا ليست مسألة عمى.. وإنما إحساس..».

«وفى عصر العقول الألكترونية ما زلت أنت تتصرف بالإحساس..»..

«نعم ما زلت..».

تطرف جفونه لحظة ثم تعود إلى مكانها الثابت.. يهز كتفيه ويقول:

«ما علينا.. لم أطلب مقابلتك لنتناقش فى فلسفة الحياة، وإنما لأحذرك من «روث هاريسون»»..

«تحذرنى منها..؟»..

ينظر إلى مليا..

«تعمل مع المخابرات الأمريكية..»..

أثاث الحجرة يدور حولى.. أشعر بجسمى كأنه سيقع من المقعد فاتشبث به..

أسعى إلى تحريك قدمى على الأرض فأفشل.. قلبى يقفز كالقطار، وأنفاسى تختنق.. أمر بأصبعى بين ياقة القميص وعنقى.. أرى عينيه تتبعانى حركة يدى..

«وما شأنى أنا وهذا..؟».

«ما شأنك؟!.. تحبها.. وتنفصل عن زوجتك.. وتترك ابنك الوليد، وتقيم معها فى بيتها ثم تسألنى ما شأنك..».

دوامة تمتصنى، وتشل قدرتى على التفكير.. فعلا.. ما هذه الحماقات التى أقولها..

«أقصد أنه لا علم لى بذلك..»

«ولكن المظاهر ليست فى صفك.. وما يقال فى الأوساط المختصة يؤكد أنك جندت بواسطة «روث هاريسون..»..

يكاد يغمى على.. أطرافى باردة كالثلج، والرعب يستولى علىّ.. أريد أن أستغيث، أن أصرخ ولكن أحبالى الصوتية مشلولة.. أظل صامتا. منهارا فى مقعدى..

يرمقنى بنظرة فاحصة..

«لا تنزعج إلى هذا الحد.. فى الوضع الحالى لن يغضب منك من بيدهم الأمر.. على العكس.. فأنت متوائم تماما مع متطلبات اليوم.. وتقدم خدمات مباشرة لدولة صديقة..».

صوتى يخرج من حلقى بصعوبة..

«أنا لا أقدم خدمات لأحد.. ولست على استعداد للقيام بمثل هذه الأدوار.. ولكن هل أنت واثق من معلوماتك؟ ولماذا تقول ما قلته لى..؟».

يبتسم فى شىء من التعالى..

«صلتك بى يا «خليل» انقطعت منذ زمن طويل، وإلا لما سألت مثل هذه الأسئلة.. أنا أعرف كثيرا من الأشياء بحكم عملى.. معلوماتى أكيدة، وأقترح عليك ألا تشك فيها لحظة.. أما لماذا أحدثك فى الأمر فدوافعى محددة.. رأيى أن تصرفات هذه المرأة يمكن أن تجلب لنا الكوارث، وأن استمرار العلاقة بينكما تهدد أشياء كثيرا مهمة بالخطر.. ومن بين الأسباب التى تجعلنى أستشعر هذا الخطر طبيعتك أنت واستعدادك الطبيعى للتهور، واتيان أفعال لا يقدم عليها الناس العاديون. لقد كنت واثقا منذ أن بدأت تأتينا معلومات عن علاقتك بها أنك لست ضالعا فى نشاطها.. ذلك أنك تقيم معها.. ولا تحاول أن تخفى علاقتك بها، بل تمارسها فى العلن.. ولأننا فرضنا عليك رقابة دقيقة أظهرت أن كل نشاطك طابعه تجارى فقط.. فأدركت أنك تسير فى طريق محفوف بالمخاطر.. قلت لنفسى هذا الرجل لا يعرف أين تقوده خطواته.. وقد أنقذنى هو من قبل.. فلماذا لا أنقذه أنا بدورى من مصير أعرف أنه ينفر منه.. وأوفى بالدين القديم الذى حملته معى طوال السنين..؟»..

هذا الرجل فيه شىء شاذ.. يضيق بذكرى مساعداتى له.. فلم أنقذه من الورطة التى أشار إليها فحسب.. بل فى كل وقت لم أبخل عليه بشىء خلال تلك الفترة.. كانت ظروفه المالية صعبة.. يلجأ إلىّ فى بعض الأحيان فأقدم له المساعدة.. أشعر فجأة وأنا أجلس أمامه أنه يكرهنى.. الأيام القديمة يعيشها لا كأشياء جميلة يعتز بها، وإنما كذكرى فيها مرارة بسبب وضعه.. ونتيجة إحساسه أننى كنت على الدوام أفضل منه.. أضحى من أجله، وأخاطر لإنقاذه.. وأعطى له بسخاء دون تردد.. عندما تحاصره ظروفه.. إنه لا يرد إلى الجميل كما يقول بل يريد أن يتفوق على.. أن يحس بنفسه فى مستوى أعلى منى، وهو يقدم إلىّ يد العون.. إنه فوق، وأنا تحت.. وأننى لأول مرة احتاج إليه.. ظللت صامتا

فاستطرد.

«أما «روث هاريسون» فقد حاولت أن أقنع رؤسائها منذ زمن بضرورة نقلها من هنا إلى مكان آخر، ولكن دون جدوى.. لا أعرف لماذا يتمسكون بها.. يبدو أنها تقدم إليهم خدمات هامة.. أو ربما يكون زوجها صاحب نفوذ.. إنهم بالطبع يعرفون ما يوجد بينكما.. وهو يتنافى تماما مع تعليماتهم المشددة التى تحرم على الذين يعملون معهم إقامة مثل هذه العلاقات، لأنها قد تهدد نشاطهم بالخطر.. ومع ذلك لم أجد لديهم آذانا صاغية.. يصيبهم أحيانا صلف وتعال كأنهم آلهة».. تتسلل إلى صوته كراهية العبد لسيده.. «ربما يكون تمسكها بالبقاء فى القاهرة مرتبطا بك.. ولو أنى أشك فى أن تكون امرأة مثلها قادرة على الحب..» يوجه سهما مباشرا إلىّ، فأشعر بقشعريرة تمر فى جسمى من أعلى إلى أسفل.. هذا الرجل يحمل فى أعماقه قدرة غير عادية على الحقد.. «فإذا ما انقطع ما بينك وبينها، ربما فضلت فى النهاية أن ترحل من هنا..»..

أشعر أننى وقعت فى حبائل بالغة الخطر.. ما الذى جرفنى إلى هذا العالم المظلم.. «روث هاريسون».. كيف يكون وجهها البرىء جزءا من عالم مفعم بالشر..؟ كيف تستطيع أن تنام فى أحضانى، أن تهبنى الحب وتبقى جزءا لا ينقصم من اخطبوط رهيب.. ؟ كيف يمكن أن يتحول الإنسان إلى كائن مزدوج يحيا فى تناقض مستمر..؟ أم أنها ليست صادقة على الإطلاق، وكل ما تظهره ناحيتى ليس سوى موهبة التمثيل، والكذب التى أهلتها للقيام بالدور الذى تقوم به..؟ أصبحت أشك فى كل شىء الآن.. فى الحياة بأكملها.. فى كل ما مضى، وفى كل ما ينتظرنى خارج الباب.. أريد أن أهرب من هذا الرجل يقبع فى مقعده كالحشرة السوداء.. وأريد أن أبقى دون حراك أنتظر النهاية، فيأتينى الموت وأنا فى مكانى.. لم تعد توجد فى أعماقى إرادة تريد أن تعيش..

خرجت من عنده.. اخترقت الباب الحديدى إلى الشارع تودعنى نظرات

المخبرين والحراس.. أمشى بخطوات بطيئة.. ترى ما الذى يمكننى أن أفعله الآن؟.. اخترق زحام الناس، والسيارات، والاتوبيسات، والترام بخطوات لا ترى، بأقدام تتحسس طريقها بالمران.. ميدان «لاظوغلى» وشارع «مجلس ممثلى الجماهير الكادحة».. على جانبيه صفان من الأشجار، ومبانى الوزارات، والعسكر ورجال يقفون عند النواصى، والأبواب، يفحصون المارة بعيون باردة، وعلى الرصيف امرأة عجوز فى جلبابها الأسود، تجلس القرفصاء، وتضع أمامها استمارات الضرائب، والذمة المالية، والبطاقات.. بلد تغلغلت فيه السوق السوداء من أعلى المستويات إلى أدناها..هو، وحكومته، وإداراته، ومجالسه، ومستشفياته، ومدارسه، وخدماته، وقطاعيه العام والخاص... بلد يفرض فيه الوكلاء أتاوتهم فى كل مكان.. يضغطون بأصابعهم النهمة على شرايين الحياة.. بلد أستولت عليه قوى ظاهرة وخفية تطاردنى دون هوادة.. تتعقبنى فى كل الخطوات.. بالسناكى المشرعة فى البنادق الأوتوماتيكية، بالسلع المستوردة، وإعلانات «الستى بنك».. بموسيقى «الديسكو»، وأذان الصلاة.. بالنهود العارية، والطرح البيضاء. بالبوليس، والجواسيس، والعملاء..

أمشى بعيون لا ترى.. وبقلب يكره السيارات البارقة فى الشمس، والطفل المكتنز الأوداج يطل علىّ من فتحة الباب، والكوبرى العريض يمتد فوق النهر، وشعر الفتاة يتطاير فى الريح.. والأكتاف العارية، والعيون الزرقاء.. أكره كل الوجوه المرتاحة، كل أصحاب الودائع. كل مصاصى الدماء. كل الشفاه الكاذبة والأجسام البيضاء.. أكره الخيانة تلتف حولى كنسيج العنكبوت، وتخترق عظامى حتى النخاع.. أكره «روث هاريسون» حتى الأعماق.. وأكره نفسى فى نهاية المطاف..

ميدان الجلاء.. خرج الإنجليز وجاء الأمريكان.. تحاصرنى العمارات، والحواجز المقامة عند النيل، وعلم إسرائيل يرفرف فى السماء.. أمشى بعيون لا تبصر،

ويقلب أعماه اليأس.. خطواتى تقودنى هناك إلى الشرفة العالية، والمقاعد الملونة، والشراب المسكر فى الأكواب.. البواب يحيينى الآن بحماس.. كلب الحراسة يتلقى الفتات.. جزء من النظام يحرص عليه.. قواد.. أضع المفتاح فى الباب.. «جعفر» يرمقنى بعد البواب.. العيون فى كل مكان.. يرتدى سترته البيضاء.. ورباط العنق الأسود.. تبخرت كل الأوهام.. تبخرت غيوم «الويسكى»، والدولارات والبشرة الناعمة ألمسها بيدى فوق الأرداف.

كل الأشياء تنكشف أمامى بوضوح.. أنه ترس آخر من بين التروس.. عين أخرى من بين العيون.. لصيق الصلة بها كالظل.. ومن يعلم؟! فى جسمى لهيب مشتعل.. خليط من الحب، والغيرة، والمشاعر المأفونة.. كالعملاق يستقيظ، وينفض عن نفسه النوم.. كالحيوان الماكر ينتظر فى هدوء.. أشعر بقوى خارقة تكسر القيود.. بقدرة على مواجهة المخاطر، والموت.. وبقدرة على المناورة، والخسة، والجبن.. بوتر مشدود إلى آخر المدى، وبحس مرهف لأقل همسة.. يختلط فى أعماقى يقين من عرف كل الحقائق، وشك قاتل يعيدنى فى لحظة إلى رجل ضائع.. فأنا أحب هذه المرأة الرائعة، وأثق فيها.. وأنا أكره هذه الأنثى الشيطانة، المقيتة.. أنا رجل عجوز، سكران يترنح فوق السلالم.. وأنا صياد جبار يتسلل بين أشجار الغابة، قلبى كالحجر، ويدى قوية حول المقبض.. أنا كل هذه الأشياء.. وأنا لا شىء إطلاقا..

أعرف أنها تجلس على الشرفة، وتنتظر.. «وجعفر» فى الممر كالظل المنتصب.. أدور بعينى حول الأثاث، والجدران، والصور.. كالفخ المنصوب دخلت فيه مفتوح العينين، ثابت القدم.. ينظر إلى بفضول.. إحساس كلاب الصيد بالفريسة تسقط.. لماذا عدت إلى هذا الجحيم الموقد.. ؟ كان من الأفضل أن أهرب.. أن أضع بينى، وبينها مسافة فى حجم المحيط الأطلسى.. أتلفت حولى كمن يبحث عن مخرج.. لا أستطيع أن أذهب إليها الآن.. أن أراها، وأتبادل معها

الكلام.. سأخلع ثيابى، وأغطس فى حمام ساخن.. احتاج مهلة من الوقت لأجمع شتات أفكارى.. ستندهش لهذا التصرف، ولكنى لا بد أن أو أجل اللقاء بيننا..

«يا «جعفر».. سأخذ حماما ساخنا، فأنا متعب.. بلغ الست «روث» بهذا وعد لى قدحا من القهوة المركزة».. أدخل فى حجرة النوم، وأخلع ثيابى، وأرتدى «البرنس».. أفتح الصنبور فى الحمام، وأترك جسمى يغطس فى الماء الساخن، فتتسلل منه الآلام كالغازات السامة.. الصداع يهبط من قمة الرأس إلى قاعه، ويضغط كالطوق الدائرى، ثم بالتدريج يختفى.. أشعر براحة عميقة، وصفاء الذهن.. أدعك جسمى بمنشفة، ثم ألقى عليه بقليل من الماء المعطر.. أرتدى جلبابا مخططا وخفا طريا كمن يرتدى ثياب المعركة التى أستعد لها.. أخرج إلى الشرفة بخطوة صامتة.. تبدو منهمكة فى شىء يدور على الشاطىء الآخر.. شعرها الكستنائى كالشعلة على الكتف الأبيض.. فكرة تومض كالضوء فى خاطرى.. لن أفاتحها الآن فيما قاله لى «يحيى السعدنى».. امرأة ذكية ستعرف كيف تفلت من المأزق.. لا بد أن أجمع الأدلة التى لا تترك لها الفرصة.. وجودى هنا فى البيت سيسمح بذلك إذا فتحت عينى جيدا على كل ما تفعله.. أستريح لهذه الفكرة.. تؤجل المواجهة، وتعطينى الوقت الكافى لدراسة الموقف، والاستعداد له بطريقة متقنة.. أحست بوجودى فالتفتت.. صوتها الجميل يهتف..

«خليل».. تريد أن تزيد من شوقى إليك.. ساعة كاملة لتأخذ حماما. جلست هنا أتخيلك، وأنت غاطس فى الماء، وفكرت فى أن أحضر لأغطس معك» تضحك بمرح.. أنظر إليها كأننى أراها لأول مرة.. كالغريبة.. جسمى لا يستجيب لها.. ولا عقلى.. جاسوسة.. كنت أنام فى أحضان جاسوسة.. وأقول لها أحبك.. العينان العسليتان تنظران إلىّ بحنان مستطلع، فأحس بنفسى تضعف..

«مالك يا «خليل».. لست فى حالتك الطبيعية.. هل حدث شىء..؟» تنظر

إلى بقلق..

«لا.. يا «روث» لم يحدث شىء.. أنا متعب فقط، لماذا لا أعرف.. عندى صداع فظيع يقبض على رأسى كالطوق الحديدى..». تقوم من جلستها، وتقترب منى.. أشعر بجسمها يلمسنى لحظة.. أضع يدى على كتفها، وأبعدها قليلا فتغشى عينيها غلالة خفيفة.. تعود بخطا بطيئة إلى حاجز الشرفة، وتطل على النيل.. يظهر «جعفر» فى فتحة النافذة حاملا صينية القهوة.. يضعها فوق المنضدة الصغيرة وينسحب..

جلست على المقعد، وأفرغت قدحين من القهوة.. ثم حملت إليها واحدا منهما.. أستدارت مسندة ظهرها إلى الحاجز.. عيناها تستقران على وجهى، وهى تمد يدها، وتمسك بالقدح. تقول فى صوت هادىء..

«أين كنت اليوم؟».

أفاجأ بالسؤال فلم أكن أتوقعه.. أصمت لحظة..

«عند أحد الأصدقاء.. يعمل فى الهيئة العليا.. للتصنيع.. مررت عليه حتى أعرف منه آخر التطورات فى مجال الأدوية..».

تنفرج شفتاها قليلا، ثم تعلوهما ابتسامة خاطفة.. ارتشفت من القهوة كأننى لم ألحظها.. تلقى بشعرها إلى الوراء كأنها تستعد لخوض معركة، ثم تتراجع فى آخر لحظة.. استمر فى ارتشاف القهوة محملقا أمامى..

«وهل توصلت إلى شىء..؟»

«نعم، لكنه موضوع طويل، ولا أظن أن تفاصيله تهمك..».

ترمقنى بنظرة سريعة..

««خليل».. الأفضل، إذا كنت لا تريد أن تفصح عما حدث هذا الصباح، ألا

تقول شيئا على الإطلاق.. ».

هذه المرأة تستخدم ذكاءها معى.. لم أعد أنظر إليها بنفس المنظار.. ما سمعته اليوم قد حطم يقينى أنها تصدق.. أعرف الآن أن كل ما كانت تقوله لى كذب.. حتى العواطف التى ادعت أنها تحملها لى.. الثقة تبنى خلال الشهور، والسنين، ولكنها تنسف فى لحظة.. سأتتبعها عن قرب.. سأخلع عنها الأقنعة الواحدة تلو الأخرى، لتقف أمامى عارية، مكشوفة.. الدماء تصعد إلى رأسى.. تنتابنى رغبة فى أن أضع يدى حول العنق الناعم، وأضغط.. أن أجعلها تنطق بما فى صدرها، وتعترف.. أن ألقى بها على الأرض وأدوس عليها بقدمى حتى تزهق روحها.. أتصورها تتوسل إلىّ وأنا أضرب، وتمر الخيالات فى ذهنى بسرعة.. ولكن فى أغوار النفس شىء كالطعنة، وجرح غائر ينزف دموعا حزينة.. أبذل جهدا حتى لا تظهر على وجهى العاصفة التى هزت كيانى، وألقت به على الصخور كالسفينة الموشكة على الغرق..

عيناها تضيقان، ووجهها يتحول إلى حجر.. الملامح يكسوها شىء فى منتصف الطريق بين الجمود اللامبالى، والقسوة.. تحمل فى أعماقها عالما مظلما، قادرة على الانتقام المرعب، على أن تفرغ قلبها من الرحمة، وتقتل.. قلبى يدق بهدوء.. أرى كل شىء أمامى وقد أصبح واضحا.. أحسب كل الأمور، وأستعد لدفع الثمن.. أقترب بخطا ثابتة من لحظة عشت طوال حياتى أتوقعها.. يضىء فى عقلى قبس من النور، كالتنبيه الصارخ.. يجب أن أغير سلوكى وإلا انكشف أمرى.. فلم يعد المجال يسمح بالسذاجة فى التصرف..

أضع قدح القهوة على المنضدة واقترب منها.. أضع يدى على كتفها.. أميل عليها، وأقبل البروز الناعم بحنان مستغرق.. أترك شفتى عليه كالمحب الحالم.. أحس بها تموج بين ذراعى.. شفتاها تحت فمى كالعجين الساخن.. أقبل عينيها الضائعتين، والأذنين، والعنق الناعم.. تهمس «خليل».. «خليل» بصوت يائس..

أشعر بها.. تقودنى برفق للكنبة الممتدة بطول الحائط.. ألمس جسمها كالثلج المشتعل.. أشعات القمر تكشف خطوطه وتخفيها كسطح المياه تتحرك فوقه أمواج الظلام الكثيف، والبياض اللامع.. تحتوينى بشبق، فندخل فى عالم غريب تختلط فيه لذة الجنس باليأس المنقبض.. نغرق سويا فى البحور العميقة.. نتوه بلا رجعة، بلا ألم.. ونبكى بكاء مرا، شاكيا، متصلا، كطفلين اختطف الموت أبويهما فى لحظة..

منذ تلك الليلة كانت تلتقى عيوننا بفهم جديد.. كأن كل منا كشف ما كان يخفيه الآخر.. كأنها تقول لى.. أنا أعرف ما يدور فى ذهنك.. أعرف أنك نفذت إلى أخص، وأعمق أسرارى.. لم يعد يهمنى شىء فى هذه الحياة.. أنا المرأة القوية فى الظاهر لست إلا بناءً هشا يمكنك أن تقضى عليه.. أنا إنسانة أحمل فى نفسى ضياعا.. فنقب عما تريد، وحطم ما بيننا.. أعتقدت يوما أن السعادة ربما تكون من نصيبى، ولكن الماضى يتتبعنى كالقدر.. حاولت أن أفلت منه، ولكنى أدركت بعد طول الجهد أنه كالأخطبوط، يحيطنى من كل جانب.. يحاصرنى تماما.. إذن أفعل ما شئت.. وأغرس أصابعك فى لحمى الحى، وعينيك كالنصال فى قلبى المجروح، وكلماتك فى نفسى العارية من الدروع.. فقد ارتكبت ما ارتكبت لأسباب مدفونة فى الماضى.. وعندما أحببتك كنت أغالب الوحدة الطاغية.. كنت أبحث عن قبس من نور... عن رجل يلمسنى بأصابع حانية.. لا يضعنى فوق عرش مزيف ليلقى بى إلى أسفل الدرك.. ولا يستغل قدراتى ليصعد فوق اشلائى.. كنت أبحث عن شريك، عن رجل يحبنى كما تريد المرأة السوية أن تحب.. عن حب متكامل لا ينقصه شىء.. وجدته لبعض الوقت... والآن يتحول إلى قش، يضيع.. أرى أمامى نهاية الطريق.. أرى هوة عميقة.. وبعد ذلك لا أرى شيئا..

أشعر أنها مستسلمة.. أنها لن تحاول أن تهرب منى.. ألقت السلاح.. تنتظر

حتى أقترب منها، وأسدد إليها الطعنة القاتلة.. قاومت الرغبة القوية التى تدفعنى إلى أن أتركها، وأهرب.. وبعناد عاد إلى من الماضى.. من الجدران، والبوابات، والقضبان الحديدية.. من القهر الطويل.. والكراهية.. من لسعة الكرباج فى سكون الليل.. من اعتزاز بالنفس ظل مدفونا، ثم استيقظ.. أخذت قرارى بألا أدعها تفلت من بين يدى.. كنت فى بعض اللحظات أشفق عليها.. فأنا أحب هذه الأنثى المتدفقة. بالحيوية.. أحب ذكاءها، وعيونها العسلية.. أحبها عندما تلقى بشعرها إلى الوراء كالمهرة.. أحب ساقيها، ونهديها، والبطن السخية.. أحب فيها شقاء الماضى، والحزن، والأحاسيس الثرية.. أحب فيها روحها التائهة بلا هوية.. والسقوط الذى يرفض أن يستسلم للسقطة النهائية..

بدأت أبحث بصبر فى كل أركان البيت.. تدرك تماما أننى أبحث.. وتدرك أيضا ما أبحث عنه.. قررت ألا تحول دون وصولى إلى ما تخفيه فى مكان ما لم أهتد إليه.. أن تترك الأمور تسير حتى نهايتها.. ربما فى أعماقها تسعى إليها.. كمن يحمل فى ضميره أثقال الجريمة، فيأمل فى قرارة نفسه أن ينكشف أمره.. أن ينال جزاءه، فيستريح.. تتركنى فى الشقة ساعات طويلة عن قصد.. تطلب من «جعفر» أن ينتهى من أعماله، وينصرف، فأجد أمامى فرصا واسعة للبحث المتأنى.. أتساءل لماذا لا تترك الدليل أمامى لأصل إليه، أو تفاتحنى فى الموضوع فينتهى عذابنا، بدلا من التربص، والصمت، واللعبة الخفية، بينما فى الظاهر لا يوجد شىء.. ربما البقية الباقية من التدريب الطويل، أو الكبرياء الذى يحول دون أن تأتى إلى لتكشف عن الشرخ الفظيع فى نفسها.. أو الحب الذى تحرص عليه أطول مدة ممكنة قبل أن يموت نهائيا.. فعندما ينضج الإنسان يدرك أن الفاصل بين الواقع والخيال قد يصبح لا شىء.

أما أنا فقد أصبحت كالمشط الرفيع ينغرس فى الشعر الكثيف، ويبحث عن القمل.. أمشط الحجرات، والأركان، والممرات، والأبهاء من السقف إلى الأرض،

من جدار فى الشمال إلى جدار فى الجنوب.. من اليسار إلى اليمين.. من تحت إلى فوق.. أمشط المقاعد، والمناضد، والدواليب.. أمشط المفارش، والمناشف، والسجاجيد.. أمشط الأوانى والستائر، والوسائد، والسيراميك.. أمشط بلاط الأرض، وطلاء الجدران، وخشب «الباركيه».. أمشط ملابسها الخارجية، والداخلية، والحقائب، والأحذية.. لا أترك عقب سيجارة، أو قطعة لحم، أو برتقالة، أو حفنة تراب.. لا أترك اللبن، أو الزبد، أو علبة خضروات.. أنا كالشحاذ يبحث عن كنز.. كالعاشق يبحث عن الغيرة.. كاللص يبحث عن النقود، والجواهر، والحلى.. كالمدمن يبحث عن «الهيروين».. كالعالم يبحث فى السموات عن النجمة الضائعة.. أنا كالرسام يبحث عن الخط المطلوب للصورة.. أنا شخص أصيب بالانفصام.. لى نصف عقل سليم، ونصف آخر مجنون يجرى خلف الأوهام.. أنا كالسرطان يمد أصابعه إلى كل الأركان..

كان لابد أن أصل.. لم تكن هناك قوة فى السماء أو فى الأرض.. قوى الاهية، أو بشرية، أو كيمائية، أو كهربية تستطيع أن تمنعنى.. لم يكن هناك شىء فى الوجود يمكن أن يصرف عقلى، وجسمى، وأصابعى، وعينى، وأذنى وحواسى السادسة، والسابعة، المرئية، وغير المرئية، والمعروفة وغير المعروفة من أن تصل.. وهكذا فى أمسية من أمسيات الصيف، فيها سحر وحنان.. فيها رائحة الياسمين.. وفيها الحزن، والبؤس، وكل تعاسة الإنسان المحب العاشق المطعون.. وصلت..

كنت جالسا على مقعد فى حجرة المعيشة المطلة على الشرفة.. الستائر الرفيعة تتحرك حركة خفيفة مع دفعات النسيم المتسللة خلال النافذة المفتوحة.. وصمت غير عادى يخيم على الكون كأن الناس لسبب ما أحسوا بالارهاق فلجأوا إلى السكون.. أو أحسوا أن الاله الجبار يعد لكارثة عظيمة، أعظم من كل الكوارث السابقة، فانزووا فى بيوتهم ينتظرون بقلوب واجفة.. أمامى جهاز

للتسجيل.. كنت ارتاح من عناء التفكير، والبحث المستمر بالاستماع الى بعض شرائط الموسيقى.. دراسات «لشوبان» يعزفها «روبنشتاين» على البيان.. مثل قطع من الفضة الخفيفة تطير فى الهواء.. أو فقاقيع الصابون فى ضوء الشمس..

رأسى مسنودة على ظهر المقعد، وقدمى على المنضدة.. أسبح مع النغم.. انتهى الشريط، وأنقلب على الوجه الآخر.. بدلا من الموسيقى أسمع رجلا يقول :

«كم الساعة الآن..؟».

صوت امرأة ترد.. سمعته من قبل.. أقطب جبينى محاولا التركيز..

«الحادية عشرة ونصف..».

«أنا متعب الليلة.. ولكنك ستسافرين غدا.. ولابد من مراجعة بعض النقاط..».

صوتها من جديد.

«كما تريد..».

«هل أرسلت التقرير الأخير عن اتجاه الأوساط العلمية فى مصر حول مسألة بناء المحطات النووية..؟».

«نعم.. أرسل منذ ثلاثة أسابيع عن طريق الوسيط «م و ك ٢٠»..

«حسنا... موضوع الدراسات الخاصة بتوزيع مياه النيل..؟».

«أوشك أن ينتهى.. أعتقد أنه سيصلك قبل ١٥ فبراير..».

«لا تستخدمى نفس الوسيط.. لابد من الفصل التام بين قنوات التوصيل.. استخدمى القناة س ت ٤٥٢١.. وبدلى كود التقرير..».

«هل سنرسل نسخة إلى المركز المحورى أيضا، أم نكتفى بما سيصلك..».

صوت «روث» بلا منازع.. سمعته من قبل على آلة تسجيل.. «يحيى السعدنى» معلوماته دقيقة.. ولكن كيف تغافلت عن هذا الشريط.. لابد أنها نسيت أن تمسحه بعد التفريغ.. فى الأيام الأخيرة لاحظت عليها نوعا من عدم الاكتراث.. كأن كل الأشياء أصبحت تتساوى.. تشرب كميات كبيرة من الويسكى.. وتجلس بالساعات محملقة فى الفراغ دون أن تتحرك أو حتى تنام.. عندما أتحدث إليها أشعر كأنها عائدة من رحلة بعيدة.. لا تتنبه إلى كلامى أو وجودى على الفور.. كالمستيقظ من النوم ينظر حوله بضعة لحظات قبل أن يعرف أين هو..

يصمت لحظة كأنه يفكر..

«لا.. نسخة لى فقط.. لا أريد أن يذهب إلى المركز المحورى بدون تعليق منى.. احتفظى بنسخة واحدة إلى أن أرسل برقية إلى «آتاكس» القاهرة تفيد وصول التقرير، ثم تخلصى منه.. وفى هذه الفترة أودعى نسخة فى المخزن الميت عن طريق الوسيط «نجم اكس..».

«هل تريد شيئا آخر..؟

«نعم بقى موضوع «خليل»..

صمت طويل يستطرد بعده..

«وعدتنى أنه عندما تحضرين إلى «باريس» هذه المرة ستكونين قد حسمت الأمر.. لقد مرت عليه مدة طويلة.. ساعدتك بكل ما استطيع.. وجدت له عملا فى شركتى كما طلبت.. ومع ذلك مازال طليقا يطير هنا وهناك كما يريد.. وهذا الوضع فيه خطورة علينا.. من يحيا بيننا لابد أن يكون منا..».

إذن الرجل هو «المستر هاريستون».. المستر «ادوارد. ج. هاريسون».. زوجها.. يعمل معها.. أو بالأحرى هى تعمل معه..

«ألا يكفيك أن المبيعات ستفوق مليونين من الدولارات فى السنة منذ أن عين مسئولا عن منطقة البلاد العربية..؟».

«أنا لا أتكلم عن هذا.. أنا أقصد إدخاله فى النشاط الآخر.. حتى نستفيد منه ونحمى ما نقوم به.. وشعورى بل يقينى هو أنك تماطلين فى هذه المسألة»..

«احساسك خاطىء.. أنا لا أطمئن إليه من هذه الناحية.. أنه تغير كثيرا منذ أيام الشباب، ولكنه مازال يتسم بمزاج لا يؤهله لمثل هذا العمل.. أتريد أن نواجه بكارثة أخرى..؟ ألا يكفيك ما حدث مع أستاذ الجامعة فى تركيا؟».

«هذه هواجس.. أنا على العكس أعتقد أنه عنصر ممتاز يمكن أن يقدم خدمات جليلة.. ذكى، وجذاب للرجال والنساء..» يضحك «ومعلوماته غزيرة.. العمل الجديد وسع اتصالاته أضعاف المرات.. له أصدقاء قدامى انقطع عنهم، ولكنه يستطيع أن يعيد صلته بهم.. المسألة هى أسلوب الارتباط به.. وأنت يا حبيبتى صاحبة خبرة غنية فى هذا المجال..» يضحك من جديد..

صمت.. تمتنع عن التعليق..

«سأحدثك بصراحة.. أنا لا أستطيع أن أدافع عنك إلى مالا نهاية.. صحيح أنك من أنجح عناصرنا، وأنك تقومين بعمل لا يدانيك فيه أحد.. ولكن كما تعلمين جيدا هذا الارتباط العاطفى محظور تماما، ولا يمكن أن يستمر.. وأنا موقن أن المسألة بالنسبة إليك لا تتعدى نوعا من الرومانسية الغبية.. مازلت تحلمين أنك فتاة صغيرة.. تريدين أن تحميه، وأن تبقيه بعيدا عن جونا.. طول عمرى أجد صعوبة فى فهمك.. نحيا على قمة الدنيا.. نملك المال، ونشترك مباشرة فى تحريك الأحداث.. أما أنت فلا تبالين بكل هذا.. ماذا تريدين بالضبط؟ لم تعد

هناك فرصة للخروج من هذا المجال.. أنه ككل الأسلحة الخطيرة فى الحياة.. له حدان.. يوجه إلى الآخرين أغلب الوقت، ولكن عند اللزوم يمكن أن يوجه اليك.. المركز المحورى أثار معى هذا الموضوع.. والآن يتهموننى أننى أتستر عليك بسبب العلاقة القائمة بيننا».

صوتها هذه المرة مفرغ من الحيوية، كأن شيئا داخلها يموت..«أعدك أنه فى المرة القادمة سأكون حسمت الأمر.. أما باشراكه فى بعض المهام أو بإنهاء العلاقة القائمة بيننا..»،

«هذه آخر فرصة.. الموقف لا يحتمل التأجيل.. نحن مقبلون على فترة مهمة وحرجة فى مصر قد تحدث فيها أشياء كثيرة.. لابد أن نركز على اليسار، و«خليل» يستطيع أن يلعب دورا مفيدا فى هذا المجال..».

صمت.. ثم صوت كالصفير، تتبعه أنغام الموسيقى، كقطع الفضة الرفيعة تطير فى الهواء.. كفقاقيع الصابون فى الشمس.. كالأشياء الجميلة فى الحياة عندما تخفى وراءها الجريمة فتنقلب كل الموازين.. انتظرت قليلا ثم أخرجت الشريط، ووضعته فى جيب السترة الداخلية.. أعدت صندوق الشرائط إلى مكانه فى الدرج الطويل، ووضعت شريطا فارغا فى آلة التسجيل.. أسند رأسى على ظهر المقعد.. أحس بهدوء غريب كالذى وصل إلى مقصده بعد عناء طويل، وعرف مصيره.. كالذى بذل جهودا مضنية، وأصبح من حقه أن يستريح.. كل المسائل واضحة الآن، وانكشفت الحقيقة.. جاءت اللحظة الحاسمة التى فيها سنواجه بعضنا بلا أقنعة.. ترى ما هى الخطوة القادمة؟.. أعرف أن لجوئى إلى السلطات فى هذه الظروف لن يجلب لى إلا كارثة.. سيحمونها بكل الوسائل.. أفكر الآن بعقل بارد.. تسيطر على الكراهية، وشعور باليأس.. فقدت كل الأشياء ولم يبق ما يمكن أن أخشى عليه.. خدعتنى هذه المرأة التى أكرهها وأحبها فى آن واحد.. فى أعماقى حزن، لكنه بعيد.. حزن بلا احساس.. حزن مات.. ولكنها مع ذلك كانت

تحمينى.. أمن أجل النشاط الذى تحرص عليه، والأجهزة التى تنتمى إليها؟.. أمن أجل وضعى أنا، أم من أجل مصالحها هى..؟ الحياة الرغدة، والمال وعالم غامض خطر تنبض شرايينه، وأعصابه فى كل اللحظات.. ما الذى دفعها إلى هذا الطريق المحفوف بالمخاطر..؟ ليس كل ما قالته تضليل، وكذب.. لا يمكن أن يكون احساسى قد خاب إلى هذا الحد.. عندما أضمها بين ذراعى، وألمس فى جسمها ذلك العصب المذبوح المرتجف.. عندما أنظر فى عينيها، واستقر فيهما، أو أسمع صوتها ينبض بالحيوية ويقول: «أنا أحبك.. أنت صديقى، وحبيبى، وعشيقى.. أنت الإنسان الوحيد الذى عرفت معه الحب الحقيقى» لا يمكن أن تكون هذه الكلمات مزيفة.. لا يمكن.. أنا كالمحكوم عليه بالاعدام أتعلق بشعرة.. هناك شىء لم أكتشفه بعد.. سر غامض.. صراع يدور فى مكان ما منذ زمن طويل.. بريق يطل أحيانا من بين الغيوم، معدن أصيل لم يصبه صدأ.. أنا لا أريد أن أشك فى كل الأشياء، فى الحياة نفسها.. ولكن إذا كان هذا صحيحا كيف أصبحت «جاسوسة».. عندما أنطق الكلمة جسمى يرتعش.. أشعر بالرعب.. أنا «خليل منصور خليل» أحيا مع امرأة أمريكية جاسوسة.. أقبض مرتبى من زوجها.. من شركة مشبوهة.. يتناقشان سويا عن الدور الذى أستطيع أن ألعبه.. تصعد فى صدرى موجة من الغضب المكتوم.. سأقتلها.. أنطق كلمة القتل لأول مرة.. ولِمَ لا؟ أليست هى التى جرتنى إلى أسفل السلم..؟ لا .. ليست هى.. أنا الذى جئت إليها بعينين مفتوحتين، وخطوة ثابتة.. ولولاها ربما أصبحت مثلها جاسوسا.. صارعت حتى تحتفظ بى بعيدا عما هى فيه.. كالمرأة المومس تحمى بنتها.. أنها إنسانة عظمية.. أنها إنسانة منحطة.. أنها مثلنا جميعا فيها ما فينا.. فيها المعدن الأصيل، وفيها الصدأ.. فيها رحيق الزهور، وفيها العفن.. فيها الحب المتفانى، والجنس المشتعل.. فيها طهارة الطفل، وإنسانية البشر. وفيها خسة من تعلق بأصحاب السلطة، والمال حتى يصعد..

عقلى يدور فى رأسى كالمروحة.. أجلس على المقعد فى الحجرة الوثيرة، وأنتظر.. المفتاح يدور فى الباب.. خطوتها على البساط مكتومة كأنها تموت قبل أن تحضر.. تتوقف لحظة.. تدخل العرين وأنفها يرتعش.. تتقدم ببطء حريص نحو المصيدة.. أرى قوامها الملفوف فى فتحة الباب.. أراها شاحبة، مضطربة.. العينان فيهما خوف يظهر، ويختفى، وفيهما تحد.. أنها تعرف جيدا تجربة الخطر.. تتقدم ناحيتى بخطوة ثابتة، وتجلس على المقعد أمامى.. تلتقى نظراتنا فى الفراغ بينى وبينها.. تلتف حول نفسها، وتجس بعضها فى نوع من المبارزة الصامتة.. تنفصل لحظة طويلة، وتبتعد، ثم تعود بحزن المنتظر الذى يعرف أنه مقدم على الخطوة الفاصلة.. أنه بعد الآن لا يوجد تراجع.. نظرة تقول: وقعنا فى المحظور، وحاصرنا القدر.. فما الذى عسانا أن نفعله الآن..؟

أسمعها تقول :

«عرفت.. أليس كذلك..؟».

«نعم..».

تتنهد.

«ممن؟»

«من «يحيى السعدنى..»».

تبتسم بمرارة..

«يحاول منذ زمن..».

«ماذا يحاول..؟».

«أن أصبح عشيقة له، وعميلة مزدوجة..».

أشعر أننى أخوض فى المجارى تحت الأرض.. تستطرد..

«من «يحيى السعدنى» فحسب..؟».

«ومن أحد الشرائط.. وجدته هنا..».

تقطب جبينها كأنها تحاول أن تتذكر..

«شريط مسجل فى «باريس» بينك وبين زوجك كان يجب أن يعدم..».

تبتسم

«عندما يعدم الإنسان، لا يهم الشريط..».

أرفع نفسى فى المقعد لأطل عليها من أعلى.. وأحاكمها..

«ولكن أنا مندهش.. تعترفين ببساطة؟! طوال الفترة الماضية انتابنى احساس غريب..».

«ما هو؟».

«انك كنت تتمنين أن أكتشف الأمر..».

تفكر فى هدوء.. نتحدث كما لو كنا نتبادل الانطباعات عن الجو فى «أنقرة».

«لم يخطر هذا على بالى.. ولكنى الآن أدرك أنه فى بعض اللحظات كان يثقل على الوضع إلى درجة أقول فيها.. «لو أكتشف «خليل» الأمر سأستريح».

«وهل هذا طبيعى؟».

«طبيعى؟! عندما يصل الإنسان إلى ما وصلت إليه؟.. نعم..»

«كيف..؟»

«لم أعد أطيق أن أحيا هكذا».. عيناها تغيبان فى مكان بعيد.. تقول بلا انفعال.. «الموت أفضل..».

«أنت التى اخترت هذا الطريق..».

«نعم..»

«لا أفهم إذن..».

تنظر إلى بشىء كالأسى..

«لأول مرة أجد صعوبة فى أن أقول لك السبب..».

«لماذا؟».

«لأنك لأول مرة ربما لن تصدقنى.. مع أننى لم أصل من قبل إلى هذه الدرجة من الصدق..».

«سأصدقك إذن».

«فأنا أحبك..».

قلبى ينتفض.. أتلعب معى مرة أخرى.. لا.. إنها لا تلعب.. هذا اليأس فى العينين عاجز عن اللعب.. أتردد.. تفتح قلبها لى.. هل أفتح قلبى؟.

«يا «روث».. أنا أحبك أيضا.. ولكن فى الأشهر الأخيرة كنت أكرهك..».

«طبيعى.. أنا أكره نفسى أيضا.. ألم تكره نفسك أبدا..؟».

«نعم..».

«متى..؟».

«عندما أحس أننى أسقط..».

«إذن عرفت السقوط..؟».

«طبعا.. أنا ساقط الآن..».

«لماذا.. ألانك أحببتنى؟».

أبحث عن مخرج من السؤال.. ولكنها تطاردنى..

«قلها.. لأنك أحببتنى..؟».

ربما.. ولأسباب أخرى..».

«ما هى..؟».

«هذا الوضع كله.. تخليت عن كل ما كنت مرتبطا به.. عن «أمينة» و«عصام» و سعيد أبو بكر».. وعن أفكاري.. أسكن هنا، وأقبض الدولارات من زوجك المحترم..».

«والحب الذى بيننا.. لماذا لم تكمل؟».

أصمت.. صوتها الآن قوى، فيه رنة..

«ومع ذلك فرأيى أن أعظم ما حدث لك، ولى هو هذا الحب.. عندما ينتهى ستكون أنت إنسانا آخر.. أما أنا فقد أصبحت امرأة أخرى منذ زمن.. أتعرف ماذا يعنيه وقوفى ضد الجهاز الذى أعمل معه، واصرارى على علاقتى بك.. وعلى ابقائك بعيدا عن كل هذا الروث..؟».

أتردد.. خيالى يتسع لكل الاحتمالات، ولكن لسانى يتلعثم..

تنظر الى وتقول فى ثبات..

«الموت المعنوى على أحسن الفروض.. والموت الحقيقى على أسوأها.. لن يغفروا لى ما أقدمت عليه.. لن يغفروا لى أبدا..» أرى جسمها يرتعش.. «ومع ذلك لست نادمة.. أشعر لأول مرة أننى قاومت قوة جبارة أرادت منذ طفولتى أن تقهرنى.. قاومتها من أجل الحب، ومن أجلك، ومن أجل نقطة حية نابضة فى أعماقى بذرتها أمى لتنقلها إلى فى الرحم.. عرفت معك معنى السعادة، ولذلك لابد أن أدفع الثمن.. فالسعادة حرام على أمثالى من البشر.. طفلة لقيطة من أم

مهاجرة اجتازت الحدود من «المكسيك» إلى بلاد تعتبر نفسها سيدة العالم.. ومن أب أبيض البشرة، أزرق العينين، خريج جامعة «هارفارد»، وسليل الأسر الشمالية الغنية.. مرشح للمناصب العليا فى «واشنجتون». صاحب بنوك، ونفوذ، ومتاجر بالدولارات، والذمم..».

أرى عينيها كالبنادق المصوبة بالغضب..

«أحكى يا «روث» فأنا أسمعك..».

«طفلة لقيطة فى مدينة «نيويورك».. أمها تعمل فى البارات والمطاعم.. تنمو وسط صبيان الشوارع.. تدافع عن نفسها بالأسنان، والأظافر.. تكبر بالتدريج.. ابتلاها القدر بجمال المكسيك، فتصبح فريسة لكل الذئاب، يدورون حولها.. فى عيونهم بريق، وعلى وجوههم تظهر الأسنان البيضاء، والشوارب.. تشعر فى كل لحظة أنها محاطة بالمكر والرياء.. بالتربص، والعدوان.. وأحيانا بما هو ألعن ألف مرة.. بالحنان المزيف يستتر وراء العنف.. أنا سلعة تصلح للبيع.. تجلب المال والمتعة.. لحم أبيض فى السوق.. عينان، وشفتان، ونهدان، وردفان، وبطن.. أما عقلى وقلبى فليس لهما ثمن.. زوائد لا لزوم لهما.. فمن بين الرجال يهمه عقل المرأة وقلبها.. عرفت منذ البداية أننى ولدت ضحية الجنس، والعرق، والفقر، وأن الحماية الوحيدة هى ذلك السلاح الذى يحكم الرجال والنساء فى العالم.. المال.. استخدمت جمالى وبعت نفسى لأغلى مشتر بثمن.. والثمن هو عقد الزواج.. والعقد فيه شروط.. شروط أثناء الحياة الزوجية، وإذا حدث طلاق.. وكلها تتعلق بالنقود: حرصت على منع الانجاب.. فالأطفال فى زواج مثل هذا قيود.. واستخدمت امكانياتى الجديدة لأضيف إلى الترسانة التى أخذت أقيمها سلاحا جديدا هو المعرفة والعلم.. الدبلومات، والشهادات العليا، الماجستير، والدكتوراة.. والنفاذ إلى الأوساط الجامعية فى أمريكا.. فهى مصدر العقول المشتراه.. خرجت من نطاق سوق الأجسام إلى سوق العقول.. كلها أسواق، ولكنى

فضلت النوع الثانى.. فيه متعة المعرفة، واستقلال، وفرصة لأن يعطى الإنسان نفسه وقلبه، لما يريد.. ولكن بالطبع لم يكن من الممكن أن آخذ على الدوام دون أن أدفع مقابل.. لم أكن أعرف عن زوجى سوى أنه رجل أعمال، ولكن بعد أن تزوجنا بسنتين أفصح لى عن نشاطه الآخر فى المخابرات.. فقد كانت هناك ظروف تستلزم أن أكون على علم بها حتى لا تحدث أخطاء.. وهكذا دخلت فى هذا العالم الخاص.. عندما عرض على أن أشارك بطريقة رسمية لم أمانع.. مصدر آخر للمال والنفوذ.. وفرصة لأن يعيش الإنسان متع من نوع جديد.. العقل الذى يعمل بيقظة.. التفكير، والتدبير، التآمر، والخطر.. والاشتراك فى صنع الأحداث.. لم أعلم إذ ذاك أن كل هذه الأشياء يمكن أن تكون أسلحة جديدة، ولكنها فى نفس الوقت يمكن أن تصبح كجدار السجن إذا بحث الشخص عن أسلوب آخر للحياة.. ربما لم أفهم جيدا معنى الطريق الذى سلكته منذ البداية، أو بالأحرى لم أعرف أنه عند نقطة معينة كان يجب أن أتوقف حتى لا أضيع تماما، وأفقد الاستقلال الذى سعيت إليه خطوة بعد خطوة.. منذ اللحظة التى عرفت فيها الوجه الآخر لنشاط زوجى ربما كان الأفضل أن ننفصل.. ولكن لم يخطر على بالى أن أتخذ هذه الخطوة، بل بالعكس أقدمت على هذا العمل بكل حماس، وكان يمكن ألا تثور أية مشكلة فأنا لا أريد أن أدعى لنفسى أشياء.. أو ربما كانت هناك بذرة فى الأعماق تنتظر الشمس، والمياه العذبة، والضوء لتستيقظ.. بذرة أمى المكسيكية والفقر القديم، والقهر، والوحدة، والحزن.. جاءت فى خلايا جسمى مستترة..».

تنظر أمامها كأنها اجتازت حدود الحزن إلى اللاشعور.. تسبح عالية فوق أشلاء الحياة، وتتفقدها فى فضول.. ترفع ستارا وراء ستار وتنفذ إلى الأعماق فى شرود.. تكشف لأول مرة الحقيقة كلها، فتزول عنها كل الأوهام القديمة، وتستعد للخطوة القادمة بعقل يراها بوضوح.. أرى عينيها يشع منهما لهب صغير.. كالشمس الذائبة ساعة الغروب.. لم يعد لدى ما استطيع أن أقوله لها.. أنها

اجتازت كل الحدود.. ذهبت إلى حيث لا يمكننى أن ألحق بها.. أو أمد يد العون لها.. أو أغرس فى قلبها رصاصة الموت.. هى ملك لنفسها، ملك ارادتها.. أعرف أنها تقرر مصيرها، وتوزن المسائل بهدوء.. تعرف أن الحصار أحاط بها من كل الجهات.. أن الحب الذى عاش بيننا قويا لابد أن يزول.. أن الطريق الذى سارت فيه مسدود.. لن يتركوها إلا عقلا شاردا، أو حطام إنسان، أو جثة ممدودة فى القبور.. تحقق القدر الذى كانت تخشاه.. دارت الدائرة الكبيرة منذ بداية الحياة.. طفلة لقيطة تحيط بها العيون والأنياب.. ضحية.. وامرأة قاومت لتخرج من الخية، فوقعت فى خية أخرى كخيوط العنكبوت.. أرادت أن تقاوم وحدها شبكة عالمية. أن تفلت وحدها من الأنياب.. والآن أشاهدها تغرق أمام عينى.. كان يمكن أن أغرق معها لولا بذرة الأم المكسيكية.. بؤرة صغيرة فيها إنسانية، جعلتها تقول «لا.. كنت عمياء لا أبصر ما يدور حولى، فاخترت هذا المصير.. أما هو فأنا أحبه.. لن أجره معى.. فى داخلى شعاع من الضوء وسط الظلام.. زهرة برية فى الطين الأسود.. أغنية حب تتردد فى أمسية صيف..».

أعرف أنها اتخذت قرارها.. سأحاول أن أثنيها عنه.. سأحاول.. ولكنى أعرف أن فى قلبها تصميم.. أن لا شىء فى الوجود يمكن أن يثنيها عما ستقدم عليه.. تلقى برأسها إلى الوراء كالمذبوحة.. شعرها الكستنائى كالدماء القانية فى الضوء الخافت.. أنظر إلى عينيها كأنى أراها لأول مرة.. فيهما شفافية الروح، والضوء.. فيهما سحر الطفل البرىء وحنان.. فيهما كل تعاسة الإنسان..

تقول : ««خليل».. هذه هى الليلة الأخيرة قبل أن نفترق.. سأطلب منك شيئا واحدا، لن أطلب سواه».. تتردد.. صوتها يهمس فى انكسار.. «أريد أن تأخذنى بين أحضانك حتى الصباح.. سآوى إلى الفراش الآن، وانتظرك.. ولكن إذا لم تأت الى لن ألومك..».

جلست على المقعد أحملق فى الفراغ الذى تركته.. أسمع صوت احتكاك

بسيط كعود ثقاب على علبة كبريت.. أبحث عن مصدر الصوت.. فى رف أسفل المنضدة توقف جهاز التسجيل عن الدوران.. مددت يدى وأخرجت الشريط.. وضعته فى جيب السترة الداخلى.. قمت إلى حجرة النوم الخاصة بى.. خلعت ثيابى، وعلقت السترة فى الدولاب.. ارتديت الجلباب وتوجهت إلى الحمام.. دعكت أسنانى بالفرشاة، وغسلت وجهى، ويدى بالصابون.. ثم دلفت من الباب إلى حجرتها، واقتربت من السرير.. خلعت الخف، ورقدت إلي جوارها.. ظلت ساكنة لا تتحرك.. مددت يدى إليها، ثم احتويتها بذراعى.. وضعت رأسها على كتفى.. استنشق رائحة الياسمين فى شعرها الناعم.. أسمع صوت سيارة تمر فى الشارع.. تقول :

«عندما كنت صغيرة كانت أمى تأخذنى بين ذراعيها هكذا قبل النوم حتى أشعر بالاطمئنان.. أحكى لى ماذا ستفعل بعد أن نفترق..».

«لا أعرف بالضبط.. لى صديق عنده معمل خاص ربما عملت معه فترة من الوقت.. وربما أفكر فى السفر..».

«إلى أين..».

«إلى المغرب..».

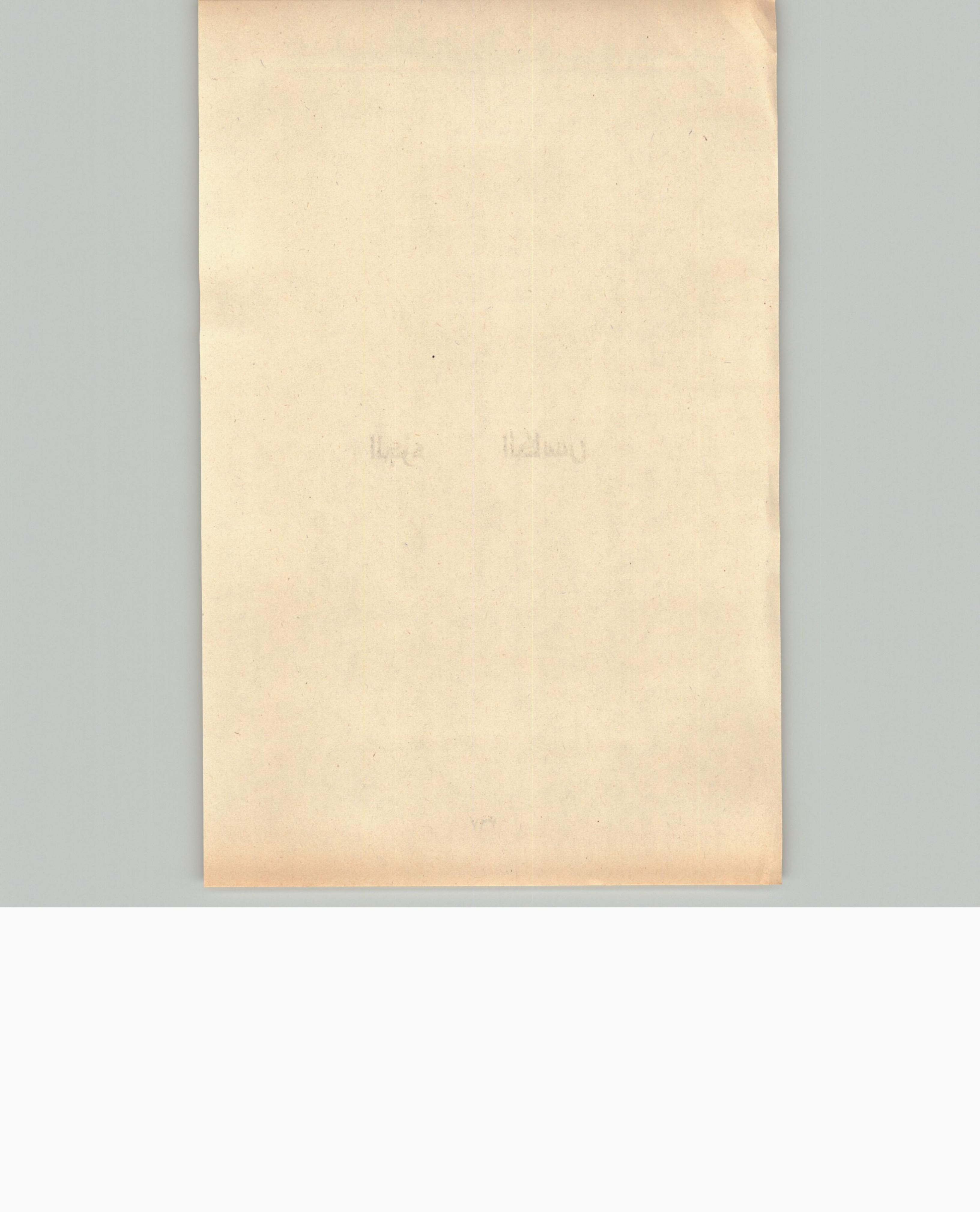
«ولماذا المغرب..».

تسأل وأنا أجيب.. نهمس فى الليل الصامت.. يدها ساكنة بين أصابعى.. وعيناها تبرقان فى الظلام.. الجو صاف، والنجوم تبرق من بعيد.. بعد قليل أشعر بها تنام.. أسمع أنفاسها تتردد بالقرب منى فى اطمئنان.. تتململ بين الحين والآخر، وتنطق كلمات مضغومة بصوت خافت يذكرنى بالأطفال.. أظل مستيقظا فى الظلام إلى أن تهدأ تماما.. الساعة فى معصمى تشير إلى الثالثة.. ذراعى أصابها تنميل فأسحبها من تحت رأسها.. تضمنى إليها كأنها تخشى أن أفلت منها، فأضمها.. ذراعاها حولى، وذراعى حولها.. هكذا نمنا أنا وهى حتى الصباح..

* * *



الجزء الخامس



أحب العودة إلى بيتنا فى مصر.. ألقى بأعباء الحياة خلف ظهرى، وأعود كما كنت خالية البال.. أستيقظ فى الصباح على وجه أمى ترفع الشيش، وتسألنى ماذا أريد للإفطار.. أخرج للشرفة لأطل على الروضة الخضراء، والشمس تصعد من خلف النخيل.. استنشق هواء الصباح، وأتتبع عربات الخضار تتجه نحو السوق، فأمتص ألوانها بشوق.. ففى «الكويت» تطاردنى المعلبات كلما أعددت الطعام، وهنا أجلس على مائدة تناثرت فوقها أطباق البيض، والفول، والفطير، والقشدة.. آكل منها على مهل، ونتبادل الذكريات، والأخبار.. أحس نفسى محاطة بالرعاية، والحب.. أمى تقول : «أنت فى أجازة، فلا تفكرى فى شىء.. كفاك التعب والشقاء اللذين تعانين منهما هناك.. عندك غسالة ملابس، وغسالة أطباق، ومجفف وفرن للشواء، وكل الأدوات.. ولكن هنا عندك أم.. ولا يوجد ما يمكن أن يحل مكانها..». أستكين بين ذراعيها، وأحس بقلبى يرتاح من الأسى الذى لم يفارقنى سوى لحظات قليلة خلال السنين الماضية.. أساعدها فى رفع الأطباق، ثم انتقل مع أبى إلى الصالة.. يجلس على الكنبة البيضاء.. فى يده السبحة الكهرمان، وعلى المنضدة الصغيرة فنجان القهوة تفوح رائحتها فى الهواء.. يجلس معى بالساعات.. أنه لا يتكلم كثيرا.. يسمعنى أغلب الوقت، أفرغ ما فى صدرى من آلام، ويتدخل بين الحين والآخر ببضع كلمات.. يقول لى :

«يابنتى أفعلى ما يجلب لك السعادة، ويرضيك.. البيت هنا مفتوح، ولله الحمد لا ينقصنى شىء..».

أغلب الأيام أقضى جزءا من النهار فى الخارج.. أترك الأولاد فى حديقة البيت وأنطلق لزيارة صديقاتى.. أستعيد معهن ذكريات الماضى، وأياما عشناها فى الجامعة، وفى العمل.. فى بعض الأيام أتوجه لمبنى الإذاعة حيث قضيت سنوات ثلاث قبل أن أتزوج، وأرحل من مصر.. أحيا هنا أجمل اللحظات.. أحس أن كل المتاعب التى كنت أعانيها إذ ذاك تبدو تافهة فى ضوء الحاضر.. أحن إلى شعورى بالاستقلال والرضى افتقدته منذ زمن.. أدور على الاستوديوهات، وألمس الميكروفونات بأطراف الأصابع.. أجلس فى صمت أشاهد الزميلات والزملاء يعدون البرامج.. واستمع إليهم يتحدثون عن مشاكل العمل..

من بين كل الذين أعرفهم كانت «سوسن عبد الفتاح» أقرب الصديقات إلى قلبى.. نكاد لا نفترق.. فأسرتها تقطن «منيل الروضة» مثلنا.. ذهبنا سويا إلى مدرسة «السنية»، وبعد ذلك إلى كلية الآداب فى «جامعة القاهرة».. والأغرب من ذلك أننا تقدمنا فى نفس الفترة للعمل فى الاذاعة، وقبلنا.. وهكذا عشنا تجربة واحدة فى فترات من الحياة تعتبر حاسمة.. عندما تزوجت، وسافرت ظلت هى تعمل إلى أن ترقت، وأصبحت رئيسة برامج المرأة.. لم توفق فى زواجها من أحد زملائها، وانتهت حياتها معه بالطلاق.. وربما كان هذا أحد الأسباب الذى زاد القرب بيننا.. عندما أعود إلى مصر أجدها على استعداد لقضاء وقت فراغها معى.. فليست كالباقيات لها أسرة وأطفال لابد أن ترعاهم.. كما أن تجربتها مع الزواج جعلتنا نعيش محنة واحدة قربت بيننا..

تستقبلنى دائما بترحاب حتى لو مررت عليها دون ميعاد.. العلاقة بيننا تسمح برفع الكلفة فإذا رغبنا فى الحديث تحدثنا.. وأن رغبنا فى الصمت نكاد لا نتبادل كلمة.. عندما تكون مشغولة بعملها، أو بأى شىء آخر، تتركنى أفعل ما

أريد، وتنصرف هى لحالها.. وأحيانا تطلب منى المساعدة فى إعداد أحد البرامج فأستغرق بحماس فى أشياء تعيدنى إلى أجمل الأيام التى عشتها..

فى ذلك الصباح اتصلت بى تليفونيا، واقترحت أن أقضى معها اليوم بأكملها فقد أخذت أجازة من العمل لتستريح، وتفكر فى إعادة تنظيم البرامج.. وجدتها جالسة على الشرفة تقرأ.. تبادلنا أطراف الحديث ثم سألتنى فجأة..

«هل تقرأين الجرائد هذه الأيام، يا «تهانى».. قلت

«لا منذ أن سافرت إلى «الكويت» وانشغلت بشؤن البيت، انقطعت صلتى بأشياء كثيرة.. ولكن لماذا تسألين..؟

تفحصنى بنظرة طويلة قبل أن تجيب..

«إذن لم تسمع شيئا عن القضية المتهم فيها «خليل»..

قطبت جبينى وسألت :

««خليل»؟».

تنطق الكلمات ببطء..

«نعم» خليل منصور خليل «خطيبك السابق..».

قلبى يخفق.. حكم عليه بخمس سنوات.. إذن خرج من السجن منذ مدة.. أربع أو خمس سنوات على الأقل..

«قضية أخرى؟».

أحس بالاشفاق عليه.. كلما تذكرته أشعر بضميرى يؤنبنى..

«نعم.. ولكن من نوع مختلف..».

لماذا ترد على هكذا.. بغموض، وعلى أجزاء.. كأنها تريد أن تثير اهتمامى..

أو تتردد بعد أن أقدمت..

«كيف؟».

«قضية قتل.. متهم أنه قتل امرأة أمريكية».

أفتح فمى باندهاش.. «خليل» قتل امرأة.. مستحيل».

تفحصنى من جديد بعينين فيهما تساؤل ثم تضحك ضحكة قصيرة..

«أما زلت تحبينه، أم ماذا؟».

«خليل» يقتل.. هذا مستحيل.. أستغرق فى التفكير.. ترى ماذا حدث؟.. هذه الحياة مخيفة.. عقلى يسرح إلى أيام مضت.. كان يلمسنى بأصابعه الرقيقة.. يقتل.. تنتابنى قشعريرة..

أسمع صوتها الرفيع يقول..

«تذكرتك يوم أن قرأت الخبر لأول مرة منذ سنة تقريبا.. ظل محبوسا طوال هذه الفترة، وبدأت المحاكمة الأسبوع الماضى..».

قلت..

«أنت كنت تعرفينه جيدا يا «سوسن».. هل تظنين حقا أنه يقدم على مثل هذه الجريمة..؟».

«يا حبيبتى.. أنا بالطبع مفاجأة مثلك.. ولكن من يعلم.. فى هذه الأيام نرى ما لم نره أبدا من قبل.. لا أعرف ما الذى جرى للناس.. ثم لا تنس.. أنت كنت تحبينه.. أما أنا، فكنت مجرد صديقة لكما..».

أصمت.. أحس بألم عميق يعتصرنى.. أنا التى تركته فى السجن وهربت.. تلح على فكرة.. ربما أكون مسئولة عما جرى، ولو جزئيا.. فكرة تروق لى

وتتعبنى فى نفس الوقت.. تجعلنى أشعر بأهميتى عنده، وفى نفس الوقت تحملنى هموما جديدة.. أحس بشىء ينهار فى داخلى.. لا فائدة من هذا التفكير السقيم.. سأمرض.. يهيأ الى أن نظرتها الحادة تنفذ الى.. أسمعها تقول :

«خطرت لى فكرة، هى أن أذهب إلى المحكمة لآراه.. أعترف لك أن الموضوع أثار اهتمامى.. ربما نوع من الفضول.. أو الاحساس بالعشرة القديمة، ولو أنى لا أعتقد أننى سأستطيع أن أسلم عليه.. مثل هذه الأحداث لا تتكرر يوميا.. فيجب انتهاز الفرصة.. هذه القضية شغلت الرأى العام طوال الأشهر الماضية.. وقد لعبت الصحف، والاذاعات دورا كبيرا فى ذلك.. فكما تعلمين أنه ليس شخصا عاديا.. أنه اشتراكى معروف.. وهى امرأة أمريكية..».

تتوقف كأنها تنتظر أن أبدى رأيا، فأظل صامتة..

«ما رأيك..؟».

«أنت حرة..».

«كنت سأقترح عليك أن نذهب سويا..».

أنظر إليها فى دهشة.. اقتراح لم يخطر على بالى.. أنا «تهانى راشد» أذهب إلى محكمة الجنايات لأرى خطيبى السابق يحاكم فى جريمة قتل؟! سيغمى على قبل أن أصل..

«أنت تسخرين منى بالطبع..».

«أسخر.. اطلاقا.. ألا تستهويك الفكرة..؟».

«لا يمكن.. أذهبى أنت أن أردت.. سأعود أنا إلى البيت..».

«ولماذا تتسرعين هكذا.. ؟ ما المانع.. ؟ أما مازلت تحبينه، ولا تتحملين رؤيته فى هذا الوضع.. ؟»

«ما الذى تقولينه.. ؟ أنا لا أحبه.. الماضى انتهى.. والآن أنا متزوجة ولى أطفال..»

«هذا لا يعنى شيئا.. أنا أعرف أى نوع من الزواج تعيشينه.. ولكن لنفترض أنك نسيته كما تقولين أليس هذا أدعى إلى عدم التردد فى الذهاب إلى المحكمة؟.. ألا تريدين أن ترى ذلك الشخص الذى عرفته عن قرب ؟ كيف أصبح الآن.. وما الذى جرى له حتى يرتكب جريمة.. ؟»

أجلس صامتة.. ما بدا مستحيلا فى الأول أفكر فيه الآن.. ترى هل تغير كثيرا.. أتصور وجهه البيضاوى النحيل وعينيه.. كان ينظر إلى بطريقة خاصة ليس كالآخرين.. نظرة فيها تساؤل، وحنان، وشىء كالسخرية الخفيفة.. ولكنها لم تكن تسبب لى أى ضيق.. فقد كان يسخر من أشياء فيه بنفس الطريقة.. تركته يواجه مصيره وحده، وهربت.. لم أكن أعلم ما تخبئه لى الأيام.. أن أدفن فى بلاد بعيدة وأنا مازلت حية.. ترى إذا رآنى يبتسم إلى ؟.. ولكن.. لا أستطيع أن أذهب.. كل هذه التصورات ليست سوى نوعا من الجنون.. كونى عاقلة يا «تهانى».. ماذا سيقول الناس إذا عرفوا أنك ذهبت إليه.. وماذا يقول أبوك..

«هه.. ما رأيك ؟ لماذا تصمتين ؟.. لن يعرف أحد سواى أنك ذهبت.. سنبقى دقائق معدودات ثم ننصرف أن أردت.. فرصة لن تتكرر.. سيفرح إذا رآك، أنا متأكدة.. لا تنسى أنه يعانى مهما كان الأمر.. فحتى أن كان قد قتل هذه المرأة فهو مازال «خليل» الذى عرفناه جيدا.. شىء فظيع لا أتصور كيف أقدم عليه.. أحتار عندما أفكر فيه.. ربما تغير.. ولكن هل يتغير الانسان إلى هذا الحد.. عيبى أننى لا أقرأ الروايات العميقة.. أحب التسلية.. وربما هذا هو ما يدفعنى إلى حضور المحاكمة..»

أنظر إليها فى استنكار.. كيف تقول هذا الكلام.. ولكن لو رآنى أحد ممن يعرفونى ماذا سأقول.. ؟

«إلى متى ستبقين هكذا مترددة.. أنت دائما تخافين.. خفت من مغبة البقاء إلى جواره عندما سجن.. وخفت من أهلك عندما زوجوك من بعلك العزيز الذى أغلق عليك الأبواب والزجاج والشيش بالضبة والمفاتيح.. والآن تخافين أن تشاهدى ما لن يتاح لك أبدا أن تريه.. هكذا تعيشين كالفأر فى المصيدة..»

قلبى يقول.. «خليل» لا يمكن أن يكون قاتلا.. مستحيل.. هناك خطأ ما فظيع قد حدث.. تخليت عنه فى أحلك الظروف.. فلأذهب إليه أذن، وأعوض ولو جزئيا الخطأ الذى ارتكبته فى الماضى.. أنطق الكلمات الآن بصوت مبحوح :

«سأذهب معك، ولكن على شرط ألا نبقى هناك مدة طويلة، وألا نتحدث مع أحد»

«موافقة.. سأرتدى ملابسى بسرعة.. كم الساعة معك الآن ؟..» «الحادية عشرة..»

«سوسن» تقود سيارتها عبر الشوارع بثبات.. تلف، وتدور، وتقتحم كالسائق المخضرم تعود اختراق الفوضى المنطلقة فى شوارع المدينة.. أسند رأسى على يدى وأسرح.. كنت اذ ذاك فى سن الخامسة والعشرين.. أما هو فكان يكبرنى بما يزيد عن عشر سنوات.. وهذا الفارق فى السن جعلنى أطمئن إليه.. كان رقيق المعشر، ناضج التصرفات.. لم تكن أسرتى تعلم شيئا عن نشاطه السياسى.. ولذلك عندما قبض عليه فوجئوا.. أما أنا فقد صارحنى بما فعل دون أن يدخل فى التفاصيل.. «اذا كنا سنرتبط فمن حقك أن تعرفى عنى كل شىء».. أضاف هذا الشعور بالمخاطر الغامضة رونقا خاصا إلى ما نشأ بيننا.. وبعد قليل، بدأت تحت تأثيره أشاركه بعض الميول.. كان انسانا فأحببته.. وكان زواجى منه يعنى انتشالى من حياتى المحدودة.. لم يكن على بالى فى هذا الوقت ما يمكن أن ينتهى إليه نشاطه

السياسى.. ترى هل تغير شكله كثيرا منذ تلك الأيام البعيدة.. ؟ عشرة سنوات ليست بالمدة القصيرة.. كنت أنا فتاة بيضاء تبدو أصغر من سنها.. الآن تخلل شعرى الأسود خيوط فضية، أخذت تتزايد بسرعة، وفقد جسمى الليونة النادرة التى جعلت زميلاتى يطلقون على «الفتاة المطاطية».. عندما نسبح سويا فى البحر أحس بيديه تلمسنى، فانكمش بحركة غريزية ولكن بالتدريج أصبحت أطمئن إليه.. كان إحساسه بى يجعلنى أستجيب إليه.. يعرف متى يبتعد عنى، ومتى يقترب منى.. ويدرك أن الفراشة قد يقتلها عنف الأصابع .

«سوسن» تلقى ناحيتى بنظرات متسائلة كأنها تقرأ ما يدور فى ذهنى.. أشعر بالدماء تصعد فى وجنتى.. ما الذى جرى حتى أتورط فى الذهاب إلى المحكمة، واستغرق فى ذكريات عن أيام قضيتها مع رجل يتهمونه الآن بالقتل.. أشعر فجأة بالهلع.. أضع يدى على مقبض الباب.. سأطلب منها أن تتوقف.. سأهبط من السيارة، وأعود من حيث جئت قبل أن ينكشف أمرى.. ماذا أقول لزوجى لو عرف ؟ جلست صامتة أصارع المخاوف إلى أن هدأت، فالتقط ذهنى الخيط الذى كان قد أفلت..

بعد أن قبض عليه، بدأت الأسرة تحاصرنى، وزاد بالتدريج، ضغطها على.. فى الفترة الأولى اكتفوا بالكلمات العارضة تلقى وسط الحديث.. «لا مانع من انتظار المحاكمة.. ربما حصل على البراءة، أو خرج بعد مدة قصيرة.. عندما تمر هذه التجربة سيثوب إلى رشده.. أنهم لا يريدون أن يكونوا قساة، ولكن ما ذنبى أنا حتى أضحى من أجله ؟.. مازلت شابة تمتد أمامى الحياة.. والشباب لا يدوم إلى الأبد..»

فى البداية لم أتأثر كثيرا بما قيل.. كنت أعيش حبى الأول و «خليل» فارس أحلامى السجين.. عيناه الصافيتان أراهما من خلف الأسلاك أثناء الزيارة.. وفمه الضاحك الذى طالما قبلته يبتسم إلى.. أعطى لى من نفسه أشياءً كثيرة، وقاد

خطواتى المترددة فوق عقبات الحب.. تجربتى الأولى معه كانت غريبة.. تضطرم فى أعماقى الرغبات المكبوتة، والخوف.. جسمى يبحث عنه، ويتهرب منه.. ولكن عندما نام إلى جوارى، أدركت أننى مررت من هذه التجربة بسلام.. ولذلك ظللت أحمل له شعوراً عميقا بالامتنان..

مرت الأيام وأنا أحيا على أمل عودته إلى.. كنت مشغولة فى هذه الفترة بالاعداد لبرامج رمضان.. وهو فى السجن ينتظرنى كل أسبوعين فى ميعاد الزيارة.. لم أستطع أن أتغيب عن العمل لحضور المحاكمة، ولكنى كنت أستقى الأخبار من بعض أفراد الأسر التى لها أقرباء من الشبان، أو الشابات متهمين فى نفس القضية.. كانوا يوعدوننى خيرا، ويرسمون لى صورة وردية، ويحكون عن مواقف المتهمين.. كيف ينشدون الأغانى الثورية، ويوضحون مواقفهم السياسية.. كنت أحيا على هذه الأخبار، وأحس بقلبى يخفق عندما يتحدثون عن «خليل» وكيف يناقش القضاة فى هدوء، ويفند أقوال الشهود.. إلى أن جاء اليوم المحدد للنطق بالحكم..

ذهبنا إلى المحكمة فى الصباح فوجدنا والد «خليل» يتحدث معه خلال القضبان الحديدية.. ظللت واقفة أمام القفص فى صمت، نتبادل النظرات، ويبتسم إلى.. قدمت له بعض الحلويات، وتلامست أيدينا فانتفض عرق دفين فى جسمى كأنه مسنى بشحنة كهربية.. زجرنا أحد الضباط بغلظة، فتبخرت اللحظة السحرية.. دب الحاجب على الأرض بعصاة طويلة وصاح «محكمة».. وقفنا جميعا فى سكون كأننا فى حضرة قوة الاهية.. أحسست بالرهبة والخوف يسيطران على . دخل القضاة يرتدون أثوابا سوداء، ونظارات طبية، وجلسوا على المنصة العالية.. وجوه عادية لم تلفت نظرى سوى واحد منهم أخذ يتفرس فى.. كلما رفعت إليه عينى تشاغل بشىء آخر كأنه لم يكن ملتفتا إلى.. على طرفى المنصة جلس اثنان من الضباط حول قبعتيهما أشرطة حمراء.. كان رئيس المحكمة

يقرأ من ورقة.. لم أتبين ما كان يقوله، ولكن فجأة علا فى القاعة ضجيج، وصوت هتاف.. بحثت عن «خليل» فوجدته واقفا يلوح بيديه.. وبعد قليل توقف الهتاف، فهدأ الضجيج.. لمحتهم يضعون القيود الحديدية حول يديه.. ابتسم إلى، وتلاقت عيوننا لآخر مرة قبل أن يختفى وسط جمع من رجال الشرطة..

«سوسن» ترمقنى متسائلة، وتقول :

«أين وصلت فى رحلتك الطويلة يا صديقتى..»

أطل من نافذة السيارة.. تدور حول ميدان «باب الخلق»، نبحث عن مكان خال.. ذهنى يعود إلى ذلك اليوم، فكيف أنساه.. أبى ما زال يجلس على الدكة الخشبية يحملق أمامه فى سكون كأنه عاجز عن الحركة.. لم أعرف منه شيئا الا بعد أن خرجنا من القاعة، وركبنا سيارة أجرة، وجدناها على مقربة من باب المحكمة.. عندما سألته عن الحكم تنهد وقال.. «يا بنتى.. الله معه.. خمسة سنوات أشغال شاقة !!» أخذت أبكى فى صمت.. ربما تكون هذه هى المرة الأولى التى أبكى فيها بهذه الطريقة.. كأن صنبورا فتح داخلى ليفرغ كل ما أختزنته من قلق وحزن خلال الشهور الماضية.. وصلنا البيت، وأنا مازلت أبكى.. على نفسى،، وعلى الحب الذى ضاع منى..

توقفت السيارة فانتفضت كأننى أفيق.. أرى أمامى درجات السلم الرخامية، والمدخل العالى، فأبقى مسمرة فى مكانى.. أسمع صوت «سوسن» الرفيع .

«مالك ؟ وصلنا.. ماذا تنتظرين ؟»

أخطو خارج السيارة كالحالمة.. وأصعد السلم بخطا بطيئة..

دخلنا من باب المحكمة، فوجدنا القاعة مكتظة بالناس.. جلست على مقعد فى آخر الصفوف.. عاد ذهنى إلى تلك اللحظة المفعمة بالألم عندما وقفت أمام القفص أتأمله فى صمت.. تدور السنين بأحداثها.. أنا هناك فى «الكويت».. وهو

هنا فى مصر، ثم نلتقى مرة أخرى فى المحكمة.. أنا فى القاعة، وهو فى القفص، كأن القدر يحاصره كلما حاول الافلات.. أنظر فوق الرؤوس إلى المنبر الخالى.. ثلاثة مقاعد ظهرها عالى، كالعرش تشرف على أمثالى من الناس، وتحدد مصيرهم.. حركة فى المحكمة تنبىء بأن شيئا سيحدث.. تلفتت.. رأيته يدخل بين أثنين من العسكر، ومن خلفهم الضابط.. نعم، تغير.. نحل كثيرا وزحف على شعره الشيب من كل جانب.. تعدى سن الشباب وأصبح كهلا.. ولكن ما زالت ملامحه فيها وسامة.. أشار الضابط إليه بالجلوس، فظل واقفا، يطل على الحاضرين فى القاعة كأنه يبحث عن أحد بينهم.. نظراته تدور على الناس فى هدوء.. تقترب منى فانكمش كأنى أحاول الاختفاء.. تمر فوق وجهى،، تتوقف لحظة ثم تبتعد.. تصل آخر الصف ثم تعود ادراجها فى بطء.. أكتم أنفاسى كاللص يهيأ إليه أن أقل حركة قد تكشف عن وجوده.. أتكور كالحيوان الصغير.. أرفع رأسى من بين الصفوف، وفجأة تلتقى نظراتنا.. العينان فيهما نفس الصفاء والرقة الانسانية.. أحس بالأشياء تتوقف عن الحركة.. بالصمت.. بملامحه وقد تجمدت.. كالحلم، أرى فيه وجهه يبرز وحده، كأن العالم من حوله تلاشى.. مازال ينظر إلى.. فمه كالفراشة يرتعش.. يفتح ويغلق شفتيه فى اندهاش كأنه غير مصدق.. يطل من عينيه بريق الادراك.. يبتسم.. نفس الابتسامة القديمة.. لم تتغير.. يرفع يده فى الهواء ويلوح.. يده تقول رأيتك.. لم أعد فى حاجة إلى الكلمات.. لم أعد فى حاجة إلى الشرح.. يمكنك الآن أن تذهبى.. لم يعد بيننا سوى الذكريات، ولحظة وفاء نعيشها الآن..

وضعت يدى على شفتى، ولوحت بها ناحيته.. هز رأسه بامتنان.. أحسست بالدموع تسقط من عينى.. دسست نفسى بين الناس، وهربت.. عدت إلى البيت فوجدت أبى جالسا فى الصالة وحده كمن ينتظر شخصا عزيزا عليه فى قلق.. سألنى :

«أين كنت ؟»

جلست إلى جواره وصمتت.. فألقى إلى بنظرة فاحصة وكأنه يقرر حقيقة لا تقبل الرد.. قال :

«فى المحكمة ؟»

«نعم.. رأيته هذا الصباح..»

«لابد أنك مرهقة.. وأنا عندى بعض الأوراق الخاصة بالأرض أريد أن أراجعها.. قومى إلى فراشك الآن لترتاحى.. الله معه..»

«هذا ما قلته إلى المرة السابقة عندما صدر عليه الحكم.. الله معه..»

«ماذا تعنين يا بنتى.. ؟»

«لا أعرف بالضبط.. ولكنى أتساءل.. الله الذى تؤمن به مع من يقف ؟»

«يا «تهانى».. لا تكفرى برحمة الله، ولا بحكمته.. أنت متعبة الآن.. نامى نوما هنيئا.. واتركى هذا الحديث لوقت آخر..»

لم يقدر لنا أن نستكمل الحديث الذى بدأناه فى ذلك الوقت.. ففى الصباح الباكر دخل على أبى شاحب الوجه فهتفت..

«مالك.. ؟»

مد الىّ يدا ترتعش.. لمحت بين أصابعه ورقة مكتوبة بخط اليد.. فتحتها وقرأت.. «مطلوب من السيدة «تهانى راشد».. أن تتوجه فى الساعة العاشرة صباح اليوم إلى «ادارة السلام الاجتماعى» بمبنى المحافظة لمقابلة العقيد «رمضان عبدالبارى»

خفق قلبى تحت الضلوع لحظة ثم استكان.. زحف على شعور من الرضى، كأن

ما كنت أبحث عنه منذ زمن وقع.. قلت :

«ولماذا يا أبى تبدو مضطرباً إلى هذا الحد.. ؟»

ينظر الى بتوسل.. ألمح فى عينيه خوفا يختبىء فى الأعماق..

«ماذا فعلت بالأمس فى المحكمة ؟»

«لا شىء على الاطلاق.. وصلت قبل أن تنعقد الجلسة، ورأيت «خليل» عندما أدخلوه فى القفص»

«ثم.. ؟»

«انصرفت بعد مدة وجيزة..»

«ألم تتحدثى اليه ؟»

«لا..»

«ولا اقتربت من القفص ؟»

«لا..»

«انصرفت هكذا دون أن تتصلى به.. ؟»

بماذا أرد.. يستحسن أن أقول له ما حدث بالضبط.. ربما ليس لهذه الورقة علاقة بزيارتى للمحكمة.. على أى حال.. كل شىء سيتضح عندما أذهب إلى المحافظة..

«كل ما حدث أنه لوح إلى بيده، فلوحت اليه وخرجت..»

وضع وجهه بين كفيه كأنه يبعد عن نفسه صورا مزعجة تراءت اليه..

«يا بنتى، ألا تعرفين أن رجال السلام الاجتماعى منتشرون فى المحكمة

وحولها كالذباب وأنهم يسجلون كل حركة، وكل همسة، بل كل مشروع للهمس..؟»

«ولماذا ؟ يقولون أنه قتل امرأة كانت عشيقته.. أهذه أول مرة تحدث فيها جريمة قتل ؟»

«قتل امرأة ؟ ! إنها ليست امرأة عادية.. أنها أمريكية.. وهو رجل له ماض.. أنت لم تتبعى التفاصيل.. لقد جعلوا منها قضية سياسية من الدرجة الأولى.. الصحف تنشر عنها يوميا منذ أسابيع»

«مالى أنا وكل هذا.. ؟»

«لابد أن أحدا منهم رآك وأنت تلوحين اليه فقرروا أن يتبينوا ما يوجد بينك وبينه من صلة.. يا بنتى.. أنت لا تعرفين الجو الذى نحيا فيه.. يستطيعون أن يضعوك فى السجن عدة شهور بمنتهى السهولة وفقا للقانون..»

«ولكنى لم أفعل شيئا»

«سيبحثون فى الماضى، وربما اكتشفوا أنك كنت على وشك الزواج منه».. يدفن وجهه بين كفيه من جديد، ويئن.. أربت على كتفه وأقول .

«لا داعى للمبالغة يا أبى.. سترى أن كل هذه التصورات محض خيال.. وأنهم يريدونني فى موضوع آخر تماما..»

يهدأ قليلا

«ربنا يستر، ويستجيب لدعائى.. يارب.. أنت العليم، الرحيم..»

«نظرت إلى المنبه الموضوع إلى جوار السرير..

«الساعة التاسعة الآن.. لابد أن أقوم، وأرتدى ملابسى حتى أصل فى الميعاد..»

«سأذهب معك..»

«لا.. لا داعى..»

«لا.. سأذهب معك.. لا يمكن أن أتركك تذهبين وحدك..»

«اذا كان هذا يريحك يا أبى، فلا مانع لدى.. أراك مستعدا للخروج.. انتظرنى فى الصالة، ولا تقل شيئا لأمى.. سنتناول الأفطار سويا، ثم نتوجه إلى المحافظة..»

قبلته مرتين، وحضنته، ثم أسرعت إلى الحمام..

كانت الساعة العاشرة الا خمس دقائق عندما أدخلنا أحد الفراشين فى مكتب سكرتير العقيد «رمضان عبدالبارى».. رجل بدين يمسك فى يده بسماعة التليفون. رمقنا بنظرة سريعة من تحت جفونه الثقيلة، ثم استمر فى حديثه.. وقفنا حائرين فى وسط الحجرة.. مرت الدقائق الطويلة ولكنه لم يبال بنا.. أخيرا سمعته يقول.. «وهو كذلك.. سنعيد اليكم تسجيل الجلسة الأخيرة مع مخصوص، ونتيجة التحريات باكر صباحا انشا الله.. لا.. لن ننسى.. فاهم يا فندم أهمية الموضوع.. أشكرك، يا سعادة البك.. سيادتك دائما أفضالك علينا.. الحمد لله.. لازم نكون عند حسن ظنك دائما.. وحضرتك عارف رمضان بك فى مثل هذه الأمور.. حاضر يافندم.. مع السلامة.. انشاء الله..»

أعاد سماعة التليفون إلى مكانها، وانشغل لحظة بترتيب بعض الأوراق ثم التفت الينا..

«نعم..»

تقدم أبى خطوة إلى الأمام وقال :

«صباح الخير يا بك.. أنا اسمى «إبراهيم محمد راشد» وهذه ابنتى «تهانى

راشد» مشيرا إلى..» جاءتنا ورقة هذا الصباح تطلب منها الحضور لمقابلة العقيد «رمضان عبدالبارى» فى الساعة العاشرة..»

أحسست أن جفونه الثقيلة ترقد على.. فحصنى بنظرة لا مبالية كأننى مجرد شىء تصادف وجوده فى الحجرة، ثم قال:

«تفضلا.. سأبلغ رمضان بك بحضوركما..»

جلسنا على «الكنبة» الجلدية.. وضع يديه على سطح المكتب ورفع جسمه المحشور فى المقعد.. اختفى فى الداخل.. عاد بعد لحظات.. جلس خلف المكتب، وقال:

«انتظرا قليلا..»

درت بعينى حول الحجرة.. مبنى قديم جدرانه سميكة، وسقفه عال.. مطلى حديثا وبياضه يبرق فى ضوء النهار.. من النافذة العريضة أرى السماء الصافية، وأشجارا، وحديقة وضعت فيها موائد، ومقاعد ملونة من القش.. الجو فى الخارج جميل.. كم كنت أود أن أجلس فى ظل احدى الأشجار، وأسرح فيما حدث بالأمس.. هذا الاستدعاء المفاجىء ترى ما سببه ؟ أبى يجلس إلى جوارى فى سكون، ولكنى أستشف توتره من النظرات القلقة يلقيها خلسة نحو الرجل القابع فى مقعده خلف المكتب، يدخن، ويفتح الادراج، ويغلقها، ويخط بعض الكلمات على الورق.. ولكن أغلب الوقت يظل محملقا أمامه.. أتفادى النظر اليه.. هذا الثقل البارد ينقل إلى تيارا من الخوف.. العينان البارزتان، والجفون.. كأنه ضفدع قابع فى الركن ينتظر..

أسمع ساعة حائط تدق فى حجرة مجاورة.. أعد الدقات.. الحادية عشرة.. مرت ساعة.. أبدل وضع ساقى فأحس بنظرات الرجل تزحف عليهما ببطء.. ترى ماذا يفعل «خليل» ؟ ما معنى هذا الانتظار ؟ قلقى يزداد.. لولا أن المسألة مهمة

لما أحيطت بكل هذا الكتمان.. أبى يتنحنح، ينظر ناحية الرجل بنوع من الرجاء.. يستجمع شجاعته ويقول :

«هل السيد العقيد مازال مشغولا ؟.. ربما نسى أننا هنا..»

يحملق الرجل فيه باستنكار ملول.. كأنه أتى عملا غير مشروع.. قال :

««رمضان بك» لا ينسى شيئا.. عندما يفرغ مما هو فيه سيبعث فى طلبكما..»

عاد أبى إلى السكون.. أرى تقاطيعه المشدودة . والأصابع تنتقل هنا وهناك.. أضع يدى على ذراعه، وأهمس..

«لا تقلق.. عما قريب سندخل..»

يلقى إلى بابتسامة واهنة، ويخرج علبة السجائر من جيبه، ثم يتنبه..

«أتسمح لى بالتدخين.. ؟»

«تفضل..»

مرت ساعتان الا ربع.. بدأت أحس بالارهاق من أعصابى المشدودة.. تحاصرنى الذكريات الكئيبة.. لم أفعل بحياتى شيئا.. سأظل هكذا إلى آخر أيامى مركونة على الرف.. «خليل منصور خليل» فى قفص الاتهام، ولكنه عاش.. لولا الطفلين اللذين انجبتهما لمتت.. أنهما سعادتى، وقيدى فى نفس الوقت.. ولولاهما لتصرفت بقدر أكثر من الجرأة.. ولكنى أقول دائما.. ما ذنبهما ؟ ربما أكون مخطئة.. فمن قال أن الأطفال فى أسرة تتعارك مثلنا سعداء أو حتى أسوياء.. ولكن ماذا أفعل الآن اذا ما انفصلت عن زوجى.. ؟ عمرى ستة وثلاثون سنة.. ومنذ عشرة سنوات تفرغت للطبخ، والغسل، وترتيب البيت.. عندما أعود هذه المرة لن أقبل منه أية اهانة أو ضغط.. هكذا أقول فى كل مرة، ثم أعود كما

كنت.. صراع دائم فى داخلى لا يستقر على وضع، حتى كرهت الحياة.. بالأمس كنت سعيدة.. شيء غريب.. كأننى عدت «تهانى» القديمة.. ولكن اليوم.. كلما أردت أن أرفع رأسى أصبت بضربة.. أجلس هنا فى هذه الحجرة مجرد كائن بلا قيمة.. مجرد شيء.. أسمع سماعة التليفون ترفع.. «تك».. و حديث لم أنتبه إليه.. رفع السكرتير نفسه من المقعد بثقل وقال :

«تفضلى معى..»

وقف أبى على قدميه.. رأيت عينى الضفدع ترنوان اليه..

«أسترح. لم يطلبك أحد..»

فرغ فاهه كأنه يستعد للرد، ثم أستدرك، وسكت.. ضغطت على ذراعه مشجعة، وابتسمت..

«أنتظر يا أبى، أو إن شئت، عد إلى البيت..»

هز رأسه معترضا وقال :

«لا.. سأبقى هنا إلى أن تعودى..»

قادنى الرجل من باب جانبى ثم سرنا فى ممر طويل تصطف على جانبيه الحجر.. لم نقابل أحدا فى الطريق.. أقدامنا على البساط الداكن لا تكاد تقطع الصمت.. توقف عند أحد الأبواب وفتحه، ثم أشار إلى بالدخول فدخلت.. لم أنتبه إلى ما يحدث الا وسمعت الباب يغلق خلفى، فاستدرت.. اصطدمت عيناى بالخشب الأصم اختفى الرجل وراءه.. تلفتت حول الجدران العالية الخالية من الفتحات.. الاضاءة قوية تأتى من السقف، وتلمع فوق الطلاء، وفى وسط الحجرة مقعد من الخشب.. احسست بالرعب ينقض على، وبالصرخات ترتفع فى حلقى.. كدت أنهال على الباب المغلق بقبضتى حتى استغيث، ولكن شيئا كالشلل استولى

على بالتدريج.. أحسست به يغزو جسمى جزءا بعد جزء.. وبعد قليل أصبح عقلى أيضا عاجزا عن التفكير.. وجدت نفسى جالسة على المقعد فى حالة تشبه الغيبوبة.. حتى الذكريات هربت منى.. حتى الاحساس بصدرى يتنفس، أو قلبى يدق.. كأنى معلقة فى الهواء ما بين الحياة، والموت.. رعب أفقدنى كل القدرات، فاستسلمت له.. الحيوية المختزنة فى أعماقى تتسرب من أطراف الأصابع، وفتحات الجسم، وكل المسام.. أحاول أن أوقف هذا النزيف المرعب دون جدوى.. أجلس على المقعد، ويمر الوقت سريعا، أو بطيئا لا أدرى.. وفجأة فتح الباب، وسمعت خطوات هامسة تدور حولى كأن من دخل يرتدى حذاءً من المطاط..

رفعت عينى من الأرض البلاط.. أحسست بها باردة تحت قدمى.. وفى تلك اللحظة أفقت.. رجل طويل القامة يقف أمامى.. الشعر أكرت كثيف يحيط بالوجه فى دائرة.. والعينان صغيرتان كالنصال المدببة.. جاءتنى رائحة العطر مختلطة بالتبغ..

قال :

«يا سيدتى ماذا تفعلين هنا.. ؟»

نظرت اليه فى بلادة.. أبذل جهدا حتى أتكلم.. ألهث كالحيوان المطارد يلتقط أنفاسه..

«جاءوا بى إلى هنا..»

«من.. ؟»

أستجمع أفكارى حتى أتذكر..

«السكرتير..»

«سكرتير من ؟»

يتكلم فى هدوء، وعطف، كأنه يشفق على..

«سكرتير العقيد «رمضان عبدالبارى..»»

«ولكن أنا العقيد «رمضان عبدالبارى..، وحضرتك.. ؟»

««تهانى راشد»..»

««تهانى راشد».. أنت هنا منذ الساعة العاشرة، أليس كذلك ؟»

«نعم»

يتمتم لنفسه كأنه غاضب من أحد، ويضرب كفا على كف..

«أنا آسف جدا يا سيدتى.. حدث خطأ فظيع.. أنا طلبت من سكرتيرى بالفعل أن يرسل احدى السيدات إلى هذه الحجرة.. اسمها أيضا «تهانى».. وهكذا حدث الخطأ..»

وضع يده برفق حول ذراعى، ورفعنى من المقعد.. قادنى من الباب المفتوح وسرنا من حيث جئنا عبر الممر.. لم أفق لنفسى الا وأنا أجلس فى مقعد وثير أمام مكتبه.. أراه يبتسم إلى مشجعا بأسنان صغيرة مدببة بيضاء.. أشعر بالاطمئنان يعود إلى، وفى نفس الوقت بالقلق.. هذه الأسنان الصغيرة كالمنشار..

«أين أبى ؟»

«أنه مازال فى الخارج.. لا تقلقى عليه..»

«لماذا لا ندعوه هنا ليجلس معنا..»

«ليس الآن.. أريد أن أسألك بعض الأسئلة البسيطة.. ولا داعى لوجوده.. ولكن حتى تطمئنى أخرجى اليه دقيقة واحدة، ثم عودى.. دقيقة واحدة فقط.. فقد تأخرنا كثيرا نتيجة الخطأ الذي حدث.. تفضلى يا سيدتى.. تفضلى..».

فتح أحد الأبواب، وأشار إلى بيده.. خرجت.. حجرة السكرتير..وأبى جالس على الكنبة يحملق فى الفراغ.. وجهه شاحب كأنه يكاد أن يغمى عليه.. عندما رآنى هتف..

««تهانى» الحمد لله يا بنتى.. لماذا هذا الغياب الطويل.. ؟ أكثر من ثلاث ساعات..»

«سأشرح لك فيما بعد.. لا تقلق.. حدث خطأ.. سيسألنى العقيد بعض الأسئلة، ثم ننصرف..»

أمسك بيدى كأنه لا يريد أن يتركنى.. فسحبتها برفق.. عندما عدت إلى الحجرة الداخلية رأيت العقيد منكبا على ورقة يقرأها فى اهتمام.. ابتسم، وأشار إلى بالجلوس.. ثم سأل..

«لابد أنك متعبة بعد هذا الانتظار الطويل.. أننى أعتذر مرة أخرى.. لن أدع الأمر يمر بسهولة.. ماذا تشربين ؟»

«شاى لو سمحت».

«باللبن أم بدون لبن.. ؟»

«شاى باللبن ان أمكن..»

«طبعا ممكن».. يتحدث فى علبة خشبية صغيرة.. «شاى باللبن، وقهوة مضبوط..» يلتفت إلى ثانيا.. الوجه حليق، والملامح فيها دقة أنثوية ونعومة.. رجل وسيم لولا العينين والأسنان.. يبحث فى الدرج، ويخرج علبة سجائر..

«أتدخنين.. ؟»

«لا شكرا..»

«اذن قطعة من الشيكولاتة.. بعد هذا الانتظار الطويل لابد أن نغذيك، ولو

قليلا..» يضحك.. يفتح علبة كبيرة فيها قطع الشيكولاتة، ملفوفة فى ورق ملون.. تناولت واحدة منها.. تذوب فى فمى بسهولة فأحس بالحيوية تعود إلى بالتدريج.. يميل فوق المكتب، ويثبت عينيه فى عينى.. «الآن نستطيع أن نتحدث سويا.. المسألة بسيطة، ولا داعى للانزعاج.. نحن نؤدى واجبنا.. ومن أولى واجباتنا المحافظة على أمثالك من المواطنات» يضيف.. «أو المواطنين.. بالأمس كنت فى محكمة الجنايات فى «باب الخلق» أليس كذلك.. ؟»

خفق قلبى.. اذن المسألة تتعلق فعلا «بخليل..»

«نعم»

«وما الذى جعلك تذهبين.. ؟»

هل أقول الحقيقة.. يستحسن.. لن أستطيع أن أخفيها.. أو جزء من الحقيقة على الأقل.. فى أعماقى أشياء لا يمكن أن أتحدث عنها..

«كنت أريد أن أرى المحاكمة..»

«لماذا.. ؟»

«قضية ملأت الجرائد.. ثم أنا أعرف المتهم منذ سنين طويلة.. ربما الفضول هو الذى دفعنى للذهاب..»

يبتسم.. كلما رأيت أسنانه أصابتنى قشعريرة.. دخل رجل يرتدى سترة زرقاء قاتمة، ويحمل صينية، وضعها أمامى.. براد من الشاى، ولبن وسكر، وبعض البسكوت.. لف حول المكتب ووضع فنجانا من القهوة على يمينه، ثم انسحب.

«الفضول.. ربما.. ولكن أليس الدافع شيئا أكثر من الفضول.. ؟»

أحسست بالارتباك.. سمعته يضيف.. «لا تقلقى يا سيدة «تهانى».. نحن لا يهمنا سوى مصلحتك فى هذا الموضوع، وأن كنا مكلفين باستقصاء كل الحقائق

عن «خليل منصور خليل».. وهذا يفسر لك لماذا قمنا باستدعائك اليوم..»

«ولكن ليست لى أدنى صلة بهذه القضية..»

«أنا شخصيا متأكد من هذا.. خصوصا بعد أن رأيتك.. ولكن رؤسائى هم الذين يأمرون.. أنت تعرفين المتهم منذ سنين كما قلت.. فما طبيعة هذه المعرفة..؟»

ترددت.. الآن دخل فى صميم الموضوع.. هل أنكر ما فات.. أخشى من الفضيحة.. الصحف لا تكف عن التشهير به.. واذا ذكروا اسمى ماذا سأفعل ؟.. كيف أخفى الموضوع ؟ ولماذا أخفيه.. ؟ كانت بيننا علاقة حب.. ولكن هل يعترف مجتمعنا بالحب.. ؟ لا مفر من أن أقول الأشياء كما هى.. اذا كذبت ستتعقد الأمور.. ولكنى لن أتكلم عن الحب..

«فى وقت من الأوقات كنا مخطوبين..»

«متى.. ؟»

«منذ ما يزيد عن عشر سنين..»

«مخطوبان رسميا.. ؟»

ترددت.. ماذا أقول ؟

«كان الموضوع معروفا، ومتفقا عليه بين الأسرتين، رغم أننا لم نكن قد أعلنا الخطبة رسميا..»

«اذن ليس هناك دليل سوى أقوالك.. ؟»

نظرت اليه باندهاش.. ماذا يقصد بالضبط..؟

«أراك تندهشين من سؤالى.. ولكنه سؤال يهدف إلى مصلحتك.. فماذا يكون

الوضع اذا عرفت الصحافة مثلا أنك كنت على علاقة به، وأنها لم تكن رسمية..؟»

قلت بحدة..

«كانت تعتبر رسمية مثل أى خطوبة فى مراحلها الأولى..»

«ولكن رسميا لم تكن رسمية..»

ضحك ضحكته الناعمة، الطرية.. ثم استطرد..

«نحن حريصون ألا تصل هذه الحقائق إلى أحد.. فلا تنزعجى.. ولا تظنى أن كل ما تقولينه لى ليس معروفا لدينا.. أمامى هنا ملف فيه كل التفاصيل.. تقارير ادارة السلام الاجتماعى القديمة عنك، وعن «خليل منصور خليل».. كل شىء عنه معروف للناس فقد حكم عليه كما تعلمين.. ولكن فيما يتعلق بك فالمسائل فى طى الكتمان، مدفونة هنا فى الملف.. ولا يمكن أن تخرج أبدا الا بأمر منى.. ولكن قولى لى.. لماذا لوحت اليه، وبطريقة خاصة، وهو فى القفص ؟»

أحسست بقواى تهرب منى.. كالنزيف من كل المسام، يتركنى بلا روح.. صمتت لحظة حتى أسترد جزءا منها.. يفحصنى فى فضول ثم تتوقف عيناه عن الحركة، وتستقران فى عينى..

«لأنه لوح إلى..»

مال إلى الوراء، وأمسك فى يده بفتاحة الورق.. أخذ يدرس تفاصيلها..

«بعد كل هذه السنين تهتمين بالذهاب اليه، وترسلين له بقبلة فى الهواء.. ما هذا الوفاء الجميل.. والحب الأصيل» يضغط على كلمة «الحب».. «تصلح كقصة للسينما، أو للنشر فى الصحف، والمجلات.. «حبيبة «خليل منصور خليل» تعود اليه».. أنا أقدر مثل هذه الأشياء.. فالعواطف لا يفهمها الا رجل مثلى عرف

الحياة.. ولكن رؤسائى للأسف أغبياء، محدودى الفهم.. ثم السن يلعب دوره أيضا.. ما زلت شابا كما ترين.. أما هم فعواجيز قاربوا سن المعاش.. فمن منهم سيصدق أنك تتكبدين هذه المتاعب لمجرد الذكرى، والحب ؟»

يضحك ضحكته الناعمة المسترسلة من جديد.. أشعر بالحيرة.. هذا الرجل أهو جاد فيما يقول، أم يتسلى، ويقضى وقته فى الحديث مع امرأة مازالت فيها بقايا جاذبية ؟.. فهؤلاء الرجال لا يشبعون أبدا.. ظمأ لا يرتوى.. يرمقنى بثبات ثم يرفع عينيه للسقف كأنه يفكر فى أمر ما..

تخرج الكلمات من حلقى واهنة مبحوحة فأكاد لا أتعرف على صوتى..

«لا أفهم ما ترمى اليه»

يفتح الملف الموضوع أمامه ويقلب فى الأوراق باهتمام كأنه لم يسمع ما قلته.. يمسك بين أصابعه بمظروف أبيض، ويدفع به الى.. أنظر اليه متسائلة فيقول :

«افتحيه..»

أصابعى ترتعش.. استخرج ما فيه بصعوبة.. ستة صور كبيرة.. ثلاث بالأبيض والأسود.. وثلاث بالألوان.. صورتان «لخليل» يقف فى القفص، ويلوح بيده.. وعند آخر صف فى قاعة المحكمة أظهر أنا وسط الصفوف.. وأربع صور أخرى.. اثنتان وأنا أضع أصابعى على فمى.. والصورتان الباقيتان أظهر فيهما وأنا ألقى بقبلة فى الهواء، بينما يقف «خليل» فى القفص ناظرا الى فى ابتسام..

أحسست بنفسى أسقط فى المقعد الى أسفل، وبرأسى يميل الى الوراء.. وجهه يتراءى الى وسط الغيوم.. الملامح جامدة، والأسنان تبتسم كسمك القرش.. أعود الى ما حولى بالتدريج.. لا يمد الى يد المساعدة، ولا يريحنى بكلمة.. يجلس صامتا كالصياد يحكم قبضته حول الفريسة.

«صور معبرة، أليس كذلك.. ؟ لا شك أنها اذا نشرت مع أى موضوع عن علاقتكما السابقة، والحالية ستثريه، وتزيد من اهتمام الناس به..»

أتطلع اليه ذاهلة.. أسمع صوتى يتردد بعيدا.. كأنه لا ينبع منى.. «ماذا تريد..» ؟

يصمت لحظة قبل أن يرد.. ثم يتنهد..

«مسألة بسيطة للغاية.. أريد أن تذهبى الى المدعى الوطنى العام وتطلبى الادلاء ببعض الأقوال»

أهمس..

«المدعى.. ؟ !»

«أنك عرفت من «خليل» حقيقة عن القضية يحاول أن يخفيها»

«وما هى؟»

أنه لم يرتكب هذه الجريمة بمحض ارادته.. ولكنه تلقى أوامر من تنظيم ينتمى اليه..»

دارت الحجرة حولى بسرعة، وأحاطت بى سحب داكنة..

«أنك لن تضريه فى شىء، بل ربما أنقذته.. ففى هذه الحالة يصبح أداة حركته أيد أخرى.. وعندئذ ربما يستطيع المحامى أن يجد له ظروفا مخففة.. وإنما فى وضعه الحالى..» يرفع كتفيه فى حركة يأس.. «لن يفلت من المشنقة مهما قيل للدفاع عنه..»

«واذا رفضت ؟»

ينظر الى فى أسف عميق..

«ستخرج المسألة عن يدى تماما.. رؤسائى طلبونى فى التليفون قبل أن تحضرى الى هنا.. يريدون الصور، وتسجيل أعددناه، والملف.. ولا أعرف ما ينوون عمله بالضبط.. ولكن يبدو أنهم لا يوافقون على عدم نشر التفاصيل التى تخص علاقتك مع «خليل»..»

دارت الدنيا دورة واحدة هائلة، وأحاطنى ضباب أسود كثيف..

أفقت على نفسى، وأنا فى البيت، أرقد على السرير.. دائرة من الوجوه تحيط بى.. أمى، وأخى الصغير، وعلى مقعد قرب الوسادة التى أسندت رأسى عليها، أبى.. عندما فتحت عينى مال على بلهفة وقال :

الحمد لله رب العالمين.. أنها تفيق..»

التفتت حولى.. حاولت أن أركز ذهنى حتى أتذكر ما حدث.. وبالتدريج عادت الى تفاصيل الساعات الأخيرة، فأخذت أبكى بدموع غزيرة تأبى أن تنقطع.. تسيل فوق وجنتى فى صمت.. لا صوت بكاء، ولا صوت نشيج، ولا حتى صوت خافت كالأنين.. كأنه انفتح داخلى صنبور عميق تتدفق منه ماء الحياة، وتستمر فى تدفقها حتى أجف.. أمى تنظر الى فى حيرة، وأخى الصغير يبدو عليه الضيق، كأنه أحس بالخجل أمام منظر أخته الكبيرة وهى تبكى هكذا.. أما أبى فأخذ يحملق بعيدا وعلى وجهه علامات من ينتظر فى صبر حتى أهدأ.. بعد قليل أشار بيده الى أمى ففهمت ما يريد.. أمسكت بذراع أخى، وقادته خارج الحجرة، ثم أغلقت الباب وراءها.. أخذ أبى ينظر الى بين الحين والحين.. أمسك بيدى بين يديه وربت عليهما ثم قال : » أهدأى يا «تهانى»، وأحك لى ما حدث حتى أستطيع أن أتبين الأمر، وأتصرف بما يرضيك..» صوته الهادىء ينفذ الى، وفجأة جف الصنبور، وتوقفت الدموع..

أخذت نفسا عميقا والتفتت اليه.. عيناه تتطلعان الى كمن ينتظر.. فبدأت

الكلمات تخرج من حلقى بصعوبة.. لسانى يتلعثم.. أبحث عما أريد أن أقوله، فاهتدى اليه بعد جهد.. يبتسم الى كأننى فتاة صغيرة، فأتذكر أيام الطفولة.. كان يتعامل معى برقة شديدة، ويقنعنى بهدوء.. فيدخل على قلبى احساسا بالأمان افتقدته منذ تركت البيت.. زحف على نفس الاحساس، وأخذت الكلمات تخرج من بين شفتى بسهولة..حكيت له كل ما حدث دون أن أغفل شيئا، منذ اللحظات التى زرت فيها صديقتى «سوسن» الى اللحظة التى أفقت فيها وأنا راقدة على السرير.. يستمع الى فى أنصات، ولا يقاطعنى الى أن انتهيت، فربت على رأسى، ووجهى بحنان.. أرى وجهه الحائر أمامى، ومن حين لآخر أشعر بعينيه تغيبان.. أخذت أبكى من جديد فقال : «لا تبك يا «تهانى» فالبكاء لن يفيدك فى شىء.. جففى دموعك حتى نتدبر الأمر سويا.. عندما حضرت الى مصر هذه المرة قلت لى أنك لا ترغبين فى العودة الى «الكويت»،.. كنت أنا مترددا فى هذه المسألة ولكنى أخذت قرارا بينى، وبين نفسى، وهو أن أترك لك مطلق الحرية فى أن تقررى بنفسك.. فقد أدركت الآن أن من الأفضل دائما أن يصنع كل انسان مستقبله بيديه.. تدخلت فى الماضى، ولكنى اكتشفت أننا نحن الآباء نعطى الأهمية الأولى للامكانيات المادية.. وربما نكون معذورين فى هذا.. فأين الأمان، وأين ضمانات الحياة.. الانسان يحيا على كف عفريت.. أنظرى ما يحدث هذه الأيام لأصحاب الدخول الثابتة وهم الأغلبية.. أنا رجل عجوز مؤمن ولكنى أتساءل فى بعض الأيام كيف يسمح الله بما نراه أمام أعيننا كل يوم.. فكل الموبقات تتم باسمه.. يتحدثون عن الاسلام.. صباح مساء.. ثم يفعلون عكس ما أمر به.. وينقضون على امرأة مثلك، ويضغطون عليها، ويحاولون جرها الى طريق مملوء بالغدر والخيانة».. يرفع ذراعيه الى السماء متضرعا، ويقول : «يارب.. أين أنت يارب.. ألن ترحمن بعد من هذه الامتحانات.. سبعة آلاف سنة من الامتحانات لشعبنا المسكين.. استغفر الله العلى العظيم من كل ذنب»..

يتنفس بعمق كأنه يحاول السيطرة على نفسه، ويعود بالتدريج الى هدوئه المعتاد.. «اسمعينى يا بنتى.. أسمعى نصيحة لك.. أخرجى من هذا البلد بأقصى سرعة.. أفلتى بجلدك.. أنك وقعت فى الفخ، ولن يتركوك.. عودى الى زوجك.. سجن أولا سجن أنه أفضل ألف مرة مما ينتظرك هنا الآن.. أنهم ذئاب، وأنت امرأة.. سيعتصرونك الى آخر قطرة، ثم يلقون بك على كوم من الفضلات.. تصريح العودة معك، والتذكرة.. أستعدى للسفر فى صمت.. أرجوك.. وبعد ذلك عندما تهدأ العاصفة سنرى.. أنا أتدخل مرة أخرى فى شئونك.. ومع ذلك أترك لك مطلق الحرية.. البيت هنا بيتك، ويمكنك أن تبقى معنا على الرحب والسعة.. فلا يوجد لدينا بعد أن كبرنا أعزمنك، ومن أخيك فى الحياة..»

أرى دمعة تسقط من عينه.. أمسك بيده.. ينظر الى فى رجاء.. أقرأ فى أعماق المقلتين شيئا كالرعب الأسود.. أرفع نفسى فى السرير، وأفكر، بينما يجلس الى جوارى كالمتهم ينتظر الحكم.. أرى شقتنا فى «الكويت».. تملأ خيالى بجدرانها النظيفة، وبابها السميك.. بغسالة الأطباق، وأدوات المطبخ والأوانى تلمع فى الضوء القوى.. أجلس أمام مائدة تنوء بحمل الطعام.. نأكل فى صمت، وعندما ننتهى أسمع الصوت المعتاد.. زوجى يتجشأ، ثم ينظر الى.. بعينين فيهما غباء.. وفيهما مكر.. أحس بيده تلمسنى فارتعش.. يزحف اليأس الى قلبى، العودة مرة أخرى.. مرة أخرى العودة هناك.. ولكنى فى الأعماق أعرف أنه أصبح قدرى.. حاولت أن أفلت من الخية، فوقعت فيما هو أفظع.. اذا لم أنقذ نفسى بسرعة سأواجه أشياء أكبر منى.. أشياء لا أستطيع احتمالها.. عينا الرجل تقول ذلك.. وأظافره، وأسنانه المنتظمة فى ابتسام.. نظرة القرش المفترس.. القسوة التى لا ترحم، والكراهية.. ملت على الوجه الطيب العجوز وقبلته..

«لا تقلق يا أبى.. سأفعل ما تراه، وأعود هناك..»

* * *

أقف أمام المرآة.. السطح اللامع عليه طبقة من التراب.. كم من المرات نبهت على الخادمة ألا تترك أقل أثر للتراب على هذه المرآة بالذات.. ؟ فتاة فيها بلاهة ومكر.. تعرف أننى أنظر الى فخذيها العاريتين عندما تنحنى لتنظيف الأرض.. بعد أن لمحت عينى تستقران عليهما لم تعد تخشانى كما كان الحال من قبل.. ولكن الأدهى، والأمر هى زوجتى.. عقدت قرانى عليها وهى كالقطة المغمضة.. بعد أن انتهت من الدراسة الاعدادية قرر أهلها أن تبقى فى البيت استعدادا للمرحلة القادمة وهى الزواج.. عندما رأيتها لأول مرة أعجبتنى.. أردافها قوية، وصوتها منخفض.. تتفادى النظر الى، وتحملق فى الأرض.. شعرها الناعم أسود كالليل، وبشرتها بيضاء.. عاشت معى السنين الطويلة لا ترفع صوتها.. عندما تتحدث الى تهمس.. فيها خجل، وخفر.. لم أرها عارية فى حياتى.. ولكن فى الشهور الأخيرة ظهرت عليها تصرفات لا يمكن أن أطلق عليها سوى وصف «التمرد» كأن قوة مالا أعرفها تدفعها ضدى فى الخفاء.. أصبحت تقرأ فى الجرائد، والمجلات، والأخطر من ذلك أننى ضبطتها منذ أسابيع ثلاث تقلب فى صفحات كتاب.. تظاهرت أننى لم ألاحظ شيئا، وعندما ذهبت الى حجرتها أمسكت به بين يدى ففوجئت بأنه يتناول مشاكل العلاقة بين المرأة والرجل.. أحسست بأن خطرا غامضا ينقض على.. بأن بيتنا الهادىء تتسلل اليه قوى

شيطانية.. ولعنت فى سرى كل الأشياء التى تحمل الينا العالم الخارجى.. جارتنا «حميدة الشطى» التى تعمل فى وزارة الشئون الاجتماعية.. رأيتها عدة مرات وهى مستغرقة مع زوجتى فى حديث طويل.. والمسلسلات التليفزيونية، وركن المرأة.. وكثيرا من الأشياء الأخرى التى ربما لا أعيها كلها.. صحيح أن أغلب البرامج، خصوصا فى السنين الأخيرة تؤكد أن دور المرأة فى البيت، وتحافظ على قيمنا الأصيلة، ولكن أحيانا ينتابنى احساس أنها تلفت نظر النساء اللائى نشأن فى جو محافظ، الى وجود مشاكل لم ينتبهن اليها..

هكذا وجدت نفسى محاطا بتطورات غريبة تنذر بالكوارث، كأنه لا تكفينى أحداث الأشهر الأخيرة التى هزتنى من الأعماق، بل كأن كل الكوارث قررت أن تتجمع على فى وقت واحد.. ولكن ربما أكون متشائما أكثر من اللازم.. لابد أن ما يحدث لى يوجد فى كل البيوت.. المسألة كلها أننى أكتشفت ما لم يكتشفه غيرى.. فأنا من أنصار الرقابة الصارمة، والنظام.. لا أترك صغيرة، أو كبيرة تمر فى البيت دون أن أسجلها، وأبدى ملاحظاتى عليها.. والادب عندنا التسيب الذى نراه فى كل مكان.. أننى أندهش للحال الذى وصلنا اليه.. كل هذه الجهود حفاظا على الأخلاق.. وكل هذا النشاط لحماية القيم، ومحاربة المبادىء الهدامة.. ومع ذلك منذ أسابيع كنت أفتش فى جيوب ابنى «علاء» فوجدته يخفى علبة عوازل ذكرية «توبس» ومعها كيس نيلون فيه أقراص مواد مخدرة.. كدت أن أنهار فى ذلك اليوم.. فبالنسبة «للتوبس» لا مانع.. أنها وقاية من الأمراض السرية.. ويبدو أن الولد فيه فحولة مبكرة.. أشعر بالحزن.. فى هذا المجال ينبغى أن أعترف أننى لست على أحسن حال.. ثم العوازل تتمشى مع سياسة الحكومة فى مسألة تنظيم الأسرة، والسكان.. ولكن الأقراص المخدرة أو المنبهة يمكن أن تقضى عليه.. أصبت بحيرة شديدة.. لم أتحدث معه قط فى مثل هذه المسائل.. بل لم أتحدث معه فى أى شىء سوى ضرورة المذاكرة، وأهمية تخفيض كميات النقود

التى يصرفها.. قلبى ثقيل هذه الأيام.. ثم هذه المرآة.. قلت «لليلى» أننى لا أريد ذرة من التراب عليها.. ففى كل صباح قبل أن أذهب الى «ادارة الاتهام، والقيم، والأخلاق»، أو الى المحكمة، أقف أمامها، وأفحص نفسى بامعان.. فلابد أن أظهر دائما بمظهر لائق.. وفى آخر مرة عندما رفعت صوتى، وشخطت فيها لأن السطح كان مغطى بالتراب ردت على وقالت: «لماذا لا تمسك بفوطة، وتنظفها أنت.. ؟ !» كاد أن يغمى على.. أنا رئيس ادارة الاتهام، والقيم، والأخلاق، والمدعى فى أهم قضية عرفتها مصر.. قضية «روث هاريسون» الأمريكية أمسك بفوطة فى يدى، وأنظف المرآة ؟ ! فكرت لحظة أن أرفع يدى، وأنهال عليها بالضرب، ثم تراجعت.. سأتأخر عن موعد المحكمة، وأفقد أعصابى، وأصل فى حالة يرثى لها.. يضاف الى ذلك أن بريقا ما فى عينيها جعلنى أفكر فى الأمر.. فقد سيطر على شعور دفين أنها ربما ردت على هذه المرة.. لقد لاحظت علامات التمرد من قبل.. وفى الأيام التى نعيشها لا يعرف الانسان المدى الذى يمكن أن تصل اليه الأمور.. فأنا أشعر أحيانا أن العالم الثابت المستقر الذى كنت أعرفه ينهار..

أنظر فى المرآة من جديد.. لا بأس.. صحيح أن الصلعة فى رأسى تزيد.. وأن شفتى فيهما شيء من الغلظة.. ولكن هذا دليل على شبق للحياة.. لست وسيما، ومع ذلك هناك نوع من الجاذبية فى التقاطيع.. فبماذا أفسر أن عيون النساء فى الادارة تلتفت الى عندما أقوم بالمرور الأسبوعى.. أم أنه الخوف ؟ الجميع يعرفون أننى رجل صارم.. نظرة العينين بالذات.. لمحتها عندما ظهرت صورتى فى الجرائد بمناسبة القضية.. ولكن ما يضايقنى هو قصر قامتى.. اذا جلست خلف المكتب لا يلاحظها أحد.. ولكن عندما أقف على المنصة تصبح مشكلة.. لذلك نظرا لأهمية القضية طلبت من رئيس النجارين أن يصنع لى لوحة سميكة من الخشب لأقف عليها أثناء المرافعة.. وفى أول مرة عندما تقدمت للوقوف على المنصة المخصصة

لى نسيت أنها موجودة، وكدت أن أقع.. ولكن ربنا ستر.. ولم يلاحظ أحد أننى تعثرت عندما اتجهت اليها..

كل هذه الأشياء تعتبر بسيطة اذا ما قورنت بالمصيبة التى أواجهها فى هذه القضية.. فعلا كان على حق من قال : «لو علمتم بالغيب لاخترتم الواقع..» فأنا الذى سعيت الى حتفى بكل ما أوتيت من قوة.. عندما حولت القضية من النيابة العادية الى «ادارة الاتهام، والقيم، والأخلاق» ثارت معركة، ونشطت الوساطات من أعلى الجهات.. فقد نظر اليها الجميع على أنها الطريق الى المجد.. قضية لها أبعاد سياسية جنائية خطيرة.. أهتمت بها الصحف، والاذاعات ووسائل الأعلام الدولية، وأصبحت الشغل الشاغل للرأى العام.. لا يمر يوم دون أن ينشر عنها شىء.. امرأة أمريكية ذات مكانة خاصة.. رائعة الجمال كما يقال.. وجدت فى شقتها الفاخرة المطلة عل النيل، راقدة على سريرها بعد أن فارقت الحياة، وفى رأسها ثقب.. وجلس أمامها رجل مصرى «خليل منصور خليل» صامت، منكمش فى مقعده.. يطل على جسمها الممدود كأنه لا يوجد شىء فى العالم سواه.. وفى الصالة الخادم الذى اتصل ببوليس النجدة كالقط الأسود، يدور بعينيه على الضباط، ورجال ادارة السلام الاجتماعى، والاسعاف والبوليس.. يرفض الاجابة على أية أسئلة، ويقول أنه سيتكلم عندما يستدعى كشاهد فى التحقيق.. نعم دارت معركة قاسية بين الذين أرادوا أن يمثلوا الاتهام فى القضية.. وأخذت أجرى هنا وهناك.. وأتذكر كل الذين عرفتهم فى يوم من الأيام الى أن هدانى تفكيرى الى «يحيى السعدنى».. كنا زملاء فى دراسات الماجستير، وبعد ذلك التقينا صدفة فى «باريس» حيث كنت أستعد لنيل دكتوراه الدولة فى القانون، بينما انشغل هو فى بعض الأبحاث التى كان يجريها لحساب اليونسكو.. فربطت بيننا أواصر الصداقة من جديد.. عدت الى مصر، وفرقت بيننا الظروف، ولكن عندما عين فى وزارة شئون الأمن القومى ككبير المستشارين فى السلام الاجتماعى

حرصت على زيارته للتهنئة.. أتردد عليه فى كل المناسبات، والاعياد.. بل كنت أول المهنئين عندما أنشئت الوحدة الخاصة، وعين رئيسا لها.. فقد أصبح بذلك الرجل الثانى مباشرة بعد الوزير، وصارت له حظوة خاصة فى أعلى المستويات، وعند السلطات الأمريكية المعنية بالشئون السياسية والأمنية فى مصر..

هكذا قادتنى خطواتى اليه مرة أخرى.. أنه رجل مهذب.. فرغم مشاغله الكثيرة أعطانى من وقته ما يزيد عن نصف ساعة.. أستمع الى فى أنصات.. أرى عينيه الآن كأنه أمامى.. فيها ذلك البرود الذى يقترب من الصلب، أو الرصاص.. الاطار المعدنى حول العوينات يؤكد فى ذهنى هذا الاحساس.. عندما انتهيت، صمت لحظة طويلة ثم قال :

«أنا أرى أنك الرجل المطلوب فى هذه القضية..» أهز رأسى فى امتنان.. «ولكن حيث أننا أصدقاء من سنين يحتم على حرصى على هذه العلاقة أن أنبهك الى بعض الزوايا التى ربما غابت عنك، فلم تصلك بعض المعلومات التى أطلعت عليها بحكم مسئوليتى عن شئون السلام الاجتماعى..»

قلبى يسقط خوفا.. ربما يبحث عن مبررات ليرفض بها طلبى.. ينظر الى بثبات فيه جمود ، وكأنه أحس ما يدور فى خلدى.. ثم يقول..

«أطمئن.. أنا أريد فعلا أن تتولى أنت هذه القضية.. فأنا أدرك مدى الكفاءات التى تتمتع بها والتى تؤهلك لهذه المسئولية بالذات..» أهز رأسى من جديد.. «طالما أنك ستكون مستعدا لتحمل كل الأعباء، والتصرف فى حدود السياسة العامة للدولة، فلا توجد مشكلة»

«بالطبع.. هذا واجبى.. وأنا لم أتخل عن الواجب الذى تحتمه على الوظيفة فى يوم من الأيام..»

«حسنا.. اذن اتفقنا.. سأتحدث الى الوزير اليوم فى هذا الشأن.. ولكن فى

النهاية، كما تعلم فالقرار متروك «لوزير العدل، والقيم، والأخلاق..» وربما» يصمت لحظة، وتتحرك شفتاه فيما يشبه الابتسام.. «لمن هو أعلى منه.. ولكنى أعتقد أنه لن تثور مشكلة بالنسبة اليك»

ودعنى حتى الباب.. شد على يدى، وربت على كتفى كأننى تلميذ مجتهد.. وبعد أربعة أيام اتصل بى تليفونيا، وأبلغنى أننى اخترت بالفعل للقيام بمهمة الاتهام فى قضية «روث هاريسون».. فاستولت على موجة من السعادة.. فى طريق العودة عرجت على سوق الفاكهة وابتعت خمسة بطيخات من نوع «الشيليان بلاك» وسبعة كيلو لحم كندوز صغير، وأربعة كيلو ضأن، ومررت على محل فى شارع ٢٦ يوليو، وخرجت منه بزجاجتين كونياك «ريمى مارتان».. توجهت الى المنزل باحساس المقبل على أيام ستتفتح فيها الدنيا أمامه.. وخطر فى بالى أن بعد الغذاء وقليل من الكونياك يمكننى أن أطارح «ليلى» الغرام..

أفحص ملامحى باهتمام.. نعم نحل وجهى هذه الأيام من التوتر، والقلق.. وشىء آخر ينخر فى الأعماق.. خليط من الخوف، والندم الفظيع.. أحيانا تختلط على الأمور، وأشعر أننى جالس فى قفص الاتهام.. وفى بعض الليالى تجيئنى هذه الصورة فى الحلم، واستيقظ فى بحر من العرق صارخا بأعلى صوتى.. وعندما تضاء الأنوار ألمح «ليلى»، وعينيها السوداوتين مفتوحتين فى فزع.. أصابعى ترتعش على الدوام، واليوم رغم أننى أستخدم موسى «جيليت» آخر طراز للحلاقة أصبت نفسى بجرح عند الذقن مازال ينزف قليلا.. نظرت الى معصمى.. الساعة التاسعة.. لن تبدأ الجلسة قبل العاشرة والنصف.. سيفضون الاحراز..، ثم تبدأ بعد ذلك المرافعات.. مازال أمامى بعض الوقت.. أحس بالتعب رغم أننا ما زلنا فى بداية النهار.. أجلس على المقعد، وأضع وجهى بين يدى.. لو كنت أستطيع أن أصارح ولو حتى «ليلى» بما يعتمل فى نفسى.. ولكن هذا مستحيل.. أشياء لابد أن تظل مدفونة، لا لأنها خطيرة فحسب.. «ليلى» بالطبع

ستكون حريصة على.. ولكن لأننى مشترك فى عملية مشينة.. فى جريمة لا يمكن أن أكشف عنها.. جريمة قتل.. أفزع عندما أنطق الكلمة.. نعم القاتل ليس «خليل منصور خليل» وأنما أنا.. أقرب الناس الى سيفرون منى اذا حدثتهم عن تفاصيل المؤامرة التى أشتركت فيها بدور أساسى.. لم يخطر ببالى أبدا أننى سأقع فى مثل هذا المأزق الفظيع الذى وقعت فيه.. فأنا رجل عادى، طيب القلب.. كأغلب المصريين.. تسلقت السلم الوظيفى بالجهد، والعرق، وطاعة الرؤساء.. لم أضمر شرا لأحد.. بل على العكس فى بعض الأحيان عندما ووجهت بمتهم لست متأكدا من ذنبه كنت أتحايل بطريقة ذكية حتى يفلت من العقاب.. هذا بالطبع فيما عدا الجرائم السياسية التى كنت أعالجها بكل حسم.. ففى أعماقى أشعر بالاشفاق على الذين يودعون خلف الجدران.. أما أحكام الاعدام فقد كانت أصعب اللحظات بالنسبة الى..

أتذكر يوم أن دخلت المحكمة لأول مرة.. وجدته يجلس فى القفص، وكعادة ممثلى الاتهام والقضاة أخذت أفحصه من طرف خفى، يحدونى الفضول المعتاد، خصوصا فى قضية ملأت الدنيا بأصدائها، وسارت حديث الناس.. وتحدونى أيضا دوافع المهنة.. فمن الطبيعى أن أراقب تصرفاته فى كل المجالات.. رأيته من قبل عدة مرات أثناء التحقيق.. وطبيعة المعركة التى تدور فى ساحة القضاء تحول المتهم الى خصم.. أتذكر أنه فى لحظة ما تلاقت عيوننا.. ودارت بيننا مبارزة صامتة أحسست بعدها بالضيق.. فقد وجدت نفسى أخفض عينى أمام نظراته الهادئة، وكأنها تقول : أنت تواجه رجلا سوى حسابه مع كل الأطراف.. مع ضميره.. مع الناس.. وحتى مع الله.. والآن أفعل فيه ما شئت فلم يعد يهمه الأمر..

ضايقنى هذا الاحساس، وعدت الى البيت.. تملكنى طوال النهار، بل تملكنى طوال الليل حتى الصباح.. فوجدت نفسى أتقلب على السرير.. هرب منى النوم،

وغادرنى هدوئى المعتاد.. فأصبحت فريسة للهواجس والأوهام.. كأننى سأتسبب فى قتل رجل برىء.. ذلك أن السؤال الكبير فى هذه القضية كان هل قتل «خليل منصور خليل» المدعوة «روث هاريسون»، أما أنها أطلقت على نفسها الرصاص ؟ لم أكن فى هذا الوقت قد وصلت الى رأى قاطع.. ولكنى ووجهت بظاهرة أثارت فى الشكوك.. وهى تحيز رجال السلام الاجتماعى الواضح ضده.. بحثوا عن الشهود فى كل مكان لتغطية الماضى والحاضر، وجاءوا بهم الى مبنى الوزارة.. ثم قدموهم لى حتى أجرى معهم التحقيقات، وأثبت أقوالهم.. نقبوا فى ماضيه واكتشفوا علاقة قديمة بينه وبين فتاة تدعى «تهانى راشد».. ووضعوا اسمها فى كشف الشهود.. عندما جاء اليوم المحدد لمثولها أمامى لم تظهر على الإطلاق.. بحثوا عنها، وبعد بضعة أيام أبلغنى رئيس الادارة أنها أختفت.. ثم بعد ثلاثة أيام اتصل بى تليفونيا وقال أنها سافرت دون أخطارهم إلى «الكويت» لتلحق بزوجها.. تساءلت بينى وبين نفسى عن سبب الضيق الواضح فى صوته.. كأنه كان يعول الكثير على شهادتها.. وخطر فى بالى أنهم يعطون لهذه القضية اهتماما لم أره من قبل.. بدا لى أنه يرجع لشخصية القتيلة، وكونها مواطنة أمريكية تهتم السلطات فى بلدها بالظروف التى أدت الى مصرعها.. فمن الواضح أنها كانت تتمتع بمكانة خاصة.. أليس من المحتمل أنها من بين العاملين فى جهاز مخابراتهم.. ؟ طردت هذه الفكرة على الفور. لا داعى للدخول فى مثل هذه الافتراضات الخطرة. قد يؤثر هذا على مجرى التحقيق.. وجدت نفسى منشغلا فى القضية ساعات طويلة دون انقطاع.. وقد استغرق التحقيق مع المتهم بالذات أغلب الوقت. حاولت أن أفهم ما يدور فى ذهنه، ولكنى فشلت.. كل اجاباته فى منتهى البساطة.. يحكى القصة بتسلسل واضح منذ اللحظة التى تعرف فيها على المدعوة «روث هاريسون».. يبدو وكأنه لا يخفى شيئا، ويتحدث بصراحة عن الحب الذى نشأ بينهما.. عن سفرهما سويا الى «باريس» وكيف

التحق بشركة زوجها.. عن الظروف التى أحاطت به فى عمله السابق.. كيف فصل من الشركة بعد الاضراب ثم عاد بتدخل من السلطات العليا.. يشرح كل شىء بالتفصيل، وبلا تردد.. وأزاء هذه الصراحة المنقطعة النظير، وردوده الواضحة سيطر على الشك فى بداية التحقيق، وبدا لى أنه أعد ما سيقوله أمامى بدقة متناهية، وذكاء خارق.. ولكن بعد قليل أدركت أن اقامة كل هذا الصرح المنطقى والواضح دون أن يترك فيه أدنى ثغرة أمر مستحيل.. وأنه لابد أن يكون تعبيرا عن واقع ما حدث.. كنت أحقق معه الى ساعة متأخرة من الليل.. أباغته أحيانا بأسئلة كثيرة على طريقة المدفع الرشاش التى تعلمناها خلال عملنا فى النيابة.. أضغط عليه، وأحاول ايقاعه فى بعض التناقضات.. ولكن كل المحاولات التى بذلتها باءت بالفشل.. لم يتلعثم مرة، ولم يتردد.. أو يتناقض فى أقواله.. بل ظل يجيب على فى هدوء وصبر.. تساءلت فى بعض اللحظات كيف أمكنه أن يبذل جهدا مضنيا متواصلا يبدو أحيانا فوق مستوى الاحتمال دون أن يبدو عليه التعب، أو التوتر، أو الغضب.. كنت أعود الى البيت خائر القوى ممتصا.. أما هو فيقول : «أتريد شيئا آخر قبل أن نقوم»، كأنه هو المحقق وأنا المسجون.. أدركت أنه لسبب ما يتمتع بقدرة خارقة على التحمل.. وأنها لم تولد معه، أو تتكون خلال تجاربه السابقة فحسب، وأنما تنبع من حالة خاصة سيطرت عليه.. كأنه وصل الى القاع، واختبر آخر ما فى الدنيا من العذاب ، فارتفع فوق كل الأشياء ، واصبح يتطلع الى الحياة من قمة اليأس والحزن .. هكذا بدا لى الأمر فى بعض الأحيان .. ولكن فى أوقات أخرى كنت أرجح أنه مجرم عتيد رابط الجأش ، فأحس بنوع من راحة الضمير ، وألقى اليه بالأسئلة كما يطرقع الجلاد كرباجه فى الهواء .. لكنه يظل ينظر الى بثبات .. لا ترتعش فى وجهه عضلة ، ولا يطرف له جفن .. وفجأة أشعر أن أمامى يجلس انسان يقول : «محاولاتك كلها ستبوء بالفشل .. فقد خرجت عن نطاق الألم والاحساس .. أصبحت بعيدا عن متناول

الأيدى ، والأظافر ، والأسنان التى تريد أن تنهشنى ..»

ظل يدافع عن نفسه بصبر لا ينفد .. نعم أحب هذه المرأة ، وأحبته .. وفى الليلة التى سبقت الحادث قررا الانفصال .. ناما سويا فى حجرة النوم .. وفى الصباح استيقظ قبلها .. أعد حقائبه ووضعها فى الصالة .. تناول أفطاره وجلس يتنظرها .. ثم فجأة سمع صوت انفجار مكتوم .. أسرع نحو حجرة النوم .. فوجدها ترقد جثة فارقتها الحياة .. فوق الأذن ثقب يسيل منه خيط من الدم ، وفى يدها اليمنى المسدس .. أمسك بمعصمها فلم يتبين وجود أى نبض .. ولما استدار وجد الخادم «جعفر» يقف فى فتحة الباب .. طلب منه أن يستدعى بوليس النجدة والاسعاف .. وبعد قليل وصل الضباط والشرطة .. قبضوا عليه ، وعلى «جعفر» ، وأودعوه فى سجن «القلعة الصخرية» .. أما «جعفر» فلم يسمع عنه شيئا منذ ذلك الصباح .. أسأله ان كان يظن أن الفراق بينهما هو سبب الانتحار فيقول أنه ربما يكون ضمن العوامل ، وأن الأسباب الأخرى ستتضح فيما بعد .. وهنا يشير الى شريطين مسجلين كانا فى جيب سترته لحظة القبض عليه .. قام ضباط السلام الاجتماعى بتفتيشه ثم اصطحبوه الى سجن «القلعة الصخرية» .. يطلب منى أن أضمهما الى احراز القضية اذا لم يكن قد تم ذلك من قبل .. ثم يضيف أن «جعفر» ربما يستطيع أن يشهد بصحة ما رواه .. أسأله طالما أنهما قررا الانفصال فلماذا ناما سويا على سرير واحد حتى الصباح ؟ ينظر الى فى اندهاش .. ويسأل .. لِمَ لا ؟ ظل الحب قائما بيننا .. وكنا نهرب من الوحدة والخوف .. نبحث عن السلوى فى القرب .. لم أقتنع .. امرأة ورجل يتشاجران بعد قصة حب .. يتفقان على الفراق ، ثم ينامان فى أحضان بعضهما ؟! .. لم أقتنع بكثير من الأشياء التى كان يقولها . ربما لم أفهمها بالضبط .. رجل غريب الأطوار .. لم ألتق برجل مثله طوال حياتى فى النيابة والقضاء .. أحيانا يسيطر على شعور بأنه يحاول تضليلى .. أو أنه يدعى لنفسه مستوى رفيعا بينما هو

ليس سوى مجرم منحط .. أو على أحسن الفروض رجل يعيش فى كنف امرأة أجنبية .. لقد كان متعدد العلاقات النسائية .. «تهانى راشد» ثم «أمينة توفيق» زوجته .. وبعدها «روث هاريسون» الأمريكية .. وربما يكون هناك أخريات لم يظهرن فى التحقيق .. ما الذى كان يجعلهن ينجذبن اليه ..؟ منظره عادى .. لا طويل ، ولا قصير .. يميل الى النحافة ، ويرتدى عوينات .. أنا على أقل تقدير نظرى ستة على ستة .. ومع ذلك فى كل مرحلة هناك امرأة تتعلق به .. وامرأة جميلة .. وذلك رغم السجن ، والظروف الصعبة التى أحاطت به .. لابد أن فيه خسة ، أو سرا معينا .. شذوذ ربما .. فالنساء يملن الى الرجل الشاذ خصوصا الأجنبيات .. أننى أكرهه .. هدوء المنقطع النظير ، ونظرة العينين .. هذا النوع لابد أن يجتث من المجتمع .. وماضيه .. من العملاء .. شيوعى يفسد الأخلاق ، ويتسلل الى المخادع .. ومع ذلك فى بعض الأحيان أشفق عليه .. لا يبدو عليه الاجرام بل فيه انسانية .. لابد أن أبحث عن موضوع الشريطين المسجلين اللذين تحدث عنهما فى التحقيق .. لقد أشار اليهما عدة مرات .. وهو يجزم أن الدليل القاطع على قصته مسجل فيهما .. و «جعفر» .. شهادة «جعفر» .. سأبدأ بها .. ثم انتقل الى باقى الشهود .. الشريطان سأجدهما فى «ادارة السلام الاجتماعى» ان كان لهما وجود .. ربما نسج هذه القصة من خياله .. ولكن هذا الاحتمال يبدو بعيدا .. الطريقة التى يحكى بها الأشياء تدل على نوع من الاتساق .. ثم ما فائدة هذه الادعاءات ؟ فان لم يكن هناك وجود للشريطين ، لن يستطيع الاستناد اليهما لاثبات براءته من تهمة القتل ..

الساعة تقترب من التاسعة والنصف .. أشعر باحساس ثقيل فى القلب .. عندما بدأت القضية كنت مقدما عليها .. أذهب الى عملى فى الصباح بحماس .. فأبواب الشهرة ، والتقدم السريع مفتوحة أمامى .. سيسجل اسمى فى التاريخ، ويشير الى الناس على أنى المدعى الذى مثل الاتهام فى قضية «روث

هاريسون» .. كنت أنكب على أوراقى الى ساعة متأخرة من الليل ، أراجع الأسئلة والاجابات ، وأنقب فى التقارير والتحريات ، وأفحص الدوسيه مرة ، وأثنتين ، وثلاث .. ولكن الآن تغير الحال .. فمع الأيام أدركت أننى وقعت فى مصيدة خطيرة .. وأننى أسير على حافة هاوية .. أسبح فى مياه كلها تيارات ، وأغوص فى مستنقع ربما أمتصنى حتى النهاية .. فى البداية قاومت ، ولكنى أيقنت فيما بعد أن الموقف كله أكبر منى ، وأننى اذا حاولت أن أتصرف وفقا لضميرى ، واذا التزمت بالاجراءات القانونية السليمة فأننى سأكون كمن يحفر قبره بيديه .. فكلما أنغمست فى تفاصيل القضية تبينت أن ما يظهر على السطح ليس سوى جزء ضئيلا من الحقيقة الكلية ، وأن هناك قوى عاتية ، وخفية تنسج خيوطها بحركات مدروسة ، متأنية حتى لا تخرج الحقائق الى النور ، وينكشف أمرها فى وضوح .. وتسعى خطوة وراء خطوة الى القضاء على الضحية ، وتجند فى هذا السبيل شبكة واسعة تمتد أصابعها الطويلة الى أعلى المستويات ، شبكة تملك امكانيات رهيبة ، وتتصرف فى الضمائر ، والرجال ، كما يتصرف لاعب الشطرنج الماهر فى العساكر ، والطوابى ، والأفيال ..

وكان حديث المتهم «خليل منصور خليل» عن الشريطين المسجلين أول واقعة جعلتنى أتنبه الى أن هناك أشياء غير عادية .. وبالطبع كنت أعرف أن هذه القضية يمكن أن تعتبر بكل المقاييس فريدة من نوعها .. وهذه الميزة هى التى أثارت اهتمامى منذ البداية .. فقد حرصت طوال حياتى القانونية أن أقرأ كل ما يمكن أن أصل اليه عن القضايا البارزة فى المجالات الجنائية والسياسية .. وقد اكتشفت خلال هذه العملية أحداثا وأشياء تفوق الخيال .. ومع ذلك كان من المستحيل حتى فى الأحلام ، أو الكوابيس ، أن أتصور جزءا ضئيلا مما تكشف لى فى هذه القضية بعد أن انتقلنا من مراحلها الأولية الى صلب التحقيق .. كتبت فى المفكرة التى أحتفظ بها لكل قضية ثلاث كلمات : «سؤال عن الشريطين ..»

وبين قوسين (بعد الانتهاء من الشهود) .. أغلقتها ، ووضعتها فى الدرج ، ثم رفعت سماعة التليفون وطلبت ضابط الاتصال المعين خصيصا للتصرف فى مسألة احضار المتهمين والشهود للادلاء بأقوالهم فى التحقيق .. كان يوم خميس حوالى الساعة الواحدة بعد الظهر .. أتفقت معه على أن يحضروا الى «جعفر» الخادم الذى كان يعمل فى بيت القتيلة .. أعدت سماعة التليفون الى مكانها وسرحت .. أنهم حريصون على أن تبقى كل الخيوط بين أيديهم .. هل يشكون فى أن لها أبعادا سياسية ..؟ أم أنهم يسعون لاضفاء هذا الطابع عليها ..؟ تنهدت .. أشياء تثير التساؤلات .. على أى حال سنرى ، ولا داعى للقلق .. أنا شخصيا لا مانع لدى فى أن أجاريهم وأفعل ما يريدون .. ولكن شعورى بالضيق يأتى من كونهم لم يشاركونى فى تفكيرهم حتى الآن .. وكأن المسألة تعتبر خارجة عن نطاق مسئولياتى .. فأنا المدعى الوطنى العام ، وهذا السلوك فيه اهانة لى .. يعطينى شعورا بأن السلطات العليا لا تثق فى .. ربما يتغير مجرى الأمور فيما بعد .. ليست هذه أول مرة يتدخلون فيها بطريقة سافرة ، للتأثير على اتجاهات القضايا .. تعودت العمل معهم خلال السنين ، وأصبحنا نتعاون بسهولة ، متغاضين عن بعض الاجراءات الشكلية .. أنه السبيل الوحيد وألا وجدت الصعاب تقف لى بالمرصاد فى كل خطوة .. كادوا فى الفترة الأخيرة أن يصبحوا جزءا لا يتجزأ من اجراءات التحقيق ، والاتهام .. لابد أن يواجه الانسان هذه الأشياء بواقعية .. ولكنى فى بعض الأحيان أشعر بأننى أتضاءل .. أين القانون واحترامه ؟ وأين مكانة ممثلى الاتهام ..؟ بل أين استقلال القضاء ..؟

كانوا يحومون حولى ، وحول الشهود ، وحول «خليل منصور خليل» بلا انقطاع .. عندما اقترحت أن ينقلوه من سجن «القلعة الصخرية» الى سجن آخر رفضوا .. فلما سألتهم عن السبب قالوا أنهم يخشون عليه ، ويريدون أن يكون تحت رقابتهم المستمرة .. الطريقة التى يردون بها على توحى بأنهم يفضلون أن

يغلق الموضوع .. فاكتفيت بهذا القدر ، ولم أفتحه من جديد .. عندما يتحدثون عن «روث هاريسون» لاحظت أنهم يطلقون عليها لفظ القتيلة ، فاندهشت .. الظواهر الأولية كلها تدل على أنها انتحرت ، فلماذا يصفون ما حدث بأنه قتل..؟ أخذ هذا اللفظ يتردد فى كل أحاديثهم معى ، وكأنهم موقنون أنها لم تنتحر، وأنما قتلت .. فبعد مرور بعض الوقت أصبحت أنا ، دون وعى منى، أستخدم نفس اللفظ ، ثم أتدارك الأمر .. فليس من المستساغ لرجل قانون مثلى أن يقرر مقدما أن ما وقع هو جريمة قتل .. صحيح أننى ممثل الاتهام .. ولكن مهمة المدعى ، وعلى الأخص المدعى العام الوطنى ، أن يبحث عن الحقيقة ، وألا يكون متحيزا ، لا مع المتهم ، ولا ضده .. ولو أنى وجدت هذا الموقف صعبا للغاية .. فالسلطة تطلب منى على الدوام ، أن أدافع عنها ، وأن أحميها من كل نقد يوجه اليها .. وفى هذه الظروف فان الحياد يصبح أمرا صعبا .. جاءنى احساس غامض أنهم يتمنون أن تنتهى القضية بادانة «خليل منصور خليل» على أنه القاتل .. وأنا مثلهم أكره أهل اليسار .. أنهم يريدون تقويض أركان المجتمع.. أنهم ضد الاسلام ، والأسرة ، والأخلاق .. حققت مع عدد منهم فى قضايا سابقة .. كان يسيطر على شعور مزدوج أزاءهم .. أحس بالكراهية نحوهم ، وفى نفس الوقت يبدو لى أن فيهم سذاجة .. يدافعون عن آرائهم بصراحة ، ويتحملون الأحكام والسجن .. الأشرار ، والمجرمون العتاة لا يتصرفون هكذا .. على كل حال ليس هذا هو شأنى .. ما يضايقنى حقا هو الاعتداء المستمر على تقاليدنا القانونية .. فلابد لأى حكم أن يحافظ ولو جزئيا على واجهة مقنعة اذا أراد أن يستمر .. وفى هذا يلعب القانون دورا مهما .. أما ما يحدث فى بلادنا اليوم باسم القانون فهو يشبه المسرحية الرديئة .. منذ أن كنت فى المدرسة التزمت بنصائح أبى ووضعت مسافة بينى وبين السياسة .. ظللت أتفادى الأحزاب ، والتيارات المختلفة طوال حياتى .. فمن يريد أن يبرز فى مهنته لابد أن يتصرف

هكذا .. بالطبع كأى مواطن لى آراء أعبر عنها أحيانا فى جلسة محدودة ، أو عندما نذهب لزيارة أهل «ليلى» .. فهم ينظرون الى كأحد المسئولين الكبار فى الدولة ، وأنا هكذا بالفعل .. أنهم لا يعرفون أن فى الزمن الذى نعيشه ليس لأحد قيمة ، ولا حتى الوزير .. يعين أو يفصل باشارة من أعلى .. ولكن المسائل نسبية.. عندما أكون عندهم أحس بنوع من الفخر .. وعندما أذهب الى مكتب الوزير أتضاءل فى الحجم ، وتصيبنى التعاسة .. المهم .. ما الذى كنت أفكر فيه..؟ عقلى يسرح هذه الأيام ، والأفكار تطن فى ذهنى كالذباب فى إناء زجاجى.. أنا لا أميل الى السياسة ، وعلى الأخص سياسة اليسار .. كل هذا الكلام عن المساواة ، وحقوق الكادحين ، والعمال والفلاحين لا يدخل عقلى .. أنا أنتمى الى اليمين .. ولكنى أنتمى الى اليمين المحترم .. وأول صفات اليمين المحترم هو الحكم بالدستور والقانون ، والسماح بحد أدنى من حرية الرأى .. وهذا ما يقولونه فى هذه الأيام صباح مساء .. ولكن ما وصلنا اليه الآن هو نوع من المسخ .. وهل يتصور فى القرن العشرين أن تصدر قوانين تمنع قيام الأحزاب ، أو تكبت الآراء باسم الأخلاق ، وتركز كل هذه السلطات فى أيدى رجل واحد أو قلة من الرجال ، وأنا بالطبع لا أقول هذا الكلام لأحد .. ولكن فى بعض الأيام أشعر بالقرف .. بأن بائع الفول أفضل من رجل القانون بمراحل .. عندما يكون الانسان مهموما يتذكر كل سيئات الحياة .. وهذا ما حدث لى فى الفترة الأخيرة .. كل شىء تغير .. ما الذى يجعلنى أتذكر الشاهد «جعفر» كأنه يقف أمامى الآن ؟.. منذ اللحظة التى دخل فيها الى حجرتى ، وتقدم فوق البساط بخطوة القط المتوحش ، شعرت أن أمامى رجل «يقتل القتيل ويسير فى جنازته» .. ملامحه المحفورة فى الوجه لا تتحرك ، كالصخر الأسمر . عيناه فيهما برود .. مسطحتان كعينى القط بالضبط .. متنبهتان لأقل حركة .. يقظتان .. ولكنهما لا تبكيان ، ولا تحزنان ، ولا تضحكان ، ولا تحنان على أحد .. عندما أسأله يرد فى هدوء ،

وقبل كل رد يفكر .. يتحسس الطريق بجسمه وقدميه ، وكل خلية من خلايا المخ.. أدركت أننى أمام رجل ذكى ، لا يفوته شيء .. ولا حظت بعد قليل أنه ينسج خيوطه بمهارة فائقة ، بحيث لا يؤكد شيئا أو ينفيه ، وأنما يترك ما يقوله للاستنتاج .. خطوة وراء خطوة يتقدم نحو هدفه ، باصرار بطيء .. نحو النتيجة التى يسعى للوصول اليها .. وهى أن «خليل منصور خليل» ربما يكون قد قتل «روث هاريسون» .. لم يره يمسك بالمسدس ولكنه رآه عندما توجه الى غرفتها .. والأنفجار المكتوم متى حدث ؟ قبل أن يلحق بها فى الحجرة ، أم بعد ؟.. ينظر الى مباشرة ويقول : «على ما أتذكر ، بعدها» .. ولكن لا توجد بصماته على المسدس .. تتحرك شفتاه لأول مرة بحركة تكاد لا ترى ولا يمكن أن تسمى ابتسامة ، فلم أر فى حياتى ابتسامة مثلها .. أقرب الى السخرية ، أو التشفى.. يفتح فمه لحظة فتومض أسنانه قبل أن ينقض .. يقول : «ومن يترك بصماته هذه الأيام ..؟» ثم يضيف .. «ومع ذلك قد أكون ظلمته .. وأنا لا أريد أن أتهم رجلا بريئا خصوصا فى جريمة قتل عقوبتها الاعدام .. ولكن هل يستحيل أن نتصور أنه استخدم مسدس القتيلة؟» يتركنى بهذه الفكرة ، ويصمت .. بعد مدة أسمعه يقول : «السيدة«روث» كانت انسانة ممتازة ، تعطف على غيرها ، وتغدق مما لديها دون حساب .. عندما سكن فى بيتها كان مفصولا من عمله ، فآوته ، وحمته وحرصت عليه الى أن أهتدت الى وظيفة جديدة له .. أعمل معها منذ أن جاءت الى مصر .. ولم تعطنى يوما ما سببا للشكوى ..» أقول لنفسى .. ربما يكون على حق فيما يقول ، وربما يكون مخطئا .. ولكن ما يشغل بالى هو هذا الاصرار البارد على قصة من شأنها أن تقود «خليل منصور خليل» الى المنشقة .. لو كان يحبه لسعى بطريقة ما الى تبرئته .. أو على أقل تقدير لو لم يكرهه لترك فرصة أمامه للافلات .. «لحظة الانفجار هل هى قبل أو بعد أن لحق «خليل منصور خليل» «بروث هاريسون» فى حجرتها ..؟» هذه نقطة حاسمة ، وهو

يدرك ذلك تماما .. ثم كلامه عن البصمات .. ليس هذا تفكير شاهد عادى .. أنه يقودنى فى التحقيق الى النتائج التى يريدها .. أحسست بذلك بعد أن وصلنا الى النهاية ، بينما كنت أظن طوال الفترة التى جلس فيها أمامى أن العكس هو الذى يحدث .. عندما سألته عما تم فى الشقة أخبرنى أن «المستر هاريسون» حضر بعد الحادث مباشرة ، وأنه قرر أن يبقى حتى ينتهى التحقيق .. كما أخبرنى أنه قائم على خدمته .. جاءنى لحظتها شعور بالندم .. فأنا الذى أفرجت عنه فى اليوم التالى بعد الحادث بناء على مكالمة تليفونية من رئيس ادارة السلام الاجتماعى .. اندهشت بعض الشىء فى ذلك الوقت ، ولكن التعود يجعل الانسان يتصرف أحيانا دون أن يفكر .. قال لى أنه لا يشك فى الخادم اطلاقا خصوصا وأن «خليل منصور خليل» نفسه شهد فى صفه .. وأضاف أنهم يأملون أن يصلوا بمساعدته الى بعض الحقائق .. فلا داعى اذن أن يعامل على أنه من المشتبه فيهم .. كان تصرفى فى محله حيث أنه لا توجد ضده أدلة أو قرائن .. ومع ذلك سيطر على شعور بالضيق .. فقد خطرت فى بالى فكرة .. لماذا لا تكون أقواله حصيلة اتفاق بينه وبين زوجها الأمريكى الثرى ..؟ «فالمستر هاريسون» لا تنقصه الدوافع .. الغيرة .. أو على الأقل الرغبة فى الانتقام من رجل كان يعيش مع زوجته ، وفتحت له فرصة العمل فى شركته .. ولكن ما الذى جعله يوافق على تشغيله اذن؟.. هؤلاء الأجانب يسلكون فى مسائل النساء طرقا غريبة .. لا شرف عندهم، ولا عواطف ، ولا حمية رجال الشرق .. لو تصرفت معى «ليلة» بهذه الطريقة لقتلتها .. فزعت للفكرة .. ما الذى جرى لى هذه الأيام ..؟ أنا المدعى الوطنى العام أفكر فى قتل زوجتى .. أحمد الله أنها كالقطة المغمضة .. لكنها فى الأيام الأخيرة أخذت تتمرد .. حكاية الفوطة هذه .. كلما دارت بى الأفكار عدت الى المرآة اللعينة ، والتراب .. تحسست الجرح على ذقنى .. الدماء جفت .. أخرجت منديلى ، وسكبت عليه قليلا من الماء المعطر ، ومسحت على وجهى ..

أستغرقت فى التحقيق عدة أسابيع .. وفى هذه الفترة اتصل بى «يحيى السعدنى» مرة واحدة ليطمئن على حالى .. لم يقل أى شىء ، ولم يسأل عن القضية .. أستجوبت جميع الشهود الذين قدمتهم ادارة السلام الاجتماعى وكانوا كثيرين .. رئيس مجلس ادارة «شركة طيبة للأدوية» ، ومديرها الادارى ، سكرتيرة «خليل منصور خليل» الأولى والثانية .. وحدة الأمن فى الشركة وبعض الموظفين .. زوجته السابقة «أمينة توفيق» وصديقه «سعيد أبو كرم» والبواب فى العمارة التى كانت تقطنها «روث هاريسون» .. هذا فضلا عن ضباط «ادارة السلام الاجتماعى» الحاليين والسابقين .. فقد أثيرت مسائل تتعلق بالحكم الذى صدر ضده فى قضية ، عرفت اذ ذاك باسم «قضية التحالف الوطنى» .. قدمت تقارير عن نشاطه السابق ، وانتمائه للحزب الاشتراكى .. واتهمه الشهود من الضباط أنه كان من العناصر القيادية المتطرفة ، وعميل معروف «لموسكو» وهكذا ظهر أن اتجاه السلطات المعنية هو أضفاء طابع سياسى على القضية خصوصا وأن الضحية كانت من رعايا الولايات المتحدة ..

لم تكن هذه الزاوية لتقلقنى كثيرا .. ولكن بدا لى أنهم يتصرفون بغباء ورعونة ، ويبالغون فى الأمر الى درجة قد تأتى بنتائج عكسية .. فلم يعد أحد يصدق ما تقوله السلطات الرسمية .. لابد أن أتوقف عن التفكير فى كل هذا وألا أصبت بجلطة دموية .. منذ يومين فقط توفى وكيل «وزارة العدل والقيم والأخلاق» وهو لا يكبرنى بأكثر من ستة شهور .. هذه المحاكمة اللعينة .. لا أريد أن أذهب اليها .. صوت المذيع يأتينى من الحجرة المجاورة .. أقفز من مقعدى .. لابد أن أسرع .. فى الصالة وقفت «ليلى» تصدر للخادمة أوامر اليوم .. أسمعها تقول : «أحضرى معك نصف كيلو من الثوم .. أوعاك من التأخير .. الساعة الآن العاشرة والربع» .. تنظر الى من طرف عينها ، وتسأل : «متى ستعود اليوم..؟» فأجيب بغضب مكتوم أننى لا أعرف بالضبط .. مسألة تتوقف على مزاج

المحكمة.. هذه القضية اذا استمرت هكذا ستقضى على .. أدلف من الباب وأهبط على الدرجات .. المصعد معطل منذ ثلاثة أيام ، ولا أحد يهتم .. أصحاب البيت يسكنون فى الدور الأول .. لماذا تسألنى متى أعود ؟ ظاهرة جديدة لاحظتها فى الفترة الأخيرة .. اختفى الأمان من هذه الدنيا .. لابد أن أشترى نصف كيلو ينسون .. عندما أشربه ترتاح أعصابى ..

آخذ مكانى فى السيارة تنطلق فى هدوء .. السيارة الحكومية نعمة فى هذه الأيام .. و «الحاج أحمد» سائق ممتاز .. مواعيده مضبوطة ، ويمكن الاعتماد عليه فى كل الشئون .. يسرق فى البنزين بطريقة مفضوحة ، ولكن لماذا أهتم ..؟ فالحكومة هى التى تدفع كل الأذون .. لا أحد يسأل .. الفوضى ضربت أطنابها والجميع يستفيدون بأقصى سرعة ممكنة ، وأنا منهم .. يقولون أن هناك تعديلا وزاريا محدودا يلوح فى الأفق .. وأن أسمى قد ذكر لمنصب جديد .. «نائب وزير العدل والقيم والأخلاق» .. لابد أنهم راضون عن جهودى فى هذه القضية .. لم يرتح ضميرى فى كل الأوقات ، وكدت أن أقف معارضا لبعض الجهات .. ولكنى تنازلت وآثرت السكوت .. أحيانا يهيأ الى أن الثمن غالى .. غالى جدا .. وأننى لا أفترق عن أى مجرم .. ولكن عندما أعود الى رشدى أدرك أنه لم يكن أمامى سوى أن أختار السكوت ، وألا ضاعت كل الجهود التى بذلتها حتى وصلت الى المنصب الحالى .. ثم هذا الرجل .. ربما يكون قاتلا بالفعل .. هؤلاء الشيوعيون يجرى العنف فى شرايينهم .. أعداء البشرية ، والدين .. أتنهد بعمق .. أشعر فى هذه اللحظة وكأنى أفلت من الموت .. عندما انتهيت من الشهود تذكرت فجأة أننى نسيت أحد الشهود المهمين للغاية .. رجل يمكن أن يلقى الضوء على نقاط أساسية .. على دخائل العلاقة بين «خليل منصور خليل» ، والقتيلة .. المستر أدوارد. ج. هاريسون» أو «تيدى» كما يطلق عليه أصدقاؤه .. فوجئت بأننى نسيته .. كيف يمكن لمحقق محنك مثلى أن ينسى رجلا كان ينبغى أن يتصدر

قائمة الشهود ..؟ كيف سقط من ذاكرتى ؟ وكيف سقط أيضا من الكشف الذى قدمته الى «ادارة السلام الاجتماعى» ؟ أيمكن أن يكون هم أيضا قد نسوه ..؟ ما هذه الصدفة الغريبة ، وما الذى جعلنى أتغاضى عن استدعائه رغم علمى بوجوده فى «القاهرة» ؟.. لأننى لم أجد اسمه مدرجا فى الكشف فأدركت أن السلطات العليا تريد ألا يقدم من بين الشهود .. أخترت أن أنصاع الى ما يمكن اعتباره توجيها ضمنيا .. ولكن بعد ذلك ما الذى جعلنى أفيق فى هذه اللحظة بالذات ، كمن أستيقظ من النوم ليجد أنه نسى مسألة حيوية تتعلق به .. الخوف ..؟ نعم الخوف من المسئولية .. فربما جاء يوم تتغير فيه الأحوال ، وأجد نفسى فى وضع من يسأل عما فات .. ولا شك أن أول سؤال سيوجه الى هو لماذا لم تستدع «المستر هاريسون» للشهادة ؟ وكيف فاتت عليك هذه المسألة الجوهرية ؟.. رفعت السماعة بيد ترتعش قليلا .. احساس دفين ينبئنى بأننى مقدم على خطوة خطيرة.. على لغم مدفون حرص الجميع حتى اللحظة ، على تفاديه .. طلبت ضابط الاتصال وشرحت له أن من الضرورى استدعاء زوج السيدة «روث هاريسون» للشهادة .. وهو موجود الآن بالقاهرة ويقيم فى الشقة التى كانت تستأجرها ، والكائنة بالعمارة رقم ١٤١ شارع جسر النيل .. سكت برهة ثم قال أنه سيبلغ رئيسه بالمطلوب ، وأغلق الخط .. صعدت فى صدرى موجة من الضيق.. كيف يسمح لنفسه بأن يغلق الخط هكذا فى وجهى أنا المدعى الوطنى العام ..؟ ولكنى تحاملت على نفسى .. هكذا الظروف تجعل الذين لا يساوون شيئا يتحكمون فى ذوى الكفاءات والعقول أمثالى .. بلد أصبح يحكمه المقاولون، وتجار العملة ، وكلاب الصيد .. ربما ينظر الى الناس على أننى منهم ، ولكنى صاحب ضمير ، وكفاءة ، وحاصل على الدكتوراة فى القانون .. أنتظرت بضع أيام دون أن يصلنى رد ، أو يتصل بى أحد .. فاحترت .. أستطيع أن أستدعيه بالطبع، ولكن لا داعى أن أخفى على نفسى حقائق الوضع .. فالأقدام على مثل هذه الخطوة فيه تحد سافر لقوى كبيرة فى بلادنا لها شأن .. ولكن اذا تركونى

هكذا دون رد ، واذا اقتصرت على الاتصالات التليفونية لن أكون قد حميت نفسى من أى احتمالات مستقبلة .. لابد أن أسجل الموضوع كتابة حتى احتفظ لنفسى بوثيقة تثبت أننى سعيت لاستدعاء «المستر هاريسون» حتى يدلى بشهادته .. وفى اليوم التالى أرسلت خطابا سريا مع مخصوص الى السيد «وزير العدل والقيم والأخلاق» .. بعد أن قمت بتصدير الجواب أستولى على قلق عميق، وندم .. ربما كان من الأوفق أن أتصل بالوزير ، وأتحدث معه فى الموضوع قبل أن أقدم على تسجيله فى الكتابات الرسمية .. فأنا معرض أحيانا للحظات من التهور .. كلما مرت السنين أصبحت أكثر ندرة .. ولا أتذكر فى السنين الأخيرة أننى أقدمت على ما يمكن أن يغضب أحد من رؤسائى ، أو من الذين يعتبرون من ذوى النفوذ .. ولكن هذه القضية جعلتنى فى حالة مضطربة .. فيها تعقيدات، وأسرار، ورموز، ومساس بأعلى الجهات فى الدولة .. نعم جنسية «القتيلة» عنصر أساسى، وكذلك الماضى السياسى للمتهم «خليل منصور خليل» .. ولكنى بدأت أشعر أن المسألة أبعد من ذلك .. أن هناك سرا مدفونا لا يريد أحد أن يرفع عنه الغطاء .. جو من الصمت الغريب حول شىء ما .. استشفه بحاسة المحقق القديم ..

أرسلت الخطاب ، وانتظرت حتى نهاية الأسبوع .. قضيت يوم الجمعة فى البيت .. لم أرد حتى أن أذهب مع «ليلى» فى الزيارة الشهرية لأهلها .. تركتها تذهب وحدها ، وجلست على مقعدى فى حجرة المكتب أقرأ وأشاهد برامج التليفزيون .. فتملكتنى راحة لم أشعر بها طوال الأسابيع الماضية .. فهذه الحجرة تذكرنى بالجهد والعمل ، أستغرق فيه فأنسى ما يحيط بى من ظروف .. كنت أظن أنه عندما يصعد الانسان ويصل الى أعلى المراتب ، والى العقود الأخيرة فى العمر أنه سيستمتع بثمار الجهد .. باستقرار فى الحياة ، وبراحة فى البال .. ولكن اتضح لى العكس .. فمنذ أن تبوأت الوظائف العليا زاد على القلق ..

فالصراعات المعقدة لا تترك للانسان فرصة الهدوء ..

فى اليوم التالى ذهبت الى مكتبى كالمعتاد .. عندما وصلت أبلغنى السكرتير أن الدكتور «يحيى السعدنى» يرجو أن أمر عليه بالوزارة فى الساعة الثالثة والنصف .. شىء يجعلنى أشعر أن هذا الاستدعاء المفاجىء يتعلق بالخطاب الذى أرسلته مع مخصوص الى السيد الوزير ، وأن كلمة «يرجو» انما أضافها السكرتير ليخفف من فجاجة الصيغة .. فأنا أعرف «يحيى السعدنى» جيدا .. وأعرف أن تحت السطح المهذب ، والنعومة يوجد جلاد .. وأعرف أيضا الصبى الذى يعمل عنده ، والذى نسيت اسمه الآن .. لابد أنه رفع سماعة التليفون ليتحدث الى.. فلما وجدنى غائبا ترك الرسالة عند السكرتير «فيحيى السعدنى» لا يتصل مباشرة بالناس فى أغلب الأمور .. يتعامل معهم من فوق ، كالأعتاب العالية، والأمراء، والملوك .. كأصحاب الجبروت.. صديقى وزميلى منذ سنين ولكنى أكرهه.. الغضب يعلو فى صدرى ، ويختلط معه الخوف .. ما الذى جعلنى أسعى لتولى هذه القضية ..؟ لقد كان يوم شؤم .. طلبت كوبا من الينسون وابتلعت قرصين من «الفاليوم» فتخدرت أعصابى وبدت الحياة أخف وطأة، ولكنى عجزت عن التركيز طوال اليوم.. فى الساعة الثالثة والثلث كنت جالسا فى حجرة الاستقبال الخارجية المخصصة للضيوف.. كانت الساعة قد اقتربت من الرابعة إلا ربع عندما فتح الباب المفضى إلى مكتب «يحيى السعدنى» فجأة، وظهر الشاب.. وقف يفحصنى لحظة فى برود ثم قال: «تفضل» دخلت: «يحيى السعدنى» جالس خلف مكتبه.. يرتدى قميصا وردى اللون، رفع عنه رباط العنق.. أرى ذراعيه القويتين يغطيهما الشعر الأسود، وأصابعه الغليظة تمسك بالقلم.. استمر فى الكتابة كأنه لم يلحظ وجودى.. فأشار إلى الشاب بالجلوس فى الركن القصى من الحجرة.. أخذت مكانى على مقعد من الجلد الطرى.. أمامى منضدة طويلة، وعلبة سجائر من خشب اللوز منقوشة بالصدف، وطبق فضى فيه

حلويات مستوردة، وجهاز تسجيل أسود صغير.. أحسست بالجوع ولكننى لم أجرؤ على مد يدى لأخذ قطع أو قطعتين من الحلويات لإسكات التقلصات التى شعرت بها فى بطنى..

أخيرا رفع رأسه عن الورق ونظر إلىّ... زجاج العوينات مستدير ترقد فى قاعها العينان ككرتين من الرصاص.. دار حول المكتب، واقترب من مقعدى.. مد يده إلىّ وقال:

«معذرة إن كنت قد تأخرت عليك بعض الوقت.. مسائل مهمة كان لا بد أن انتهى منها..».

تمتمت بعض الكلمات أنفى فيها وجود أى سبب للاعتذار ، وصمتت .. شىء فى الجو ثقيل يضغط على صدرى ، ويجعلنى غير راغب فى الكلام .. يفحص وجهى كمن يبحث عن علامات معينة ثم يفاجئنى بسؤال :

«ألم تدرك عندما أرسلت خطابك الى وزير العدل والقيم والأخلاق تطلب فيه مثول «المستر هاريسون» كشاهد فى التحقيق أن مثل هذا التصرف لا يدل على حسن تقدير للأمور ..؟»

صمتت لحظة قبل أن أرد ..

«كما تعلم يا «يحيى بك» ، أنا رجل قانون .. وهذه ربما تكون أهم قضية أقوم بتحقيقها منذ أن دخلت سلك النيابة والاتهام .. فكيف أترك فيها ثغرة خطيرة قد تؤخذ على فيما بعد ؟ كيف لا أطلب شهادة زوج السيدة «روث هاريسون» الذى يعرف علاقتها بالمتهم ، والذى قابله فى «باريس» معها ، وعينه فى شركته مسئولا عن التسويق فى البلاد العربية ؟..»

«أنا لا أحدثك من زاوية القانون ..»

«ولكن هذه هى مسئوليتى ..» .

«عندما يصل الانسان إلى المستويات العليا تتعدد مسئولياته .. وتتفرع.. أنت لست مساعد وكيل نيابة فى محكمة الجنح .. أنت المدعى الوطنى العام .. مهمتك الأساسية الحفاظ على مصالح الدولة ، وسمعتها ، وعلاقاتها بالأصدقاء.. وأنت تعلم جيدا من هم أصدقاؤها هذه الأيام ..»

«أعلم»

«وتعلم أن «المستر هاريسون» ، وزوجته من رعايا الولايات المتحدة .. بل وأنهما ليسا من رعاياها العاديين .. فهو رجل مرموق فى الأوساط المالية .. وهى أستاذة جليلة ، ولها مكانتها العلمية ..»

«أنا على علم بكل هذا .. ولكن أليس من واجبى أن أتيقن من طبيعة ما حدث فى هذه القضية ..؟ فهناك فارق كبير بين أن تكون قد انتحرت ، وبين أن تكون قد قتلت بيد «خليل منصور خليل» .. وهذا الفارق هو اخلاء سبيله فى الحالة الأولى وارساله الى المشنقة فى الحالة الثانية ..»

«وهل تظن حتى الآن أنه لم يقتلها ..؟»

نظرت اليه باندهاش .. من أين جاء هذا التأكيد بأن «روث هاريسون» قتلت.. أنا أعلم علم اليقين أن هذه هى النتيجة التى يسعى اليها رجال «ادارة السلام الاجتماعى» .. ولكن اذا كان هذا هو اتجاه «يحيى السعدنى» أيضا فمعناه أن المسألة انتقلت الى مستوى آخر فهو المعبر الأمين عن الدائرة الصغيرة التى تتصرف فى مصائر البلاد .

«أنا لم أطلب منك أن تحضر اليوم لتناقش فى دقائق القانون .. فأنا كما تعلم لست رجل قانون .. بل ليس هدفى حتى أن أحاول توجيهك فى شىء .. كل ما أريد أن أفعله هو أن أضعك فى الصورة كاملة .. ثم أتركك لتأخذ قرارك بنفسك.. أنت تعلم بالطبع أن «خليل منصور خليل» قد أشار فى ثلاث مواضع

من التحقيق الى وجود شريطين مسجلين تم تسليمهما ساعة القبض عليه الى رجال «ادارة السلام الاجتماعى ..؟»

هذا الرجل يتحدث عن دقائق التحقيق كأنه اطلع عليها بالتفصيل . فقد أشار «خليل منصور خليل» بالفعل الى الشريطين ثلاث مرات أثناء الادلاء بأقواله .. أهز رأسى فى صمت .. يقوم، ويتوجه الى خزينة صغيرة سوداء اللون داخل الجدار المواجه للباب .. يقف أمامها قليلا .. أرى أصابعه تحرك الشفرة فيفتح الباب بنعومة .. يمد يده ويستخرج شيئا .. يعود الى حيث أجلس على المقعد ، ويضع الشريطين على المنضدة .. ينظر الى ويقول :

«سأسمعك الشريطين .. ولكن حيث أن جلستنا ستطول بعض الوقت دعنى أسألك ماذا تشرب ؟.. عندنا كل شىء ، حتى الويسكى» .. يبتسم

«شكرا .. عصير برتقال .. وفنجان قهوة سادة لو سمحت ..» يضغط على جرس الى جواره ..يدخل فراش يرتدى سترة زرقاء ..

«يا «اسماعيل» .. واحد برتقال ، وواحد مانجو هندى ، واثنين قهوة سادة ، ودورق ماء مثلج بسرعة ..»

افحص الشريطين كمن دعى الى جلسة سحر ، ولا يعرف ماذا يمكن أن يحدث.. قلبى يدق دقات قوية تحت الضلوع .. أدرك انى مقبل على شىء خطير.. يقوم من جلسته ، ويطلب بعض الأرقام فى التليفون . يتحدث بصوت منخفض الى درجة تحول دون أن أسمع ما يقال .. دخل الفراش بالصينية .. حمل الينا منضدة أخرى ووضع فوقها الصينية ثم انسحب ، مغلقا الباب وراءه دون صوت.. يقول :

«والآن نستطيع أن نبدأ ..»

يضع شريطا فى جهاز التسجيل .. يغلقه «تك» .. أكاد انتفض للصوت كأنه

ابرة انغرست فى جسمى .. لاشىء .. ثم صوت رجل يتحدث بالانجليزية وامرأة ترد .. يوقف دوران الجهاز ويعيد الشريط من بدايته ..

«أريد أن تتابع بدقة كل ما ستسمعه على هاتين الشريطين .. الأول حديث بين «المستر هاريسون» وزوجته القتيلة «روث» فى «باريس» .. وقد عرفت هذا من «المستر هاريسون» شخصيا حيث زارنى فى المكتب ، واستمع اليه .. كان يريد أن يأخذه فوعدته باعادته اليه بعد أن ننتهى منه .. والثانى حديث بين «خليل منصور خليل» و «روث هاريسون» باللغة العربية أعتقد أنه تم عشية الحادث .. فيه أشياء كثيرة مشوقة لرجل مثلك مولع بالقضايا ذات الطابع الخاص» .. أدار الجهاز من جديد ، وشحذت نفسى لألتقط كل ما يقال .. لا أعرف كم من الوقت مر ونحن نتتبع الحديث .. دخلت فى عالم آخر .. أجلس على المقعد فى حلم غريب . أسمع صوت «روث هاريسون» يصعد من قبر عميق ، كأنها عادت الى الحياة.. الحجرة التى نجلس فيها تسكنها أشباح .. شىء رهيب ينفذ الى ويفقدنى احساسى بالمكان ، والزمن .. يحولنى الى روح هائمة بلا جسد تملأ الفراغ والأركان .. آلة التسجيل تدور ، وتدور .. وأنا كالزورق الضعيف ينزلق على ظهر الأمواج العاتية .. أنا كالقشة فى الريح .. فاقد الارادة، والعقل .. فاقد الأحاسيس .. ماعدا أذنين نما حجمها ، وأصبحتا جزءا من آلة التسجيل .. تمتصان الكلمات ، وتلقيان بها فى درج سحيق أحمله داخلى .. أغلقه بالسلاسل والمفاتيح ..أنا كالتابوت .. أنا انسان يموت .. أنا انتهيت..

ساد الصمت فى الحجرة .. أجلس كالمغمى على .. أتنفس بصعوبة ، وأعود بالتدريج من عالم آخر .. أضغط على رأسى ، على يدى ، على عظمة الحوض ، فأشعر بالوجود .. ألتفت الى الرجل الجالس أمامى ينظر الى فى برود .. وجهه كالجمجمة تضحك فى سخرية ، ويداه الكبيرتان تمتدان الى عنقى بالتدريج ..

أقوم من جلستى بصعوبة .. أترنح كالرجل العجوز حتى باب الحجرة يفتحه.. أحس بيده الباردة تلتف حول أصابعى كملمس الأفعى .. قبل أن أخطو الى الخارج يوقفنى لحظة ..

«آه .. نسيت أن أقول لك شيئا .. «جعفر» الخادم يعمل معهم منذ سنين .. قبل أن تصل «روث هاريسون» الى «القاهرة» ... سلموه لها كجزء من الترتيبات المعدة حتى يسهلوا عليها القيام بمهامها ..»

أرى جمجمته تبتسم الى من جديد .. أعبر البهو الداخلى لا ألوى على شىء ، كالأعمى يتحسس طريقة فى ضوء النهار ، وكأنه محاط بليل كثيف ..

أنظر من نافذة السيارة .. اقتربنا من باب المحكمة .. نصعد الممر الدائرى ونقف عند أسفل السلم .. يهرول أحد السعاة ، ويفتح الباب ، ويقول بصوت عال «صباح الخير يا سعادة البك» أصعد السلالم بخطوة متأنية .. أشعر بالناس يتوقفون ، وينظرون الى .. ساقى فيهما ضعف متزايد .. أصلب عودى وأصعد.. عند المدخل الكبير المقوس جمع من الصحفيين يثرثرون ، ويضحكون .. عندما اقتربت منهم التفوا حولى .. أشعر فى عيونهم بالاهتمام ، فتعود العزيمة الى ساقى .. يحيوننى فابتسم لهم بهدوء ، وأقول «لا تصريحات اليوم .. المحاكمة تقترب من نهايتها ولابد أن تأخذ العدالة مجراها فى جو هادىء» يحتجون . «أى حاجة يا سعادة البك .. الرأى العام لا يرحم .. يجب أن نستجيب لنبض الجماهير.. الديمقراطية تتطلب ذلك .. ما رأيك . هل تعتقد من اطلاعك الدقيق على تفاصيل القضية ، وخباياها أن «خليل منصور خليل» عميل للسوفييت .. أم بلغاريا .. أم المجر ؟» أفكر لحظة .. أقلب الموضوع فى ذهنى بحرص ثم أقول «إنه عميل للجهات الثلاث ..» يخرجون الأوراق والقلم ويكتبون بسرعة فاستأنف سيرى حتى قاعة المحكمة .

أنا أحب الجلوس على المنصة .. أشعر أننى فوق مستوى البشر . أطل على الجالسين فى القاعة كأنهم حشرات .. أحتل مكانى الطبيعى ، وتختفى عوامل الإزعاج والقلق .. عندما أترافع صوتى يرن فى المحكمة ، وينكمش المتهمون فى القفص .. أحس بنفسى كالفارس يذود عن المجتمع .. كالحارس الأمين على القانون والقيم . هنا فقط فى هذا المكان أزدهر. آخذ حجمى الطبيعى بين الأقزام . فى أول جلسة كنت كالذى يقف على قمة جبل .. ولكن يوما بعد يوم وجدت نفسى أتدحرج . الناس لا يرون ما يحدث داخلى .. فأنا فقط أدرك وأشعر .. وربما «ليلى» .. كانت تنظر الى دائما بمزيج من الخوف والتردد .. أما الآن فقد حل محلها شىء آخر ، لا أستطيع أن أتبينه بالضبط .. كالتساؤل أو الشك ، أو ربما حتى الازدراء .. ومع ذلك لا يوجد مبرر لسلوكها هذا .. فهى لا تعلم أى شىء عن كل ما جرى .. ولكنها فى إحدى الأمسيات ، ونحن نتناول طعام العشاء نظرت الى فجأة ، وقالت : «هذا الرجل الذى يحاكم الآن أهو حقا قاتل ؟» فوجدت نفسى أضطرب ، وأعجز عن الإجابة عليها بالحزم الذى يميز كلامى عندما أتحدث معها .. نطقت بعض الكلمات الغامضة ، وقلت لها أننى لا أحب لزوجتى أن تتدخل فى شئون العمل ، خصوصا وأننى أحتل منصبا حساسا للغاية .. فصمتت... ولكن منذ تلك اللحظة يهيأ الى أن نظرة التردد والخوف اختفت لتحل محلها النظرة الأخرى .. بل يهيأ إلى أيضا أنه بعد ذلك تجرأت ، وعندما أشرت إلى ضرورة إزالة التراب يوميا من المرآة ، سألتنى لماذا لا أمسك بالفوطة لأزيلها بيدى .. الواقع أن قولها هذا حز فى نفسى ، وجعلنى أشعر ، رغم كل المظاهر التى تحيط بى ، ورغم كل السلطات والهيمنة أننى فقدت قيمتى ، والغريب أن نفس هذا الإحساس انتابنى بشكل متزايد كلما انتقلت هذه القضية من مرحلة الى مرحلة .. عندما أجلس فوق المنصة الآن أشعر بجسمى منكمش ، تطاردنى نظرات المتهم .. فيها حزن أحيانا ، وأحيانا تبتسم .. ولكن فى أغلب الأوقات تطل الى

المنصة ، الى القضاة ، والى بالذات بسخرية هادئة .. وفى لحظات قليلة بغضب ، كأنها تقول : أنتم نصابون ، وكذابون ، بل قتلة .. عندئذ أبحث بعينى عن مكان آخر أركز عليه.. أرسم على الورقة أمامى دوائر ، ومربعات، وفى أحد الأيام دون أن أدرى رسمت عليها صورة المشنقة .. تلفتت حولى بسرعة خوفا من أن يكون قد رآها أحد، ثم مزقتها الى قطع صغيرة ووضعتها فى جيب سترتى.. فاصطدمت يدى بكيس صغير من «اللبان الذكر» كنت قد اشتريته منذ يومين «لليلى» ثم نسيت أن أعطيه لها.. ذاكرتى هذه الأيام تتدهور ، وصحتى ليست على ما يرام .. لم أعد حتى أنتصب.. هذه القضية ستصيبنى بأبلغ الضرر.. أتنهد وأنظر حولى.. زوجته «أمينة» تجلس قرب القفص.. رغم كل ما حدث تواظب على حضور جلسات المحكمة.. تتحدث اليه عبر القضبان أثناء الاستراحة، وتحمل اليه وعاءً من العصير المثلج وبعض الحلوة.. امرأة من نوع خاص لم أقابل مثلها فى حياتى المزدحمة بمختلف أنواع البشر.. عندما سألتها فى التحقيق عن رأيها قالت: أى انسان مستهدف فى لحظة الى ارتكاب جريمة قتل حتى انت يا سيادة المدعى الوطنى.. ومع ذلك فاحساسى العميق ، ومعرفتى به تجعلانى أستبعد أنه قتلها ، وأرجح أنها لسبب من الأسباب انتحرت.. » لم أعرف كيف أرد عليها فصمتت.. ربما كانت هذه أول مرة أصمت فيها أمام امرأة.. إنها تتمتع بقوة غير عادية ، واثقة من نفسها ، هادئة.. فيها صرامة تخيفنى.. بل يبدو لى أحيانا أنها ليست امرأة ، وأنها لا يمكن أن تصلح كزوجة لأى رجل عاقل.. ربما لذلك هرب منها الى أحضان امرأة أخرى.. ومع ذلك فى لحظة أحسست فيها بالأنوثة الطاغية ، فنسيت السؤال الذى كنت سأوجهه اليها.. علت شفتيها ابتسامة خفيفة ساخرة سرعان ما اختفت.. فحصت أوراقى ، واستأنفت الأسئلة.. «كنت أحبه ولكننى لم أعد.. فيه انسانية ولا يمكن أن أتخلى عنه فى أزمته.. ثم ابننا «عصام» سيكبر فى يوم من الأيام ويسألنى عما جرى.. ولابد أن أكون مستعدة للاجابة على كل

أسئلته ، أن أساعده على أن يفهم ، وإلا يخجل من أبيه.. أن يسير فى الحياة قوى العقل والبدن ، رافع الرأس.. ألا يتعثر بسبب ما حدث.. »

و «سعيد أبو بكر» يدافع عنه دون أن يدخل فى تفاصيل القضية.. حتى رئيس مجلس الإدارة ، وبعض الذين عملوا معه فى الشركة يتحدثون عن ميزاته كرئيس للعمل.. يقولون أنه كان يعاملهم بطريقة مهذبة ، فيها فهم.. أنظر اليه من طرف عينى.. «أمينة» ترفع ابنها بين ذراعيها.. يمد اليه يده فوق القضبان ، ويضحك. شيء كالسكين المدبب يخترق صدرى.. كيف سأواجه حياتى القادمة بعد أن تكشفت لى الحقيقة البشعة.. يجلس على الدكة الخشبية بين شرطيين.. يخرج من جيبه علبة ويستخرج منها سيجارة رفيعة.. يشعلها من عود ثقاب، وينفث الدخان.. يرفع رأسه ويستدير بجسمه ناحية المنصة.. أرى عينيه تستقران فى عينى.. نظرة طويلة ثابتة فيها اتهام.. نظرة تقول أنت القاتل، وأنا بريء.. كيف ستعيش بعد اليوم؟ كيف ستنام..؟

* * *

جلست فى الحديقة استنشق نسيم الصباح..«عصام» يلعب تحت تكعيبة العنب.. يسكب الماء من أناء للرى، ويصنع كورا صغيرة من الطين، ثم يضعها تجف فى الشمس.. أنه يملأ البيت بالمرح والحياة.. لكن فى بعض الأوقات أشعر بالوحدة تزحف على عندما أنتهى من عملى فى المرسم، واستعد للنوم.. فى هذه الفترة يحلو الحديث مع شخص قريب الى قلب الانسان.. أنا لم أفكر فى الزواج من جديد.. فكيف ألتقى بالرجل الذى أستطيع أن أحبه، وأبنى معه حياة جديدة.. مرت الشهور وبالتدريج أصبح «خليل» بالنسبة الى مجرد ذكرى جميلة فى بعض الأيام، وفى أيام أخرى ذكرى مريرة.. ولكنه أصبح ذكرى على أية حال.. وقد لعبت أنا دورا واعيا فى ذلك.. فأنا أريد أن أعيش بكل كيانى، وليس بجزء منه.. أحزننى غيابه عنى خصوصا فى المراحل الأولى، ولكنى اكتشفت بعد حين أن وضعى أفضل بكثير من كل النساء اللاتى نشأت بينى وبينهن علاقة أو معرفة أو صداقة، وقد زاد عددهن عندما أصبحت وحدى فى البيت.. فأنا أحيا وحدى، هذا صحيح، ولكنى حرة أفعل بحياتى ما أريد.. أما هن فأغلبهن متزوجات، ومع ذلك تطاردهن التعاسة فى حياتهن الزوجية. فى هذه الفترة بالذات أدركت مدى المشاكل التى تعانى منها النساء. نشأت بينى وبين صديقاتى رابطة من نوع خاص، وأصبحنا نتبادل الأفكار، وتجارب الحياة، وكل ما يخطر على بالنا

بصراحة.. هكذا تفتحت عيونى على كثير من الأشياء جعلتنى أحس أنه لا داعى للاستعجال فى موضوع الزواج.. أن الأفضل بكثير هى الصداقات التى أحدد فيها أنا الحدود والمجالات.. هكذا بسرعة خلقت لنفسى توازنا جديدا فى الحياة ، وأخذت أتطلع مرة أخرى الى المستقبل بثبات..

عندما نشرت الصحف قصة «خليل» مع «روث هاريسون» أصابتنى صدمة عنيفة.. فلم أكن أتصور أن المسائل ستصل الى هذا الحد. عادت الى كل الذكريات الأليمة.. أنه لا يريد أن يتركنى لحالى. يضيف الى الطعنة القديمة طعنات.. عندما أسير فى شوارع الضاحية أقرأ فى عيون النساء رسالة فيها فهم وتعاطف.. أما الرجال فأشعر فى نظراتهم بنوع من التشفى.. كأننى أنا المذنبة لأننى صممت على الطلاق منه.. كرهت كل هذا الجو، وكرهت «خليل» أيضا.. وصرت أفكر كثيرا فى الطفل «عصام» وما عساه أن يعانية عندما يكبر.. ولكن بعد أن مرت الأيام، والأسابيع، ولاحظت الحملة التى شنت عليه، وما يصبونها على رأسه من افتراءات، وأكاذيب أستبد بى الغضب.. وبدأت أحس أنهم يعدون له مصيدة.. أن مؤامرة ما تحاك ضده.. فأنا خير من يعلم مدى الكذب فى كثير مما قالوه عنه.. ورغم الأدلة، والقرائن التى ساقوها ، كنت موقنة أنه لم يرتكب جريمة.. أعرف ضعفه، ونزواته جيدا.. وأعرف أنه فى ظروف معينة قد ينقلب أى انسان الى قاتل.. ومع ذلك شىء فى داخلى يصر أنه فى هذه القضية برىء.. وأن «روث هاريسون» هى التى أنهت حياتها بيدها..

عندما وصلت الى هذه النتيجة أدركت أنه يجب على أن أقف الى جانبه، وأن أتغاضى عن اساءاته الى فى الماضى.. ثم هناك «عصام».. ولابد أن أبذل أقصى جهود ممكنه حتى لا يعانى عندما يكبر مما حدث لأبيه.. فاذا اتضحت الحقيقة، وبرىء من التهم الموجهة اليه زالت المشكلة.. واذا حدث العكس، وهذا الاحتمال أخذ يقوى فى ذهنى مع الأيام، سيتيح لى وجودى بالقرب منه أن احكى

«لعصام» فيما بعد ما سيحتاج الى سماعه منى..

هكذا أخذت أتردد على المحكمة.. فى بعض الأيام أذهب وحدى.. وفى أيام أخرى أحضر معى «عصام».. لم يطلب منى «خليل» ذلك، ولكننى أدركت أنه يتمنى أن يراه.. ولما سألته فيما بعد لماذا لم يبد رغبته نظر الى بهدوء وقال: «لا أعرف بالضبط.. ربما أشعر أنه لم يعد من حقى أن أطلب أى شىء منك.. أو ربما..» أراه يتردد لحظة.. «أصبحت كالقشة التى تتقاذفها الرياح، كالانسان المسلوب الارادة.. وهذا الاحساس يفقدنى القدرة على الفعل، أو حتى على طلب أبسط الأشياء لنفسى.. ربما يكون اليأس.. وربما يكون ارتفاعا فوق الأمور.. وكما تعلمين».. يبتسم.. «عندما تصل الأضداد الى مداها تلتقى لتصبح شيئا واحدا..»

عندما أحاول أن أتذكر تفاصيل ما دار فى الجلسات.. أو استرجاع منظر القضاة، والمحامين، والشهود، والجالسين فى القاعة، بل و «خليل» نفسه، أعجز عن ذلك. كل ما حدث يبدو حلما بعيدا طمست تفاصيله، كأن عقلى الظاهر والباطن رفضا أن يختزنا ما حدث حتى لا يؤرقنى بعد أن ينزل الستار عليه.. فلا تبرز فيه سوى أجزاء خاصة، وصور معينة، كأنه سلط عليها فجأة ضوء قوى فبدد ما حولها من ظلام. أراه وهو يجلس على دكة خشبية بين اثنين من رجال البوليس يرتديان الثياب السوداء.. يبدو فى بعض الأحيان محنيا كأنه يحمل على كتفيه هموم العالم كله.. كأن كل شىء فى الوجود تخلى عنه وتركه، فأصبح يواجه المصير وحده.. وفى أوقات أخرى أراه يقف منتصبا فى القفص متخلصا من كل الأثقال.. فيه كبرياء.. يسدد كلماته الى الصدور فتنفذ كالسهام.. أنظر الى الوجوه على المنصة تبدو لى شاحبة، وعلى الأخص وجه المدعى الوطنى العام.. كالجثة تفقد دماءها قبل أن تموت.. ألمح حبات العرق على الجباه والأنوف.. أسمع صوته يتردد فى القاعة محاطا بالصمت فأشعر أن المسألة بالنسبة اليه لم تعد هو

أو «روث هاريسون» أو «يحيى السعدنى». أو الأجهزة والبوليس، والقضاة، وأنما نظام بأكمله ينبغى أن يزول.. وفى لحظة يعود الى «خليل» القديم الذى عرفته، وأحببته، وأشعر بقلبى ينتفض، وينمو تحت الضلوع.. يصر فى كل لحظة أنه برىء.. أن «روث هاريسون» انتحرت.. وإن عند القاء القبض عليه كان فى حوزته شريطان مسجلان فيهما الدليل القاطع على ما يقول.. أن رجال ادارة السلام الاجتماعى أخفوا الشريطين، ولم يقدموهما ضمن احراز القضية حتى يلصقوا به تهمة قتل «روث هاريسون».. يبدو واثقا من نفسه، مقتنعا بما يقول.. عندما يسألونه وما الدافع الى ذلك يرد.. «حتى يحموا الشبكة التى ينتمى اليها المستر «ادوارد. ج. هاريسون». وزوجته «روث» والخادم «جعفر النمر..»»

أقوم من مقعدى، واقترب من «عصام».. أمد اليه يدى فيمسك بها.. يمشى بخطوات مترنحة.. يرفع وجهه الى، ويبتسم ابتسامة فيها مسحة من أبيه.. ترى ما الذى سيورثه منه؟ الأفضل ألا يورث منه شيئا.. فالوراثة غير مضمونة.. قد يرث جينات ضارة.. أتطلع الى وجهه الصغير، وأحاول أن أنفذ تحت البشرة الصافية.. طفل جميل، الله يحميه.. أتمتم الكلمتين فى صوت خفيض كالتعويذة، أو الطلسم الذى يحمى من الشر والغيرة.. قلب الأم فى لحظة الخوف يعود الى الماضى السحيق.. أرفعه بين ذراعى.. أحتضنه، وأطبع على خده قبلة طويلة..

يقف فى القفص، ويرفع يده فى الهواء فيتجاهلونه.. يصرخ بأعلى صوته «أريد أن أتكلم.. السيد المدعى يطلب الحكم على بالأعدام، وأنا أسأله.. لماذا لم يطلب سماع شهادة «المستر هاريسون»، زوج السيدة «روث»، والرجل الذى قام بتعيينى فى الشركة العالمية لتجارة الدواء..» ينكمش المدعى فى مقعده ويتضاءل كالجرذ الصغير.. يحملق ناحية القفص فى فزع.. يقف.. وفى صوت يكاد لا يسمع يقول.. «قمنا باستدعائه عندما حضر إلى مصر، ولكنه سافر دون أن يلبى الطلب.. وقد أرسلنا خطابا إلى سفارة بلاده نطلب منها ابلاغه بضرورة

الحضور للادلاء بأقواله ولكن لم يصلنا منها رد..»

«والأستاذ الدكتور «يحيى السعدنى» رئيس الوحدة الخاصة فى وزارة شئون الأمن القومى طلبت حضوره كشاهد نفى.. لماذا لم تستدعه المحكمة..؟»

أسمع ضجة فى الصالة.. رئيس المحكمة يدق بمطرقته على ظهر المنصة، ويوجه انظار الحاضرين إلى ضرورة التزام الهدوء، وإلا أضطر إلى اخلاء القاعة فورا.. ينتظر حتى يسود الصمت ثم يقول:

«سبق أن رفضت المحكمة طلب الدفاع باستدعاء الدكتور يحيى السعدنى كبير مستشارى «وزارة شئون الأمن القومى».. فقد دأب المتهم على اختلاق قصص خيالية يريد بها أن يصور الأمر على أن أجهزة السلام الاجتماعى تسعى إلى التضحية به للحفاظ على أسرار شبكة من شبكات المخابرات الأمريكية.. وأن «الدكتور يحيى السعدنى» على علم بكل تفاصيل هذا الموضوع.. وحيث أنه لم يستطع أن يقدم دليلا واحدا على صحة ما يقول فقد قررت المحكمة رفض هذا الطلب.. وهى تلفت نظر المتهم إلى ضرورة المثول لهذا القرار، وعدم العودة اليه..»

أرهف السمع لألتقط ما يقال.. يصعب على تتبع ما يدور.. فأحيانا يتكلمون بصوت منخفض، أو تحدث ضجة يضيع وسطها الكلام.. وعندما يتحدث «خليل» فى أى موضوع يقاطعونه باستمرار، كأنهم لا يريدون أن يتيحوا له فرصة التوضيح.. يقطعون عليه الطريق، ويحاصرونه كالحيوان الجريح.. أنظر حولى إلى الوجوه.. إلى المنصة العالية، والأرواب السوداء، والعوينات تبرق فى الضوء.. إلى السقف المرتفع فى شكل قبة مستديرة.. أحس بالشبكة تلتف حول الرجل الجالس على الدكة الخشبية.. يستخرج من العلبة سيجارته الرفيعة.. يشعلها بعود ثقاب.. ينفث الدخان فى هدوء ويبتسم الى..

أخيرا جاء اليوم المحدد لصدور الحكم.. مر على «سعيد» وذهبنا إلى المحكمة

سويا.. فتحت الأبواب الساعة التاسعة صباحا.. دخلنا وجلسنا على المقاعد الخشبية إلى جوار القفص.. فى الساعة التاسعة والنصف أحسست بحركة غير عادية.. كتلة من الضباط والعسكر يدخلون فى القاعة من باب جانبى، ويتجهون بسرعة نحو المكان الذى نجلس فيه.. لمحت «خليل» يسير بينهم.. أدخلوه فى القفص.. اقترب أحد الضباط، وطلب منا أن نتزحزح قليلا.. «خليل» ينظر الينا من خلال القضبان.. كنت قد أحضرت معى قهوة مثلجة وضعتها فى «ترمس».. ولكن عندما سكبت قليلا منها فى الكوب، وهممت الاقتراب منه، نهرنى الضابط بغلظة، وأفهمنى أن الاتصال بالمتهم ممنوع فظللنا طوال الوقت ننظر اليه فى صمت.. بين الحين والحين يبتسم الينا، فأرد الابتسام.. الضابط يتتبع كل حركاتنا عن كثب، فشعرت بالتوتر، والأحباط، وكدت أن أشتبك معه فى مشادة، لولا تدخل «سعيد» فى الموضوع.. همس فى أذنى.. «لا فائدة من ذلك.. فاليوم كل الأعصاب مشدودة.. وإذا حصلت مشادة لن تكسبى من ورائها شيئا سوى مزيد من الضيق «لخليل» ولنا.» ظللت صامتة أحملق ناحية القفص إلى أن سمعت الحاجب يدق على الأرض بعصاته الطويلة، ويصرخ بصوته الجهورى «محكمة»..

جلس القضاة على المنصة، ونظروا حولهم.. وأخذ المدعى المكان المخصص له على مسافة منهم.. كانت القاعة شبه خالية، لا يوجد فيها سوى جمع صغير من المحامين، وعدد من الصحفيين، وبعض المشاهدين الذين حرصوا على تتبع المحاكمة.. وضع رئيس المحكمة ملفا أمامه، وأخذ يقرأ منه بصوت رتيب، لم أستطع أن ألتقط منه شيئا.. ظل يقرأ مدة بدت لى طويلة، ثم توقف فجأة.. اقترب منه الحاجب وسحب مقعده إلى الوراء، فوقف... ترك المنصة بخطوات سريعة وتبعه باقى أعضاء المحكمة، ومن ورائهم المدعى.. تلفتت حولى غير مدركة ما حدث.. فوجدت الضابط الذى كان يجلس إلى جوارنا متجها إلى القفص.. قام «خليل» من جلسته.. لمحت وجهه الأبيض وسط البذات السود.. ثم

أختفى.. خرجوا بسرعة من الباب الجانبى كأنهم يختطفونه قبل أن يفيق.. نظرت إلى «سعيد».. بشرته السمراء تحولت فجأة إلى لون الرماد.. سألته: «ما الذى حدث»؟ فلم يجب على.. رأيت شفتيه تتحركان فى صمت، فاعدت عليه السؤال.. جاءتنى كلمة واحدة همس بها فلم أسمعها. قلت بلهجة غاضبة.. «ماذا تقول؟».. نظر الى فى يأس، ونطق الكلمة بوضوح «الاعدام».. دارت المقاعد حولى دورة واحدة سريعة، وبعد ذلك غبت عن الوجود..

«عصام» يقف بعيدا فى ركن من الحديقة، وينظر الى بثبات.. يضع يده على بطنه فألمح سرواله المبتل.. يبتسم لى فى سعادة كأنه أتى ما لم يؤته غيره.. أجرى ناحيته، واختطفه بحركة سريعة.. أضمه بين ذراعى كأننى أخشى أن يضيع.. أرفعه فى الهواء فوق رأسى وأنظر اليه.. أسمع ضحكاته الصافية تنسكب كالشلال.. تطل علينا «محاسن» من نافذتها المفتوحة.. أسمع صوتها القوى يصل إلى عبر المسافة.. «صباح الخير»، فألوح لها بيدى.. أعود إلى المقعد، وأمد ساقى فى الشمس..

مرت الشهور الطويلة فى إجراءات النقض.. أزوره بين الحين والآخر.. أحمل اليه بعض المأكولات التى أعدها له فى البيت. أذهب وحدى فى أغلب الزيارات، وأحيانا يأتى معى «سعيد».. نتحدث فى كل شىء بهدوء.. تذكرنى جلساتنا بأمسيات كنا نقضيها سويا فى الصيف.. كتبت الصحف تقول أن النقض لم يقبل، وأن أوراقه حولت إلى مفتى الديار للتصديق على الحكم.. ونشرت إحدى المجلات الأسبوعية أن مدير السجن أقترح عليه أن يكتب التماسا إلى رئيس الدولة فرفض.. بعد ذلك عندما زرته تركونى مدة أطول من المعتاد.. وعاملنى الضابط المسئول برقة نادرة.. أدركت أن النهاية تقترب.. حلقوا له شعره بالموسى.. يرفع الطاقية الزرقاء من على رأسه ويمسح بيده على النبت القصير من الشعر.. عندما رأيته ورأسه محلوقة انقبض قلبى، وكدت أن أبكى.. عيناه هذه المرة فيها حزن..

حزن ثابت مستقر، لا يزيد، ولا ينقص.. تحدث معى طويلا فى ظروف القضية.. شرح لى ما حدث بالتفصيل منذ أن اتفقنا على الطلاق.. ظللت أستمع اليه كأننى فى حلم.. الكلمات تخرج من فمه بوضوح، كنقاط المياه تسقط من الصنبور فى بطء.. امتصها الواحدة بعد الأخرى.. تدخل من أذنى وتتدحرج حتى تصل إلى مكان عميق، وتستقر هناك.. مهما طال الزمن لن تضيع، ولا يمكن أن أنساها.. سأحتفظ بها إلى يوم أصرخ فيه بالحقيقة كلها.. أصرخ فيه من أعلى سطح فى المدينة، سأقاوم الأيام والليالى، والشهور والسنين حتى أعيش.. وقبل أن أموت سأبحث عن وسيلة حتى يتكفل غيرى بما عجزت عن تنفيذه.. لا بد أن تنكشف الجريمة.. وأن يقدم مرتكبوها للحساب.. السكوت على الجريمة قد يقصر أو يطول.. ولكن يجىء اليوم الذى يقف فيه الناس.. يرفعون القامات والرؤوس.. وينفضون عن أنفسهم الذل.

أراه أمامى الآن يحكى القصة فى هدوء.. أسمعه يقول: «يا» «أمينة» اعتذر لك عما فات، وأقول أن قلبى يحمل لك كل التقدير، والحب.. لا أريد أن أقول أنه المصير، فأنا أرى أن الإنسان مسئول.. ولكنى عرفت الآن أن فى بلد يتحكم فيه الظلم لا يوجد أمان لأحد حتى إذا أنزوى فى ركن حتى إذا قبل الذل.. شىء واحد فقط يقلقنى الآن هو كيف أواجه الموت.. أحيانا أشعر أننى أصبحت فوق مستوى الأمور، أستطيع أن أتحمل أبشع الأشياء بمنتهى الهدوء.. وأحيانا يتمكلنى الرعب.. أرى الحبال تلتف حولى كالثعابين السود.. وأريد أن أصرخ بأعلى صوتى. «يا ناس، أنا برىء.. لست أنا الذى أرتكبت الجرم.. وإنما أولئك الذين أصدروا على الحكم».. »

أنظر فى عينيه تسبح فيهما سحابة سوداء.. أشعر بجسمى يرتعد كأنى جالسه على لوح من الثلج.. «عصام» يمد يده الى ويقول «بونبون».. يفتح العلبة «الكارتون» ويستخرج منها واحدة.. ينزع منها الورقة الملونة، ويضعها فى الكف

الصغير.. أنظر فى عينى «خليل» وألمح فيهما صفاءً غريبا.

ترى ماذا يفعل الآن فى زنزانته؟.. يعد الساعات والأيام.. يتتبع على الجدران زحف أشعات الشمس والظلال.. يخشى مرور الزمن.. يريد أن يمسكه بيديه، ويوقفه عن السير.. يحب الليل الطويل ويخافه.. ويملأه الفجر بالرعب.

أتلفت حول الحديقة.. الزهور تهتز فى الريح عند السور.. البازلاء.. وفوق الشرفة يصعد الياسمين.. كان يحب رائحة الزهور والسهر فى أمسيات الصيف.. الساعة قاربت على الظهر.. لا بد أن أعد الطعام بسرعة.. فاليوم سيحضر «سعيد» و «علية».. أصدقائى يزورونى عادة يوم الجمعة.. ولكن لا يوجد من هم أقرب الى منهما.. أحس فيهما بالبساطة والوفاء.. أستطيع أن أكون على طبيعتى.. أن أصمت أو أتكلم، أو أغنى، أو أرقص.. فيهما مرح يعطى للحياة طعمها.. لا أحب الحزانى حتى ولو كانوا منشغلين بأعظم القضايا.. أمد يدى إلى «عصام» لندخل إلى البيت.. أسمع صوتا ينادينى «أمينة».. «أمينة» أرفع رأسى، وألتفت اليه.. يقفان عند السور وينظران الى. شىء فى وجهيهما يستوقفنى.. شىء كالجمود، والخوف، وعدم التصديق.. أتقدم نحو الباب الحديدى الصغير، وأفتحه فيدخلان.. «سعيد» يتفرس فى وجهى.. أقول:

«سعيد» أخبرنى.. ما الذى حدث..؟»

يمد الى يده بالجريدة، ويشير إلى العناوين الحمراء فى الصفحة الأولى. أقرأ.. «قضية «روث هاريسون» الأمريكية.. اعدام «خليل منصور خليل» فجر اليوم القاتل يقول: أنا برىء.. أنا ضحية الأجهزة والمخابرات الأمريكية..»

أفتح أصابعى فتقع الجريدة على الأرض.. تنحنى «علية» وتلتقطها.. تضع ذراعها فى ذراعى، وندلف من باب البيت سويا.. أقف فى الصالة حائرة، تنحدر من عينى الدموع.. أبكى طويلا.. وبين الدموع ألمح الوجوه تنظر الىّ..

عند آخر النهار جلسنا فى الحديقة.. الشمس تسقط عند الأفق والنسيم يهز

أحواض الفجل، والجرجير.. يخيم على الضاحية ذلك السكون الذى يميز نهاية يوم الجمعة.. كأن الناس يستريحون استعدادا للأسبوع الجديد، أو يتأملون أحداث الأيام الماضية.. ساعات انتقال بين النهار والليل.. بين الزيارات، والأحاديث، وبين الاعداد لطعام العشاء، ونوم الأطفال.. ساعات فيها سلام، واستسلام، وحزن.. نتطلع إلى قرص الشمس.. كرة دائرية من اللهب الهادىء يتقلص ببطء.. تصبح نقطة مضيئة تكاد لا تراها العين.. ثم لا شىء.. يزحف الظلام بسرعة.. اسمع «سعيد» يقول:

«يا «أمينة».. لا بد أن نقوم عندنا موعد..»

أنا كالعائدة من سفر طويل، أتنبه..

«الن تبيتا معى الليلة؟»

أراهما يترددان.. ثم أسمع صوته مرة أخرى فى السكون..

«عندنا اجتماع الليلة.. «علية» وأنا.. عندما أرسلوا أوراقه إلى مفتى الديار.. فى نفس اليوم.. ذهبت مع «علية» وطلبت الانضمام للحزب..»

أصطحبهما حتى الباب.. «علية» ترفع «عصام» عاليا بين ذراعيها.. يطل علينا بوجهه المشرق.. تنظر الى وتقول:

«طفل جميل.. مثل أبويه..»

يسيران فوق الطريق.. عند المنحنى ترفع يدها فى الهواء..أسنانه البيضاء تومض فى الليل.. ألوح إليهما، وأنتظر حتى يختفيان.. أظل واقفة فى الظلام.. ألتفت إلى «عصام» يمشى إلى جوارى بخطوات زاد ثباتها فوق الأرض.. ندلف من الباب، وندخل الى البيت..

* * *

٢١ مايو سنة ١٩٨١





«خليل منصور خليل» يخرج من السجن ليواجه الحياة فى مرحلة ضاعت فيها معالم المجتمع الذى كان يعرفه، وانهارت فيها كثير من الأفكار والقيم التى كان مقتنعا بها..

يلتقى بالرسامة «أمينة توفيق» فى قطار حلوان وهما ذاهبان الى العمل ... بعد لقاءات متكررة تنشأ بينهما علاقة حب قوية، ويتزوجان .. ولكن خليل منصور خليل يؤرقه الصراع بين اشياء كان يؤمن بها، ويعمل من أجلها، وبين الخوف من ان يقع مرة اخرى فريسة للاضطهاد اذا ما شارك فى المعارك الدائرة حوله.. ولكنه يجد نفسه بعد قليل فى قلب احدى هذه المعارك .. مما يؤدى الى فصله من العمل.

وفى هذه الفترة الحرجة المليئة باليأس يتعرف بامرأة اجنبية شابة وينجذب اليها وتنشأ بينهما علاقة عشق يعجز عن مقاومتها .. فيتضح فيما بعد انها تعمل فى شبكة غامضة لها علاقة بأعمال الجاسوسية ..

الرواية تبدأ وهذه الشابة الأجنبية التى تدعى «روث هايسون» توجد قتيلة فى فراشها ... ويتهم «خليل منصور خليل» بقتلها .. ثم تقودنا الى معرفة عديد من الشخصيات فى المجتمع تربط بينها احداث «الشبكة».

قصة سياسية نفسية عميقة تحكى على لسان ثلاثة من الابطال هم «خليل منصور خليل» وزوجته «أمينة توفيق»، وصديقهما «سعيد ابو كرم» الذى يعمل فى شركة طبية للادوية، وهى الشركة نفسها التى عين فيها «خليل منصور خليل» بعد الافراج عنه من السجن .. يتعمق الكاتب اثناءها فى اغوار الشخصيات المختلفة ليكشف عن «شبكة» العلاقات والدوافع، والمؤثرات الاجتماعية، والفردية التى تقود البطل الى حتفه .. وتشرح الحياة التى نعيشها بمشرط حاد كالموس فيه قسوة الحقيقة، ورقة الانسان عندما يحلم، ويقع ضحية أحلامه.

